الكتاب: حياة الإمام الحسين (ع)
المؤلف: الشيخ باقر شريف القرشي
الجزء: ٢
الوفاة: معاصر
المجموعة: مصادر سيرة النبي والائمة
تحقيق:
الطبعة: الأولى
سنة الطبع: ١٣٩٥ - ١٩٧٥ م
المطبعة: مطبعة الآداب - النجف الأشرف
الناشر:
ردمك:
ملاحظات:

حياة الإمام الحسين بن علي عليهما السلام
دراسة وتحليل
- ٢ -
باقر شريف القرشي

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى
١٣٩٥ ه - ١٩٧٥ م
مطبعة الآداب - النجف الأشرف

باقر شريف القرشي
حياة
الإمام الحسين بن علي عليهما السلام
دراسة وتحليل
الجزء الثاني
مطبعة الآداب – النجف الأشرف

من مبرات المغفور له الحاج محمد جواد عجينة

بسم الله الرحمن الرحيم
ولا تحسين الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل
أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم
الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا
بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم
يحزنون * يستبشرون بنعمة من الله
وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين *
أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة
وأولئك هم المهتدون
القران الكريم

المقدمة

- ١ -

وأثرت الاحداث الرهيبة التي عاصرها الإمام الحسين (ع) تأثيرا هائلا في تغيير مناهج الحياة الفكرية والاجتماعية في الاسلام، كما لعبت دورها الخطير على مسرح الحياة السياسية على امتداد التاريخ، وكان من أبرز نتائج تلك الاحداث التناحر على السلطة، والتنافس على الحكم، والصراع على الظفر بخيرات البلاد.

وكان من الطبيعي ان يحدث ذلك الصراع السياسي بأقسى صوره، وأبشع ألوانه، وان يحتدم الجدال كأشد وأعنف ما يكون الجدال فقد سحرت عيون الكثيرين من الصحابة والتابعين ما رأوه من ألوان الترف، وخفض العيش ورقته، وما شاهدوه من جلال الملك الذي أزالوه من فارس، وما احتلوه من بلاد الروم، وهالتهم الفتوحات التي تقوم بها الجيوش الاسلامية، وما يفتح الله على أيديهم، وما يجلبونه من البلاد المحتلة من الرقيق، وسائر الأموال التي لم يكونوا يحملون بالنظر إليها، كل ذلك دفعهم إلى التهالك على السلطة، وفتنهم عن دينهم.

واستشف الرسول الأعظم (ص) من وراء الغيب ما تبلغه أمته من المجد والسيادة على جميع شعوب الأرض، وسقوط الدول الكبرى تحت

وطأة الزحف الاسلامي المقدس، فادع ذلك بين المسلمين وآمنوا به كجزء من عقيدتهم، كما استشف النبي (ص) من وراء الغيب ما تمنى به أمته من الفتنة والفرقة فاحتاط لها كاشد ما يكون الاحتياط فوضع لها رصيدا يحسم كل داء، ويقضي على كل خلاف فدلل على امامة العترة الطاهرة من أهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، ولم يكن بذلك مدفوعا بدافع العاطفة أو الحب فان شان النبوة أسمى من أن يخضع لأي عامل من عوامل الحب أو غيره من الاعتبارات المادية.

وبلغت أحاديث الرسول (ص) في فضل عترته حد التواتر، ولم يتطرق إليها الريب والشك عند أحد من المسلمين، فقد قرنهم بمحكم التنزيل – الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه – وجعلهم سفن النجاة وأمن العباد، وأما سيد العترة الامام أمير المؤمنين (ع) فإنه – حسب النصوص النبوية – أخو النبي ونفسه، وباب مدينة علمه، واقضى أمته، وانه منه بمنزلة هارون من موسى، ومن كنت مولاه فهذا علي مولاه...

ولكن القوم كرهوا اجتماع النبوة والخلافة في بيت واحد فتأولوا النصوص وزووا الخلافة عن أهل بيت النبوة، ومعدن الحكمة، ومهبط الوحي، وحرموا الأمة من التمتع بظلال حكمهم الهادف إلى نشر عدالة السماء في الأرض.

وأدت عملية الفصل إلى التطاحن الفظيع على كراسي الحكم بين الأسر البارزة في الاسلام، فمنيت الأمة من جراء ذلك بالكوارث والخطوب التي أحالت الحياة في تلك العصور إلى جحيم لا يطاق، فقد كان حكم النطع والسيف هو السائد بين الناس.

- ٢ -

وظهر الصراع السياسي بأبشع ألوانه حينما استولى الامام أمير المؤمنين عليه السلام على زمام السلطة في البلاد، فقد تحركت القوى الطامعة في الحكم وهي تعلن العصيان المسلح محاولة بذلك اسقاط حكومته التي احتضنت مصالح الشعوب الاسلامية، وتبنت حقوق الانسان وراحت تؤسس معالم العدل والحق، وتدك حصون الظلم، وتنسف قلاع الباطل، وترفع منار الكرامة الانسانية، وتقضي على جميع أسباب التخلف والفساد التي تركها الحكم المباد.

لقد أوجد الامام انقلابا جذريا، وتحولا اجتماعيا في الميادين السياسية والفكرية والاقتصادية، التي كان منها العدالة في التوزيع، وإلغاء الامتيازات التي منحتها حكومة عثمان لبني أمية وآل أبي معيط، ومصادرة الأموال التي اختلسوها بغير حق وعزل الولاة وسائر الموظفين الذين اتخذوا الحكم وسيلة للاثراء والاستعلاء على الناس بغير حق.

وقد أدت التغييرات الاجتماعية التي أوجدتها حكومة الامام إلى زيادة الأزمات النفسية في نفوس القرشيين وغيرهم من الحاقدين على الاصلاح الاجتماعي، فأيقنوا أن حكومة الامام ستدمر مصالحهم الاقتصادية وغيرها، فهبوا متضامنين إلى اعلان المعارضة، ومن المؤسف - حقا - أن تضم المعارضة بعض أعلام الصحابة كطلحة والزبير، وأن يكون العضو البارز فيها السيدة عائشة زوج النبي (ص) ومن المؤكد أنه لم تكن للمعارضين أية أهداف اجتماعية أو اصلاحية، وإنما دفعتهم الأنانية والأطماع حسب التصريحات التي أدلوا بها في كثير من المناسبات، وقد كان في طليعة القوى المتآمرة على الامام الحزب الأموي فقد سخر جميع أرصدته المالية التي حصل

عليها أيام حكومة عثمان، فجعلها تحت تصرف المعارضين فاشتروا جميع أدوات الحرب ووهبوا الكثير من الأموال للمرتزقة وقد اندلعت بذلك نار الحرب التي أسماها بعض المؤرخين بحرب الجمل، وقد أسرع الامام إليها فأخمد نارها، وقضى على معالمها، إلا انها أسفرت عن أفدح الخسائر التي مني بها المسلمون، فقد فتحت باب الحرب بين المسلمين، ومهدت الطريق إلى معاوية أن يعلن تمرده على الامام، ويناجزه أعنف الحروب، وأشدها ضراوة.

وأخذت الاحداث الجسام يتصل بعضها ببعض، ويتفرغ بعضها على بعض حتى انتهت بمقتل الامام أمير المؤمنين، وخذلان ولده الحسن وانتصار القوى الحاقدة على الاسلام، ويعرض هذا الكتاب إلى تفصيل ذلك بصورة موضوعية بما لا تحيز فيه.

- ٣ -

ونجحت الأموية بأساليبها الماكرة، وبما استخدمته من وسائل دبلوماسيتها الغادرة في الاستيلاء على السلطة في البلاد، وظهرت على الصعيد الاسلامي دولة الأمويين بقيادة زعيمهم معاوية بن أبي سفيان القائد الأول لجميع عمليات الحروب التي ناهضت الاسلام حينما فجر المعلم والقائد الرسول (ص) دعوته الخلافة الهادفة لتطوير الوعي الاجتماعي، وتأسيس مجتمع يقوم على العدل والمساواة.

ووقعت الأمة فريسة تحت أنياب الأمويين، واستسلمت لحكم إرهابي عنيف تتصاعد فيه الأحقاد والأضغان على قيم الأمة ومكوناتها الفكرية

والاجتماعية، وإزالة ما حققه الاسلام من المكاسب على الصعيد الاقتصادي والسياسي والتربوي.
واتجهت السياسية الأموية تضع المخططات الرهيبة للقضاء على مقومات الأمة، واستئصال أرصدتها الروحية والفكرية، وكان من أفجع وأقسى ما اتخذته من المقررات السياسية ما يلي:
أ – الحط من قيمة أهل البيت الذين هم مركز الوعي الاجتماعي في الاسلام، والعصب الحساس في جسم الأمة الذي يمدها بالنهوض والارتقاء وقد سخرت السلطة جميع أجهزتها السياسية والاقتصادية، وسائر امكانياتها الأخرى لتحويل قلوب المسلمين عن أهل البيت وفرض بغضهم على واقع الحياة الاسلامية، وجعله جزءا لا يتجزء من الاسلام، وقد استخدمت في هذا السبيل أجهزة التربية والتعليم، وأجهزة الوعظ والارشاد وغيرها، واتخذت سب العترة على المنابر فرضا واجبا تحاسب عليه وتنزل أقصى العقوبات على من يتهاون في أدائه.
ب – إبادة العناصر الواعية في الاسلام، والتي تربت على هديه وواقعه فقد ساقت إلى ساحات المجازر أعلام الاسلام كحجر بن عدي وميثم التمار ورشيد الهجري، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وأمثالهم من الذين يملكون القدرة على التوجيه الاجتماعي، والقابلية على صيانة الأمة من الانحراف والسلوك في المنعطفات، وتذرعت السلطة في سفك دمائهم من أنهم خلعوا يد الطاعة، وفارقوا الجماعة، ولم يكن لذلك أي نصيب من الصحة، وإنما رأوا الاتجاه السياسي يتصادم مع الدين، ويتصادم مع مصالح الأمة فأمروا السلطة بالاستقامة والخلود إلى التوازن، ومجافاة الاضرار بمصالح المجتمع، فاستباحت من أجل ذلك دمائهم.
ج – تغيير الواقع المشرق للاسلام، وقلب جميع مفاهيمه ومقوماته،

وتدنيسه بالخرافات والأوهام حتى تشل طاقاته، ويصبح عاجزا عن مسايرة الحياة، والانطلاق مع الانسان لتنمية ملكاته، وقدراته وتطوير وسائل حياته ووضعت الحكومة لجان الوضع، ورصدت لها الأموال الهائلة لتضع الأحاديث على لسان المنقذ العظيم الرسول (ص) لتكون من بنود التشريع وتلحق بقافلة السنة التي هي من مدارك الأحكام، وقد راح الوضاعون يلفقون الأكاذيب، وينسبونها للنبي (ص) وكثير مما وضعوه يتنافى مع منطق العقل، ويتجافى مع سنن الحياة، ومن المؤسف أنها دونت في كتب السنة، ودرجت في كتب الاخبار، مما اضطر بعض تلك المسلمون فإنه لم يكن الابتلاء به آنيا من الزمن، وانما ظل مستمرا مع امتداد التاريخ فقد تفاعلت تلك الموضوعات مع حياة الكثيرين من المسلمين، وظلوا متمسكين بها على أنها جزء من دينهم، وقد وضعت الحواجز في نمو المواهب وانطلاق الفكر، كما بقيت حجر عثرة في طريق التطور والابداع الذي يريده الاسلام لأبنائه.

- ٤ -

وعانى الانسان المسلم في عهد معاوية ضروبا شاقة وعسيرة من المحن والبلوى، فقد جهدت حكومة معاوية على نشر الظلم والجور في جميع أرجاء البلاد، وعهدت بأمور المسلمين إلى الجلادين والجزارين أمثال زياد بن أبيه وبسر بن أبي أرطاة، وسمرة بن جندب والمغيرة بن شعبة، وأمثال هؤلاء من أرجاس البشرية، وقد صبوا على الناس وابلا من العذاب الأليم لم

تشهد له الانسانية مثيلا في كثير من مراحل تاريخها.
لقد كانت المظالم الاجتماعية – في عهد معاوية – بمرأى من الإمام الحسين عليه السلام ومسمع، فروعته وأفزعته إلى حد بعيد، فقد كان بحكم قيادته الروحية لامة جده يحس بأحاسيسها، ويتألم لآلامها، ويحيا بحياتها، وكان من أعظم ما عاناه من المحن والخطوب تتبع الجزارين والجلاد بن من ولاة معاوية لشيعة أهل البيت امعانا في قتلهم، وحرقا لبيوتهم، ومصادرة لأموالهم، لا يألون جهدا في ظلمهم بكل طريق، وقد قام الامام بدوره في شجب تلك السياسة الظالمة فبعث المذكرات الصارخة لطاغية دمشق يشجب فيها الاجراءات الظالمة التي اتخذها عماله وولاته لإبادة محبي أهل البيت والعارفين بفضلهم، وقد جاء في بعض بنودها أنه نفى أن يكون معاوية من هذه الأمة، وانما هو عنصر غريب، ومعاد لها، والحق إنه كذلك فقد أثبتت تصرفاته السياسية أنه من ألد أعدائها، وانه كان يبغي لها الغوائل ويكيد لها في غلس الليل، وفي وضح النهار، قد جهد في اذلالها وارغامها على الجور.
وكان من أفجع ما رزأ به معاوية الأمة أنه فرض خليعه المهتوك يزيد القرود والفهود – كما يسميه المؤرخون – خليفة عليها يعيث في دينها ودنياها، ويجر لها الويلات والخطوب.
– ٥ –
وفقدت الأمة في عهد معاوية وخليعه يزيد جميع عناصرها ومقوماتها ولم تعد خير أمة أخرجت للناس – حسب ما يريده الله لها – فقد عاث فيها معاوية فرباها على الوصولية والانتهازية، ورباها على الذل والعبودية،

وسلب عنها صفاتها، وجرد عنها أخلاقها القويمة، فلم تعد تهتم بتحقيق أهدافها وآمالها، ولا بما يضمن لها الحياة الكريمة، قد استسلمت للحكم الأموي، وقبعت ذليلة مهانة تحت وطأة سياطه، وهو يسفك دماءها، ويستنزف ثرواتها، ويشبع فيها الجور والفساد، فقد تخدرت بشكل فظيع وأصبحت جثة هامدة لا وعي فيها ولا حراك، فلم تهب للدفاع عن كرامتها وعزتها، ولم تنطلق في ميادين الشرف والتضحية لتحمي نفسها من الظلم والاعتداء.

رأى الإمام الحسين (ع) وهو سبط الرسول (ص) وأمله الباسم الذي تجسدت فيه جميع طاقاته حالة المسلمين، وما هم فيه من الذل والهوان وانهم لم يعودوا تلك الأمة العظيمة التي تبنت رسالة الاسلام، وحملت مشعل الهداية والنور إلى جميع شعوب الأرض.

واستوعب الألم القاسي مشاعر الامام وعواطفه، وراح يطيل التفكير وينفق الليل ساهرا في انقاذ دين جده العظيم، وحمايته من الردة الجاهلية، فعقد المؤتمرات تارة في مكة وأخرى في يثرب، وعرض على الصحابة وأبنائهم الحالة الراهنة التي مني بها المسلمون، وأخذ يدلي بمنكرات معاوية وموبقاته، وقد استبان له أن هذه الطريقة لا تجدي باي حال في ميادين الاصلاح الاجتماعي، ولا يمكن أن ترد شوارد الأهواء وترجع للأمة ما فقدته من معنويات، فرأى أنه بين أمرين لا ثالث لهما وهما:

١ – أن يسالم الأمويين، ويبايع ليزيد، ويغض الطرف عما تقترفه السلطة من الظلم والجور، وما تعانيه الأمة من الأزمات في مجالاتها العقائدية والاجتماعية، ويكون بذلك – على سبيل الاحتمال لا القطع – قد ضمن سلامته وحياته، ولكن هذا مما يأباه الله له، ويأباه ضميره الحي المترع بتقوى الله فهو بحسب مكانته من رسول الله (ص) مسؤول أمام الله عن صيانة الأمة

وحماية أهدافها ومبادئها، ومسؤول أمام جده الرسول (ص) عن رعاية الاصلاح الاجتماعي، وصيانة الاسلام من عبث العابثين، وكيد الفاجرين وقد أعلن سلام الله عليه هذه المسؤولية الخطيرة وما يفرضه الواجب عليه في خطابه الذي ألقاه على الحر و أصحابه من شرطة ابن زياد قائلا:

" أيها الناس إن رسول الله (ص) قال: من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله ناكثا عهده، مخالفا لسنة رسول الله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقا على الله أن يدخله مدخله... ".

لقد كان الواجب الشرعي حسبما أدلى به مما يحتم عليه القيام في مقارعة الظلم ومناهضة الجور، والضرب على أيدي المعتدين والظالمين.

٢ – أن يعلن الثورة، ويضحي بنفسه وأهل بيته وشيعته، وهو على يقين بعدم نجاح الثورة، فقد درس أوضاع المجتمع، وعرف أن الدين لعق على ألسنة الناس، إلا أنه أيقن أن تضحيته ستعود على المسلمين بالخير العميم فستتحرر ارادتهم، ويهبون إلى ميادين الجهاد، ويرفعون أعلام الحرية وينزلون الجبابرة الطغاة من بني أمية من عروشهم إلى قبورهم واختار هذا الطريق المشرق على ما فيه من ماسي وخطوب لا يطيقها أي كائن حي.

– ٦ –

ودرس الامام أبعاد التضحية بعمق وشمول، فرأى أن يزج بجميع ثقله في المعركة، ويقدم أروع التضحيات التي تهز الضمير الانساني على امتداد التاريخ، وتعيد للأمة أصالتها ووعيها عبر أجيالها الصاعدة...

لقد خطط الامام فصول مأساته، وفصول تضحيته على أسس عميقة

من الوعي والادراك بحيث تؤدي إلى النتائج المشرقة التي منها انتصار القضية الاسلامية وإعادة الحياة الدينية إلى شرايين الأمة، وإزالة التخدير الذي بسطه الأمويون على جميع أجزائها.

وقد أعلن سلام الله عليه ما صمم عليه، وأذاع فصول مأساته الخالدة في كثير من المناسبات، وهذه بعضها.

١ – أدلى بمصرعه، وهو بمكة في خطابه الذي أعلن فيه الثورة على بني أمية، فقد جاء فيه " وخير لي مصرع أنا لاقيه كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا... " أليس في هذا الكلام دلالة على روعة العزم والتصميم على التضحية؟! أليس فيه اخبار جازم عن مصرعه الكريم، وأنه في كربلاء، فهي التي تحضى بمواراة جثمانه الطاهر كما أذاع ذلك جده وأبوه من قبل.

٢ – وأعلن الامام العظيم الماسي الأليمة، والخطوب المفجعة التي تحل باهل بيته من القتل والسبي والأسر، وذلك حينما أشار عليه ابن عباس بان لا يحمل معه مخدرات النبوة وعقائل الوحي إلى العراق، ويتركهن في يثرب حتى تستقيم له الأمور، فاجابه الامام قائلا:

" قد شاء الله أن يراهن سبايا ".

لقد صحب معه عياله وهو يعلم ما سيجري عليها من الأسر والسبي لان بها سوف تستكمل رسالته، وتؤدي فعاليتها في القضاء على العرش الأموي وإعادة الحياة الاسلامية إلى واقعها المضيئ.

٣ – كان الامام يتحدث وهو في طريقه إلى العراق من أن رأسه الشريف سوف يرفع على الحراب فيطاف به في الأقطار والأمصار، ويهدى إلى بغي من بغايا بني أمية كما صنع براس أخيه يحيى بن زكريا حيث أهدي إلى بغي من بغايا بني إسرائيل.

لقد استهان بجميع ما يعانيه في سبيل إحقاق الحق، واعلاء كلمة الله في الأرض.

- ٧ -

وفجر الامام ثورته الكبرى التي أوضح الله بها الكتاب، وجعلها عبرة لأولي الألباب، وهي بجميع مخططاتها جزء من رسالته الاسلام وامتداد مشرق لثورة الرسول الأعظم، وتجسيد حي لأهدافه وآماله، ولولاها لذهبت جهود النبي، وضاعت آماله، ولم يبق للاسلام أثر ولا عين.

لقد انتصر الإمام الحسين (ع) وفتح الله له الفتح المبين، فقد أشرقت سماء الاسلام بثورته الخالدة، وتفاعلت تضحيته مع مشاعر الناس وعواطفهم، وامتزجت بقلوبهم، وأصبحت أعظم مدرسة للايمان بالله، تبث روح العقيدة والفداء في سبيل الحق والعدل، وتغدي الناس بالقيم الكريمة والمثل العليا، وتعمل على توجيههم نحو الخير وتهديهم إلى سواء السبيل.

لقد أقبل الناس بلهفة على مأساة أبي الأحرار، وهم يمنعون النظر في فصولها ويقتبسون منها أروع الدروس عن الكرامة والتضحية، والبطولات الخارقة والعزة التي لا يلويها الظلم والجور.

إن الانسانية لتنحني اجلالا واكبارا للامام العظيم الذي رفع راية الحق عالية خفاقة. وتبنى حقوق المظلومين، ودافع عن مصالح المضطهدين... وانها لتمجد ذكره أكثر مما تمجد أي مصلح اجتماعي في الأرض، وقد أحرز الامام العظيم بذلك من النصر ما لم يحرزه غير من المصلحين في العالم.

لقد كان من أوليات النصر الذي حققه الامام تحطيم الكيان الأموي فقد وضعت ثورته الخالدة العبوات الناسفة في قصور الأمويين، وألغمت طريقهم، فلم يمض قليل من الزمن حتى تفجرت فأطاحت برؤوس الأمويين واكتسحت نشوة نصرهم، وجعلتهم أثرا بعد عين، ويعرض هذا الكتاب بصورة موضوعية إلى بعض ما قدمته الثورة من المعطيات المشرقة على الصعيد الفكري والاجتماعي للعالم الاسلامي.

- ٨ -

ولن يستطيع التاريخ الاسلامي أن يأخذ حظه من الحياة إذا كان مثقلا بالقيود والاغلال، ولم يخضع للدراسة والنقد، فلا بد أن تتسلط مجاهر البحث العلمي النزيه على أحداثه، وتدرس بدقة وتجرد، شان غيره من تاريخ الأمم الحية التي تتناول أحداثه أقلام المفكرين والباحثين بكثير من العمق والتحليل، فان دراسة التاريخ عندهم تحتل الصدارة في دراساتهم الثقافية والعلمية.

إنا إذا أردنا للتاريخ الاسلامي أن يزدهر، ويساير النهضة الفكرية، والتطور العلمي في هذه العصور، فلا بد من دراسته دراسة واعية تعتمد على المناهج العلمية، وعلى التجرد من النزعات المذهبية والتقليدية، فننظر بدقة إلى الاحداث الجسام التي دهمت المسلمين في عصورهم الأولى فإنها - فيما تعتقد - مصدر الفتنة الكبرى التي أخلدت لهم المصاعب، وجرت لهم الفتن والخطوب على امتداد التاريخ.

إن البحث عن التاريخ الاسلامي في تلك الحقبة الخاصة من الزمن إذا لم يعرض لتلك الاحداث بالبسط والتحليل، ولم يلق الأضواء على

دوافعها ومجرياتها فإنه يكون بحثا تقليديا لا روح فيه، ولا ثمرة تعود فيه على القراء.

وقد ألمعنا في الحلقة الأولى من هذا الكتاب إلى الكثير من الاحداث وعرضنا الأنظمة السياسية والاقتصادية التي وضع برامجها الخلفاء في العصر الأول، وقد تأملنا في كثير منها بتحفظ وتجرد شان الباحث الذي يهمه الوصول إلى الواقع مهما استطاع إليه سبيلا، وانى - فيما اعتقد - ان من الاثم وتعمد الجهل ان نتكلف اخفاء أي ناحية من النواحي السياسية أو الاجتماعية في ذلك العصر فان اخفاء ذلك من ألوان التضليل والدجل على القراء.

وليس في دراسة التاريخ منهجية تغيير له أو قلب لمفاهيمه، أو خروج عن موازين البحث العلمي المجرد، وإنما هي من صميمه كما هي من متطلبات الحياة الثقافية في هذا العصر.

وعلى أي حال فان هذه الدارسة ترتبط ارتباطا ذاتيا وموضوعيا بحياة الإمام الحسين، فقد عاش ذلك الحقبة الخاصة من الزمن المليئة بالاحداث وقد نظر إليها بعمق وشمول، ووقف على أهدافها وهي - من دون شك - قد ساهمت مساهمة ايجابية في كثير من الاحداث التي فزع منها المسلمون والتي كان منها كارثة كربلاء، فإنها كانت إحدى النتائج المباشرة لذلك التخدير الذي منيت به الأمة من جراء الحكم الأموي الذي جهد على شل الحياة الفكرية والاجتماعية وإشاعة الانتهازية بين المسلمين.

وأنا آمل أن أكون في هذه الدراسة قد واكبت الواقع، وابتعدت عن العواطف التقليدية وآثرت الحق في جميع ما كتبته لا ابتغي بذلك إلا ابراز التاريخ الاسلامي على واقعه من دون تحيز وقبل أن أقفل هذا التقديم أرى من الواجب علي أن أذكر بالوفاء والعرفان ما قام به سيادة المحسن

الكبير الحاج محمد رشاد عجينة من التشجيع البالغ على الخوض والاستمرار في خدمة أئمة أهل البيت (ع) ونشر مآثرهم التي هي من أفضل الخدمات التي تقدم لهذه الأمة، وقد قادم سيادته بالانفاق على نشر هذا الكتاب وقد رغب أن تكون من الميراث التي أوصى بها المغفور له والده الحاج محمد جواد عجينة المتوفى سنة (١٣٩١ ه)، أجزل الله له الثواب، ووفقه لكل مسعى نبيل.
النجف الأشرف - باقر شريف القرشي

مع القاسطين والناكثين

وفزعت القبائل القرشية كاشد ما يكون الفزع هولا من حكومة الامام وأيقنت أن جميع مخططاته السياسية والاقتصادية إنما هي امتداد ذاتي للاتجاهات الفكرية والاجتماعية عند الرسول الأعظم (ص) الذي أطاح بغلوائهم، وكبريائهم، وحطم حياتهم الاقتصادية القائمة على الربا والاحتكار والاستغلال ومما زاد في فزعهم القرارات الحاسمة التي أعلنها الامام فور انتخابه للحكم والتي كان منها اقصاء ولاة عثمان عن جميع مراكز الدولة، ومصادرة جميع ما نهبوه من الخزينة المركزية، كما اضطربوا من اعلان الإمام (ع) للمساواة العادلة بين جميع الشعوب الاسلامية، مساواة في الحقوق، والواجبات، ومساواة في كل شئ، وقد هالهم ذلك فكانوا يرون أن لهم التفوق على بقية الشعوب، ولهم امتيازات خاصة على بقية الناس.

لقد ورمت آناف القرشيين وسائر القوى المنحرفة عن الحق من حكومة الامام فاجمع رأيهم على اعلان العصيان المسلح، واشعال نار الحرب في البلاد للإطاحة بحكومته التي اتخذت الحكم وسيلة للاصلاح الاجتماعي، وتطوير حياة الانسان، وأول الحروب التي أثيرت على الامام هي حرب الجمل، وأعقبها حرب صفين ثم حرب النهروان، وقد وضعت تلك الحروب الحواجز والسدود أمام حكمه الهادف إلى رفع مستوى القيم الانسانية، والقضاء على جميع ألوان التأخر في البلاد.

ويقول الرواة ان الرسول (ص) قد أحاط الامام علما بما يمنى به في عهد خلافته من تمرد بعض الفئات عليه، وقد عهد إليه بقتالهم وقد أسماهم الناكثين والقاسطين والمارقين (١) ولا بد لنا أن نعرض - بايجاز -

---

(١) مستدرك الحاكم ٣ / ١٣٩، تاريخ بغداد ٨ / ٣٤٠، أسد الغابة ٤ / ٣٣، كنز العمال ٦ / ٨٢، مجمع الزوائد ٩ / ٢٣٥.

لهذه الحروب التي تصور لنا الحياة السياسية والفكرية في ذلك العصر الذي أترعت فيه عواطف الكثيرين بحب الملك والسلطان كما تصور لنا الأحقاد التي تكنها القبائل القرشية على الامام، ومن المقطوع به أن هذه الاحداث قد ساهمت مساهمة ايجابية في خلق كارثة كربلاء فقد نشرت الأوبئة الاجتماعية وخلقت جيلا انتهازيا، لا ينشد إلا مطامعه الخاصة، وفيما بلي ذلك:

الناكثون:

وهم الذين نكثوا بيعتهم، وخاسوا ما عاهدوا عليه الله في التضحية والطاعة للامام، فانسابوا في ميادين الباطل وساحات الضلال، وتمرسوا في الاثم، وقد أجمع فقهاء المسلمين على تأثيمهم إذ لم يكن لهم أي مبرر في الخروج على السلطة الشرعية التي تبنت المصالح العامة، وأخذت على عاتقها أن تسير بين المسلمين بالحق المحض والعدل الخالص وتقضي على جميع أسباب التخلف في البلاد.

اما اعلام الناكثين فهم طلحة والزبير، والسيدة عائشة بنت أبي بكر، ومروان بن الحكم، وسائر بني أمية، وغيرهم من الذين ضاقوا ذرعا من عدل الامام، ومساواته.

دوافع التمرد:

والشئ المحقق انه لم تكن للناكثين أية أهداف اجتماعية، وانما دفعتهم مصالحهم الخاصة لنكث بيعة الامام، فطلحة والزبير قد خفا إليه بعد أن تقلد الخلافة يطلبان منحهما ولاية البصرة والكوفة، فلما خبا أملهما

أظهرا السخط، وخفا إلى مكة لاعلان الثورة عليه، وتمزيق شمل المسلمين وقد أدلى الزبير بتصريح أعرب فيه عن أهدافه، فقد أقبل إليه وإلى طلحة رجل فقال لهما: " إن لكما صحبة وفضلا فأخبراني عن مسيركما وقتالكما أشئ أمركما به رسول الله (ص)؟ وسكت طلحة، وأما الزبير فقال: " حدثنا أن ها هنا بيضاء وصفراء - يعني دراهم ودنانير - فجئنا لنأخذ منها.. " (١)

من أجل الظفر بالمنافع المادية أعلن الشيخان تمردها على حكومة الامام.

وأما السيدة عائشة فإنها كانت تروم ارجاع الخلافة إلى أسرتها، فهي أول من قدح زناد الثورة على عثمان، وأخذت تلهب المشاعر والعواطف ضده وكانت تقول: " اقتلوا نعثلا فقد كفر " وقد جهدت على ترشيح طلحة للخلافة وكانت تشيد به في كل مناسبة إلا أنها أخيرا استجابت لعواطفها الخاصة المترعة بالود والحنان لابن أختها عبد الله بن الزبير فرشحته لامارة الصلاة وقدمته على طلحة.

وأما بنو أمية فقد طلبوا من الامام ان يضع عنهم ما أصابوا من المال في أيام عثمان، فرفض الامام أن يضع عنهم ما اختلفوه من أموال الأمة فأظهروا له العداء، وعملوا على إثارة الفتنة والخلاف.

وعلى أي حال فإنه لم تكن للناكثين نزعة اصلاحية أو دعوة إلى الحق وإنما كانت بواعثهم الأنانية والأطماع، والأحقاد على الامام الذي هو نفس رسول الله (ص) وباب مدينة علمه.

---

(١) أنساب الأشراف ج ١ ق ١.

خديعة معاوية للزبير:
وأيقن معاوية بأهداف الزبير وطلحة، فقام بدوره في خديعتهما واغرائهما ليتخذهما سلما يعبر عليهما لتحقيق أهدافه ومآربه، فقد كتب إلى الزبير رسالة جاء فيها: " لعبد الله الزبير أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان سلام عليك، أما بعد: فاني قد بايعت لك أهل الشام فأجابوا واستوسقوا كما يستوسق الجلب، فدونك الكوفة والبصرة لا يسبقك إليها ابن أبي طالب فإنه لا شئ بعد هذين المصرين، وقد بايعت لطلحة بن عبيد الله من بعدك، فأظهروا الطلب بدم عثمان، وادعوا الناس إلى ذلك، وليكن منكما الجد والتشمير أظفركما الله وخذل مناوئكما... ".
ولما وصلت هذه الرسالة إلى الزبير لم يملك اهابه من الفرح والسرور وخف إلى طلحة فأخبره بذلك فلم يشكا في صدق نيته واخلاصه لهما، وتحفزا إلى اعلان الثورة على الامام، واتخذا دم عثمان شعارا لهما (١).
مؤتمر مكة:
وخف المتأمرون إلى مكة فاتخذوها وكرا لدسائسهم التخريبية الهادفة لتقويض حكم الامام وقد وجدوا في هذا البلد الحرام تجاوبا فكريا مع الكثيرين من أبناء القبائل القرشية التي كانت تكن في أعماق نفسها الكراهية والحقد على الامام لأنه قد وتر الكثيرين منهم في سبيل الاسلام.
وعلى أي حال فقد تداول زعماء الفتنة الآراء في الشعار الذي يتبنونه والبلد التي يغزونها، وسائر الشؤون الأخرى التي تضمن لثورتهم النجاح.

---

(١) شرح النهج ١ / ٢٣١

قرارات المؤتمر:
واتخذ أعضاء المؤتمر بالاجماع القرارات التالية، وهي:
١ - أن يكون شعار المعركة دم عثمان، والمطالبة بثاره لأنه قتل مظلوما، واستباح الثوار دمه بعد توبته بغير حق، لقد رفعوا قميص عثمان شعارا لهم فكان شعارا للتمرد وشعارا للرأسمالية القرشية التي طغت في البلاد.
٢ - تحميل الإمام علي (ع) المسؤولية في إراقة دم عثمان لأنه آوى قتلته، ولم يقتص منهم.
٣ - الزحف إلى البصرة واحتلالها، واتخاذها المركز الرئيسي للثورة لان لهم بها حزبا وأنصارا، وقد أعرضوا عن الزحف إلى يثرب لان فيهما الخليفة الشرعي، وهو يتمتع بالقوى العسكرية التي لا قابلية لهم عليها، كما أعرضوا عن التزوج إلى الشام لان الأمويين لم يستجيبوا لهم، لأنها كانت تحت قبضتهم، فخافوا عليها من التصدع والاحتلال.
تجهيز الجيش بالأموال المنهوبة:
وجهز يعلي بن أمية جيش عائشة بالأموال التي نهبها من بيت المال حينما كان واليا على اليمن أيام عثمان، ويقول المؤرخون إنه أمد الجيش بستمائة بعير، وبستمائة ألف درهم (١) وأمدهم عبد الله بن عامر والي عثمان على البصرة بمال كثير (٢) كان قد اختلسه من بيت المال، ولم يتحرج أعضاء القيادة العسكرية العامة في جيش عائشة من هذه الأموال المحرمة.

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ١٠٦.
(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ١٠٦.

الخطاب السياسي لعائشة:
وخطبت عائشة في مكة خطابا سياسيا حملت فيه المسؤولية في إراقة دم عثمان على الغوغاء فهم الذين سفكوا الدم الحرام في الشهر الحرام، وقد قتلوا عثمان بعد ما أقلع عن ذنوبه وأخلص في توبته، ولا حجة لهم فيها اقترفوه من سفك دمه (١)، وقد كان خطابها فيما يقول المحققون حافلا بالمغالطات السياسية، فان الغوغاء لم يسفكوا دمه، وإنما سفك دمه الذين رفعوا علم الثورة عليه، وفي طليعتهم كبار الصحابة كعمار بن ياسر وأبي ذر وعبد الله بن مسعود وطلحة والزبير، وكانت هي بالذات من أشد الناقمين عليه فقد اشتدت في معارضته، وأفتت في قتله وكفره فقالت: " اقتلوا نعثلا فقد كفر " فأي علاقة للغوغاء بإراقة دمه؟
وأما توبته فان عثمان أعلن غير مرة عن تراجعه عن أحداثه إلا أن بني أمية كانوا يزجونه في مخططاتهم السياسية فيعود إلى سياسية الأولى، ولم يقلع عنها حتى قتل.
وعلى أي حال فقد كان خطابها أول بادرة لاعلان العصيان المسلح على حكومة الامام وكان الأولى بعائشة بحسب مكانتها الاجتماعية أن تدعو إلى وحدة الصف وجمع كلمة المسلمين، وان تقوم بالدعم الكامل لحكومة الامام التي تمثل أهداف النبي (ص) وما تصبوا إليه الأمة من العزة والكرامة.

---

(١) نص خطابها في تاريخ الطبري ٣ / ٤٦٨.

عائشة مع أم سلمة:
ومن الغريب حقا أن تخف عائشة إلى أم سلمة تطلب منها القيام بمناجزة الامام مع علمها بما تكنه من الولاء والتقدير له الامر الذي دل على عدم خبرتها بالاتجاهات الفكرية لضراتها من أزواج النبي (ص) ولما قابلتها خاطبتها بناعم القول قائلة:
" يا بنت أبي أمية أنت أول مهاجرة من أزواج رسول الله (ص) وأنت كبيرة أمهات المؤمنين، وكان رسول الله يقسم من بيتك، وكان جبرئيل أكثر ما يكون في منزلك.. "
ورمقتها أم سملة بطرفها، وقالت لها بريبة:
" لأمر ما قلت هذه المقالة؟ "
فأجابتها عائشة مخادعة:
" ان القوم استتابوا عثمان فلما تاب قتلوه صائما في الشهر الحرام، وقد عزمت على الخروج إلى البصرة، ومعي الزبير وطلحة فاخرجي معنا لعل الله يصلح هذا الامر على أيدينا. "
وأسدت لها أم سلمة النصيحة وذكرتها بمواقفها مع عثمان ونقمتها عليه وحذرتها من الخروج على ابن عم رسول الله (ص) قائلة:
" يا بنت أبي بكر بدم عثمان تطلبين؟!! والله لقد كنت من أشد الناس عليه، وما كنت تسميه الا نعثلا، فمالك ودم عثمان؟ وعثمان رجل من بني عبد مناف وأنت امرأة من بني تيم بن مرة، ويحك يا عائشة!! أعلى علي وابن عم رسول الله (ص) تخرجين وقد بايعه المهاجرون والأنصار؟... "
وجعلت أم سلمة تذكر عائشة فضائل علي ومآثره وقرب منزلته من

رسول الله وكان عبد الله بن الزبير يسمع حديثها فغاظه ذلك، وخلاف أن تصرف عائشة عن عزمها فصاح بها:
" يا بنت أبي أمية، إننا قد عرفنا عداوتك لآل الزبير ".
فنهرته أم سلمة وصاحت به:
" والله لتوردنها ثم لا تصدنها أنت ولا أبوك!! أتطمع أن يرضى المهاجرون والأنصار بأبيك الزبير وصاحبه طلحة، وعلي بن أبي طالب حي وهو ولي كل مؤمن ومؤمنة ".
فقال لها ابن الزبير:
ما سمعنا هذا من رسول الله (ص) ساعة قط ".
فقالت أم سلمة:
" إن لم تكن أنت سمعته فقد سمعته خالتك عائشة، وها هي فاسألها قد سمعته (ص) يقول: " علي خليفتي عليكم في حياتي ومماتي من عصاه فقد عصاني " أتشهدين يا عائشة بهذا أم لا؟.. "
فلم يسع عائشة الانكار وراحت تقول:
" اللهم نعم.. ".
ومضت أم سلمة في نصيحتها لعائشة قائلة:
" اتق الله يا عائشة في نفسك، واحذر ما حذرك الله ورسوله، ولا تكون صاحبة كلاب الحواب، ولا يغرنك الزبير وطلحة فإنهما لا يغنيان عنك من الله شيئا... " (١).
ولم تع عائشة نصيحة أم سلمة، واستجابت لعواطفها، وأصرت على مناجزة الامام.

---

(١) الفتوح ٢ / ٢٨٢ - ٢٨٣.

وكتبت أم سلمة بجميع الاحداث التي جرت في مكة إلى الإمام (ع) واحاطته علما بأعضاء الفتنة (١).

الزحف إلى البصرة:

وتحركت كتائب عائشة صوب البصرة، ودق طبل الحرب، ونادى المتمردون بالجهاد، وقد تهافت ذوو الأطماع والحاقدون على الامام إلى الالتحاق بجيش عائشة، قد رفعوا أصواتهم بالطلب بدم عثمان الذي سفكه طلحة والزبير وعائشة، واتجهت تلك الجيوش لتشق كلمة المسلمين، وتغرق البلاد بالثكل والحزن والحداد.

عسكر:

وسار موكب عائشة في البيداء يجذ السير، فصادفهم العرني صاحب عسكر فعرض له راكب فقال له:

- يا صاحب الجمل أتبيع جملك؟.

- نعم.

- بكم.

بألف درهم.

- ويحك!!.. أمجنون أنت جمل يباع بألف درهم؟

- نعم جملي هذا. فما طلبت عليه أحدا قط إلا أدركته، ولا طلبني وأنا عليه أحد قط الا فته...

---

(١) شرح النهج ٢ / ٧٩.

" لو تعلم لمن نريده لأحسنت بيعتا "
" لمن تريده؟ "
" لأمك ".
" لقد تركت أمي في بيتها قاعدة ما تريد براحا ".
" إنما أريده لام المؤمنين عائشة ".
" هو لك خذه بغير ثمن ".
" ارجع معنا لك الرحل فلنعطك ناقة مهرية، ونزيدك دراهم ".
فقفل معهم فاعطوه الناقة وأربعمائة درهم أو ستمائة درهم، وقدم عسكر إلى عائشة فاعتلت عليه (١)، وقد أصبح كعجل بني إسرائيل فقطعت الأيدي، وأزهقت الأنفس وأريقت الدماء من حوله.

الحواب:

وسارت قافلة عائشة فاجتازت على مكان يقال له (الحواب) فتلقت الركب كلاب الحي بهرير وعواء فذعرت عائشة، فالتفت إلى محمد بن طلحة فقالت له:

– أي ماء هذا يا محمد؟

– ماء الحواب يا أم المؤمنين.

فهتفت وهي تلهث:

– ما أراني إلا راجعة.

– لم يا أم المؤمنين؟

– سمعت رسول الله يقول لنسائه: كأني بإحداكن قد نبحتها

---

(١) ابن الأثير ٣ / ١٠٧، تاريخ الطبري ٣ / ٤٧٥، تذكرة الخواص.

كلاب الحواب وإياك أن تكوني أنت يا حميراء (١).
- تقدمي رحمك الله ودع هذا القول.
فلم تبرح من مكانها، وطافت بها الهموم والآلام، وأيقنت بضلالة قصدها، وذعرت القيادة العسكرية من توقف عائشة التي اتخذوها قبلة لهم يغرون بها السذج والبسطاء فخفوا إليها في دهشة قائلين:
" يا أمه ".
فقطعت عليهم الكلاب وراحت تقول بنبرات ملؤها الأسى والحزن.
" أنا والله صاحبة كلاب الحواب.. ردوني، ردوني ".
وأسرع إليها ابن أختها عبد الله بن الزبير كأنه ذئب فانهارت امامه، واستجابت لعواطفها، ولولاه لارتدت على عقبيها إلى مكة فجاء لها بشهود اشترى ضمائرهم فشهدوا عندها أنه ليس بماء الحواب وهي أول شهادة زور تقام في الاسلام (٢) فأقلعت عن فكرتها واخذت تقود الجيوش لحرب وصي رسول الله (ص) وباب مدينة علمه.
في ربوع البصرة:
ودهمت جيوش عائشة أهل البصرة فملئت قلوبهم ذعرا وفزعا،

---

(١) روى ابن عباس عن رسول الله (ص) أنه قال يوما لنسائه وهن جميعا عنده: أيتكن صاحبة الجمل الأدب تنبحها كلاب الحواب، يقتل عن يمينها وشمالها قتلى كثيرة كلهم في النار، وتنجو بعدما كادت، شرح النهج ٢ / ٢٩٧، ابن كثير ٦ / ٢٩٧، ابن كثير ٦ / ٢١٢، الخصائص للسيوطي ٢ / ١٣٧ الاستيعاب وجاء فيه: " وهذا الحديث من اعلام نبوته (ص) ".
(٢) مروج الذهب ٢ / ٣٤٧، تاريخ اليعقوبي.

وخوفا، فقد أحاطت ببلدهم القوات العسكرية التي تنذر باحتلال بلدهم وجعلها منطقة حرب، وعصيان على الخليفة الشرعي، وانبرى حاكم البصرة عثمان بن حنيف وهو من ذوي الإدارة والحزم والحريجة في الدين، فبعث أبا الأسود الدؤلي إلى عائشة يسألها عن سبب قدومها إلى مصرهم، ولما مثل عندها قال لها.

– ما أقدمك يا أم المؤمنين؟

– اطلب بدم عثمان.

– ليس في البصرة من قتلة عثمان أحد.

– صدقت، ولكنهم مع علي بن أبي طالب بالمدينة، وجئت أستنهض أهل البصرة لقتاله، انغضب لكم من سوط عثمان، ولا نغضب لعثمان من سيوفكم.

ورد عليها أبو الأسود قائلا:

" ما أنت من السوط والسيف، انما أنت حبيسة رسول الله (ص) أمرك أن تقري في بيتك وتتلي كتاب ربك، وليس على النساء قتال،

ولا لهن الطلب بالدماء، وان عليا لأولى منك، وأمس رحما، فإنهما ابنا عبد مناف ".

ولم تذعن لقوله، وراحت مصرة على رأيها قائلة:

" لست بمنصرفة حتى أمضي لما قدمت إليه، أفنظن أبا الأسود أن أحدا يقدم على قتالي؟!! ".

وحسبت أنها تتمتع بحصانة لعلاقتها الزوجية من النبي (ص) فلا يقدم أحد على قتالها، ولم تعلم أنها أهدرت هذه الحرمة ولم ترع لها جانبا فأجابها أبو الأسود بالواقع قائلا:

" أما والله لتقاتلن قتالا أهونه الشديد ".

ثم انعطف أبو الأسود صوب الزبير فذكره بماضي ولائه للامام وقربه منه قائلا.

" يا أبا عبد الله عهد الناس بك، وأنت يوم بويع أبو بكر آخذا بقائم سيفك تقول: لا أحد أولى بهذا الامر من ابن أبي طالب، وأين هذا المقام من ذاك؟ "

فاجابه الزبير بما لم يؤمن به قائلا:

" نطلب بدم عثمان ".

" أنت وصاحبك وليتماه فيما بعد ".

ولأن الزبير واستحباب لنصيحة أبي الأسود الا انه طلب منه مواجهة طلحة وعرض الامر عليه، فأسرع أبو الأسود تجاه طلحة وعرض عليه النصيحة فأبى من الاستجابة وأصر على الغي والعدوان (١) ورجع أبو الأسود من وفادته التي أخفق فيها فأحاط ابن حنيف علما بالامر فجمع أصحابه وخطب فيهم وقال:

" أيها الناس، انما بايعتم الله، يد الله فوق أيديهم، فمن نكث فإنهما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما والله لو علم علي أحدا أحق بهذا الامر منه ما قبله، ولو بايع الناس غيره لبايع، وأطاع وما به إلى أحد من صحابة رسول الله (ص) حاجة وما بأحد عنه غنى، ولقد شاركهم في محاسنهم، وما شاركوه في محاسنه، ولقد بايع هذان الرجلان، وما يريدان الله، فاستحلا الفطام قبل الرضاع، والرضاع قبل الولادة، والولادة قبل الحمل، وطلبا ثواب الله من العباد، وقد زعما أنهما بايعا مستكرهين، فان كانا استكرها قبل بيعتهما وكانا رجلين من عرض قريش لهما أن يقولا ولا يأمرا، إلا وان الهدى ما كانت عليه

---

(١) شرح النهج ٢ / ٨١.

العامة، والعامة على بيعة علي فما ترون أيها الناس؟ ".
فقام إليه الفذ النبيل حكيم بن جبلة فخاطبه بمنطق الايمان والحق والاصرار على الحرب (١).
وجرت مناظرات بين الفريقين إلا انها لم تنته إلى خير، وخطب طلحة والزبير، وكان خطابهما الطلب بدم عثمان، فرد عليهما أهل البصرة ممن كانت تأتيهم رسل طلحة بالتحريض على قتل عثمان وحملوه المسؤولية في إراقة دمه وخطبت عائشة خطابها الذي كانت تكرره في كل وقت وهو التحريض على المطالبة بدم عثمان لأنه قد خلص من ذنوبه، وأعلن توبته ولكنها لم تنه خطابها حتى ارتفعت الأصوات فقوم يصدقونها وقوم يكذبونها وتسابوا فيما بينهم وتضاربوا بالنعال، واقتتل الفريقان أشد القتال وأعنفه وأسفرت الحرب عن عقد هدنة بينهما حتى يقدم الإمام علي، وكتبوا بينهم كتابا وقعه عثمان بن حنيف، وطلحة والزبير وقد جاء فيه باقرار عثمان ابن حنيف على الامرة، وترك المسلحة وبيت المال له، وان يباح للزبير وطلحة وعائشة ومن انضم إليهم أن ينزلوا حيث شاءوا من البصرة.
ومضى ابن حنيف يقيم بالناس الصلاة، ويقسم المال بينهم، ويعمل على نشر الامن وإعادة الاستقرار في المصر، إلا أن القوم قد خاسوا بعهدهم ومواثيقهم، فاجمعوا على الفتك بابن حنيف، ويقول المؤرخون: ان حزب عائشة انتهزوا ليلة مظلمة شديدة الريح فعدوا على ابن حنيف وهو يصلي بالناس صلاة العشاء فأخذوه ثم عدوا إلى بيت المال فقتلوا من حرسه أربعين رجلا، واستولوا عليه، وزجوا بابن حنيف في السجن وأسرفوا في تعذيبه بعد أن نتفوا لحيته وشاربيه (٢).

---

(١) الإمامة والسياسة ١ / ٦٤.
(٢) شرح النهج ٢ / ٥٠.

وغضب قوم من أهل البصرة، ونقموا على ما اقترفه القوم من نقض الهدنة، والنكاية بحاكمهم، واحتلال بيت المال فخرجوا يريدون الحرب، وكانت هذه الفئة من ربيعة يرأسها البطل العظيم حكيم بن جبلة فقد خرج في ثلاثمائة رجل من بني عبد القيس (١) وخرج أصحاب عائشة، وحملوها معهم على جمل، وسمي ذلك اليوم الجمل الأصغر (٢) والتحم الفريقان في معركة رهيبة، وقد أبلى ابن جبلة بلاءا حسنا، ويقول المؤرخون ان رجلا من أصحاب طلحة ضربه ضربة قطعت رجله، فجثا حكيم واخذ رجله المقطوعة فضرب بها الذي قطعها فقتله، ولم يزل يقاتل حتى قتل (٣)

لقد أضاف القوم إلى نقض بيعتهم للامام نكثهم للهدنة التي وقعوا عليها مع ابن حنيف، وإراقتهم للدماء بغير حق ونهبهم ما في بيت المال وتنكيلهم بابن حنيف ويقول المؤرخون انهم قد هموا بقتله لولا أنه هددهم بأخيه سهل بن حنيف الذي يحكم المدينة من قبل علي وانه سيضع السيف في بني أبيهم إن أصابوه بمكروه، فخافوا من ذلك، واطلقوا سراحه فانطلق حتى التحق بالامام في بعض طريقه إلى البصرة فلما دخل عليه قال للامام مداعبا:

" أرسلتني إلى البصرة شيخا فجئتك أمرد ".

وأوغرت هذه الأحداث الصدور، وزادت الفرقة بين أهل البصرة فقد انقسموا على أنفسهم فطائفة منهم تسللوا حتى التحقوا بالامام، وقوم انضموا إلى جيش عائشة، وطائفة ثالثة اعتزلت الفتنة، ولم يطب لها الانضمام إلى أحد الفريقين.

---

(١) شرح النهج ٢ / ٥٠.
(٢) حياة الإمام الحسن ١ / ٤٣٠.
(٣) أسد الغابة ٢ / ٤٠.

النزاع على الصلاة
وليس من الغريب في شئ أن يتنازع كل من طلحة والزبير على امامة الصلاة فإنهما انما نكثا بيعة الإمام (ع) طمعا بالحكم وسعيا وراء المصالح المادية، ويقول المؤرخون إن كل واحد منهما كان يروم التقدم على صاحبه لامامة الناس، والاخر يمنعه حتى فات وقت الصلاة، فخافت عائشة من تطور الاحداث فأمرت ان يصلي بالناس يوما محمد بن طلحة، ويوما عبد الله ابن زبير (١) فذهب ابن الزبير ليصلي فجذبه محمد، وتقدم للصلاة فمنعه عبد الله، ورأى الناس أن خير وسيلة لقطع حبل النزاع القرعة فاقترعا فخرج محمد بن طلحة، فتقدم وصلى بالناس وقرا في صلاته " سال سائل بعذاب واقع " وأثارت هذه الصور الهزيلة السخرية عليهم بين الناس، واندفعوا إلى نقدهم، وفي ذلك يقول الشاعر:

تبارى الغلامان إذ صليا * وشح على الملك شيخاهما
ومالي وطلحة وابن الزبير * وهذا بذي الجذع مولاهما
فأمهما اليوم غرتهما * ويعلي بن منية ولاهما (٢)

ان هذه البادرة تصور مدى تهالك القوم على الامرة والسلطان، وهم بعد في بداية الطريق فلو كتب لهم النجاح في القضاء على حكم الامام لفتح بعضهم على بعض باب الحرب للاستيلاء على زمام الحكم

رسل الامام إلى الكوفة:

وأوفد الامام رسله إلى أهل الكوفة يستنجد بهم، ويدعوهم إلى

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ / ١٥٧. (٢) الأغاني ١١ / ١٢٠

نصرته، والقيام معه لاخماد نار الفتنة التي أشعلها المتمردون، وأقبلت الرسل إلى الكوفة فوجدوا عاملها أبا موسى الأشعري يدعو إلى الفتنة، ويخذل الناس عن نصرة امامهم وبدعوهم إلى التمرد، ويحبب لهم العافية، ولم تكن لأبي موسى حجة في ذلك، وانما كان يعبر عن حقده، واضغانه على الامام وكان فيما أجمع عليه المؤرخون عثماني الهوى، وأقبلت رسل الامام على أبي موسى يعنفونه، ويلومونه، الا انه لم يعن بهم، فبعثوا إلى الامام رسالة ذكروا فيها تمرده وعدم استجابته لنداء الحق، وأرسل إليه الامام هاشم المرقال وهو من خيرة أصحاب الإمام، وزوده برسالة يطلب فيها مجئ أبي موسى إليه، ولما انتهى إليه هاشم وعرض عليه رسالة الامام لم يستجب له وبقي مصمما على عناده وعصيانه، فأرسل هاشم إلى الامام رسالة يخبره فيها بموقف أبي موسى، وتمرده فبعث الامام ولده الحسن وعمار بن ياسر ومعهما رسالة بعزله، وتعيين قرضة بن كعب الأنصاري في مكانه، ولما وصل الإمام الحسن إلى الكوفة التام الناس حوله زمرا، وهم يظهرون له الطاعة والولاء، وأعلن لهم عزل الوالي المتمرد وتعيين قرضة في منصبه الا ان أبا موسى بقي مصمما على غيه يثبط عزائم الناس ويدعوهم إلى التخاذل والخروج عن الطاعة ولم يستجب للإمام الحسن، ورأى الزعيم الكبير مالك الأشتر ان الامر لا يتم إلا باخراج أبي موسى مهان الجانب فجمع نفرا من قومه أولي بأس شديد فأغار بهم على قصر الامارة، واخذ الناس ينهبون أمتعته وأمواله، فاضطر الجبان إلى الاعتزال عن عمله، ومكث ليلته في الكوفة ثم خرج هاربا حتى أتى مكة فأقام مع المعتزلين.

ودعا الإمام الحسن (ع) الناس إلى الخروج لنصرة أبيه، وقد نفر معه آلاف كثيرة فريق منها ركب السفن، وفريق آخر ركب المطي، وهم مسرورون كأشد ما يكون السرور بنصرتهم للامام.

وطوت الجيوش البيداء تحت قيادة الإمام الحسن فانتهوا إلى ذي قار حيث كان الإمام (ع) مقيما هناك، وقد سر (ع) بنجاح ولده وشكر له مساعيه وجهوده، وانضمت جيوش الكوفة إلى الجيش الذي كان مع الامام، والبالغ عدده أربعة آلاف، وكان فيهم أربع مائة ممن شهد بيعة الرضوان مع النبي (ص) وقد أسند الامام قيادة ميمنة جيشه إلى الحسن، وقيادة ميسرته إلى الحسين (ع) (١) كما كانت جيوشه مزودة بأحسن السلاح، ويقول المؤرخون ان الحسين كان قد ركب فرس جده (ص) المسمى بالمرتجز (٢).

التقاء الجيشين:

وتحركت قوات الامام من ذي قار، وهي على بينة من أمرها فلم تكن مترددة ولا شاكة في أنها على الهدى والحق، وقد انتهت إلى مكان يسمى بالزاوية يقع قريبا من البصرة فأقام فيه الامام، وقد بادر إلى الصلاة وبعد ما فرغ منها أخذ يبكي ودموعه تسيل على سحنات وجهه الشريف وهو يتضرع إلى الله في أن يحقن دماء المسلمين، ويجنبه ويلات الحرب، ويجمع كلمة المسلمين على الهدى والحق.

رسل السلام:

وأوفد الإمام (ع) رسل السلام للقاء عائشة وهم زيد بن صوحان

---

(١) جواهر المطالب في مناقب الامام أبي الحسن (ص ٤٣) لشمس الدين أبي البركات من مصورات مكتبة الامام أمير المؤمنين.

(٢) وقعة الجمل (ص ٣٥) تأليف محمد بن زكريا بن دينار.

وعبيد الله بن العباس، ولما مثلا عندها: ذكراها بما أمرها الله أن تقر في بيتها وان لا تسفك دماء المسلمين وبالغا في نصيحتها ولو أنها وعت نصيحتهما لعادت على الناس بالخير العميم وجنبتهم كثيرا من المشاكل والفتن
إلا انها جعلت كلامهما دبر اذنيها وراحت تقول لهما:
" إني لا أرد على ابن أبي طالب بالكلام لأني لا أبلغه في الحجاج. " (١).
وبذل الامام قصارى جهوده في الدعوة إلى السلم، وعدم إراقة الدماء الا أن هناك بعض العناصر لم ترق لها هذه الدعوى وراحت تسعى لاشعال نار الحرب وتقويض دعائم السلم.
الدعوة إلى القران:
ولما باءت بالفشل جميع الجهود التي بذلها الامام من أجل حقن الدماء ندب الامام أصحابه، لرفع كتاب الله العظيم ودعوة القوم إلى العمل بما فيه، وأخبرهم أن من يقوم بهذه المهمة فهو مقتول فلم يستجب له أحد سوى فتى نبيل من أهل الكوفة فانبرى إلى الامام، وقال:
" أنا له يا أمير المؤمنين ".
فأشاح الامام بوجهه عنه، وطاف في أصحابه ينتدبهم لهذه المهمة فلم يستجب له أحد سوى ذلك الفتى فناوله الامام المصحف، فانطلق الفتى مزهوا لم يختلج في قلبه خوف ولا رعب، وهو يلوح بالكتاب أمام عسكر عائشة، قد رفع صوته بالدعوة إلى العمل بما فيه ولكن القوم قد دفعتهم الأنانية إلى الفتك به فقطعوا يمينه، فاخذ المصحف بيساره، وهو يناديهم بالدعوة إلى العمل بما فيه، فاعتدوا عليه وقطعوا يساره، فاخذ المصحف

---

(١) الفتوح ٢ / ٣٠٦

بأسنانه وقد نزف دمه، وراح يدعوهم إلى السلم وحقن الدماء قائلا:
" الله في دمائنا ودمائكم ".
وانثالوا عليه يرشقونه بنبالهم فوقع على الأرض جثة هامدة، فانطلقت إليه أمه تبكيه وترثيه بذوب روحها قائلة:
يا رب ان مسلما أتاهم * يتلو كتاب الله لا يخشاهم
فخضبوا من دمه لحاهم * وأمه قائمة تراهم
ورأى الامام بعد هذا الأعذر ان لا وسيلة له سوى الحرب فقال لأصحابه:
" الان حل قتالهم، وطاب لكم الضراب " (١) ودعا الامام حضين ابن المنذر وكان شابا فقال له:
" يا حضين دونك هذه الراية فوالله ما خفقت قط فيما مضى، ولا تخفق فيما بقي راية أهدى منها إلا راية خفقت على رسول الله (ص). ".
وفي ذلك يقول الشاعر:
لمن راية سوداء يخفق ظلها * إذا قيل قدمها حضين تقدما
يقدمها للموت حتى يزيرها * حياض المنايا يقطر الموت والدما (٢)

الحرب العامة:

ولما استيأس الامام من السلم عبا جيشه تعبئة عامة، وكذلك فعل أصحاب عائشة، وقد حملوها على جملها (عسكر) وأدخلت هودجها المصفح بالدروع، والتحم الجيشان التحاما رهيبا، ويقول بعض المؤرخين: ان

---

(١) مروج الذهب ٢ / ٢٤٦.
(٢) أنساب الأشراف ج ١ ق ١ ص ١٨٠.

الإمام الحسين قد تولى قيادة فرقة من فرق الجيش وأنه كان على الميسرة، وخاض المعركة ببسالة وصمود (١) وكان جمل عائشة فيما يقول بعض من شهد المعركة هو راية أهل البصرة يلوذون به كما يلوذ المقاتلون برياتهم، وقد حمل الامام عليهم وقد رفع العلم بيسراه، وشهر في يمينه ذا الفقار الذي طالما ذب به عن دين الله وحارب به المشركين على عهد رسول الله (ص). واقتتل الفريقان كاشد ما يكون القتال ضراوة يريد أصحاب عائشة أن يحرزوا النصر ويحموا أمهم ويريد أصحاب علي أن يحموا امامهم ويموتوا دونه.

مصرع الزبير:

وكان الزبير رقيق القلب شديد الحرص على مكانته من النبي (ص) الا أن حب الملك هو الذي أغراه ودفعه إلى الخروج على الامام يضاف إلى ذلك ولده عبد الله فهو الذي زج به في هذه المهالك، وباعد ما بينه وبين دينه وقد عرف الإمام (ع) رقة طبع الزبير فخرج إلى ميدان القتال ورفع صوته:

– أين الزبير؟

فخرج الزبير وهو شاك في سلاحه فلما رآه الامام بادر إليه واعتنقه وقال له بناعم القول:

– يا أبا عبد الله ما جاء بك ها هنا؟؟

– جئت أطلب دم عثمان.

فرمقه الامام بطرفه وقال له:

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣ / ١٩٣.

- تطلب دم عثمان،!!
- نعم.
- قتل الله من قتل عثمان.
وأقبل عليه يحدثه برفق، قائلا:
" أنشدك الله يا زبير، هل تعلم أنك مررت بي وأنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وهو متكئ على يدك، فسلم علي رسول الله، وضحك إلي، ثم التفت إليك فقال لك: يا زبير إنك تقاتل عليا وأنت له ظالم.. ".
وتذكر الزبير ذلك وقد ذهبت نفسه أسى وحسرات، وندم أشد ما يكون الندم على موقفه هذا والتفت إلى الامام وهو يصدق مقالته:
- اللهم نعم.
- فعلام تقاتلني؟
- نسيتها والله. ولو ذكرتها، ما خرجت إليك ولا قاتلتك (١).
- ارجع.
- كيف ارجع، وقد التقت حلقتا البطان هذا والله العار الذي لا يغسل؟
- ارجع قبل أن تجمع العار والنار.
وألوى عنان فرسه، وقد ملكت الحيرة والقلق أهابه، وراح يقول:
اخترت عارا على نار مؤججة * ما إن يقوم لها خلق من الطين
نادى علي بأمر لست أجهله * عار لعمرك في الدنيا وفي الدين
فقلت حسبك من عذل أبا حسن * فبعض هذا الذي قد قلت يكفيني (٢)
وقفل الامام راجعا إلى أصحابه فقالوا له: تبرز إلى زبير حاسرا،

---

(١) الإمامة والسياسة ١ / ٧٣.
(٢) مروج الذهب ٢ / ٢٤٧.

وهو شاك السلاح، وأنت تعرف شجاعته!! فقال (ع):
" انه ليس بقاتلي، انما يقتلني رجل خامل الذكر ضئيل النسب غيلة في غير مأقط (١) حرب ولا معركة رجال، ويل أمه أشقى البشر ليود أن أمه هبلت به، أما أنه وأحمر ثمود لمقرونان في قرن... " (٢).
واستجاب الزبير لنداء الامام فاتجه صوب عائشة فقال لها:
" يا أم المؤمنين إني والله ما وقفت موقفا قط الا عرفت أين أضع قدمي فيه الا هذا الموقف؟!! فاني لا أدري أمقبل أنا فيه أم مدبر.؟ "
وعرفت عائشة تغيير فكرته وعزمه على الانسحاب من حومة الحرب فقالت له باستهزاء وسخرية مثيرة عواطفه.
" يا أبا عبد الله خفت سيوف بني عبد المطلب؟!! ".
وعاثت هذه السخرية في نفسه فالتفت إليه ولده عبد الله فعيره بالجبن قائلا:
" انك خرجت على بصيرة، ولكنك رأيت رايات ابن أبي طالب، وعرفت ان تحتها الموت فجبنت؟!! ".
انه لم يخرج على بصيرة ولا بينة من أمره، وانما خرج من أجل الملك والسلطان، والتاع الزبير من حديث ولده فقال له:
- ويحك اني قد حلفت له أن لا أقاتله.
- كفر عن يمينك بعتق غلامك سرجس.
فأعتق غلامه وراح يجول في ميدان الحرب ليرى ولده شجاعته ويوضح له أنه انما فر بدينه لا جبنا ولا خورا، ومضى منصرفا على وجهه حتى أتى وادي السباع، وكان الأحنف بن قيس مع قومه مقيمين هناك،

---

(١) الماقط: ساحة القتال.
(٢) شرح النهج ١ / ١٣٥.

فتبعه ابن جرموز فأجهز عليه وقتله غيلة، وحمل مقتله إلى الامام فحزن عليه كاشد ما يكون الحزن، ويقول الرواة: انه أخذ سيفه وهو يقول:
سيف طالما جلا الكروب عن وجه رسول الله (ص) وعلي أي حال لقد كانت النهاية الأخيرة للزبير تدعو إلى الأسف والأسى، فقد تمرد على الحق وأعلن الحرب على وصي رسول الله (ص) وباب مدينة علمه.

مصرع طلحة:

وخاض طلحة المعركة، وهو يحرض جيشه على الحرب فيصر به مروان بن الحكم فرماه بسهم طلبا بثار عثمان، فوقع على الأرض يتخبط بدمه، وكان مروان يقول لبعض ولد عثمان لقد كفيتك ثار أبيك من طلحة وأمر طلحة مولاه أن يأوي به إلى مكان ينزل فيه فأوى به بعد مشقة إلى دار خربة من دور البصرة فهلك فيها بعد ساعة.

قيادة عائشة للجيش:

وتولت عائشة قيادة الجيش بعد هلاك الزبير وطلحة، وقد تفانت بنو ضبة والأزد، وبنو ناجية في حمايتها، ويقول المؤرخون انهم هاموا بحبها فكانوا يأخذون بعر جملها ويشمونه، ويقولون: بعر جمل أمنا ريحه ريح المسك. وكانوا محدقين به لا يريدون فوزا ولا انتصارا سوى حمايتها وان راجزهم يرتجز:

يا معشر الأزد عليكم أمكم * فإنها صلاتكم وصومكم

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٩٧.

والحرمة العظمى التي تعمكم * فأحضروها جدكم وحزمكم
لا يغلبن سم العدو سمكم * إن العدو ان علامكم زمكم
وخصكم بجوره وعمكم * لا تفضحوا اليوم فداكم قومكم (١)
وكانت تحرض على الحرب كل من كان على يمينها ومن كان على شمالها، ومن كان أمامها قائلة: انما يصبر الأحرار، وكان أصحاب الإمام يلحون على أصحاب عائشة بالتخلي عنها وراجزهم يرتجز:
يا أمنا أعق أم نعلم * والام تغذو ولدها وترحم
أما ترين كم شجاع يكلم * وتختلي منه يد ومعصم
وكان أصحاب عائشة يردون عليهم ويقولون:
نحن بني ضبة أصحاب الجمل * ننازل القرن إذا القرن نزل
والقتل أشهى عندنا من العسل * نبغي ابن عفان بأطراف الأسل
ردوا علينا شيخنا ثم بجل
واشتد القتال كاشد وأعنف ما يكون القتال، وكثرت الجرحى وملئت أشلاء القتلى وجه الأرض.

عقر الجمل:

ورأى الامام ان الحرب لا تنتهي ما دام الجمل موجودا، فصاح (ع) بأصحابه اعقروا الجمل فان في بقائه فناء العرب، وانعطف عليه الحسن فقطع يده اليمنى وشد عليه الحسين فقطع يده اليسرى (٢) فهوى إلى جنبه وله عجيج منكر لم يسمع مثله، وفر حماة الجمل في البيداء فقد تحطم صنمهم

---

(١) شرح النهج ٢ / ٨١.
(٢) وقعة الجمل (ص ٤٤) لمحمد بن زكريا.

الذي قدموا له هذه القرابين، وأمر الامام بحرقه وتذرية رماده في الهواء لئلا تبقى منه بقية يفتتن بها السذج والبسطاء، وبعد الفراغ من ذلك قال: " لعنه الله من دابة فما أشبهه بعجل بني إسرائيل!! ".

ومد بصره نحو الرماد الذي تناهبه الهواء فتلا قوله تعالى: " وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا ".

وبذلك فقد وضعت الحرب أوزارها، وكتب النصر للامام وأصحابه وباءت القوى الغادرة بالخزي والخسران.

وأوفد الامام للقيا عائشة الحسن والحسين ومحمد بن أبي بكر (١) فانطلقوا إليها فمد محمد يده في هودجها فجفلت منه، وصاحت به.

- من أنت؟
- أبغض أهلك إليك.
- ابن الخثعمية؟
- نعم أخوك البر.
- عقوق
- هل أصابك مكروه؟
- سهم لم يضرني.

فانتزعه منها، وأخذ بحطام هودجها، وأدخلها في الهزيع الأخير من الليل إلى دار عبد الله بن خلف الخزاعي على صفية بنت الحارث فأقامت فيه أياما.

العفو العام:

وسار علي في أهل البصرة سيرة رسول الله (ص) في أهل مكة

---

(١) وقعة الجمل (ص ٤٥).

- كما قال (ع) - فامن الأسود والأحمر - على حد تعبير اليعقوبي - (١) ولم ينكل باي أحد من خصومه، وجلس للناس فبايعه الصحيح منهم والجريح ثم عمد إلى بيت المال فقسم ما وجد فيه على الناس بالسواء، وسار (ع) إلى عائشة فبلغ دار عبد الله بن خلف الخزاعي الذي أقامت فيه عائشة، فاستقبلته صفية بنت الحارثة شر لقاء فقالت له: يا علي يا قاتل الأحبة أيتم الله بنيك كما أيتمت بني عبد الله، وكان قد قتلوا في المعركة مع عائشة فلم يجبها الامام ومضى حتى دخل على عائشة، فأمرها أن تغادر البصرة وتمضي إلى يثرب لتقر في بيتها كما أمرها الله، ولما انصرف أعادت عليه صفية القول الذي استقبلته به فقال لها: لو كنت قاتل الأحبة لقتلت من في هذا البيت، وهو يشير إلى أبواب الحجرات المقفلة، وكان فيها كثير من الجرحى، وغيرهم من أعضاء المؤامرة، قد آوتهم عائشة، فسكتت صفية، وأراد من كان مع الامام أن يبطشوا بهم فزجرهم زجرا عنيفا، وبذلك فقد منح العفو لأعدائه وخصومه.

وسرح الامام عائشة تسريحا جميلا، وأرسل معها جماعة من النساء بزي الرجال لتقر في بيتها حسب ما أمرها الله، وقد رحلت عائشة من البصرة وأشاعت في بيوتها الثكل والحزن والحداد، يقول عمير بن الأهلب الضبي وهو من أنصارها:

لقد أورثتنا حومة الموت أمنا * فلم تنصرف الا ونحن رواء
أطعنا بني تميم لشقوة جدنا * وما تيم الا أعبد وإماء (٢)

لقد أوردت أم المؤمنين أبناءها حومة الموت، فقد كان عدد الضحايا من المسلمين فيما يقول بعض المؤرخين عشرة آلاف نصفهم من أصحابها،

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ / ١٥٩.
(٢) مروج الذهب ٢ / ٢٥٦.

والنصف الاخر من أصحاب الإمام (١) وكان من أعظم الناس حسرة آلاما لعلمه بما تجر هذه الحرب من المصاعب والمشاكل.

متارك الحرب

وأعقبت حرب الجمل أفدح الخسائر، وأعظم الكوارث التي ابتلي بها المسلمون ومن بينها ما يلي.

١ - انها مهدت السبيل لمعاوية لمناجزة الامام، والتصميم على قتاله، فقد تبنى شعار معركة الجمل وهو المطالبة بدم عثمان ولولا حرب الجمل لما استطاع معاوية أن يعلن العصيان والتمرد على حكم الامام.

٢ - انها أشاعت الفرقة والاختلاف بين المسلمين، فقد كانت روح المودة والألفة سائدة فيهم قبل حرب الجمل، وبعدها انتشرت البغضاء بين افراد الأسر العربية فقبائل ربيعة واليمن في البصرة أصبحت تكن أعمق البغض والكراهية لإخوانهم من ربيعة وقبائل اليمن في الكوفة وتطالبها بما أريق من دماء أبنائها بل أصبحت الفرقة ظاهرة شائعة حتى في البيت الواحد فبعض أبنائه كانوا شيعة لعلي والبعض الاخر كانوا شيعة لعائشة، ويقول المؤرخون: ان البصرة بقيت محتفظة بولائها لعثمان حفنة من السنين، وان الإمام الحسين (ع) انما لم ينزح إليها لما عرفت به من الولاء لعثمان.

٣ - انها أسقطت هيبة الحكم، وجرأت على الخروج عليه، فقد تشكلت الأحزاب النفعية، التي لأهم لها الا الاستيلاء على السلطة والظفر بخيرات البلاد، حتى كان التطاحن على الحكم من أبرز سمات ذلك العصر.

---

(١) تاريخ الطبري ٥ / ٢٢٤ وفي رواية أبى العلاء في نساب الاشراف ج ١ ق ١ ص ١٨٠ ان عدد الضحايا عشرون ألفا.

٤ – انها فتحت باب الحرب بين المسلمين، وقبلها كان المسلمون يتحرجون أشد ما يكون التحرج في سفك دماء بعضهم بعضا.
٥ – انها عملت على تأخير الاسلام، وشل حركته، وايقاف نموه، فقد انصرف الامام بعد حرب الجمل إلى مقاومة التمرد والعصيان الذي أعلنه معاوية وغيره من الطامعين في الحكم مما أدى إلى أفدح الخسائر التي مني بها الاسلام، يقول الفيلسوف (ولز): ان الاسلام كان ان يفتح العالم أجمع لو بقي سائرا سيرته الأولى، لو لم تنشب في وسطه من أول الامر الحرب الداخلية، فقد كان هم عائشة ان تقهر عليا قبل كل شئ. " (١)
٦ – واستباحت هذه الحرب حرمة العترة الطاهرة التي قرنها النبي (ص) بمحكم التنزيل، وجعلها سفن النجاة، وامن العباد، فمنذ ذلك اليوم شهرت السيوف في وجه عترة النبي (ص) واستحل الأوغاد إراقة دمائهم، وسبي ذراريهم فلم يرع بنو أمية في وقعة كربلا اي حرمة للنبي (ص) في أبنائه، وانتهكوا معهم جميع الحرمات.
هذه بعض متارك حرب الجمل التي جرت للمسلمين أفدح الخسائر في جميع فترات التاريخ.
القاسطون:
ولم يكد يفرغ الإمام (ع) من حرب الناكثين كما أسماهم رسول الله (ص) حتى جعل يتأهب لحرب القاسطين الذين أسماهم النبي (ص) بذلك، ورأى الامام ان يغادر البصرة إلى الكوفة ليستعد لحرب عدو عنيف هو معاوية بن أبي سفيان الذي حارب رسول الله (ص) وأبلى في حربه أشد

---

(١) شيخ المضيرة (ص ١٧٣).

البلاء وأقواه، ولم يكن معاوية بأقل تنكرا للاسلام وبغضا لأهله من أبيه، وكان المسلمون الأولون ينظرون إليهما نظرة ريبة وشك في اسلامهما، وقد استطاع بمكره ودهائه أن يغزو قلب الخليفة الثاني، ويحتل المكانة المرموقة في نفسه فجعله واليا على الشام، وظل يبالغ في تسديده وتأييده، وبعد وفاته أقره عثمان وزاد في رقعة سلطانه، وظل معاوية في الشام يعمل عمل من يريد الملك والسلطان فأحاط نفسه بالقوة واشترى الضمائر، وسخر اقتصاد بلاده في تدعيم سلطانه، وبعد الاحداث التي ارتكبها عثمان علم معاوية أنه مقتول لا محالة، فاستغاث به عثمان حينما حوصر فأبطأ في نصره، وظل متربصا حتى قتل ليتخذ من قميصه ودمه وسيلة للتشبث بالملك، وقد دفعه إلى ذلك حرب الجمل التي كان شعارها المطالبة بدم عثمان، فاتخذه خير وسيلة للتذرع لنيل الملك ويقول المؤرخون انه استعظم قتل عثمان وهول أمره، وراح يبني ملكه على المطالبة بدمه.

وكان الإمام (ع) محتاطا في دينه كاشد ما يكون الاحتياط فلم يصانع، ولم يحاب، وانما سار على الطريق الواضح، فامتنع أن يستعمل معاوية على الشام لحظة واحدة لان في اقراره على منصبه تدعيمها للظلم وتركيزا للجور.

وعلى اي حال فان الامام بعد حرب الجمل قد غادر البصرة مع قواته المسلحة، واتجه إلى الكوفة ليتخذها عاصمة ومقرا له، واتجه فور قدومه إليها يعمل على تهيأة وسائل الحرب لمناهضة عدوه العنيف الذي يتمتع بقوى عسكرية هائلة أجمعت على حبه ونصرته، وكان الشني يحرض الامام ويحفزه على حرب أهل الشام، بعد ما أحرزه من النصر في وقعة الجمل وقد قال له:

قل لهذا الامام قد خبت الحر * ب وتمت بذلك النعماء
وفرغنا من حرب من نكث * العهد وبالشام حية صماء

تنفث السم ما لمن نهشته * - فارمها قبل ان تعض - شفاء (١)

ايفاد جرير:

وقبل أن يعلن الامام الحرب على غول الشام أوفد للقياه جرير بن عبد الله البجلي يدعوه إلى الطاعة والدخول فيما دخل فيه المسلمون من مبايعته وقد زوده برسالة (٢) دعاه فيها إلى الحق من أقصر سبيله، وبأوضح أساليبه، وفيها الحكمة الهادية لمن أراد الهداية، وشرح الله صدره، وفجر في فؤاده ينبوع النور، وانتهى جرير إلى معاوية فسلمه رسالة الامام، وألح عليه في الوعظ والنصيحة، وكان معاوية يسمع منه ولا يقول له شيئا، وانما اخذ يطاوله ويسرف في مطاولته، لا يجد لنفسه مهربا سوى الامهال والتسويف.

معاوية مع ابن العاص:

ورأى معاوية انه لن يستطيع التغلب على الاحداث الا إذا انضم إليه داهية العرب عمرو بن العاص فيستعين به على تدبير الحيل، ووضع المخططات التي تؤدي إلى نجاحه في سياسته فراسله طالبا منه الحضور إلى دمشق، وكان ابن العاص فيما يقول المؤرخون: قد وجد على عثمان حينما عزله عن مصر، فكان يؤلب الناس عليه، ويحرضهم على الوقيعة به، وهو ممن مهد للفتنة والثورة عليه، ولما أيقن بحدوث الانقلاب عليه خرج إلى ارض

---

(١) الاخبار الطوال (ص ١٤٥).

(٢) الرسالة في وقعة صفين (ص ٣٤)

كان يملكها بفلسطين فأقام فيها، وجعل يتطلع الاخبار عن قتله.
ولما انتهت رسالة معاوية إلى ابن العاص تحير في أمره فاستشار ولديه عبد الله ومحمدا أما عبد الله فكان رجل صدق وصلاح فأشار عليه ان يعتزل الناس ولا يجيب معاوية إلى شئ حتى تجتمع الكلمة ويدخل فيما دخل فيه المسلمون واما ابنه محمد فقد طمع فيما يطمع فيه فتيان قريش من السعة والتقدم، وذيوع الاسم، فقد أشار عليه بان يلحق بمعاوية لينال من دنياه. فقال عمرو لولده عبد الله! أما أنت فأمرتني بما هو خير لي في ديني، وقال لولده محمد: أما أنت فأمرتني بما هو خير لي في دنياي، واتفق ليله ساهرا يفكر في الامر هل يلتحق بعلي فيكون رجلا كسائر المسلمين له مالهم وعليه ما عليهم من دون ان ينال شيئا من دنياه، ولكنه يضمن امر آخرته أو يكون مع معاوية فيظفر بتحقيق ما يصبو إليه في الدنيا من الثراء العريض، وهو لم ينس ولاية مصر فكان يحن إليها حنينا متصلا، وقد أثر عنه تلك الليلة من الشعر ما يدل على الصراع النفسي الذي خامره تلك الليلة.
ولم يسفر الصبح حتى آثر الدنيا على الآخرة فاستقر رأيه على الالتحاق بمعاوية، فارتحل إلى دمشق ومعه ابناه فلما بلغها جعل يبكي امام أهل الشام كما تبكي المرأة وهو يقول:
" وا عثماناه أنعى الحياء والدين " (١).
قاتلك الله يا بن العاص أأنت تبكي على عثمان وأنت الذي أوغرت عليه الصدور واثرت عليه الأحقاد، وكنت تلفي الراعي فتحرضه عليه سفك دمه الصدور واثرت عليه الأحقاد، وكنت تلفي الراعي فتحرضه عليه حتى سفك دمه لقد بلغ التهالك على السلطة في ذلك العصر مبلغا انسى الناس دينهم فاقترفوا في سبيل ذلك كل ما حرمه الله.
ولما التقى ابن العاص بمعاوية فتح معه الحديث في حربه مع الامام فقال ابن العاص:

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ١٢٩.

" أما علي فوالله لا تساوي العرب بينك وبينه في شئ من الأشياء وان له في الحرب لحظا ما هو لاحد من قريش إلا ان تظلمه ".
واندفع معاوية يبين دوافعه في حربه للامام قائلا:
" صدقت ولكنا نقاتله على ما في أيدينا، ونلزمه قتلة عثمان ".
واندفع ابن العاص ساخرا منه قائلا:
- وا سوأتاه ان أحق الناس أن لا يذكر عثمان أنت!!
- ولم ويحك؟!!
- أما أنت فخذلته ومعك أهل الشام حتى استغاث بيزيد بن أسد البجلي فسار إليه وأما أنا فتركته عيانا وهربت إلى فلسطين... (١).
واستيقن معاوية ان ابن العاص لا يخلص له، ورأى أن من الحكمة أن يستخلصه ويعطيه جزاءه من الدنيا، فصارحه قائلا:
- أتحبني يا عمرو؟
- لماذا؟ للآخرة فوالله ما معك آخرة، أم للدنيا. فوالله لا كان حتى أكون شريكك فيها.
- أنت شريكي فيها؟
- اكتب لي مصر وكورها.
- لك ما تريد.
فسجل له ولاية مصر، وجعلها ثمنا لانضمامه إليه (٢) في مناهضته لوصي رسول الله (ص) وقد ظفر بداهية من دواهي العرب وبشيخ من شيوخ قريش قد درس أحوال الناس، وعرف كيف يتغلب على الاحداث.

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ / ١٦٢.
(٢) العقد الفريد ٣ / ١١٣.

رد جرير:
ولما اجتمع لمعاوية أمره واحكم وضعه رد جرير، وأرسل معه إلى الامام رسالة حمله فيها المسؤولية في إراقة دم عثمان، وعرفه باجماع أهل الشام على حربه إن لم يدفع له قتلة عثمان، ويجعل الامر شورى بين المسلمين.
وارتحل جرير إلى الكوفة فأنبأ عليا بامتناع معاوية عليه، وعظم له أمر أهل الشام، ورأى الامام ان يقيم عليه الحجة مرة أخرى فبعث له سفراء آخرين يدعونه إلى الطاعة والدخول فيما دخل فيه المسلمون إلا أن ذلك لم يجد شيئا فقد أصر معاوية على غيه وعناده حينما أيقن ان له القدرة على مناجزة الامام ومناهضته.
قميص عثمان:
وألهب معاوية بمكره وخداعه قلوب السذج والبسطاء من أهل الشام حزنا واسى على عثمان فكان ينشر قميصه الملطخ بدمائه على المنبر فيضجون بالبكاء والعويل، واستخدم الوعاظ فجعلوا يهولون أمره، ويدعون الناس إلى الاخذ بثاره، وكان كلما فتر حزنهم عليه يقول له ابن العاص بسخرية واستهزاء:
" حرك لها حوارها تحن.. ".
فيخرج إليهم قميص عثمان فيعود لهم حزنهم، وقد أقسموا أن لا يمسهم الماء إلا من الاحتلام، ولا يأتون النساء، ولا ينامون على الفراش

حتى يقتلوا قتلة عثمان (١) وكانت قلوبهم تتحرق شوقا إلى الحرب للاخذ بثاره، وقد شحن معاوية أذهانهم بان عليا هو المسؤول عن إراقة دمه، وانه قد آوى قتلته، وكانوا يستنهضون معاوية للحرب، ويستعجلونه أكثر منه.

زحف معاوية لصفين:

وعلم معاوية أنه لابد من الحرب لان الامام لا يحاب ولا يداهن في دينه، فلا يقره على ولاية الشام، ولا يسند له أي منصب من مناصب الدولة، وانما يقصيه عن جميع أجهزة الحكم لما يعرفه عنه من الالتواء في دينه وسار معاوية في جموع أهل الشام، وقدم بين يديه الطلائع، وقد أنزل أصحابه أحسن منزل، وأقربه إلى شريعة الفرات، وقد احتل الفرات وعد هذا أول الفتح لأنه حبس الماء على عدوه، وبقيت جيوشه رابضة هناك تصلح أمرها، وتنضم قواها استعدادا للحرب.

زحف الامام للحرب:

وتهيأ الامام للحرب وقام الخطباء في الكوفة يحفزون الناس للجهاد ويحثونهم على مناجزة معاوية بعدما أحرزوه من النصر الكبير في معركة الجمل، وقد خطب فيهم الإمام الحسين (ع) خطابا رائعا ومثيرا، قال فيه بعد حمد الله والثناء عليه:

" يا أهل الكوفة أنتم الأحبة الكرماء، والشعار دون الدثار جدوا في

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ١٤١.

اطفاء ما دثر بينكم، وتسهيل ما توعر عليكم إلا أن الحرب شرها ذريع، وطعمها فظيع فمن أخذلها أهبتها واستعد لها عدتها، ولم يألم كلومها قبل حلولها فذاك صاحبها، ومن عاجلها قبل أوان فرصتها واستبصار سعيه فيها فذاك قمن ألا ينفع قومه، وان يهلك نفسه نسأل الله بقوته ان يدعمكم بالفيئة. " (١)

وحفل هذا الخطاب بالدعوة إلى استعجال الحرب والاستعداد الشام لها، والامعان في وسائلها فان ذلك من موجبات النصر، ومن وسائل التغلب على الأعداء، وان اهمال ذلك، وعدم الاعتناء به مما يوجب الهزيمة والاندحار، ودل هذا الخطاب على خبرة الامام الواسعة في الشؤون العسكرية والحربية.

وتهيأ الناس بعد خطاب سبط النبي (ص) إلى الحرب وأخذوا يجدون في تنظيم قواهم، ولما تمت عدتهم زحف بهم الامام أمير المؤمنين لحرب ابن أبي سفيان، وقد قدم طلائعه، وأمرهم ان لا يبدأوا أهل الشام بقتال حتى يدركهم.

وزحف كتائب الجيش العراقي كأنها السيل، وهي على يقين أنها انما تحارب القوى الباغية على الاسلام، والمعادية لأهدافه، وقد جرت في أثناء مسيرة الامام أحدث كثيرة لا حاجة إلى إطالة الكلام بذكرها فانا لا نقصد بهذه البحوث ان نلم بها، وانما نشير إليها بايجاز.

احتلال الفرات:

ولم يجد أصحاب الإمام شريعة على الفرات يستقون منها الماء الا وهي

---

(١) شرح النهج ٣ / ١٨٦.

محاطة بالقوى المكثفة من جيش معاوية يمنعونهم أشد المنع من الاستسقاء من الماء ولما رأى الامام ذلك أوفد رسله إلى معاوية يطلبون منه أن يخلي بينهم وبين الماء ليشربوا منه، فلم تسفر مباحثهم معه أي شئ، وانما وجدوا منه اصرارا على المنع يريد أن يحرمهم منه كما حرموا عثمان من الماء، وأضر الظما بأصحاب الامام، وانبرى الأشعث بن قيس يطلب الاذن من الامام أن يفتح باب الحرب، يقهر القوى المعادية على التخلي عن الفرات فلم يجد الامام بدا من ذلك فاذن له، فاقتتل الفريقان كاشد ما يكون القتال وكتب النصر لقوات الامام فاحتلت الفرات، وأراد أصحاب الإمام أن يقابلوهم بالمثل فيحرمونهم منه، كما صنعوا ذلك معهم، ولكن الامام لم يسمح لهم بذلك، وعمل معهم عمل المحسن الكريم فخلى بينهم وبين الماء.

لقد كان اللؤم والخبث من عناصر الأمويين وذاتياتهم فقد أعادوا على صعيد كربلاء ما اقترفوه من الجريمة في صفين فحالوا بين الإمام الحسين وبين الماء وتركوا عقائل الوحي ومخدرات الرسالة، وصبية أهل البيت قد صرعهم العطش، ومزق الظما قلوبهم، فلم يستجيبوا لأية نزعة انسانية، ولم ترق قلوبهم فيعطفوا عليهم بقليل من الماء.

رسل السلام:

وكان الامام متحرجا كاشد ما يكون التحرج في سفك دماء المسلمين فقد جهد على نشر السلام والوئام فأوفد إلى معاوية عدي بن حائم، وشبث ابن ربعي، ويزيد بن قيس، وزياد بن حفصة يدعونه إلى حقن دماء المسلمين، ويذكرونه الدار الآخرة، ويحذرونه أن ينزل به ما نزل بأصحاب الجمل، ولكن ابن هند لم يستجب لذلك وأصر على الغي والتمرد، وقد

حمل الامام المسؤولية في قتل عثمان بن عفان، وقد دفعه إلى العصيان ما يتمتع به من القوى العسكرية واتفاق كلمتها واصرارها على الطلب بدم عثمان.
ورجعت رسل السلام وقد أخفقت في سفارتهم، واستبان لها أن معاوية مصمم على الحرب، ولا رغبة له في الصلح، وأحاطوا الإمام (ع) علما بذلك فجعل يتهيأ للحرب، ويدعو الناس إلى القتال.

الحرب:

وعبا الامام أصحابه على راياتهم، واستعد للقتال، وقد أمر أصحابه أن لا يبدأوهم بقتال كما عهد لهم في حرب الجمل، وان لا يقتلوا مدبرا ولا يجهزوا على جريح، ولا يمثلوا بقتيل، ولا يهيجوا امرأة إلى غير ذلك من الوصايا التي تمثل شرف القيادة العسكرية في الاسلام.
وجعلت فرق من جيش الامام تخرج إلى فرق من جيش معاوية فيقتتل الفريقان نهارا كاملا أو طرفا منه، ثم يتحاجزان من دون أن تقع حرب عامة بينهما وقد رجا الامام بذلك أن يثوب معاوية إلى الصلح وحقن الدماء، ودام الامر على هذا حفنة من الأيام من شهر ذي الحجة فلما أطل شهر الحرام، وهو من الأشهر التي يحرم فيها القتال في الجاهلية والاسلام، توادعوا شهرهم كله، وأتيح للفريقين أن يقتلوا آمنين، وقد آمن بعضهم بعضا ولم تقع بينهم أي حرب، وقد سعت بينهم سفراء السلم إلا أنها أخفقت في سعيها، وقد احتدم الجدال بين الفريقين فأهل العراق يدعون أهل الشام إلى جمع الكلمة وحقن الدماء، ومبايعة وصي رسول الله (ص) والدخول فيما دخل فيه المسلمون، وأهل الشام يدعون العراقيين إلى الطلب بدم عثمان ورفض بيعة الامام، وإعادة الامر شورى بين المسلمين.

ولما انقضى شهر محرم مضى القوم على الحرب، ولكنها لم تكن عامة وانما كانت منقطعة تخرج الكتيبة للكتيبة، والفرقة للفرقة.
وسئم الفريقان هذه الحرب المتقطعة، وتعجلوا الحرب العامة فعبأ الامام جيوشه تعبأة عامة، وكذلك فعل معاوية، والتحم الجيشان التحاما رهيبا، واقتتلوا أبرح قتال وأعنفه، وانكشفت ميمنة جيش الامام انكشافا بلغ الهزيمة فقاتل الامام ومعه الحسن والحسين (١) وانحاز الامام إلى ميسرة جيشه من ربيعة، فاستماتت ربيعة دون الامام، وكان قائلهم يقول: لا عذر لكم بعد اليوم عند العرب إن أصيب أمير المؤمنين وهو فيكم، وتحالفت ربيعة على الموت، وصمدت في الحرب، ورجعت ميمنة الامام إلى حالها بفضل الزعيم مالك الأشتر، واستمرت الحرب بأعنف ما يتصور وقد ظهر الضعف وبان الانكسار في جيش معاوية، وهم معاوية بالفرار لولا أنه تذكر قول ابن الاطنابة:

أبت لي همتي وأبى بلائي * وأقدمي على البطل المشيح
واعطائي على المكروه مالي * وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وقولي كلما جشات وجاشت * مكانك تحمدي أو تستريحي

وقد رده هذا الشعر إلى الصبر والثبات، كما كان يتحدث بذلك أيام الملك والسلطان.

منع الحسنين من الحرب:

ومنع الامام أمير المؤمنين سبطي رسول الله (ص) من الاشتراك في عمليات الحروب، فقال (ع): " املكوا عني هذين الغلامين - يعني

---

(١) أنساب الأشراف ج ١ ق ١.

الحسن والحسين - لئلا ينقطع بهما نسل رسول الله (ص) " (١).
لقد حرص الإمام (ع) على ريحانتي رسول الله (ص) لان بهما امتدادا لنسله وابقاء لذريته.
مصرع عمار:
وعمار بن ياسر من ألمع أصحاب النبي وأكثرهم جهادا وبلاءا في الاسلام، وقد شايع عليا ولازمه بعد وفاة النبي (ص) فقد أيقن أنه مع الحق والحق معه كما قال فيه النبي (ص) وكان في أيام صفين شيخا قد نيف على التسعين عاما، ولكن قلبه وبصيرته كانت بمأمن من الشيخوخة فقد كان في تلك المعركة كأنه في ريعان الشباب، وكان يحارب راية ابن العاص، وهو يشير إليها قائلا: " والله إن هذا الراية قاتلتها ثلاث عركات وما هذه بأرشدهن " وكان يقول لأصحابه لما رأى انكشافهم في المعركة: والله لو ضربونا حتى يبلغونا سعفان هجر لعلمنا أنا على الحق، وانهم على الباطل.
ويقول الرواة: إنه جلس مبكرا في يوم من أيام صفين، وقد ازداد قلبه شوقا إلى ملاقاة رسول الله (ص) وملاقاة أبويه، فخف إلى الامام مسرعا يطلب منه الاذن في أن يلج الحرب لعله يرزق الشهادة فلم يسمح له الامام بذلك، وظل يعاود الامام مستأذنا، فلم تطب نفس الامام بذلك وراح يلح عليه فاذن له، وأجهش الامام بالبكاء حزنا وموجدة عليه.
وانطلق عمار إلى ساحات الحرب وهو موفور القوى، قد استرد نشاطه وهو جذلان فرح بما يصير إليه من الشهادة، وقد رفع صوته عاليا:

---

(١) نهج البلاغة.

" اليوم ألقى الأحبة محمدا وحزبه. "
وكان صاحب الراية في الكتيبة التي يقاتل فيها عمار هو هاشم بن عتبة المرقال وكان من فرسان المسلمين وخيارهم وأحبهم للامام وأخلصهم له وكان أعور، فاتجه نحوه عمار فجعل تارة يدفعه بعنف إلى الحرب ويقول له: تقدم يا أعور، وأخرى يرفق به أشد الرفق ويقول له: احمل فداك أبي وأمي، وهاشم يقول له: رحمك الله يا أبا اليقظان انك رجل تستخف الحرب، واني انما أزحف لعلي أبلغ ما أريد، وضجر هاشم فحمل وهو يرتجز:

قد أكثروا لومي وما أقلا * إني شريت النفس لن اعتلا
أعور يبغي نفسه محلا * لابد أن يفل أو يفلا
قد عالج الحياة حتى ملا * أشلهم بذي الكعوب شلا

وقد دال هذا الرجل على تصميمه على الموت، وسئمه من الحياة، وجال في ميدان القتال، وعمار معه يقاتل ويرتجز:

نحن ضربنا كم على تنزيله * واليوم نضربكم على تأويله
ضربا يزبل الهام عن مقيله * ويذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق إلى سبيله

لقد قاتل عمار بايمان واخلاص المشركين مع رسول الله (ص) وناضل كاشد ما يكون النضال دفاعا عن كلمة التوحيد، وقاتل أعنف القتال مع أخي رسول الله (ص) دفاعا عن تأويل القران ودفاعا عن امام المسلمين فما أعظم عائدة عمار وألطافه على الاسلام.

والتحم عمار مع القوى الغادرة التحاما رهيبا، وحمل عليه رجس من أرجاس البشرية يسمى أبو الغادية فطعنه برمحه طعنة قاتلة، فهوى إلى الأرض ذلك الصرح الشامخ من العقيدة والايمان يتخبط بدمائه الزكية،

وقد أضر به العطش فبادرت إليه امرأة بلبن، فلما رآه تبسم، وأيقن بدنو أجله، وراح يقول بنبرات هادئة مطمئنة:
قال لي رسول الله (ص): آخر شرابك من الدنيا ضياح من لبن وتقتلك الفئة الباغية.
ولم يلبث قليلا حتى لفظ أنفاسه الأخيرة، وانطوت بموته أروع صفحة مشرقة من الايمان والجهاد، وارتفع ذلك العملاق الذي أضاء الحياة الفكرية باخلاصه واندفاعه نحو الحق.
وكان الامام أمير المؤمنين (ع) برحا لم يقر له قرار حينما برز عمار إلى ساحة الجهاد، فكان يقول: فتشوا لي عن ابن سمية، وانطلقت فصيلة من الجند تبحث عنه، فوجدوه قتيلا مضمخا بدم الشهادة فانبروا مسرعين إلى الامام فأخبروه بشهادته، فانهد ركته، وانهارت قواه، وسرت موجات من الألم القاسي في محياه، فقد غاب عنه الناصر والأخ، ومشى الامام لمصرعه كئيبا حزينا، وعيناه تفيضان دموعا، وسار معه قادة الجيش وقد أخذتهم المائقة حزنا على البطل العظيم، ولما انتهى إليه ألقى بنفسه عليه وجعل يوسعه تقبيلا، وقد انفجر بالبكاء، وجعل يؤبنه بحرارة قائلا:
" إن أمرا من المسلمين لم يعظم عليه قتل ابن ياسر وتدخل عليه المصيبة الموجعة لغير رشيد.
- رحم الله عمارا يوم أسلم.
رحم الله عمارا يوم قتل.
رحم الله عمارا يوم يبعث حيا.
لقد رأيت عمارا وما يذكر من أصحاب رسول الله أربعة إلا كان رابعا، ولا خمسة إلا كان خامسا، وما كان أحد من قدماء أصحاب رسول الله يشك أن عمارا قد وجبت له الجنة في غير موطن، ولا اثنين

فهنيئا لعمار بالجنة... ".
وأخذ الامام رأسه فجعله في حجره ودموعه تتبلور على خديه.
وانبرى الإمام الحسن وغيره فابنوا الشهيد العظيم بقلوب مذابة من الحزن، ثم قام الامام فواراه في مقره الأخير، ويقول المؤرخون: ان الفتنة وقعت في جيش معاوية حينما أذيع مقتل عمار فقد سمعوا ان رسول الله (ص) قال في فضل عمار ان الفئة الباغية تقتله، وقد اتضح لهم انه الفئة الباغية التي عناها رسول الله (ص) ولكن ابن العاص استطاع أن يزيل الخلاف فقال لهم: ان الذي أخرج عمارا هو الذي قتله، واذعن بسطاء أهل الشام لما قاله ابن العاص.
واشتد القتال بأعنفه بعد مقتل عمار، وقد تفللت جميع قوى معاوية وبان الضعف في جيشه.
مكيدة ابن العاص:
لعل أبشع مهازل التاريخ البشري في جميع فترات التاريخ هي مكيدة ابن العاص في رفع المصاحف، وقد وصفها (راو حوست ميلر) بأنها من أشنع المهازل وأسوئها في التاريخ البشري (١) وأكاد أعتقد أنه هذه المكيدة لم تكن وليدة المصادفة أو المفاجئة، فقد حيكت أصولها ووضعت مخططاتها قبل هذل الوقت فقد كان ابن العاص على اتصال دائم أحيط بكثير من الكتمان مع جماعة من قادة الجيش العراقي في طليعتهم الأشعث بن قيس، فهما اللذان دبرا هذا الامر وقد ذهب إلى هذا الرأي الدكتور طه حسين قال: " فما استبعد أن يكون الأشعث بن قيس وهو ماكر أهل

---

(١) العقيدة والشريعة في الاسلام (ص ١٩٠).

العراق وداهيتهم قد اتصل بعمرو بن العاص ماكر أهل الشام وداهيتهم، ودبرا هذا الامر بينهم تدبيرا، ودبروا أن يقتتل القوم فان ظهر أهل الشام فذاك، وان خافوا الهزيمة أو أشرفوا عليها رفعوا المصاحف فأوقعوا الفرقة بين أصحاب علي وجعلوا بأسهم بينهم شديدا " (١).

وعلى أي حال فان الهزيمة لما بدت باهل الشام، وتفللت جميع قواعدهم فزع معاوية إلى ابن العاص يطلب منه الرأي فأشار عليه يرفع المصاحف فامر بالوقت يرفعها فرفعت زهاء خمسمائة مصحف على أطراف الرماح تعالت الأصوات من أهل الشام بلهجة واحدة.

" هذا كتاب الله بيننا وبينكم من فاتحته إلى خاتمته، من لثغور أهل الشام بعد أهل الشام؟ ومن لثغور أهل العراق بعد أهل العراق؟ ومن لجهاد الروم؟ ومن للترك؟ ومن للكفار؟. "

وكانت هذه الدعوى كالصاعقة على رؤوس الجيش العراقي فقد انقلب رأسا على عقب، فتدافعوا كالموج نحو الامام وهم ينادون:

" لقد أعطاك معاوية الحق، دعاك إلى كتاب الله فاقبل منه... ".

ودلهم الامام على زيف هذه الحيلة، وانها جاءت نتيجة فشلهم في العمليات العسكرية، وانها لم يقصد بها إلا خداعهم وانهم رفعوا المصاحف لا إيمانا بها وانما هو من الخداع والمكر ومما يؤسف له انهم لم يقرروا حق مصيرهم، ومصير الأمة في تلك الفترات الحاسمة من تاريخهم التي أشرفوا فيها على الفتح والنصر، ولم يبق من دك حصون الظلم ونسف قواعد الجور إلا لحظات.

يا للمصيبة والأسف لقد أصروا على التمرد، والعناد، فانحاز منهم اثنا عشر ألفا وهم أهل الجباه السود، فخاطبوا الامام باسمه الصريح قائلين:

---

(١) الفتنة الكبرى ٢ / ٨٩.

" يا علي: أجب القوم إلى كتاب الله إذ دعيت له، وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان، فوالله لنفعلنها إن لم تجبهم... ".
فكلمهم الامام برقة ولطف ليقلع روح التمرد منهم الا ان كلام الامام ذهب هباء وراح القوم في غيهم يعمهون، وهم يصرون على ارغام الامام على ايقاف القتال، وكان الأشعث بن قيس هو الذي يدفعهم إلى ذلك وينادي بأعلى صوته بالرضاء والقبول لدعوة أهل الشام.
ولم ير الامام بدا من اجابتهم، فأصدر أوامره بايقاف عمليات الحروب، وقلبه الشريف يتقطع ألما وحزنا، فقد أيقن أن الباطل قد انتصر على الحق، وان جميع متاعبه ودماء جيشه قد ذهبت سدى.
وأصر المتمردون على الامام بسحب مالك الأشتر من ساحة الحرب وكان قد أشرف على الانتصار، ولم يبق بينه وبين الفتح إلا حلبة شاة، فأرسل إليه الامام بالقدوم إليه فلم يعن بما امر به، وقال لرسول الامام:
" قل لسيدي: ليست هذه بالساعة التي ينبغي لك أن تزيلني فيها عن موقفي اني قد رجوت الله أن يفتح لي فلا تعجلني... "
ورجع الرسول فأخبر الامام بمقالة القائد العظيم فارتفعت أصوات أولئك الوحوش بالانكار على الامام قائلين:
" والله ما نراك إلا أمرته ان يقاتل... "
وامتحن الامام في أمرهم كاشد ما تكون المحنة فقال لهم:
" أرأيتموني سررت رسولي (إليه)؟ أليس انما كلمته على رؤوسكم علانية وأنتم تسمعون؟ ".
وأصروا على الغي قائلين:
" فابعث إليه فليأتيك، والا فوالله اعتزلناك.. ".
وأجمعوا على الشر، وأوشكوا أن يفتكوا بالامام فأصدر أوامره المشددة

بانسحاب مالك من ساحة الحرب، واستجاب الأشتر لأمر الامام فقفل راجعا وقد تحطمت قواه، وقال ليزيد الذي كان رسول الامام:
" الرفع هذه المصاحف – يعني حدثت هذه الفتنة –؟
" نعم ".
وعرف الأشتر مكيدة ابن العاص فقال:
" أما والله لقد ظننت انها حين رقعت ستوقع اختلافا وفرقة انها مشورة ابن العاهرة ".
ألا ترى إلى الفتح، الا ترى إلى ما يلقون؟ الا ترى إلى الذي يصنع الله لنا، أينبغي أن ندع هذا وننصرف عنه؟!! ".
وأحاطه يزيد علما بحراجة الموقف والاخطار الهائلة التي تحف بالامام قائلا:
" أتحب انك ان ظفرت هاهنا، وان أمير المؤمنين بمكانه الذي هو به يفرج عنه ويسلم إلى عدوه؟.. ".
فقال الأشتر مقالة المؤمن:
" سبحان الله، لا والله ما أحب ذلك!! ".
" فإنهم قالوا: لترسلن إلى الأشتر فليأتينك أو لنقتلنك بأسيافنا كما قتلنا ابن عفان، أو لنسلمنك إلى عدوك.. ".
وقفل الأشتر راجعا قد استولى الحزن على اهابه، فقد ذهبت آماله ادراج الرياح فتوجه نحوهم يلومهم ويعنفهم، ويطلب منهم أن يخلوا بينه وبين عدوهم فقد أشرف على النصر والفتح.
ولم يذعن أولئك الممسوخون لمقالة الأشتر فقد أصروا على الذل والوهن قائلين له:
" لا لا ".

" أمهلوني عدوة فرس فاني قد طمعت في النصر. "
" اذن ندخل معك في خطيئتك.. ".
وانبرى الأشتر يحاججهم وينقد ما ذهبوا إليه قائلا:
" حدثوني عنكم – وقد قتل أماثلكم وبقي أرذالكم – متى كنتم محقين أحين كنتم تقتلون أهل الشام، فأنتم الان حين أمسكتم عن القتال مبطلون، أم أنتم الان في امساككم عن القتال محقون؟ فقتلاكم اذن الذين لا تنكرون فضلهم، وكانوا خيرا منكم في النار ".
ولم يجد معهم هذا الكلام المشرق فقالوا له:
" دعنا منك يا أشتر قاتلناهم في الله، إنا لستا نطيعك فاجتنبنا ".
ورد عليهم الأشتر بعنف حينما يئس من اصلاحهم وأخذ يحذرهم من مغبة هذه الفتنة وأنهم لا يرون بعدها عزا أبدا.
وحقا انهم لم يروا عزا، فقد أفلت من أفقهم دولة الحق، وآل أمرهم إلى معاوية فاخذ يسومهم سوء العذاب.
وطلب مالك من الامام أن يناجزهم الحرب فأبى لان العارضين كانوا يمثلون الأكثرية الساحقة في جيشه وفتح باب الحرب يؤدي إلى أقطع النتائج فان الأمة تقع فريسة سائغة بأيدي الأمويين.
وأطرق الامام برأسه، وقد طاقت يه موجات من الآلام، وأخذ يطيل التفكير في العاقبة المرة التي جرها هؤلاء العصاة للأمة ويقول المؤرخون انهم قد اتخذوا سكوته رضى منه بالتحكيم فهتفوا.
" ان عليا أمير المؤمنين قد رضي الحكومة، ورضي بحكم القران ".
والامام غارق في الهموم، فقد أفلت منه الامر، وتمرد عليه جيشه وليس باستطاعته ان يعمل شيئا، وقد أدلى (ع) بما مني به، بقوله:

" لقد كنت أمس أميرا، فأصبحت اليوم مأمورا، وكنت أمس ناهيا فأصبحت اليوم منهيا.. ".

التحكيم:

ولم تقف محنة الامام وبلاؤه في جيشه المتمرد إلى هذا الحد من العصيان والخذلان وانما تجاوز الامر إلى أكثر من هذا، فقد أصر المتمردون بقيادة الأشعث بن قيس على انتخاب أبي موسى الأشعري الذي هو من ألد أعداء الامام وأكثر هم حقدا عليه، وانما ألحوا على انتخابه لعلمهم بأنه سيعزل الامام عن الحكم وينتخب غيره ممن يحقق أطماعهم، وقد احتف هؤلاء العصاة بالامام، وهم يهتفون:

" إنا رضينا بابي موسى الأشعري ".

وزجرهم الامام، ونهاهم عن انتخابه قائلا:

" انكم قد عصيتموني في أول الامر، فلا تعصوني الان، إني لا أرى أن أولي أبا موسى ".

وأصروا على غيهم وعنادهم قائلين:

" لا نرضى الا به، فما كان يحذرنا وقعنا فيه ".

وأخذ الامام يدلي عليهم واقع أبي موسى وانحرافه عنه قائلا:

" إنه ليس لي بثقة، قد فارقني وخذل الناس عني، ثم هرب عني حتى آمنته بعد أشهر، ولكن هذا ابن عباس توليه. "

وامتنعوا من ترشيح ابن عباس، فأرشدهم ثانيا إلى انتخاب مالك الأشتر فرفضوه وأصروا على انتخاب الأشعري، ولم يجد الامام بعد هذا بدا من الرضا والاذعان.

وثيقة التحكيم:
واتفق الفريقان على أن يحكموا ابن العاص من قبل أهل الشام، وأبا موسى الأشعري من قبل العراقيين، وقد كتبوا صحيفة سجلوا فيها ما اتفقوا عليه من الاخذ بما يتفق عليه الحكمان وهذا نصها كما رواها الطبري:

" بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، قاضي علي على أهل الكوفة، ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين، وقاضي معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين إنا ننزل عند حكم الله عز وجل وكتابه، ولا يجمع بيننا غيره، وان كتاب الله عز وجل من فاتحته إلى خاتمته نحيي ما أحيا، ونميت ما أمات، فما وجد الحكمان في كتاب الله عز وجل، وهما أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس، وعمرو بن العاص القرشي عملا به، وما لم يجدا في كتاب الله عز وجل فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة، وأخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين من العهود والميثاق والثقة من الناس انهما آمنان على أنفسهما وأهلهما، والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه، وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهد الله وميثاقه، العمل على ما في هذه الصحيفة، وان قد وجبت قضيتهما على المؤمنين، فان الامن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم وشاهدهم، وغائبهم، وعلى عبد الله بن قيس، وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه ان يحكما بين هذه الأمة، ولا يرداها في حرب ولا فرقة حتى يعصيها، وأجل القضاء إلى رمضان، وان أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه على

تراض منهما، وإن توفي أحد الحكمين فان أمير الشيعة يختار مكانه، ولا يألوا من أهل المعدلة والقسط، وان مكان قضيتهم الذي يقضيان فيه مكان عدل بين أهل للكوفة وأهل الشام، وان رضيا وأحبا فلا يحضرهما فيه إلا من أردا، ويأخذ الحكمان من أرادا من الشهود ثم يكتبان شهادتهم على ما في هذه الصحيفة، وهم أنصار على من ترك ما في هذه الصحيفة وأراد فيه إلحادا وظلما اللهم انا نستنصرك على من ترك ما في هذه الصحيفة " (١).

ووقع عليها طائفة من الفريقين، وأصبحت نافذة المفعول، وقد حققت آمال معاوية وأنفذته من الاخطار التي كادت ان تطوي حياته، وتقضي على أتباعه.

والشئ المهم في هذه الوثيقة انها اهملت المطالبة بدم عثمان فلم تعرض لا بقليل ولا بكثير وانما كانت تنشد ايقاف الحرب، ونشر السلم والعافية بين الفريقين، وفيما اعتقد انها كتبت ولم يكن للامام فيها أي رأي، فقد خلى بين جيشه وبين ما يريدون.

رجوع الامام للكوفة:

وغادر الامام صفين متجها إلى الكوفة، ولا اعتقد أن يلم كاتب بتصوير المحنة الكبرى التي المت بالامام، فقد رجع مثقلا بالهموم يرى باطل معاوية قد استحكم وأمره قد تم، وينظر إلى جيشه أصبح متمردا يدعوه فلا يستجيب، ويأمره فلا يطيع قد مزقت الفتنة جميع كتائبه، فقد كانوا فيما يقول المؤرخون يتشاتمون، ويتضاربون بالسياط، وينبغي بعضهم على بعض، وأخطر ما حدث فيه انبثاق الفكرة الحرورية التي سنتحدث

---

(١) تاريخ الطبري ٦ / ٣٠.

عنها فإنها كانت سوسة تنخر في المعسكر العراقي وأهم من اي خطر داهم عليه، فقد اخذت تعمل على تفلل وحدة جيش الامام وتذيع الفتنة والخوف بين صفوفه.

ودخل الامام الكوفة فرأى لوعة وبكاءا قد سادت في جميع أرجائها حزنا على من قتل منها في صفين فان قتلى صفين بالقياس إلى قتلى الجمل كانوا أضعافا أضعافا.

مع المارقين:

ويقول الرواة إن النبي (ص) سمى أهل النهروان بالمارقين، وانه قد عهد إلى الامام أمير المؤمنين (ع) بقتالهم كما عهد إليه بقتال الناكثين والقاسطين من بعده.

والظاهرة البارزة في اتجاهات الخوارج هي الالتواء في السلوك، والاصرار على الجهل والعناد، فقد بنوا واقعهم على التعصب وعدم التدبر والامعان في حقائق الأمور، وقد كان شعارهم الذي تفانوا في سبيله وقدموا له المزيد من الضحايا " لا حكم الا لله " ولكنهم لم يلبثوا أن جعلوا الحكم للسيف فنشروا الارهاب والخوف والفساد في الأرض كما سنذكر ذلك

وعلى اي حال فان الامام لما نزح من صفين إلى الكوفة لم يدخلوا إليها، وانما انحازوا إلى (حروراء) فنسبوا إليها، وكان عددهم فيما يقول المؤرخون اثني عشر ألفا، وقد جعلوا أميرهم على القتال شبث بن ربعي وعلى الصلاة عبد الله بن الكواء اليشكري، وخلعوا الامام عن الخلافة، وجعلوا الامر شورى بين المسلمين.

والتاع الامام من تمردهم فأوقد للقياهم عبد الله بن عباس، وأمره

ان لا يخوض معهم في ميدان الخصومة والنزاع حتى يأتيه الا انه لم يجد بدا من الحوار معهم وبينما هو يحاورهم إذ اطل عليهم الامام فنهى ابن عباس عن مناظرتهم، واقبل عليهم فقال لهم:
اللهم إن هذا مقام من أفلج فيه كان أولى بالفلج يوم القيامة،
ومن نطق وأوعث فيه فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا، ثم قال لهم:
– من زعيمكم؟
– ابن الكواء!
– ما أخرجكم علينا؟
– حكومتكم يوم صفين
– أنشدكم بالله، أتعلمون انهم حيث رفعوا المصاحف، فقلتم نجيبهم إلى كتاب الله، قلت لكم: إني اعلم بالقوم منكم، انهم ليسوا بأصحاب دين، ولا قران، اني صحبتهم وعرفتهم أطفالا ورجالا، فكانوا شر أطفال، وشر رجال، امضوا على حقكم، وصدقكم، فإنهما رفع القوم هذه المصاحف خديعة، ودهنا ومكيدة، فرددتم علي رابي، وقلتم لا: بل نقبل منهم، فقلت لكم: اذكروا قولي لكم، ومعصيتكم إياي، فلما أبيتم الا الكتاب اشترطت على الحكمين ان يحييا ما أحيا القران، وأن يميتا ما أمات القران، فان حكما بحكم القران فليس لنا ان نخالف حكما يحكم بما في القران، وأن أبيا فنحن من حكمها براء "
وأبطلت هذه الحجة النيرة جميع أوهامهم، فهم المسؤولون عن التحكيم، كما هو مسؤلون عن كل ما حدث من الفتنة والفساد وليس للامام ظلع في ذلك، وأيقنوا ان الذنب ذنبهم وليس على الامام أي تبعة في ذلك
فقالوا له:
– أتراه عدلا تحكيم الرجال في الدماء؟

– لسنا حكمنا الرجال إنما حكمنا القران، وهذا القران انما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق وانما يتكلم به الرجال.
– خبرنا عن الاجل لم جعلته فيما بينك وبينهم؟
– ليعلم الجاهل، ويثبت العالم، ولعل الله يصلح في هذه الهدنة هذه الأمة.
وسد عليهم الامام كل نافذة ينفذون منها، ووجد منهم تقاربا واذعانا لمقالته، فخاطبهم بناعم القول:
" ادخلوا مصركم رحمكم الله. "
فأجابوه إلى ذلك، ورحلوا عن آخرهم معه إلى الكوفة، الا انهم بقوا مصرين على فكرتهم يذيعونها بين البسطاء، حتى شاع أمرهم، وقويت شوكتهم واخذوا ينشرون الخوف والارهاب، ويدعون إلى البغي، وعزل الامام وجعل الامر شورى بين المسلمين (١).
اجتماع الحكمين:
وانتهت المدة التي عينها الفريقان للتحكيم، وقد استرد معاوية قواه التي فقدها أيام صفين، واستحكم أمره، وقد ارسل إلى الامام يطلب منه الوفاء بالتحكيم، وانما سارع إلى ذلك لعلمه بما مني به جيش الامام من الفرقة والخلاف، ثم هو على علم بان النتيجة ستكون من صالحه لان المنتخب للتحكيم هو أبو موسى الأشعري، وهو على علم بانحرافه عن الامام وأشخص الامام أبا موسى الأشعري إلى التحكيم، وأرسل أربعمائة من أصحابه جعل عليهم شريح بن هاني، وعبد الله بن عباس يصلي بهم، والتقى

---

(١) حياة الإمام الحسن ١ / ٤٦٩ – ٤٧٢

الحكمان الضالان على حد تعبير النبي (ص) (١) في دومة الجندل أو في أذرح، ويقول المؤرخون إن ابن العاص لم يفتح الحديث مع الأشعري ثلاثة أيام، فقد أفرد له مكانا خاصا، وجعل يقدم له أطائب الطعام والشراب حتى استبطنه وأرشاه، ولما أيقن انه صار ألعوبة بيده اخذ يضفي عليه النعوت الحسنة والألقاب الكريمة حتى ملك مشاعره وعواطفه فقد قال له:

" يا أبا موسى انك شيخ أصحاب محمد (ص) وذو فضلها، وذو سابقتها، وقد ترى ما وقعت فيه هذه الأمة من الفتنة العمياء التي لا بقاء معها، فهل لك ان تكون ميمون هذه الأمة فيحقن الله بك دماءها فإنه يقول: في نفس واحدة ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا، فكيف بمن أحيا هذا الخلق كله. "

ومتى كان الأشعري شيخ صحابة النبي (ص) ومن ذوي الفضائل والسوابق في الاسلام؟ وانخدع الأشعري بهذه الكلمات المعسولة فطفق يسأل ابن العاص عن سبل الاصلاح وحقن الدماء، فاجابه ابن العاص:

" تخلع أنت علي بن أبي طالب، وأخلع أنا معاوية بن أبي سفيان ونختار لهذه الأمة رجلا لم يحضر في شئ من الفتنة، ولم يغمس يده فيها.. "

فبادر أبو موسى يسأل عن الرجل الذي لم ينغمس في الفتنة قائلا:

---

(١) روى سويد بن غفلة قال: كنت مع أبي موسى الأشعري على شاطئ الفرات في خلافة عثمان فروى لي خبرا عن رسول الله (ص) قال: سمعته يقول: ان بني إسرائيل اختلفوا فلم يزل الاختلاف بينهم حتى بعثوا حكمين ضالين ضلا وأضلا من اتبعهما، ولا تنفك أمر أمتي حتى يبعثوا حكمين يضلان، ويضلان من اتبعهما، فقلت له: احذر يا أبا موسي أن تكون أحدهما، قال: فخلع قميصه وقال: أبرأ إلى الله من ذلك كما برأ قميصي من هذا.. جاء ذلك في شرح النهج ١٣ / ٣١٥.

" من يكون ذلك؟ "
وكان ابن العاص قد عرف ميول الأشعري واتجاهاته نحو عبد الله ابن عمر فقال:
" انه عبد الله بن عمر "
وسر الأشعري بذلك واندفع يطلب منه العهود على الالتزام بما قاله
" كيف لي بالوثيقة منك؟ "
" يا أبا موسى الا بذكر الله تطمئن القلوب، خذ من العهود والمواثيق حتى ترضى... "
ولم يبق يمينا الا أقسم على الالتزام بما قاله، وأيقن الأشعري بمقالة ابن العاص فاجابه بالرضا والقبول وعينا وقتا خاصا يذيعان فيه ما اتفقا عليه.
وأقبلت الساعة الرهيبة التي كانت تنتظرها الجماهير بفارغ الصبر، واقبل الماكر ابن العاص مع زميله الأشعري إلى منصة الخطابة ليعلنا للناس ما اتفقا عليه، واتجه ابن العاص نحو الأشعري فقال له:
– قم فاخطب الناس يا أبا موسي.
– قم أنت فاخطبهم.
وراح ابن العاص يخادع الأشعري قائلا له:
" سبحان الله أنا أتقدمك!! وأنت شيخ أصحاب رسول الله، والله لا فعلت ذلك أبدا.. "
داخل الأشعري العجب بنفسه من هذه الألقاب الفخمة التي أضفاها عليه ابن النابغة، وطلب الخامل المخدوع من ابن العاص الايمان أن يفي له بما قال، فاقسم له على الوفاء بما اتفقا عليه، (١) ولم تخف هذه

---

(١) العقد الفريد ٣ / ٣١٥.

الخديعة على حبر الأمة عبد الله بن عباس فالتفت إلى الأشعري يحذره من مكيدة ابن العاص قائلا له:
" ويحك والله إني لأظنه قد خدعك، إن اتفقتما على أمر فقدمه فليتكلم بذلك الامر قبلك، ثم تكلم أنت بعده، فان عمرو رجل غادر لا آمن من أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه، فإذا قمت في الناس خالفك.. "
ولم يعن الغبي بابن العباس، وانما راح يشتد نحو منصة الخطابة، فلما استوى عليها حمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي (ص) ثم قال:
" أيها الناس إنا قد نظرنا في أمرنا فرأينا أقرب ما يحضرنا من الامن والصلاح ولم الشعث، وحقن الدماء، وجمع الألفة، خلعنا عليا ومعاوية وقد خلعت عليا كما خلعت عمامتي هذه " وأهوى إلى عمامته فخلعها " واستخلفنا رجلا قد صحب رسول الله (ص) بنفسه، وصحب أبوه النبي (ص) فبرز في سابقته، وهو عبد الله بن عمر... " (١)
أف للزمان وتعسا للدهر أن يتحكم في المسلمين أمثال هؤلاء الصعاليك الذين ران الجهل على قلوبهم.
لقد عزل الأشعري الامام أمير المؤمنين حكيم هذه الأمة، ورائد العدالة الكبرى في الأرض، الذي طوق الدين بعبقرياته ومواهبه، لقد جعل الأشعري قيادة الأمة بيد عبد الله بن عمر وهو لا يحسن طلاق زوجته – على حد تعبير أبيه – انها من مهازل الزمن التي تمثلت على مسرح الحياة العامة في ذلك العصر الذي أخمدت فيه أضواء العقل، وراح الانسان يسير خلف رغباته وميوله.
وعلى أي حال فقد انبرى الخاتل الماكر ابن العاص إلى منصة الخطابة

---

(١) الطبري ٦ / ٣٩

فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:
" أيها الناس ان أبا موسى عبد الله بن قيس خلع عليا، وأخرجه من هذا الامر الذي يطلب، وهو اعلم به، الا واني خلعت عليا معه، وأثبت معاوية علي وعليكم، وان أبا موسى، قد كتب في الصحيفة (١) ان عثمان قد قتل مظلوما شهيدا وان لوليه أن يطلب بدمه حيث كان، وقد صحب معاوية رسول الله بنفسه، وصحب أبوه النبي (ص) ثم اخذ يثني على معاوية، ويصفه بما هو ليس اهلا له ثم قال: هو الخليفة علينا وله طاعتنا وبيعتنا على الطلب بدم عثمان.. " (٢)
واشتد الأشعري نحو ابن العاص بعد ما غور به ونكث عهده فصاح به.
" مالك عليك لعنة الله! ما أنت إلا كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث وإن تتركه يلهث "
فزجره ابن العاص:
" لكنك مثل الحمار يحمل أسفارا ".
وصدق كل منهما في وصف صاحبه، لقد جر هذا التحكيم إلى الأمة كثيرا من المصاعب والفتن، وأخلد لها الخطوب والويلات.
وماج العراقيون في الفتنة، وأيقنوا بضلال ما أقدموا عليه، وانهزم الأشعري نحو مكة يصحب معه العار والخزي له ولذريته (٣)، فقد غدر في

---

(١) وهي غير الصحيفة التي تم عليها ايقاف القتال.
(٢) أنساب الأشراف ج ١ ق ١ الإمامة والسياسة ١ / ١٤٣.
(٣) لقد كان الناس يحقرون ذرية أبي موسى، ويسخرون منهم فقد سمع الفرزدق أبا بردة بن أبي موسى يقول: كيف لا أتبختر، وأنا ابن أحد الحكمين، فرد عليه الفرزدق قائلا: اما أحدهما فمائق وأما الاخر ففاسق فكن ابن أيهما شئت، جاء ذلك في شرح النهج ١٩ / ٣٥٣، ونظر رجل إلى بعض ولد أبي موسى يختال في مشيته فقال الا ترون مشيته؟! كان أباه خدع عمرو بن العاص

المسلمين غدرة منكرة، وأكثر شعراء ذلك العصر في هجاء الكوفيين وهجاء الأشعري يقول أيمن بن خريم الأسدي:

لو كان للقوم رأى يعصمون به * من الضلال رموكم بابن عباس
لله در أبيه أيما رجل * ما مثله لفصال الخطب في الناس
لكن رموكم بشيخ من ذوي يمن * لم يدر ما ضرب أخماس لأسداس
ان يخل عمرو به يقذفه في لجج * يهوي يه النجم تيسا بين أتياس
أبلغ لديك عليا غير عاتبه * قول امرئ لا يرى بالحق من باس
ما الأشعري بمأمون أبا حسن * فاعلم هديت وليس العجز كالرأس
فاصدم بصاحبك الأدنى زعيمهم * ان ابن عمك عباس هو الآسي (١)

وظفر معاوية بالنصر، فقد عاد إليه أهل الشام يسلمون عليه بإمرة المؤمنين ، وأما الامام أمير المؤمنين (ع) فقد أغرق جيشه في الفتنة والفرقة والخلاف، فجعل بعضهم يتبرأ من بعض، وقد شاع فيهم الخلاف، وعرفوا وبال ما جنت أيديهم، فخطب الإمام الحسن خطابا مسهبا دعاهم فيه إلى الألفة والمودة، وكذلك خطب فيهم عبد الله بن عباس، وعبد الله ابن جعفر، وقد شجبا في خطابهما التحكيم ودعا الناس إلى الطاعة ونبذ الخلاف (٢) وقد استجاب لهم بعض الناس، وأصر آخرون على التمرد والعصيان.

ولما انتهى خبر التحكيم إلى الامام بلغ به الحزن أقصاه فجمع الناس وخطبهم خطابا مؤثرا صعد فيه آلامه وأحزانه على مخالفة أوامره في ايقاف

---

(١) حياة الإمام الحسن ١ / ٥٢٩.
(٢) أنساب الأشراف ج ١ ق ١.

القتال، والاستجابة لنداء عدوه الذي قضى فيه على ما أحرزوه من الفتح والنصر، يقول (ع):

" الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح، والحدث الجليل، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله. اما بعد. فان مخالفة الناصح الشفيق المجرب تورث الحسرة، وتعقب الندم، وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين، وهذه الحكومة بأمري، ونخلت لكم رأيي لو يطاع لقصير رأي. ولكنكم أبيتم الا ما أردتم: فكنت وأياكم كما قال أخو هوازن.

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى * فلم يستبينوا الرشد الا ضحى الغد

الا ان الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين قد نبذا حكم الكتاب وراء ظهورهما وارتأيا الرأي من قبل أنفسهما فأماتا ما أحيا القران وأحييا ما أمات القران. ثم اختانا في حكمهما فكلاهما لا يرشد ولا يسدد فبرئ الله منها ورسوله وصالح المؤمنين

فاستعدوا للجهاد، وتأهبوا للمسير، واصبحوا في معسكركم يوم الاثنين إن شاء الله.. " (١)

وتهيات قواته المسلحة إلى السفر في الموعد الذي ضربه لها، وكتب إلى أهل البصرة يدعوهم إلى نصرته فالتحقت به كتائب من الجيش.

تمرد المارقين:

وسافر الامام بأصحابه يريد الشام، ولكنه لم يلبث حتى وافاته الانباء بتمرد الخوارج وفسادهم، وانهم عادوا إلى فكرتهم، ويقول المؤرخون ان جماعة منهم خرجوا من الكوفة والتحق بهم اخوانهم من أهل البصرة، وساروا جميعا إلى النهروان فأقاموا فيه وأخذوا يعيثون في الأرض فسادا،

---

(١) أنساب الأشراف ج ١ ق ١.

فاستحلوا دماء المسلمين، وقالوا بكفرهم، واجتاز عليهم الصحابي عبد الله بن خباب بن الأرت، فتصدوا له فسألوه عن اسمه فأخبرهم به، ثم سألوه عن انطباعاته الخاصة عن الامام أمير المؤمنين فاثنى عليه فاستشاطوا غضبا فانبروا إليه فأوثقوه كتافا، وأقبلوا به وبامرأته وكانت حبلى قد أشرفت على الولادة فجاؤوا بهما تحت نخل، فسقطت رطبة منها فبادر بعضهم إليها فوضعها في فيه فأنكروا عليه فألقاها من فمه، واخترط بعضهم سيفا فضرب به خنزيرا لأهل الذمة فقتله فصاح به بعضهم ان هذا من الفساد في الأرض، فبادر الرجل إلى الذمي فأرضاه فلما نظر عبد الله إلى احتياطهم في الأموال قال لهم:

" لئن كنتم صادقين فيما أرى ما علي منكم باس، والله ما أحدثت حدثا في الاسلام واني لمؤمن، وقد آمنتموني وقلتم لا روع عليك ".

فلم يعنوا به، وعمدوا إليه فاقبلوا به إلى الخنزير الذي قتلوه فوضعوه عليه، وذبحوه، وأقبلوا على امرأته، وهي ترتعد من الخوف فقالت لهم مسترحمة:

" إنما إنا امرأة اما تتقون الله؟ "

ولم تلن قلوبهم التي طبع عليها الزيغ، فذبحوها وبقروا بطنها، وعمدوا إلى ثلاثة نسوة فقتلوهن، (١) وفيهن أم سنان الصيداوية وكانت قد صحبت النبي (ص)، وجعلوا يذيعون الذعر، وينشرون الفساد في الأرض.

وأوفد لهم الامام الحرث بن مرة العبدي يسألهم عن هذا الفساد الذي أحدثوه ويطلب منهم ان يسلموا إليه الذين استحلوا قتل الأنفس التي حرم الله ازهاقها بغير الحق، ولم يكد الرسول يدنو منهم حتى قتلوه ولم يدعوه يدلي بما جاء به.

---

(١) أنساب الأشراف

قتال المارقين:
وكره أصحاب الإمام أن يسيروا إلى الشام، ويتركوا من ورائهم الخوارج يستبيحون أموالهم واعراضهم من بعدهم فطلبوا من الامام أن ينهض بهم لمناجزتهم فإذا فرغوا منهم تحولوا إلى حرب معاوية، فأجابهم الامام إلى ذلك وسار بهم حتى اتى النهروان فلما صار بإزاء الخوارج، ارسل إليهم يطلب منهم قتلة عبد الله بن خباب ومن كان معه من النسوة، كما طلب منهم قتلة رسوله الحرث بن مرة، ليكف عنهم ويمضي إلى حرب معاوية، ثم ينظر في أمورهم فأجابوه.
" ليس بيننا وبينك الا السيف الا ان تقر بالكفر وتتوب كما تبنا! "
فالتاع الامام منهم وانطلق يقول:
" أبعد جهادي مع رسول الله، وايماني أشهد على نفسي بالكفر؟ لقد ضللت إذا وما انا من المهتدين.. " (١)
وجعل الامام يعظهم تارة ويراسلهم أخرى فجعل كثير منهم يتسللون، ويعودون إلى الكوفة، وقسم منهم التحق بالامام، وفريق ثالث اعتزل الحرب، ولم يبق الا ذو الثفنات عبد الله بن وهب الراسبي زعيم الخوارج، ومعه ثلاث آلاف.
ولما يئس الامام من ارشادهم عبأ جيشه، وأمر بان لا يبدؤوهم بقتال حتى يقاتلوهم، ولما نظر الخوارج إلى تهيأة الامام تهيأوا للحرب، وكانت قلوبهم تتحرق شوقا إلى القتال تحرق الظمآن إلى الماء وهتف بعضهم " هل من رائح إلى الجنة " فتصايحوا جميعا " الرواح إلى الجنة " ثم حملوا حملة منكرة على جيش الامام، وهم يهتفون بشعارهم " لا حكم الا الله " فانفرجت

---

(١) أنساب الأشراف

لهم خيل الامام فرقين، فرق يمضي إلى الميمنة، وفرق يمضي إلى الميسرة، والخوارج يندفعون بين الفرقين، ولم تمض الا ساعة حتى قتلوا عن آخرهم، ولم يفلت منهم الا تسعة (١).

ولما وضعت الحرب أوزارها طلب الامام من أصحابه أن يلتمسوا له ذا الثدية في القتلى ففتشوا عنه فلم يظفروا به، فعادوا إليه يخبرونه بعدم ظفرهم به فأمرهم ثانيا أن يبحثوا عنه قائلا: " والله ما كذبت ولا كذبت ويحكم التمسوا الرجل فإنه في القتلى " فانطلقوا يبحثون عنه، فظفر به رجل من أصحابه، وكان قد سقط قتيلا في ساقية فمضى يهرول فأخبر الامام به فلما سمع النبأ خر ساجدا هو ومن معه من أصحابه ثم رفع رأسه وهو يقول:

" ما كذبت، ولا كذبت ولقد قتلتم شر الناس... "

واخذ الامام يحدث أصحابه بما سمعه من النبي (ص) فيه انه قال:

" سيخرج قوم يتكلمون بكلام الحق لا يجاوز حلوقهم يخرجون من الحق خروج السهم – أو مروق السهم – ان فيهم رجلا مخدج اليد، في يده شعرات سود، فان كان فيهم فقد قتلتم شر الناس... وأمر الامام باحضار جثته فأحضرت له فكشف عن يده، فإذا على منكبه ثدي كثدي المرأة، وعليها شعرات سود تمتد حتى تحاذي بطن يده الأخرى، فإذا تركت عادت إلى منكبه، فلما رأى ذلك خر لله ساجدا، ثم عمد الامام إلى القتلى من الفريقين فدفنهم وقسم بين أصحابه سلاح الخوارج، ودوابهم ورد الأمتعة والعبيد إلى أهليهم، كما فعل ذلك بأصحاب الجمل.

وانتهت بذلك حرب النهروان التي تفرعت من واقعة صفين، وقد

---

(١) الملل والنحل ١ / ١٥٩

أسفرت عن تشكيل حزب ثوري عنيف ظهر في الاسلام، وهو حزب الحرورية الذي أخذ على نفسه التمرد على الحكومات القائمة في البلاد الاسلامية ومحاربتها بشكل سافر مما أدى إلى إراقة الدماء، وإشاعة الفتنة والخلاف في كثير من تلك العصور.

لقد كان البارز في الأنظمة الدينية للخوارج هو الحكم بكفر كل من لا يدين بفكرتهم من المسلمين، واستباحة دمائهم وأموالهم، وفيما أحسب ان أكثر الجرائم المريعة التي صدرت في معركة كربلا تستند إلى هؤلاء الممسوخين الذين سلبت عنهم كل نزعة انسانية، فقد تأثر الكثيرون من ذلك الجيش بأخلاقهم فاندفعوا إلى الجريمة بأبشع صورها وألوانها.

مخلفات الحرب:

وأعقبت تلك الحروب أعظم المحن وأشدها هولا، ولم يمتحن الامام بها وحده، وانما امتحن بها العالم الاسلامي، فقد أخلدت له الفتن، وجرت له الكثير من الويلات والخطوب، ولعل أعظم ما عانه منها ما يلي:

انتصار معاوية:

وأتاحت الفرص لمعاوية بعد تلك الاحداث أن يعلن نفسه لأول مرة بأنه المرشح للخلافة بعد أن كان حاكما على إقليم الشام، وراح يعلن انتصاره على الامام وتغلب عليه بقوله: " لقد حاربت عليا بعد صفين بغير جيش ولا عناء أو لا عتادا (١) واما الامام فقد أصبح بمعزل عن السلطات السياسية

---

(١) أنساب الأشراف ج ١ ق ١ ص ٢٠٠

والعسكرية، فكان يدعو فلا يسمع لدعوته، ويقول فلا يلتفت إلى قوله لقد أدت تلك الحروب إلى تحول الخلافة الاسلامية إلى حكم قيصري لا ظل فيه لحكم الاسلام، ومنطق القران، فقد آل الامر إلى معاوية، فاتخذ مال الله دولا، وعباد الله خولا، وارغم المسلمين على ما يكرهون.

تفلل جيش الامام:

وتفللت جميع القوات العسكرية في جيش الامام، وشاعت الفرقة والاختلاف فيما بينها، خصوصا بعد واقعة النهروان، فقد انحطت معنويات الجيش يقول البلاذري ان معاوية ارسل عمارة بن عقبة إلى الكوفة ليتجسس له عن حالة جيش الامام، فكتب له خرج علي علي أصحابه، ونساكهم فسار إليهم فقتلهم، فقد فسد عليه جنده وأهل مصره، ووقعت بينهم العداوة، وتفرقوا أشد الفرقة، فقال معاوية للوليد بن عقبة: أترضى أخوك بان يكون لنا عينا - وهو يضحك - فضحك الوليد وقال: إن لك في ذلك حظا ونفعا، وقال الوليد لأخيه عمارة:

إن يك ظني يا بن أمي صادقا * عمارة لا يطلب بذ حل ولا وتر
مقيم واقبال ابن عفان حوله * يمشي بها بين الخورنق والجسر
وتمشي رخي البال منتشر القوى * كأنك لم تشعر بقتل ابن عمرو (١)

لقد مني جيش الامام بالفتنة والخلاف، ولم يكن باستطاعة الامام بما يملك من طاقات خطابية هائلة أن يرجع إليهم حوازب أحلامهم، ويقضي على عناصر الشغب والتمرد التي أصبحت من أبرز ذاتياتهم.

ومما زاد في تمرد الجيش ان معاوية راسل جماعة من زعماء العراق

---

(١) أنساب الأشراف.

البارزين كالأشعث بن قيس فمناهم بالأموال، ووعدهم بالهبات والمناصب إذا قاموا بعمليات التخريب في جيش الامام وشعبه فاستجابوا إليه فقاموا بدورهم في إشاعة الأراجيف، وتضليل الرأي العام، وبث روح التفرقة والخلاف بين الناس (١) وقد أثرت دعايتهم تأثيرا هائلا في أوساط ذلك الجيش، فقد خلعوا طاعة الامام، وعمدوا إلى عصيانه.

لقد كانت الأكثرية الساحقة في معسكر الامام لهم رغباتهم الخاصة التي تتنافى مع مصلحة الدولة، وغايات رئيسها في حين أن شعب الشام كان على العكس من ذلك يقول الحجاج بن خزيمة لمعاوية: " انك تقوى بدون ما يقوى به علي لان معك قوما لا يقولون إذا سكت، ويسكنون إذا نطقت، ولا يسألون إذا أمرت ومع علي قوم يقولون إذا قال: ويسألون إذا سكت " (٢)

احتلال مصر:

ولم تقف محنة الامام وبلاؤه عند حد، وانما اخذت تتابع عليه المحن، وهي كاشد ما تكون هولا، فإنه لم يكد ينتهي من مناجزة المارقين حتى ابتلى في امر دولته فقد أخذ معاوية يحتل أطرافها، ويغير على بعضها، ويشيع فيها الخوف والارهاب فقد أيقن بتخاذل جيش الامام، وما مني به من الفرقة والاختلاف، وقد أجمع رأيه على احتلال مصر التي هي قلب البلاد العربية، وقد جعلها طعمة إلى وزيره وباني دولته عمرو بن العاص ليتمتع وحده بخيراتها.

وكان الامام قد ولى على مصر الزعيم الكبير قيس بن سعد الأنصاري

---

(١) أنساب الأشراف

(٢) الاخبار الطوال (ص ١٥٦).

الذي كان من ألمع الشخصيات الاسلامية في حسن سياسته وعمق تفكيره وبعد نظره، وقد ساس المصريين أيام المحنة سياسة عدل وحق، وقضى على الاضطرابات الداخلية، ونشر المحبة والألفة فيها، وقد عزله الامام عنها وولى مكانه الطيب محمد بن أبي بكر، فاضطرب أمر مصر، وظهرت الدعوة العثمانية فيها فعزل الامام محمدا عنها وولى مكانه مالك الأشتر النخعي الذي هو من انصح الناس للامام وأكثرهم اخلاصا له الا انه لم يكد ينتهي إلى (القلزم) حتى مات واجمع المؤرخون على أن معاوية قد أغوى صاحب الخراج في (القلزم) فدس إليه سما في شربة من عسل فمات بها، وكان معاوية وصاحبه ابن العاص يتحدثان بعد ذلك، ويقولان: إن لله جنودا من عسل.

وجهز معاوية جيشا لاحتلال مصر، وأمر عليه ابن العاص، ولما علم الإمام ذلك أقر محمدا على مصر، ووعده بان يمده بالجيش والمال، واخذ يدعو أهل الكوفة لنجدة إخوانهم في مصر، فلم يستجيبوا له، وجعل الامام يلح عليهم ويطلب منهم النجدة فاستجاب له جند ضئيل كأنما يساقون إلى الموت فأرسلهم إلى مصر، ولكنه لم يلبث ان وافته الانباء بان ابن العاص قد احتل مصر، وان عامله محمدا قد قتل وأحرقت جثته في النار، فرد جنده، وخطب أهل الكوفة خطابا مثيرا ندد بهم، ونعى عليهم تخاذلهم وخور عزائمهم.

وعلى اي حال فان احتلال مصر قد قوى شوكة معاوية، ودفعه إلى أن يغزو أهل العراق في عقر دارهم.

الغارات:
ولم يقنع معاوية بما أحرزه من النصر في احتلاله لمصر، وانما راح يشيع الذعر والهلع في البلاد الخاضعة لحكم الامام ليشعر أهلها بان عليا قد ضعف سلطانه، وانه لا يتمكن على حمايتهم ورد الاعتداء عنهم، وقد شكل قطعا من جيوشه، وعهد إليها ان تتوغل في البلاد، وتشيع فيها الفساد والقتل، وقد ولى عليها جماعة من السفاكين الذين تمرسوا في الجرائم، وتجردوا من كل نزعة انسانية، وعهد لكل واحد منهم ان يقتل كل من كان شيعة للامام، ويغير على جهة خاصة بسرعة خاطفة، ونعرض - بايجاز - إلى بعض تلك الغارات.

الغارة على العراق:
وشكل معاوية أربع قطع للغارة على أطراف العراق وداخله ليملأ قلوب العراقيين فزعا وخوفا حتى لا يستجيبوا للجهاد إذا دعاهم الامام إليه، وهذه بعض المناطق العراقية التي غار عليها.

١ - عين التمر:
وأرسل معاوية النعمان بن بشير الأنصاري في الف رجل إلى عين التمر، وكان فيها مالك بن كعب، ومعه كتيبة من الجيش تبلغ الف رجل الا انه لم يعلم بغزو أهل الشام له، فاذن لجنده باتيان أهلهم في الكوفة وبقي في مائة رجل، ولما دهمه جيش معاوية قاومه مقاومة باسلة، وتوجهت

له نجده تبلغ خمسين رجلا فلما رآهم النعمان فزع وولى هاربا فقد ظن أن لهم مددا ولما بلغت الامام أنباء هذه الغارة قام خطيبا في جيشه يدعوهم إلى نجدة عامله فقال (ع):

" يا أهل الكوفة كلما أطلت عليكم سرية وأتاكم منسر من مناسر أهل الشام أغلق كل امرء منكم بابه قد انحجر في بيته انحجار الضب في جحره والضبع في وجارها، الذليل والله من نصرتموه، ومن رضي بكم رمى بافوق ناصل، فقبحا لكم وترحا، وقد ناديتكم، وناجيتكم، فلا أحرار عند اللقاء، ولا اخوان (١) عند النجا، قد منيت منكم بصم لا يسمعون، وبكم لا يعقلون، وكمه لا يبصرون " (٢)

٢ - هيت:

ووجه معاوية للغارة على هيت سفيان بن عوف وضم إليه ستة آلاف، وأمره ان يأتي بعد الغارة عليها إلى الأنبار والمدائن فيوقع باهلها، وسار بجيشه إلى هيت فلم يجد بها أحدا فانعطف نحو الأنبار، فوجد بها مسلحة للامام تتكون من مائتي رجل فقاتلهم وقتل أشرس بن حسان الكبري مع ثلاثين رجلا من أصحابه، ثم نهبوا ما في الأنبار من أموال، وتوجهوا إلى معاوية، وهم مسرورون بما أحرزوه من النصر، وبما نهبوه من الأموال (٣) وبلغت أنباء الأنبار عليا فأثارته إلى حد بعيد، وبلغ به الغيظ أقصاه، وكان عليلا لا يمكنه الخطاب فكتب كتابا قرا على الناس، وقد أدنى من السدرة ليسمع القراءة (٤) وهذا نصه:

---

(١) في الطبري " ولا اخوان ثقة "
(٢) أنساب الأشراف
(٣) تاريخ ابن الأثير ٣ / ١٨٩
(٤) أنساب الأشراف

" اما بعد: فان الجهاد باب من أبواب الجنة فمن تركه رغبة عنه البس ثوب الذلة، وشمله البلاء، وديث بالصغار، وسيم الخسف، ومنع النصف، وقد دعوتكم إلى جهاده هؤلاء القوم ليلا ونهارا وعلانية وسرا، وأمرتكم أن تغزوهم قبل ان يغزوكم فإنه ما غزي قوم في عقر دارهم الا ذلوا، فتواكلتم وتخاذلتم، وثقل عليكم قولي، وعصيتم أمري واتخذتموه وراءكم ظهريا، حتى شنت عليكم الغارات من كل ناحية، هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار فقتل ابن حسان البكري، وأزال مسالحكم عن مواضعها وقتل منكم رجالا صالحين، ولقد بلغني أن الرجل من أهل الشام كان يدخل بيت المسلمة والأخرى المعاهدة فيأخذ حجلها وقلبها وقلادتها، فيا عجبا يميت القلب، يجلب الهم، ويسعر الأحزان من جد هؤلاء القوم في باطلهم، وفشلكم عن حقكم فقبحا وترحا حيث صرتم غرضا يرمى، يغار عليكم فلا تغيرون، ويعصى الله فترضون، إذا قلت لكم: اغزوا عدوكم في الحر قلتم هذه حمارة القيظ من يغزوا فيها؟ أمهلنا ينسلخ عنا الحر، وإذا قلت: اغزوهم في انف الشتاء قلتم الحر والقر، فكل هذا منكم فرار من الحر والقر؟ فأنتم والله من السيف أفر، يا أشباه الرجال، حلوم الأطفال وعقول ربات الحجال، لوددت أني لم أركم، وان الله أخرجني من بين أظهركم، فلقد ملئتم صدري غيظا وجرعتموني نغب التهمام أنفاسا، وأفسدتم علي رأيي بالعصيان، حتى قالت قريش: إن ابن أبي طاب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب، لله أبوهم وهل منهم أحد أشد لها مراسا وقعاسا مني لقد نهضت فيها وقد بلغت العشرين (١) فها أنا ذا قد ذرت على الستين، ولكن لا رأي لمن لا يطاع. " (٢)

---

(١) في رواية " وما بلغت العشرين ".
(٢) أنساب الأشراف

وقد صور هذا الخطاب ما في نفس الامام من غيظ ممض، ويأس شديد من أصحابه الذين امتلأت قلوبهم خوفا وذلا من أهل الشام فتخاذلوا وقبعوا في بيوتهم يطاردهم الفزع، حتى فسد على الامام أمره،

٣ - واقصة:

ووجه معاوية الضحاك بن قيس الفهري إلى واقصة ليغير على كل من كان فيها من شيعة الامام وضم إليه ثلاثة آلاف رجل، فسار الضحاك فنهب أموال الناس، وقتل كل من ظن أنه على طاعة الامام، وسار حتى انتهى إلى القطقطانة، وهن يشيع القتل والارهاب ثم سار إلى السماوة، وبعدها ولى إلى الشام، ولما وافت الانباء الإمام (ع) قام خطيبا في جيشه وقد دعاهم إلى صد هذا الاعتداء فلم يستجب له أحد، فقال (ع):

" وددت والله ان لي بكل عشرة منكم رجلا من أهل الشام، واني صرفتكم كما يصرف الذهب ولوددت أني لقيتهم على بصيرتي فأراحني الله من مقاساتكم ومداراتكم "

وسار الامام وحده نحو الغريين لصد هذا الاعتداء فلحقه عبد الله بن جعفر بدابة فركبها، ولما رأى الناس ذلك خف إليه بعضهم، فسرح (ع) لطلب الضحاك حجر بن عدي في أربعة آلاف، وسار في طلبه فلم يدركه فرجع (١)

لقد اخذت غارات معاوية تتوالى على العراق، من دون ان تتعرض لأي مقاومة تذكر، وقد أيقن معاوية بالنصر، والظفر لما مني به أصحاب الإمام من التخاذل.

---

(١) أنساب الأشراف.

الغارة على الحجاز واليمن:
وبعث معاوية بسر بن أرطاة في ثلاثة آلاف للغارة على الحجاز واليمن فاتجه نحو يثرب فلم يجد من أهلها أية مقاومة، فصعد المنبر ورفع عقيرته يندب عثمان وينشر الرعب والارهاب بين الناس.
وأخذ البيعة من أهلها لمعاوية، ثم سار إلى اليمن، وكان عليها عبيد الله ابن عباس عاملا للامام، فهرب منه حتى أتى الكوفة، فاستخلف الامام عليها عبد الله الحارثي فقتله بسر، وقتل ابنه، وعمد إلى طفلين لعبيد الله فقتلهما ولما انتهى خبرهما إلى أمها فقدت وعيها، وراحت ترثيهما بذوب روحها بأبياتها المشهورة (١).
لقد قام سلطان معاوية على قتل الأبرياء، وذبح الأطفال، وإشاعة الرعب والفزع في البلاد.
ولما انتهت الانباء الأليمة إلى الامام خارت قواه، ومزق الأسى قلبه وراح يخطب في جيشه يذكر ما عاناه من الخطوب والكوارث منهم قائلا:
" أنبئت بسرا قد اطلع اليمن (٢) واني والله لأظن ان هؤلاء القوم سيدالون (٣) منكم باجتماعهم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم، وبمعصيتكم امامكم في الحق وطاعتهم امامهم في الباطل، وبأدائهم الأمانة إلى صاحبهم وخيانتكم، وبصلاحهم في بلادهم، وفسادكم، فلو ائتمنت أحدكم على

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ١٩٣.
(٢) اطلع اليمن: بلغها واحتلتها قواته.
(٣) سيدالون: أي ستكون لهم الدولة بسبب اجتماع كلمتهم، واختلاف رأي العراقيين.

قعب (١) لخشيت أن يذهب بعلاقته (٢) اللهم إني قد مللتهم وملوني، وسئمتهم وسئموني فأبدلني بهم خيرا منهم، وأبدلهم بي شرا مني، اللهم مث في قلوبهم كما يماث الملح في الماء أما والله لوددت ان لي الف فارس من بني فرس ابن غنم (٣):

هنا لك لو دعوت أتاك منهم * فوارس مثل أرمية الحميم

ثم نزل عن المنبر (٤) وهو غارق بالهموم والأحزان قد استولى الياس على نفسه من أصحابه الذين أصبحوا أعصابا رخوة خالية من الشعور والاحساس هذه بعض الغارات التي شنها معاوية على العراق وخارجه من الأقاليم الاسلامية الخاضعة لحكم الامام، وكان المقصود منها زعزعة هذه المناطق من ايمانها بمقدرة الامام على حمايتها من الاعتداء، وإذاعة مقدرة معاوية وقوته العسكرية، وتقوية الروح المعنوية في جيشه، وحزبه المنتشر في تلك البلاد.

وعلى أي حال فقد صورت هذه الغارات جانبا كبيرا من الضعف والتمرد في جيش الامام، حتى طمع معاوية في شن هجوم عام على العراق لاحتلاله، والقضاء على حكومة الامام، ومن المؤكد أنه لو فعل ذلك لوجد الطريق سهلا، ولم يجد أية صعوبة أو مقاومة تذكر، فقد خلد القوم إلى الراحة، وسئموا من الجهاد.

---

(١) القعب: بالضم القدح الكبير.

(٢) علاقته: بكسر العين ما يعلق به القعب من ليف ونحوه.

(٣) بنو فرس: قبيلة عربية مشهورة بالشجاعة والاقدام.

(٤) نهج البلاغة محمد عبده ١ / ٦٠.

عبث الخوارج:
وتواكبت المحن الشاقة على الامام يقفو بعضا، فغارات معاوية متصلة على العراق وخارجه، وهي تنشر الرعب والهلع في قلوب المواطنين والامام لا يتمكن على حماية الامن، وصيانة الناس من الاعتداء قد خلع جيشه يد الطاعة وأعلن العصيان والتمرد، ولم يعد له أي نفوذ أو سلطان عليه ومن تلك المحن الشاقة التي ابتلي بها الامام هي فتنة الخوارج فإنه لم يقض عليهم في النهروان، وانما قضى على جماعة منهم، وبقي أكثرهم يعيشون معه، وهم يكيدون له، ويتربصون به الدوائر، ويحولون قلوب الناس عنه، قد امنوا من بطشه واستيقنوا انه لن يبسط عليهم يدا، ولا ينزل بهم عقوبة، وقد أطمعهم عدله، وأغراهم لينه فراحوا يجاهرون بالرد والانكار عليه، فقد قطع بعضهم عليه خطبته تاليا قوله تعالى: " لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين " فاجابه الامام باية أخرى " فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون " وجاءه الخريت ابن راشد السامي في ثلاثين من أصحابه فقال له: يا علي والله لا أطيع أمرك، ولا أصلي خلفك، واني غدا مفارق لك، فلطف به الامام وحاججه وخلى بينه وبين حريته، فلم يسجنه، وانما ترك له الطريق مفتوحا وولى الرجل إلى قومه من بني ناجية فأخبرهم بما كان بينه وبين الامام، ثم خرج في الليل يريد الحرب وجرت أحداث كثيرة في خروج الخريت وتمرده ذكرها المؤرخون بالتفصيل.

وعلى أي حال فان المسؤولية الكبرى في كثير من الاحداث المفزعة التي مني بها العالم الاسلامي تقع على الخوارج فهم الذين قضوا على مصير

الأمة في أهم الفترات الحاسمة من تاريخها حينما كتب النصر للامام، وباء معاوية بالهزيمة والفشل، بحيث لم يبق من حياته إلا فترة يسيرة من الزمن قدرها قائد القوات العسكرية في جيش الامام مالك الأشتر، بحلبة شاة أو بعدوة فرس، فأضاعوا ذلك النصر الكبير وأرغموا الامام على قبول التحكيم

دعاء الامام على نفسه:

وطاقت بالامام موجات رهيبة ومذهلة من الاحداث والأزمات فهو يرى باطل معاوية قد استحكم، وأمره قد تم، ويرى نفسه في أرباض الكوفة قد احتوشته ذئاب العرب الذين كرهوا عدله، ونقموا عليه مساواته وعملوا جاهدين على الحيلولة بينه وبين تحقيق آماله من القضاء على الأثرة والاستعلاء والطغيان.

والشئ الوحيد الذي أقض مضجع الامام هو تمزق جيشه، وتفلل جميع وحداته، فقد أصبح بمعزل عن جميع السلطات، وقد نظر (ع) إلى المصير المؤلم الذي سيلاقونه من بعده فقال:

" أما انكم ستلقون بعدي ذلا شاملا، سيفا قاطعا، وأثرة يتخذها الظالمون فيكم سنة، فيفرق جماعتكم، ويبكي عيونكم، يدخل الفقر بيوتكم وتتمنون عن قليل انكم رأيتموني فنصرتموني، فستعلمون حق ما أقول لكم، ولا يبعد الله إلا من ظلم وأثم... " (١).

ولم يجد نصح الامام معهم شيئا فقد تمادوا في الغي، وعادت لهم جاهليتهم الرعناء.

وقد سئم الامام منهم وراح يتمنى مفارقة حياته فكان كثيرا ما يقول

---

(١) أنساب الأشراف ج ١ ق ١ ص ٢٠٠.

في خطبة: " متى يبعث أشقاها " واخذ يلح بالدعاء، ويتوسل إلى الله بقلب منيب أن يريحه منهم فقد روى البلاذري عن أبي صالح قال شهدت عليا، وقد وضع المصحف على رأسه حتى سمعت تقعقع الورق وهو يقول: " اللهم إني سألتهم ما فيه فمنعوني ذلك، اللهم إني قد مللتهم وملوني، وأبغضتهم وأبغضوني، وحملوني على غير خلقي، وعلى أخلاق لم تكن تعرف لي، فأبدلني خيرا لي منهم، وأبدلهم بي شرا، ومث قلوبهم ميث الملح.. " (١).

واستجاب الله دعاء وليه العظيم فنقله بعد قليل إلى حضيرة القدس مع النبيين والصديقين وأراحه من ذلك المجتمع الذي كره الحق، ونقم على العدل، وقد سلط الله عليهم أرجاس البشرية فأخذوا يمنعون في ظلمهم واذلالهم، فيأخذون البرئ بالسقيم، والمقبل بالمدبر، ويقتلون على الظنة والتهمة، فاستيقظوا عند ذلك، واخذوا يندمون أشد الندم على ما اقترفوه من الاثم تجاه الامام وما فرطوا به من عصيانه وخذلانه.

هذه بعض مخلفات تلك الحروب التي امتحن بها الامام كاشد ما يكون الامتحان قسوة وارهاقا ولم يمتحن بها وحده، وانما امتحن بها العالم الاسلامي بأسره، فقد أخلدت للمسلمين المشاكل والخطوب وألقتهم في شر عظيم.

لقد واكب الإمام الحسين (ع) هذه الاحداث المفزعة التي جرت على أبيه، ووقف على واقعها، وقد استبان له كراهية القوم لأبيه لأنه لم يداهن في دينه، وأراد أن يحمل الناس على الحق المحض والعدل الخالص، ولا يدع محروما، ولا مظلوما في البلاد.

وعلى اي حال فان هذه الحروب قد ساهمت مساهمة ايجابية في خلق كارثة كربلاء التي لم تأت الا بعد انهيار الأخلاق، وإماتة الوعي الديني، والاجتماعي، وإشاعة الانتهازية والتحلل بين افراد المجتمع، فقد سيطرت

---

(١) أنساب الأشراف ج ١ ق ١.

الرأسمالية القرشية على الشؤون الاجتماعية فأخذت تعيث فسادا في الأرض وتنقض جميع ما اقامه الاسلام من صروح للفضيلة والأخلاق، وكان من أسوء ما قامت به انها عملت جاهدة على إشاعة العداء والكراهية لأهل البيت (ع) الذين هم مصدر الوعي والاحساس في هذه الأمة.
فقد عمدت بشكل سافر إلى تقطيع أوصالهم على صعيد كربلا، وإبادتهم إبادة جماعية بصورة رهيبة لم يحدث لها نظير في تاريخ الانسانية.

أفول دولة الحق

وليس في تاريخ هذا الشرق ولا في غيره حاكم كالامام أمير المؤمنين (ع) في عدله ونزاهته، وايثاره للحق على كل شئ، فقد كان - فيما أجمع عليه المؤرخون - لم يخضع لأية نزعة عاطفية، ولم يستجب لأي هوى مطاع، وانما سار على الطريق الواضح، والمنهج السليم الذي سلكه رسول الله (ص) فلم يحاب، ولم يداهن في دينه، وتبنى النصح الخالص لجميع المسلمين، وقد حاول جاهدا أيام حكومته ان يرفع راية الاسلام، ويحقق مبادئه التي كان منها رفع الحيف والظلم، ومنع الاستغلال، وإزالة الفوارق بين أبناء المسلمين وكان من أعظم ما عنى به وضع أموال الدولة في مواضعها فلم ينفق اي شئ منها الا على مرافقها التي عينها الاسلام، وما تاجر بها، ولو اشترى بها العواطف والضمائر - كما كان يفعل معاوية - لما تنكر عليه النفعيون في جيشه كالأشعث بن قيس وغيره من أقطاب الخيانة والعمالة.

لقد احتاط في أموال الدولة كاشد ما يكون الاحتياط، واجهد نفسه وحملها من امره رهقا من اجل أن يبسط العدل الاقتصادي بين الناس، يقول عبد الله بن رزين: دخلت على علي يوم الأضحى فقرب، إلينا حريرة، فقلت له: أصلحك الله لو قربت إلينا من هذا البط فان الله قد أكثر الخير، فقال: يا بن رزين سمعت رسول الله (ص) يقول: لا يحل لخليفة من مال الله الا قصعتان قصعة يأكلها هو وأهله، وقصعة يضعها بين يدي الناس (١)

وقد نقم على سياسته كل من استسلم لدوافع المادة وشهواتها، فراحوا يعملون جاهدين للإطاحة بحكومته، وتشكيل حكومة تضمن مصالحهم الاقتصادية والسياسية.

ومن المؤكد ان الامام كان يعلم كيف يجلب له الطاعة، وكيف يبسط

---

(١) جواهر المطالب في مناقب الامام أبي الحسن (ص ٤٣) لشمس الدين أبو البركات، من مصورات مكتبة الامام أمير المؤمنين.

سلطانه ونفوذه على أولئك الذين نقموا عليه، ولكن ذلك لا يتم الا بان يداهن في دينه فيوارب ويخادع ويعطي المال في غير حقه، فيكون كبقية عشاق الملك والسلطان، ومن الطبيعي ان الانحراف عن الحق، والمتاجرة بمصالح الأمة مما يأباه علي وتأباه مثله العليا، فلا السلطة تغريه ولا اجتماع الناس حوله تزيده عزة، ولا تفرقهم عنه تزيده وحشة كما كان يقول.

لقد كان الامام يؤمن ايمانا خالصا بالدين، ويرى من الضرورة أن يكون هو المسيطر على قلوب الناس وتفكيرهم، وان لا يكون هناك اي ظل للمنافع والأهواء، ومما لا شك فيه ان هذا النوع الخالص من الايمان لم يتحقق الا للقلة القليلة من أصحابه كحجر بن عدي ومالك الأشتر وعدي بن حاتم وميثم التمار ونظرائهم ممن تغذوا بهديه، وهم الذين قرؤا القران فأحكموه، وتدبروا الفرض فأقاموه أحيوا السنة وأماتوا البدعة – على حد تعبيره – اما الأكثرية الساحقة من جيشه وشعبه فإنهم لم يعوا أهدافه ومبادئه، وجهلوا القيم العليا في سياسته المشرقة التي كانت تهدف إلى ضمان حقوق المظلومين والمضطهدين.

لقد تحرج الامام في سلوكه السياسي فأخضع سياسته العامة للقيم الدينية والخلقية، فبسط الحق بجميع رحابه ومفاهيمه، ولم يعد اي نفوذ للأقوياء، ولا سلطان للرأسمالية القرشية التي كانت تعتبر السواد بستانا لقريش.

وقد هبت القوى المنحرفة عن الحق في وجه الامام فأشعلت نار الحرب، وأوقفت مسيرة الامام في تطبيق العدل الاجتماعي، ووضعت السدود والحواجز في طريقه، وقد وقف الامام العظيم ملتاعا حزينا، قد احتوشته ذئاب الأثرة والاستغلال، وتناهب مشاعره الاحداث المفزعة التي تواكبت عليه، وكان من أفجعها الفتن الداخلية التي كانت تثيرها الخوارج الذين كانوا يعيشون معه وهم يجاهرونه بالعداء، وينشرون الفتن والاختلاف، ويتربصون

الفرص للخروج عليه.

مؤتمر مكة:

ونزح فريق من الخوارج إلى مكة، فعقدوا فيها مؤتمرا عرضوا فيه مصارع إخوانهم الذين قتلوا في النهروان، كما عرضوا فيه الاحداث الجسام التي يواجهها العالم الاسلامي، والتي أدت إلى اختلافه وتفككه، وعزوها إلى ثلاث - حسب ما يزعمون - الإمام علي، ومعاوية وعمرو بن العاص، وقد عقدوا النية بعد تبادل الرأي على القيام باغتيالهم، وانبرى لتنفيذ هذا المخطط كل من.

١ - عبد الرحمن بن ملجم تعهد بقتل الإمام علي.

٢ - الحجاج بن عبد الله الصريمي تعهد بقتل معاوية.

٣ - عمرو بن بكر التميمي التزم بقتل ابن العاص.

وقد اتفقوا على القيام بعملية الاغتيال في ليلة الثامن عشر من رمضان ساعة خروج هؤلاء الثلاثة إلى صلاة الصبح، وقد أقاموا بمكة أشهرا، واعتمروا في رجب، ثم تفرقوا وقصد كل واحد لتنفيذ ما عهد إليه.

رأي رخيص:

من الآراء الزائفة التي تحملها بعض الكتب ما ذهب إليه الدكتور بديع شريف من اتهام الفرس بقتل علي (١) وهل وقف الدكتور على نسب ابن ملجم، وانه كان فارسيا؟ أليس هو من مراد إحدى القبائل

---

(١) الصراع بين الموالي والعرب (ص ٣٢ - ٣٣)

العربية التي كانت تقطن في الكوفة، وعلق الدكتور نوري جعفر على هذا الرأي بقوله: " ومن يدري فلعل حب الفرس لعلي هو الذي جعل هؤلاء الكتاب يبغضونهم، ويكيلون لهم التهم بغير حساب " (١)

اشتراك الأمويين في المؤامرة:

وذكر المؤرخون هذا الحادث الخطير بشئ كثير من التحفظ فلم يكشفوا النقاب عن ابعاده، والذي نراه في كثير من الترجيح ان المؤامرة لم تكن مقتصر على الخوارج، وانما كان للحزب الأموي ضلع كبير فيها، والذي يدعم ذلك ما يلي.

١ - ان أبا الأسود الدئلي ألقى تبعة مقتل الامام على بني أمية، وذلك في مقطوعته التي رثا بها الامام فقد جاء فيها:

الا أبلغ معاوية بن حرب * فلا قرت عيون الشامتينا
أفي شهر الصيام فجعتمونا * بخير الناس طرا أجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا * ورحلها ومن ركب السفينا (٢)

ومعنى هذه الأبيات ان معاوية هو الذي فجع المسلمين بقتل الامام الذي هو خير الناس، فهو مسؤول عن إراقة دمه، ومن الطبيعي ان أبا الأسود لم ينسب هذه الجريمة لمعاوية الا بعد التأكد منها، فقد كان الرجل متحرجا أشد التحرج فيما يقول.

٢ - ان القاضي نعمان المصري، وهو من المؤرخين القدامى قد ذكر قولا في أن معاوية هو الذي دس ابن ملجم لاغتيال الامام، قال ما نصه:

---

(١) الصراع بين الموالي ومبادئ الاسلام (ص ١٠٣).
(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ١٩٨.

" وقيل إن معاوية عامله – اي عامل ابن ملجم – على ذلك – أي على اغتيال الامام – ودس إليه فيه، وجعل له مالا عليه.. " (١)
٣ – ومما يؤكد اشتراك الحزب الأموي في المؤامرة هو ان الأشعث ابن قيس قد ساند ابن ملجم، ورافقه أثناء عملية الاغتيال، فقد قال له: " النجا فقد فضحك الصبح " ولما سمعه حجر بن عدي صاح به " قتلته يا أعور " وكان الأشعث من أقوى العناصر المؤيدة للحزب الأموي، فهو الذي أرغم الامام على قبول التحكيم وهدد الامام بالقتل قبل قتله بزمان قليل كما كان عينا لمعاوية بالكوفة.
إن المؤامرة – كما يقول الرواة – قد أحيطت بكثير من السر والكتمان فما الذي أوجب فهم الأشعث ودعمه لها لولا الايعاز إليه من الخارج.
٤ – ان مؤتمر الخوارج قد انعقد في مكة أيام موسم الحج، وهي حافلة – من دون شك – بالكثيرين من أعضاء الحزب الأموي الذين نزحوا إلى مكة لإشاعة الكراهية والنقمة على حكومة الامام، وأغلب الظن انهم تعرفوا على الخوارج الذين كانوا من اعدى الناس للامام، فقاموا بالدعم الكامل لهم على اغتيال الامام، ومما يساعد على ذلك أن الخوارج بعد انقضاء الموسم أقاموا بمكة إلى رجب فاعتمروا في البيت ثم نزحوا إلى تنفيذ مخططهم فمن المحتمل ان يكونوا في طيلة هذه المدة على اتصال دائم مع الحزب الأموي، وسائر الأحزاب الأخرى المناهضة لحكم الامام.
٥ – والذي يدعو إلى الاطمئنان في أن الحزب الأموي كان له الضلع الكبير في هذه المؤامرة هو ان ابن ملجم كان معلما للقران (٢)

---

(١) المناقب والمثالب (ص ٩٨) للقاضي نعمان المصري من مصورات مكتبة الإمام الحكيم.
(٢) لسان ميزان ٣ / ٤٤٠.

وكان يأخذ رزقه من بيت المال، ولم تكن عنده اية سعة مالية فمن أين له الأموال التي اشترى بها سيفه الذي اغتال به الامام بألف وسمه بألف؟؟ ومن أين له الأموال التي أعطاها مهرا لقطام وهو ثلاثة آلاف وعبد وقينة؟ كل ذلك يدعو إلى الظن أنه تلقى دعما ماليا من الأمويين إزاء قيامه باغتيال الامام.

٦ - ومما يؤكد ان ابن ملجم كان عميلا للحزب الأموي هو انه كان على اتصال وثيق بعمرو بن العاص وزميلا له منذ عهد بعيد، فإنه لما فتح ابن العاص مصر كان ابن ملجم معه، وكان أثيرا عنده فقد أمره بالنزول بالقرب منه (١) وأكبر الظن انه أحاط ابن العاص علما بما اتفق عليه مع زميليه من عملية الاغتيال له وللامام، ومعاوية، ولذا لم يخرج ابن العاص إلى الصلاة وانما استناب غيره، فلم تكن نجاته وليدة مصادفة وانما جاءت وليدة مؤامرة حكيت أصولها مع ابن العاص.

هذه بعض الأمور التي توجب الظن باشتراك الحزب الأموي في تدبير المؤامرة ودعمها.

اغتيال الامام:

واطل على المسلمين شهر رمضان الذي أنزل فيه القران، وقد كان الامام على يقين بانتقاله إلى حظيرة القدس في بحر هذا الشهر العظيم، فكان يجهد نفسه ويرهقها على أن يفطر على خبز الشعير وجريش الملح، وان لا يزيد على ثلاث لقم حسب ما يقوله المؤرخون، وكان يحيى ليالي هذا الشهر بالعبادة، ولما أقبلت ليلة الثامن عشر أحسن الامام بنزول الرزء القاصم

---

(١) لسان ميزان ٣ / ٤٤٠

فكان برما تساوره الهموم والأحزان، وجعل يتأمل في الكواكب وهي مرتعشة الضوء كأنها ترسل أشعة حزنها إلى الأرض، وطفق يقول:
" ما كذبت ولا كذبت انها الليلة التي وعدت فيها ".
وأنفق الامام ليله ساهرا، وقد راودته ذكريات جهاده وعظيم عنائه في الاسلام، وزاد وجيبه وشوقه لملاقاة ابن عمه رسول الله (ص) ليشكو إليه ما عاناه من أمته من الأود.
وتوجه الامام بمشاعره وعواطفه إلى الله يطلب منه الفوز والرضوان وقبل أن تشرق أنوار ذلك الفجر الذي دام في ظلامه على البؤساء والمحرومين انطلق الامام فاسبغ الوضوء، وتهيأ إلى الخروج من البيت، فصاحت في وجهه وز كأنها صاحب ملتاعة حزينة تنذر بالخطر العظيم الذي سيدهم أرض العرب والمسلمين، وتنبأ الامام من لوعتهن بنزول القضاء، فقال:
" لا حول ولا قوة إلا بالله صوائح تتبعها نوائح " (١).
وخرج الامام إلى بيت الله فجعل يوقظ الناس على عادته إلى عبادة الله ثم شرع في صلاته وبينما هو ماثل بين يدي الله وذكره على شفيته إذ هوى عليه المجرم الخبيث عبد الرحمن بن ملجم، وهو يهتف بشعار الخوارج " الحكم لله لا لك " فعلا رأس الامام بالسيف فقد جبهته الشريفة التي طالما عفرها بالسجود لله، وانتهت الضربة الغادرة إلى. دماغه المقدس الذي ما فكر فيه إلا في سعادة الناس، وجمعهم على صعيد الحق.
ولما أحس الامام بلذع السيف انفرجت شفتاه عن ابتسامة، وانطلق صوته يدوي في رحاب الجامع قائلا:
" فزت ورب الكعبة ".
لقد كنت - يا أمير المؤمنين - أول الفائزين، وأعظم الرابحين

---

(١) مروج الذهب ٢ / ٢٩١.

بمرضاة الله، فقد سايرت الحق منذ نعومة أظفارك، فلم تداهن في دينك ولم تؤثر رضا أحد على طاعة الله، قد جاهدت وناضلت من أجل أن تعلو كلمة الله في الأرض، ووقيت رسول الله (ص) بنفسك ومهجتك.
لقد فزت، وانتصرت مبادؤك، وبقيت أنت وحدك حديث الدهر بما تركته من سيرة مشرقة أضاءت سماء الدنيا، وغذت الأجيال بجوهر الحق والعدل.
وخف الناس مسرعين إلى الجامع حينما أذيع مقتل الامام فوجدوه طريحا في محرابه وهو يلهج بذكر الله، قد نزف دمه، ثم حمل إلى داره والناس تعج بالبكاء وهم يهتفون بذوب الروح.
قتل الإمام الحق والعدل.
قتل أبو الضعفاء وأخو الغرباء.
واستقبلته عائلته بالصراخ، فأمرهن (ع) بالخلود إلى الصبر، وغرق الإمام الحسن بالبكاء فالتفت إليه الامام قائلا:
" يا بني لا تبك فأنت تقتل بالسم، ويقتل أخوك الحسين بالسيف. "
وتحقق تنبؤ الامام فلم تمض حفنة من السنين وإذا بالحسن اغتاله معاوية بالسم، فذابت أحشاؤه، واما الحسين فتناهب جسمه السيوف والرماح، وتقطعت أوصاله على صعيد كربلاء.
ويقول المؤرخون ان الإمام الحسين لم يكن حاظرا بالكوفة حينما اغتيل أبوه وانما كان في معسكر النخيلة قائدا لفرقة من الجيش الذي أعده الامام لمناجزة معاوية، وقد ارسل إليه الإمام الحسن رسولا يعرفه بما جرى على أبيه، فقفل راجعا إلى الكوفة، وهو غارق بالأسى والشجون، فوجد أباه على حافة الموت فالقى بنفسه عليه يوسعه تقبيلا ودموعه تتبلور على خديه.

واخذ الامام العظيم يوصي أولاده بالمثل الكريمة والقيم الانسانية، وعهد إليهم أن لا يقتلوا غير قاتله، وان لا يتخذوا من قتله سببا لإثارة الفتنة وإراقة الدماء بين المسلمين كما فعل بنو أمية حينما قتل عميدهم عثمان إلى الرفيق الاعلى:

واخذ الامام يعاني الام الاحتضار وهو يتلو آيات الذكر الحكيم، وكان آخر ما نطق به قوله تعالى: " لمثل هذا فليعمل العاملون " ثم فاضت روحه الزكية، تحفها ملائكة الرحمن، فمادت أركان العدل في الأرض، وانطمست معالم الدين لقد مات ملاذ المنكوبين والمحرومين الذي جهد نفسه أن يقيم في ربوع هذا الكون دولة تكتسح الأثرة والاستغلال، وتقيم العدل والحق بين الناس.

وقام سبطا رسول الله (ص) بتجهيز أبيهما فغسلا جسده الطاهر وأدرجاه في أكفانه، وفي الهزيع الأخير من الليل حملوه إلى مقره الأخير فدفنوه في النجف الأشرف، وقد واروا معه العدالة الاجتماعية، والقيم الانسانية ويقول المؤرخون ان معاوية لما وافاه النباء بمقتل الامام فرح، واتخذ يوم قتله عيدا رسميا في دمشق فقد تمت بوارق آماله، وتم له اتخاذ الملك وسيلة لاستعباد المسلمين وارغامهم على ما يكرهون.

متارك حكومة الامام:

وتركت حكومة الامام آثارا بالغة الأهمية والخطورة في المجتمع الاسلامي ولعل من أهمها ما يلي:

١ - انها أبرزت الواقع الاسلامي بجميع طاقاته في عالم السياسة والحكم، فقد كان الامام يهدف في حكمه إلى إزالة الفوارق الاجتماعية بين الناس، وتحقيق الفرص المتكافئة بينهم على اختلاف قومياتهم وأديانهم، ومعاملة جميع الطوائف بروح المساواة والعدالة فيما بينهم من دون أن تتمتع اي طائفة بامتياز خاص وقد أوجدت هذه السياسة للامام رصيدا شعبيا هائلا، فقد ظل علي قائما في قلوب الجماهير الشعبية بما تركه من صنوف العدل والمساواة، وقد هام بحبه الأحرار، ونظروا إليه كأعظم مصلح اجتماعي في الأرض، وقدموه على جميع اعلام تلك العصور، يقول أيمن ابن خريم الأسدي مخاطبا بني هاشم وعلى رأسهم الامام:

أأجعلكم وأقواما سواء * وبينكم وبينهم الهواء
وهم أرض لأرجلكم وأنتم * لا رؤوسهم وأعينهم سماء (١)

٢ - ان مبادئ الامام وآراءه النيرة ظلت تطارد الأمويين وتلاحقهم في قصورهم فكانوا ينظرون إليها شبحا مخفيا يهدد سلطانهم، مما جعلهم يفرضون سبه على المنابر للحط من شانه، وصرف الناس عن قيمه ومبادئه.

٣ - ان حكومة الامام التي رفعت شعار العدالة الاجتماعية الكبرى قد جرت لأبنائه كثيرا من المشاكل والمصاعب، وألحقت بهم التنكيل والقتل من حكام عصرهم، وقد تنبأ النبي الأعظم (ص) بذلك فقد روى أبو جعفر الإسكافي أن النبي (ص) دخل على فاطمة فوجد عليا نائما فذهبت لتوقظه، فقال (ص): " دعيه فرب سهر له بعدي طويل، ورب جفوة لأهل بيتي من اجله " فكبت فاطمة، فقال لها: لا تبكي فإنه معي وفي موقف الكرامة عندي (٢).

---

(١) الأغاني ١ / ٢١.
(٢) شرح النهج ٤ / ١٠٧.

لقد أمعن الحكم الأموي والعباسي في ظلم أبناء الامام لأنهم تبنوا حقوق المظلومين والمضطهدين، وتبنوا المبادئ العليا التي رفع شعارها الامام أمير المؤمنين فناضلوا كاشد ما يكون النضال في سبيل تحقيقها على مسرح الحياة، وكان من أشد أبناء الامام حماسا واندفاعا في حماية مبادئ أبيه الإمام الحسين (ع) فقد انطلق إلى ساحات الجهاد عازما على الموت آيسا من الحياة ليحمي مبادئ جده وأبيه ويرفع راية الاسلام عالية خفاقة وينكس اعلام الشرك والالحاد، ويحطم قيود العبودية والذل.

٤ - وأوجد الامام في أثناء حكمه القصير وعيا أصيلا في مقارعة الظلم، ومناهضة الجور فقد هب في وجه الحكم الأموي اعلام أصحابه كحجر بن عدي، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وعبد الله بن عفيف الأزدي وأمثالهم من الذين تربوا بهدي الامام، فدوخوا أولئك الظالمين بثورات متلاحقة أطاحت بزهوهم وجبروتهم، لقد كان حكم الامام - حقا - مدرسة للنضال والثورة، ومدرسة لبث الوعي الديني والادراك الاجتماعي، وبهذا ينتهي بنا الحديث عن مخلفات حكومة الامام.

خلافة الحسن:

وتقلد الإمام الحسن (ع) أزمة الخلافة الاسلامية بعد أبيه، فتسلم قيادة حكومة شكلية عصفت بها الفتن، ومزقت جيشها الحروب والأحزاب ولم تعد هناك اية قاعدة شعبية تستند إليها الدولة، فقد كان الاتجاه العام الذي بمثله الوجوه والأشرف مع معاوية، فقد كانوا على اتصال وثيق به قبل مقتل الامام وبعده، كما كان لهم الدور الكبير في افساد جيش الامام حينما مني جيش معاوية بالهزيمة والفرار، وعلى اي حال فان الإمام الحسن

بعد أن تقلد الخلافة اخذ يتهيأ للحرب، وقد أمر بعقد اجتماع عام في جامع الكوفة وقد حضرته القوات المسلحة وغيرها، والقى الامام خطابا رائعا ومؤثرا دعا في إلى تلاحم القوى ووحدة الصف، وحذر فيه من الدعايات التي تبثها أجهزة الحكم الأموي، ثم ندب الناس لحرب معاوية فلما سمعوا ذلك وجلت قلوبهم وكمت أفواههم، ولم يستجب منهم أحد سوى البطل الملهم عدي بن حاتم فانبرى يعلن دعمه الكامل للامام، ووجه أعنف اللوم والتقريع لأهل الكوفة على موقفهم الانهزامي واستبان للامام وغيره ان جيشه لا يريد الحرب، فقد خلع يد الطاعة، وأنساب في ميادين العصيان والتمرد.

وبعد جهود مكثفة قام بها بعض المخلصين للامام نفر للحرب أخلاط من الناس – على حد تعبير الشيخ المفيد – كان أكثرهم من الخوارج والشكاكين وذوي الأطماع، وهذه العناصر لم تؤمن بقضية الامام، وقد تطعمت بالخيانة والغدر، ويقول الرواة ان الامام أسند مقدمة قيادة جيشه لعبيد الله بن العباس الذي وتره معاوية بابنيه ليكون ذلك داعية اخلاص له و حينما التقى جيشه بجيش معاوية، مد إليه معاوية أسلاك مكره فمناه بمليون درهم يدفع نصفه في الوقت والنصف الاخر إذا التحق به (١) وسال لعاب عبيد الله فاستجاب لدنيا معاوية ومال عن الحق فالتحق بمعسكر الظلم والجور ومعه ثمانية آلاف من الجيش (٢) غير حافل بالخيانة والعار، ولا بالاضرار الفظيعة التي ألحقها بجيش ابن عمه، فقد تفللت جميع وحداته وقواعده، ولم تقتصر الخيانة على عبيد الله، وانما خان غيره من كبار قادة ذلك

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٤ / ٢٨.
(٢) تاريخ اليعقوبي ٢ / ١٩١.

الجيش، فالتحقوا بمعاوية، وتركوا الامام في أرباض ذلك الجيش المنهزم يصعد آهاته وآلامه.

ولم تقتصر محنة الامام وبلاؤه في جيشه على خيانة قادة فرقة، وإنما تجاوز بلاؤه إلى ما هو أعظم من ذلك، فقد قامت فصائل من ذلك الجيش باعمال رهيبة بالغة الخطورة وهي:

١ - الاعتداء على الامام:

وقام الرجس الخبيث الجراح بن سنان بالاعتداء على الامام فطعنه في فخذه بمغول (١) فهوى الامام جريحا، وحمل إلى المواني لمعالجة جرحة (٢) وطعنه شخص آخر بخنجر في أثناء الصلاة (٣) كما رماه شخص بسهم في أثناء الصلاة إلا أنه لم يؤثر فيه شيئا (٤) وأيقن الامام أن أهل الكوفة جادون في قتله واغتياله.

٢ - الحكم عليه بالكفر.

وأصيب ذلك الجيش بدينه وعقيدته فقد رموا حفيد نبيهم وريحانته بالكفر والمروق من الدين، فقد جابهه الجراح بن سنان رافعا عقيرته قائلا: " أشركت يا حسن كما أشرك أبوك... " (٥).

وكان هذا رأي جميع الخوارج الذين كانوا يمثلون الأكثرية الساحقة في ذلك الجيش.

٣ - الخيانة العظمى:

والخيانة العظمى التي قام بها بعض زعماء ذلك الجيش انهم راسلوا

---

(١) المغول: آلة تشبه السيف.

(٢) الارشاد (ص ١٧٠).

(٣) حياة الإمام الحسن ٢ / ١٠٢ - ١٠٥:

(٤) حياة الإمام الحسن ٢ / ١٠٢ - ١٠٥:

(٥) حياة الإمام الحسن ٢ / ١٠٣.

معاوية وضمنوا له تسليم الامام أسيرا أو اغتياله متى رغب وشاء، (١) واقض ذلك مضجع الامام فخاف ان يؤسر ويسلم إلى معاوية فيمن عليه، ويسجل بذلك يدا لبني أمية على الأسرة النبوية، كما كان (ع) يتحدث بذلك بعد ابرام الصلح

٤ - نهب أمتعة الامام.

وعمد أجلاف أهل الكوفة إلى نهب أمتعة الامام وأجهزته فنزعوا بساطا كان جالسا عليه كما سلبوا منه رداءه (٢).

هذه بعض الاحداث الرهيبة التي قام بها ذلك الجيش الذي تمرس في الخيانة والغدر.

الصلح:

ووقف الإمام الحسن من هذه الفتن السود موقف الحازم اليقظ الذي تمثلت فيه الحكمة بجميع رحابها ومفاهيمها، فرأى أنه أمام أمرين:

١ - ان يفتح باب الحرب مع معاوية، وهو على يقين لا يخامره أدنى شك ان الغلبة ستكون لمعاوية، فاما ان يقتل هو وأصحابه وأهل بيته الذين يمثلون القيم الاسلامية، ويخسر الاسلام بتضحيتهم قادته ودعاته من دون ان تستفيد القضية الاسلامية اي شئ فان معاوية بحسب قابلياته الدبلوماسية يحمل المسؤولية على الامام، ويلقي على تضحيته الف حجاب، أو انه يؤسر فيمن عليه معاوية فتكون سبة على بني هاشم وفخرا لبني أمية.

٢ - ان يصالح معاوية فيحفظ للاسلام رجاله ودعاته، ويبرز في

---

(١) حياة الإمام الحسن ٢ / ١٠٠.

(٢) تاريخ اليعقوبي.

صلحه واقع معاوية، ويكشف عنه ذلك الستار الصفيق الذي تستر به، وقد اختار (ع) هذا الامر على ما فيه من قذى في العين وشجي في الحلق، ويقول المؤرخون إنه جمع جيشه فعرض عليهم الحرب أو السلم فتعالت الأصوات من كل جانب وهم ينادون.

" البقية البقية " (١).

لقد استجابوا للذل، ورضوا بالهوان، وما لوا عن الحق، وقد أيقن الامام أنهم قد فقدوا الشعور والاحساس، وانه ليس بالمستطاع أن يحملهم على الطاعة ويكرههم على الحرب فاستجاب - على كره ومرارة - إلى الصلح.

لقد كان الصلح أمرا ضروريا يحتمه الشرع، ويلزم به العقل، وتقضي به الظروف الاجتماعية الملبدة بالمشاكل السياسية فان من المؤكد أنه لو فتح باب الحرب لمني جيشه بالهزيمة، ومنيت الأمة من جراء ذلك بكارثة لا حد لأبعادها.

اما كيفية الصلح وشروطه وأسبابه وزيف الناقدين له فقد تحدثنا عنها بالتفضيل في كتابنا حياة الإمام الحسن (ع).

موقف الإمام الحسين:

والشئ المحقق ان الإمام الحسين قد تجاوب فكريا مع أخيه في أمر الصلح، وانه تم باتفاق بينهما فقد كانت الأوضاع الراهنة تقضي بضرورته، وانه لا بد منه، وهناك بعض الروايات الموضوعة تعاكس ما ذكرناه، وان الإمام الحسين كان كارها للصلح وقد هم ان يعارضه فانذره أخوه

---

(١) حماة الاسلام ١ / ١٢٣، المجتنى لابن دريد (ص ٣٦).

بان يقذفه في بيت فيطينه عليه حتى يتم أمر الصلح، فرأى أن من الوفاء لأخيه أن يعطيه ولا يخالف له أمرا فأجابه إلى ذلك، وقد دللنا على افتعال ذلك وعدم صحته اطلاقا في كتابنا حياة الإمام الحسن.

عدي بن حاتم مع الحسين:

ولما أبرم أمر الصلح خف عدي بن حاتم ومعه عبيدة بن عمر إلى الإمام الحسين وقلبه يلتهب نارا فدعا الامام إلى إثارة الحرب قائلا: " يا أبا عبد الله شريتم الذل بالعز، وقبلتم القليل وتركتم الكثير، أطعنا اليوم، واعصنا الدهر، دع الحسن، وما رأى من هذا الصلح، واجمع إليك شيعتك من أهل الكوفة وغيرها وولني وصاحبي هذه المقدمة، فلا يشعر ابن هند الا ونحن نقارعه بالسيوف. ".

فقال الحسين (ع)، " إنا قد بايعنا وعاهدنا ولا سبيل لنقض بيعتنا " (١)

ولو كان الحسين يرى مجالا للتغلب على الاحداث لخاض الحرب، وناجز معاوية، ولكن قد سدت عليه وعلى أخيه جميع النوافذ والسبل، فرؤا انه لا طريق لهم الا الصلح.

تحول الخلافة:

وتحولت الخلافة الاسلامية من طاقتها الأصيلة ومفاهيمها البناءة إلى ملك عضوض مستبد لا ظل فيه للعدل، ولا شبح فيه للحق قد تسلطت الطغمة

---

(١) الاخبار الطوال (ص ٢٠٣).

الحاكمة من نبي أمية على الأمة وهي تمعن في اذلالها ونهب ثرواتها، وارغامها على المعبودية، يقول بعض الكتاب: " ونجم عن زوال الخلافة الراشدة وانتقال الخلافة إلى بني أمية نتائج كبيرة فقد انتصرت أسرة بني أمية على الأسرة الهاشمية، وهذا كان معناه انتصار الأرستقراطية القرشية، وأصحاب رؤوس المال والمضاربات التجارية على أصحاب المبادئ والمثل، لقد كان نصر معاوية هزيمة لكل الجهود التي بذلت للحد من طغيان الرأسمالية القرشية، هزيمة لحلف الفضول، وهزيمة للدوافع المباشرة لقيام الاسلام وحربه على الاستغلال والظلم، هزيمة للمثل والمبادئ، ونجاح للحنكة والسياسة المدعومة بالتجربة والمال، ولقد كان لهذه الهزيمة وقع مفجع على الاسلام وأجيال المسلمين. "

ويقول (نيكلسون):

" واعتبر المسلمون انتصار بني أمية وعلى رأسها معاوية انتصارا للارستقراطية والوثنية التي ناصبت الرسول وأصحابه العداء، والتي جاهدها رسول الله (ص) حتى قضى عليها، وصبر معه المسلمون على جهادها ومقاومتها حتى نصرهم الله، وأقاموا على أنقاضها دعائم الاسلام ذلك الدين السمح الذي جعل الناس سواسية في السراء والضراء، وأزال سيادة رهط كانوا يحتقرون الفقراء، ويستذلون الضعفاء، ويبتزون الأموال.. ".

وعلى أي حال فقد فجع العالم الاسلامي - بعد الصلح - بكارثة كبرى فخرج من عالم الدعة والامن والاستقرار إلى عالم ملئ بالظلم والجور فقد أسرع الأمويون بعد أن استتب لهم الامر إلى الاستبداد بشؤون المسلمين، وارغامهم على ما يكرهون.

وعانى الكوفيون من الظلم ما لم يعانه غيرهم، فقد اخذت السلطة

تحاسبهم حسابا عسيرا على وقوفهم مع الامام في أيام صفين، وعهدت في شؤونهم إلى الجلادين أمثال المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه فصبوا عليهم وابلا من العذاب الأليم، واخذ الكوفيون يندبون حظهم التعيس على ما اقترفوه من عظيم الاثم في خذلانهم للإمام أمير المؤمنين وولده الحسن، وجعلوا يلحون على الإمام الحسين بوفودهم ورسائلهم لينقذهم من ظلم الأمويين وجورهم الا ان من المدهش حقا انه لما استجاب لهم شهروا في وجهه السيوف، وقطعوا أوصاله وأوصال أبنائه على صعيد كربلا... وبهذا ينتهي بنا المطاف عن أفول دولة الحق.

حكومة معاوية

واستقبل المسلمون حكومة معاوية - بعد الصلح - بكثير من الذعر والفزع والخوف، فقد عرفوا واقع معاوية، ووقفوا على اتجاهاته الفكرية والعقائدية فخافوه على دينهم، وعلى نفوسهم وأموالهم، وقد وقع ما خافوه فإنه لم يكد يستولي على رقاع الدولة الاسلامية حتى أشاع الظلم والجور والفساد في الأرض، ويقول المؤرخون انه ساس المسلمين سياسة لم يألفوها من قبل، فكانت سياسته تحمل شارات الموت والدمار، كما كانت تحمل معول الهدم على جميع القيم الأخلاقية والانسانية، وقد انتعشت في عهده الوثنية بجميع مساوئها التي نفر منها الناس، يقول السيد مير علي الهندي:

" ومع ارتقاء معاوية الخلافة في الشام عاد حكم التوليغارشية الوثنية: السابقة فاحتل موقع ديمقراطية الاسلام وانتعشت الوثنية بكل ما يرافقها من خلاعات، وكأنها بعثت من جديد، كما وجدت الرذيلة والتبذل الخلقي لنفسها متسعا في كل مكان ارتادته رايات حكام الأمويين من قادة جند الشام.. " (١)

والشئ المؤكد ان حكومة معاوية لم تستند إلى رضى الأمة أو مشورتها، وانما فرضت عليها بقوة السلاح، وقد اعترف معاوية بذلك اعترافا رسميا بتصريح أدلى به امام جمهور غفير من الناس فقال: " والله ما وليتها - اي الخلافة - بمحبة علمتها منكم ولا مسرة بولايتي، ولكن جالدتكم بسيفي هذا مجالدة، فان لم تجدوني أقوم مجتمعكم كله فاقبلوا مني بعضه.. ".

ولما وقعت الأمة فريسة تحت أنيابه - بعد الصلح - خطب في (النخيلة) خطابا قاسيا أعلن فيه عن جبروته وطغيانه على الأمة واستهانته بحقوقها فقد جاء فيه: " والله اني ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا، ولا لتحجوا ولا لتزكوا، انكم لتفعلون ذلك، وانما قاتلتكم لا تأمر عليكم،

---

(١) روح الاسلام (ص ٢٩٦).

وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون " (١)
ومثل هذا الخطاب الاتجاهات الشريرة التي يحملها معاوية فمن اجل الامرة والسيطرة على العباد أراق دماء المسلمين، وأشاع في بيوتهم الثكل والحزن والحداد.
ولا بدلنا من دراسة موجزة للمخططات السياسية التي تبنتها حكومة معاوية، وما رافقها من الاحداث الجسام فإنها - فيما نعتقد - من ألمع الأسباب في ثورة الإمام الحسين، فقد رأى ما مني به المسلمون في هذا العهد من الحرمان والاضطهاد، وما أصيبوا به من الانحراف والتذبذب من جراء النقائص الاجتماعية التي أوجدها الحكم الأموي، فهب سلام الله عليه - بعد هلاك معاوية - إلى تفجير ثورته الكبرى التي أدت إلى ايقاظ الوعي الاجتماعي الذي اكتسح الحكم الأموي وأزال جميع معالمه وآثاره،... وهذه بعض معالم سياسة معاوية.
سياسته الاقتصادية:
ولم تكن لمعاوية أية سياسة اقتصادية في المال حسب المعنى المصطلح لهذه الكلمة، وانما كان تصرفه في جباية الأموال وانفاقها خاضعا لرغباته وأهوائه فهو يهب الثراء العريض للقوى المؤيدة له ويحرم العطاء للمعارضين له، ويأخذ الأموال ويفرض الضرائب كل ذلك بغير حق.
إن من المقطوع به انه لم يعد في حكومة معاوية اي ظل للاقتصاد الاسلامي الذي عالج القضايا الاقتصادية بأروع الوسائل وأعمقها، فقد عنى بزيادة الدخل الفردي، ومكافحة البطالة، وإذابة الفقر، واعتبر مال

---
(١) حياة الإمام الحسن ٢ / ٢٥٤.

الدولة ملكا للشعب يصرف على تطوير وسائل حياته، وازدهار رخائه، ولكن معاوية قد أشاع الفقر والحاجة عند الأكثرية الساحقة من الشعب، وأوجد الرأسمالية عند فئة قليلة راحت تتحكم في مصير الناس وشؤونهم.
وهذه بعض الخطوط الرئيسية في سياسته الاقتصادية.
الحرمان الاقتصادي:
وأشاع معاوية الحرمان الاقتصادي في بعض الأقطار التي كانت تضم الجبهة المعارضة له فنشر فيها البؤس والحاجة حتى لا تتمكن من القيام باية معارضة له، وهذه بعض المناطق التي قابلها بالاضطهاد والحرمان.
١ - يثرب:
وسعى معاوية لاضعاف يثرب فلم ينفق على المدنيين أي شئ من المال وجهد عل فقرهم وحرمانهم لأنهم من معاقل المعارضة لحكمه، وفيهم كثير من الشخصيات الحاقدة على الأسرة الأموية والطامعة في الحكم، ويقول المؤرخون؟
انه أجبرهم على بيع املاكهم فاشتراها بأنجس الأثمان، وقد ارسل القيم على املاكه لتحصيل وارادتها فمنعوه عنها، وقابلوا حاكمهم عثمان بن محمد، وقالوا له: إن هذه الأموال لنا كلها، وان معاوية آثر علينا في عطائنا، ولم يعطنا درهما فما فوقه حتى مضنا الزمان ونالتنا المجاعة فاشتراها بجزء من مائة من ثمنها، فرد عليهم حاكم المدينة بأقسى القول وأمره.
ووفد على معاوية الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري فلم يأذن له تحقيرا وتوهينا به فانصرف عنه، فوجه له معاوية بستمائة درهم فردها جابر وكتب إليه:
واني لاختار القنوع على الغنى * إذا اجتمعا والماء بالبارد المحض

وأقضي على نفسي إذ الامر نابني * وفي الناس من يقضي عليه ولا يقضي
والبس أثواب الحياء وقد أرى * مكان الغنى الا أهين له عرضي
وقال لرسول معاوية: " قل له: والله يا بن آكلة الأكباد لا تجد
في صحيفتك حسنة أنا سببها أبدا.
وانتشر الفقر في بيوت الأنصار، وخيم عليهم البؤس حتى لم يتمكن الرجل منهم على شراء راحلة يستعين بها على شؤونه، ولما حج معاوية واجتاز على يثرب استقبله الناس، ومنهم الأنصار وكان أكثرهم مشاة فقال لهم:
" ما منعكم من تلقي كما يتلقاني الناس!!؟ "
فقال له سعيد بن عبادة:
" منعنا من ذلك قلة الظهر، وخفة ذات اليد، والحاح الزمان علينا، وايثارك بمعروفك غيرنا ".
فقال له معاوية باستهزاء وسخرية:
" أين أنتم عن نواضح المدينة؟ "
فسدد له سعيد سهما من منطقه الفياض قائلا:
" نحرناها يوم بدر، يوم قتلنا حنظلة بن أبي سفيان " (١)
لقد قضت سياسة معاوية بنشر المجاعة في يثرب وحرمان أهلها من الصلة والعطاء، يقول عبد الله بن الزبير: في رسالته إلى يزيد " فلعمري ما تؤتينا مما في يدك من حقنا الا القليل وانك لتحبس عنا منه العريض.. "
وقد أوعز معاوية إلى الحكومة المركزية في يثرب برفع أسعار المواد الغذائية فيها حتى تعم فيها المجاعة، وقد ألمع إلى ذلك يزيد في رسالته التي بعثها للمدنيين ووعدهم فيها بالاحسان ان خضعوا لسلطانه، وقد جاء فيها.
" ولهم علي عهد أن اجعل الحنطة كسعر الحنطة عندنا، والعطاء

---

(١) أنساب الأشراف ج ١ ق ٢ / ٧٣.

الذي يذكرون أنه احتبس عنهم في زمان معاوية فهو علي لهم وفرا كاملا. " (١)
وقد جعل معاوية الولاة على الحجاز تارة مروان بن الحكم، وأخرى سعيد بن العاص وكان يعزل الأول ويولي الثاني، وقد جهدا في اذلال أهل المدينة وفقرهم.

٢ - العراق:

اما العراق فقد قابله معاوية بالمزيد من العقوبات الاقتصادية باعتباره المركز الرئيسي للمعارضة، والقطر الوحيد الساخط على حكومته، وكان واليه المغيرة بن شعبة يحبس العطاء والأرزاق عن أهل الكوفة، وقد سار حكام الأمويين من بعد معاوية على هذه السيرة في اضطهاد العراق وحرمان أهله، فان عمر بن عبد العزيز أعدلهم لم يساو بين العراقيين والشاميين في العطاء، فقد زاد في عطاء الشاميين عشرة دنانير ولم يزد في عطاء أهل العراق (٢)
لقد عانى العراق في عهد الحكم الأموي أشد ألوان الضيق مما جعل العراقيين يقومون بثورات متصلة ضد حكمهم.

٣ - مصر:

ونالت مصر المزيد من الاضطهاد الاقتصادي فقد كتب معاوية إلى عامله: " ان زد على كل امرئ من القبط قيراطا " فأنكر عليه عامله وكتب إليه: " كيف أزد عليهم وفي عهدهم ان لا يزاد عليهم " (٣).
وشمل الضيق الاقتصادي سائر الأقطار الاسلامية ليشغلها عن معارضة حكمه.

---

(١) الإمامة والسياسة ١ / ١٥١.
(٢) العقد الفريد ٤ / ٢٥٩.
(٣) حياة الإمام موسى بن جعفر ١ / ٣٠٢.

الرفاه على الشام:
وبينما كانت البلاد الاسلامية تعاني الجهد والحرمان نجد الشام في رخاء شامل وأسعار موادها الغذائية منخفضة جدا، لأنها أخلصت للبيت الأموي، وعملت على تدعيم حكمه " فكان الرفاه يعد فيها شائعا، اما ما يؤيد ذلك فهي رسالة يزيد التي ذكرناها قبل قليل.. وقد حملوا أهل الشام على رقاب الناس كما ألمع إلى ذلك مالك بن هبيرة في حديثه مع الحصين بن نمير. يقول له: " هلم فلنبايع لهذا الغلام – اي خالد بن يزيد – الذي نحن ولدنا أباه وهو ابن أختنا، فقد عرفت منزلتنا من أبيه فإنه كان يحملنا على رقاب العرب " (١).

استخدام المال في تدعيم ملكه:
واستخدم معاوية الخزينة المركزية لتدعيم ملكه وسلطانه، واتخذ المال سلاحا يمكنه من قيادة الأمة ورئاسة الدولة، يقول السيد مير علي الهندي: " وكانت الثروات التي جمعها معاوية من عمالته على الشام يبذرها هو وبطانته على جنوده المرتزقة الذين ساعدوه بدورهم على اخفات كل همسة ضدهم.. " (٢)
وكانت هذه السياسة غريبة على المسلمين لم يفكر فيها أحد من الخلفاء السابقين، وقد سار عليها من جاء بعده من خلفاء الأمويين فاتخذوا المال

---

(١) الطبري ٧ / ٣٨.
(٢) روح الاسلام (ص ٢٩٦).

وسيلة لدعم سلطانهم، يقول الدكتور محمد مصطفى: " وكان من عناصر سياسة الأمويين استخدام المال سلاحا للارهاب، وأداة للتقريب فحرموا منه فئة من الناس، وأغدقوه أضعافا مضاعفة لطائفة أخرى ثمنا لضمائرهم، وضمانا لصمتهم. " (١)

وجعل شكري فيصل المال أحد العاملين الأساسيين اللذين خضع لهما المجتمع الاسلامي خضوعا عجيبا، وكان من جملة الأسباب في فتن السياسة، وسيطرة الطبقة الحاكمة من قريش، كما أنه أحد الأسباب في وقوع الخلاف ما بين العرب والعجم بل وما بين العرب أنفسهم (٢)

المنح الهائلة لأسرته:

ومنح معاوية الأموال الهائلة لأسرته فوهبهم الثراء العريض (٣) وذلك لتقوية مركزهم، وبسط نفوذهم على العالم الاسلامي، في حين أشاع البؤس والحرمان عند أغلب فئات الشعب.

منح خراج مصر لعمرو:

ووهب معاوية خراج مصر لابن العاص، وجعله طعمة له ما دام حيا، وذلك لتعاونه معه على مناجزة الامام أمير المؤمنين رائد الحق والعدالة في الأرض، وقد ألمعنا إلى تفصيل ذلك في البحوث السابقة.

---

(١) اتجاهات الشعر العربي (ص ٢٧).

(٢) المجتمعات الاسلامية في القرن الأول (ص ٥٠) لشكري فيصل

(٣) الفخري (ص ١٤٥)

هبات الأموال للمؤيدين:
وأغدق معاوية الأموال الهائلة على المؤيدين له والمنحرفين عن الامام أمير المؤمنين وقد أسرف في ذلك إلى حد بعيد، ويقول الرواة: ان يزيد بن منبه قدم عليه من البصرة يشكو له دينا قد لزمه، فقال معاوية: لخازن بيت المال أعطه ثلاثين ألفا، ولما ولى قال: وليوم الجمل ثلاثين ألفا أخرى (١) لقد وهب له هذه الأموال الضخمة جزاءا لمواقفه ومواقف أخيه الذي أمد المتردين في حرب الجمل بالأموال التي نهبها من بيت مال المسلمين، وقد حفل التاريخ ببوادر كثيرة من هبات معاوية للقوى المنحرفة عن الامام، والمؤيدة له.

شراء الأديان:
وفتح معاوية بابا جديدا في سياسته الاقتصادية وهي شراء الأديان وخيانة الذمم، فقد وفد عليه جماعة من اشراف العرب فأعطى كل واحد منهم مائة الف وأعطى الحتات عم الفرزدق سبعين ألفا، فلما علم الحتات بذلك رجع مغضبا إلى معاوية فقال له:
" فضحتني في بني تميم، اما حسبي فصحيح، أو لست ذا سن؟ الست مطاعا في عشيرتي؟ ".
" بلى.. "
" فما بالك خست بي دون القوم وأعطيت من كان عليك أكثر ممن

---
(١) العقد الفريد ١ / ١٩٤.

كان لك!! "
فقال معاوية بلا حياء ولا خجل:
" إني اشتريت من القوم دينهم، ووكلتك إلى دينك "
" انا اشتري مني ديني "
فامر له باتمام الجائزة (١) لقد خسرت هذه الصفقة التي كشفت عن مسخ الضمائر وتحولها إلى سلعة تباع وتشرى.

عجز الخزينة المركزية:

ومنيت الخزينة المركزية بعجز مالي خطير نتيجة الاسراف في الهبات لشراء الذمم والأديان ولم تتمكن الدولة من تسديد رواتب الموظفين مما اضطر معاوية إلى أن يكتب لابن العاص راجيا منه أن يسعفه بشئ من خراج مصر الذي جعله طعمة له فقد جاء في رسالته: " اما بعد: فان سؤال أهل الحجاز، وزوار أهل العراق قد كثر وا علي، وليس عندي فضل من أعطيات الجنود فأعني بخراج مصر هذه السنة.. " ولم يستجب له ابن العاص وراح ينكر عليه، ويذكره بأياديه التي أسداها عليه وقد اجابه بهذه الأبيات:

معاوي إن تدركك نفس شحيحة * فما ورثتني مصر أمي ولا أبي
وما نلتها عفوا ولكن شرطتها * وقد دارت الحرب العوان على قطب
ولولا دفاعي الأشعري وصحبه * لألفيتها ترغو كراغية السغب

ولما قرا معاوية الأبيات تأثر منه، ولم يعاوده بشئ من امر مصر. (٢)

---

(١) حياة الإمام الحسن ٢ / ١٥٣.
(٢) الاخبار الطوال (ص ٢٠٤)

مصادرة أموال المواطنين:
واضطر معاوية بعد اسرافه وتبذيره إلى مصادرة أموال المواطنين ليسد العجز المالي الذي منيت به خزينة الدولة، وقد صادر مواريث الحتات عم الفرزدق فأنكر عليه الفرزدق وقال يهجوه:

أبوك وعمي يا معاوي أورثا * تراثا فيختار التراث أقاربه
فما بال ميراث الحتات اخذته * وميراث صخر جامد لك ذائبه
فلو كان هذا الامر في جاهلية * علمت من المرء القليل حلائبه
ولو كان في دين سوى ذا شنئتم * لنا حقنا أو غص بالماء شاربه
الست أعز الناس قوما وأسرة * وامنعهم جارا إذا ضيم جانبه
وما ولدت بعد النبي وآله * كمثلي حصان في الرجال يقاربه
وبيتي إلى جنب الثريا فناؤه * ومن دونه البدر المضئ كواكبه
أنا ابن الجبال الشم في عدد الحصى * وعرق الثرى عرقي فمن ذا يحاسبه
وكم من أب لي يا معاوي لم يزل * أغر يبارى الريح ازور جانبه
نمته فروع المالكين ولم يكن * أبوك الذي من عبد شمس يقاربه (١)

ومعنى هذه الأبيات ان الأموال التي خلفها صخر جد معاوية قد انتقلت إلى وراثة في حين ان ميراث عم الفرزدق قد صادره معاوية، ولو كان ذلك في الجاهلية لكان معاوية أقصر باعا من أن تمتد يده إليه، فان الفرزدق ينتمي إلى أسرة هي من أعز الأسر العربية وأمنعها.

---

(١) ابن الأثير ٣ / ٢٣٢، ديوان الفرزدق (ص ٢٤٦)

ضريبة النيروز:
وفرض معاوي على المسلمين ضريبة النيروز ليسد بها نفقاته، وقد بالغ في ارهاق الناس واضطهادهم على أدائها، وقد بلغت فيما يقول المؤرخون عشرة ملايين درهم (١) وهي من الضرائب التي لم يألفها، المسلمون، وقد اتخذها الخلفاء من بعده سنة فأرغموا المسلمين على أدائها.

نهب الولاة والعمال:
وأصبحت الولاية في عهد معاوية مصدرا من مصادر النهب والسرقة، ومصدرا للثراء وجمع الأموال، يقول انس بن أبي أناس لحارثة الغذاني صاحب زياد بن أبيه حينما ولي على (سرق) وهي إحدى كور الأهواز:

أحار بن بدر قد وليت امارة * فكن جرذا فيها تخون وتسرق
وباه تميما بالغنى ان للغني * لسانا به المرء الهيوبة ينطق
ولا تحقرن يا حار شيئا أصبته * فحظك من ملك العراقيين سرق (٢)

ويصف عقبة بن هبيرة الأسدي ظلم الولاة واستصفائهم أموال الرعية بقوله:

معاوي اننا بشر فاسجح * فلسنا بالجبال ولا الحديد (٣)
أكلتم أرضنا فجردتموها * فهل من قائم أو من حصيد

---

(١) الحركات الفكرية في الاسلام (ص ٤٢) تاريخ التمدن الاسلامي ٢ / ٢٢
(٢) الشعر والشعراء (ص ٤٦٢).
(٣) السجح: السهولة والين.

فهبنا أمة ذهبت ضياعا * يزيد أميرها وأبو يزيد
أتطمع في الخلافة إذ هلكنا * وليس لنا ولا لك من خلود
ذروا خول الخلافة واستقيموا * وتأمير الأراذل والعبيد
وأعطونا السوية لا تزركم * جنود مردفات بالجنود (١)
وقد عانى المسلمون ضروبا شاقة وعسيرة من جور الولاة وظلم الجباة، فقد تمرسوا بالسلب والنهب، ولم يتركوا عند أحد من الناس فضلا من المال الا صادروه:
جباية الخراج:
اما جباية الخراج فكانت خاضعة لرغبات الجباة وأهوائهم، وقد سال صاحب أخنا عمرو بن العاص عن مقدار ما عليه من الجزية فنهره ابن العاص وقال له:
" لو أعطيتني من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك انما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم، وان خفف عنا خففنا عنكم.. " (٢)
وهدمت هذه الاجراءات الظالمة جميع قواعد العدل والمساواة التي جاء بها الاسلام.
اصطفاء الذهب والفضة:
وأوعز معاوية إلى زياد بن أبيه ان يصطفي له الذهب والفضة فقام

---

(١) خزانة الأدب ٢ / ٢٢٥.
(٢) تاريخ التمدن الاسلامي ٢ / ٧٩ - ٨٠.

زياد مع عماله باجبار المواطنين على مصادرة ما عندهم من ذلك وارساله إلى دمشق (١) وقد ضيق بذلك على الناس، وترك الفقر آخذا بخناقهم.

شل الحركة الاقتصادية:

وشلت الحركة الاقتصادية في جميع أنحاء البلاد فخربت الزراعة والتجارة، وأصيب الاقتصاد العام بنكسة شاملة نتيجة تبذير معاوية واسرافه، وقد أعلن ذلك عبد الله بن همام السلولي فقد كتب شعرا في رقاع وألقاها في المسجد الجامع يشكو فيها الجور الهائل والمظالم الفظيعة التي صبها معاوية وعماله على الناس وهذه هي الأبيات:

الا أبلغ معاوية بن صخر * فقد خرب السواد فلا سوادا
أرى العمال اقساء علينا * بعاجل نفعهم ظلموا العبادا
فهل لك ان تدارك بالدنيا * وتدفع عن رعيتك الفسادا
وتعزل تابعا ابدا هواه * يخرب من بلادته البلادا
إذا ما قلت أقصر عن هواه * تمادى في ضلالته وزادا (٢)

وقد صور السلولي بهذه الأبيات سوء الحالة الاقتصادية وتسلط الولاة على ظلم الرعية ودعا السلطة إلى عزلهم واقصائهم عن وظائفهم فقد جهدوا في خراب السواد وامتصوا الدماء، واتبعوا الهوى، وظلوا عن طريق القويم.

---

(١) حياة الإمام موسى بن جعفر ١ / ٣٠١.
(٢) الاسلام والحضارة العربية ٢ / ١٤٩ - ١٥٠.

حجة معاوية:
ويرى معاوية ان أموال الأمة وخزينتها المركزية ملك له يتصرف فيها حيث ما شاء يقول: " الأرض لله، وأنا خليفة الله، فما اخذ من مال الله فهو لي، وما تركته كان جائزا إلي. " (١)
وهذا المنطق بعيد عن روح الاسلام، وبعيد عن اتجاهاته فقد قنن أسسه الاقتصادية على أساس ان المال مال الشعب، وان الدولة ملزمة بتنميته وتطويره، وليس لرئيس الدولة وغيره ان يتلاعب باقتصاد الأمة وينفقه على رغباته وأهوائه فان ذلك يؤدى إلى إذاعة الحاجة ونشر البطالة ويعرض البلاد للأزمات الاقتصادية... لقد اعتبر الاسلام الفقر كارثة اجتماعية ووباءا شاملا يجب مكافحته بكل الطرق والوسائل، وليس لرئيس الدولة ان يصطفي من مال الأمة اي شئ، هذا هو رأي الاسلام، ولكن معاوية - بصورة لا تقبل الجدل - لم يع ذلك، فتصرف بأموال المسلمين حسب رغباته وأهوائه.
هذه بعض معالم سياسة معاوية الاقتصادية التي فقدت روح التوازن وأشاعت اليؤس والحرمان في البلاد.
سياسة التفريق:
وبنى معاوية سياسته على تفريق كلمة المسلمين وتشتيت شملهم، وبث روح التفرقة والغضاء بينهم، ايمانا منه بان الحكم لا يمكن أن يستقر له الا في

---

(١) حياة الإمام موسى بن جعفر ١ / ٣٠١.

تفلل وحدة الأمة، وإشاعة العداء بين أبنائها، يقول العقاد: " وكانت له – اي لمعاوية – حيلته التي كررها وأتقنها وبرع فيها، واستخدمها مع خصومه في الدولة من المسلمين وغير المسلمين، وكان قوام تلك الحيلة العمل الدائب على التفرقة والتخذيل بين خصومه بالقاء الشبهات بينهم، وإثارة الإحن فيهم، ومنهم من كانوا من أهل بيته وذوي قرباه..
كان لا يطيق ان يرى رجلين ذوي خطر على وفاق، وكان التنافس الفطري بين ذوي الاخطار مما يعينه على الايقاع بهم ". (١)
لقد شتتت كلمة المسلمين، وفصم عرى الاخوة الاسلامية التي عقد أواصرها الرسول الكريم، وبنى عليها مجتمعه.
اضطهاد الموالي:
وبالغ معاوية في اضطهاد الموالي واذلالهم، وقد رام ان يبيدهم إبادة شاملة يقول المؤرخون: انه دعا الأحنف بن قيس وسمرة بن جندب وفال لهما: " اني رأيت هذه الحمراء فد كثرت، وأراها قد قطعت على السلف، وكأني انظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان، فقد رأيت أن اقتل شطرا منهم، وادع شطرا لإقامة السوق وعمارة الطريق ".
ولم يرتض الأحنف وسمرة هذا الاجراء الخطير فأخذا يلطفان به حتى عدل عن رأيه. (٢)
لقد سن معاوية اضطهاد الموالي، واخذت الحكومات التي تلت من بعده تشيع فيهم الجور والحرمان بالرغم من اشتراكهم في الميادين العسكرية

---

(١) معاوية في الميزان (ص ٦٤)
(٢) العقد الفريد ٢ / ٢٦٠.

وغيرها من اعمال الدولة، يقول شاعر الموالي شاكيا مما ألم بهم من الظلم:
أبلغ أمية عني إن عرضت لها * وابن الزبير وأبلغ ذلك العربا
ان الموالي أضحت وهي عاتبة * على الخليفة تشكوا الجوع والحربا
وانبرى أحد الخراسانيين إلى عمر بن عبد العزيز يطالبه بالعدل فيهم قائلا: له: " يا أمير المؤمنين عشرون ألفا من الموالي يغزون بلا عطاء، ولا رزق، ومثلهم قد أسلموا من أهل الذمة يؤدون الخراج. " (١) وكان الشعبي قاضي عمر بن عبد العزيز قد بغض المسجد حتى صار أبغض إليه من كناسة داره - حسب ما يقول - لان الموالي كانت تصلي فيه (٢) وقد اضطر الموالي إلى تأسيس مسجد خاص لهم أسموه (مسجد الموالي) كانوا يقيمون الصلاة فيه (٣) ويميل خودا بخش إلى الظن انهم انما اضطروا إلى تأدية صلاتهم فيه بعدما رؤوا تعصب العرب ضدهم، وانهم لم يكونوا يسمحون لهم بالعبادة معهم في مسجد واحد (٤) وكان الموالي يلطفون بالرد على العرب ويدعونهم إلى الهدى قائلين:
" اننا لا ننكر تباين الناس، ولا تفاضلهم، ولا السيد منهم والمسود، والشريف والمشروف، ولكننا نزعم ان تفاضل الناس فيما بينهم هو ليس بآبائهم، ولا بأحسابهم ولكنه بأفعالهم وأخلاقهم، وشرف أنفسهم، وبعد همهم، فمن كان دنئ الهمة، ساقط المروءة لم يشرف وان كان من بني هاشم في ذؤابتها!! إنما الكريم من كرمت أفعاله، والشريف من

---

(١) الطبري ٨ / ١٣٤، الكامل ٥ / ١٩.
(٢) طبقات ابن سعد ٦ / ١٧٥.
(٣) الطبري في احداث سنة ٢٤٥.
(٤) الحضارة الاسلامية ١ / ٤٣.

شرفت همته. " (١)
ولم يع الأمويون ومن سار في ركابهم هذا المنطق المشتق من واقع الاسلام وهديه الذي أمر ببسط المساواة والعدل بين جميع الناس من دون فرق بين قومياتهم.
وعلى أي حال فقد أدت هذه السياسة العنصرية إلى إشاعة الأحقاد بين المسلمين واختلاف كلمتهم، كما أدت إلى تجنيد الموالي لكل حركة ثورية تقوم ضد الحكم الأموي وكانوا بالأخير هم القوة الفعالة التي أطاحت بالأمويين وطوت معالمهم وآثارهم.
العصبية القبلية:
وتبعا لسياسة التحزب والتفريق التي سار عليها الأمويون فقد أحيوا العصبيات القبلية، وقد ظهرت في الشعر العربي صورا مريعة ومؤلمة من ألوان ذلك الصراع الذي كانت تخلقه السلطة الأموية لاشغال الناس بالصراع القبلي عن التدخل في الشؤون السياسية، وابعادهم عما يقننه معاوية من الظلم والجور، ويقول المؤرخون: إنه عمد إلى إثارة الأحقاد القديمة ما بين الأوس والخزرج محاولا بذلك التقليل من أهميتهم، واسقاط مكانتهم امام العالم العربي والاسلامي.. كما تعصب لليمنيين على المضربين، وأشعل نار الفتنة فيما بينهم حتى لا تتحد لهم كلمة تضر بمصالح دولته.
وسار عمال معاوية على وفق منهج سياسته التخريبية فكان زياد بن أبيه يضرب القبائل بعضها ببعض ويؤجج نار الفتنة فيما بينها حتى تكون تحت مناطق نفوذه يقول ولها وزن: " وعرف زياد كيف يخضع القبائل

---

(١) العقد الفريد ٢ ٢٥٨ - ٢٥٩.

بان يضرب إحداها بالأخرى، وكيف يجعلها تعمل من اجله، وأفلح في ذلك.. " (١).

وحفلت مصادر التاريخ ببوادر كثيرة من ألوان التناحر القبلي الذي اثاره معاوية وعماله مما أدى إلى انتشار الضغائن بين المسلمين، وقد عانى الاسلام من جراء ذلك أشد ألوان المحن فقد أوقف كل نشاط مثمر له " وخولف ما كان يدعو له النبي (ص) من التآخي والتعاطف بين المسلمين.

سياسة البطش والجبروت:

وساس معاوية الأمة سياسة بطش وجبروت فاستهان بمقدراتها وكرامتها، وقد أعلن – بعد الصلح – انه انما قاتل المسلمين وسفك دماءهم ليتأمر عليهم، وان جميع ما أعطاه للإمام الحسن (ع) من شروط فهي تحت قدميه لا يفي بشئ منها، وقد أدلى بتصريح عبر فيه عن كبريائه وجبروته فقال:

" نحن الزمان من رفعناه ارتفع، ومن وضعناه اتضع.. (٢)

وسار عماله وولاته على هذه الخطة الغادرة فقد خطب عتبة بن أبي سفيان بمصر فقال:

" يا حاملي الام أنوف ركبت بين أعين، إني قلمت أظفاري عنكم ليلين مسيئكم وسألتكم اصلاحكم إذا كان فسادكم باقيا عليكم فاما إذا أبيتم الا الطعن على السلطان والنقض للسلف، فوالله لا قطعن بطون السياط على ظهوركم، فان حسمت اداواءكم والا فان السيف من ورائكم، فكم حكمة منا لم تعها قلوبكم، ومن موعظة منا صمت عنها آذانكم، ولست أبخل

---

(١) الدولة العربية (ص ٢٠٧)

(٢) نهاية الإرب ٦ / ٧.

بالعقوبة إذا جدتم بالمعصية.. " (١)
وخاطب المصريين في خطاب آخر له فقال:
" يا أهل مصر إياكم أن تكونوا للسيف حصيدا فان لله ذبيحا لعثمان لا تصيروا إلى وحشة الباطل بعد انس الحق باحياء الفتنة، وإماتة السنن فأطأكم والله وطأة لا رمق معها حتى تنكروا ما كنتم تعرفون ". (٢)
ومثلت هذه القطع من خطابه مدى أحقاده على الأمة وتنكره لجميع قيمها وأهدافها ومن أولئك الولاة الذين كفروا بالحق والعدل، خالد القسري، فقد خطب في مكة، وهو يهدد المجتمع بالدمار والفناء، فقد جاء في خطابه:
" أيها الناس عليكم بالطاعة، ولزوم الجماعة، وإياكم والشبهات فاني – والله – ما أوتي لي بأحد يطعن على امامه الا صلبته في الحرم.. (٣)
وكانت هذه الظاهرة ماثلة عند جميع حكام الأمويين وولاتهم يقول الوليد بن يزيد:
فدع عنك ادكارك آل سعدى * فنحن الأكثرون حصى ومالا
ونحن المالكون الناس قسرا * نسومهم المذلة والنكالا
ونوردهم حياض الخسف ذلا * وما نالوهم الا خبالا (٤)
وصورت هذه الأبيات مدى استهانته بالأمة، فإنه مع بقية الحكام من أسرته، قد ملكوا الناس بالغلبة والقوة، وانهم يسومونهم الذل، ويوردونهم حياض الخسف... ومن أولئك الملوك عبد الملك بن مروان

---

(١) تهذيب الكامل للمبرد ١ / ١٧.
(٢) العقد الفريد ٢ / ١٥٩.
(٣) تاريخ الطبري ٨ / ٨٠.
(٤) حياة الإمام موسى بن جعفر ١ / ٣٨٧.

فقد خطب في يثرب امام أبناء المهاجرين والأنصار فقال:
" الا وإني لا أداوي أمر هذه الأمة الا بالسيف حتى تستقيم قناتكم، وانكم تحفظون أعمال المهاجرين الأولين، ولا تعملون مثل عملهم، وانكم تأمروننا بتقوى الله، وتنسون أنفسكم والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا - الا ضربت عنقه.. " (١)
وحفل هذا الخطاب بالطغيان الفاجر على الأمة، فهو لا يرى حلا لأزماتها الا بسفك الدماء وإشاعة الجور والارهاب، اما بسط العدل ونشر الدعة والرفاهية بين الناس فلم يفكر به ولا دار بخلده ولا في خلد واحد من حكام الأمويين.

احتقار الفقراء:

وتبنى الحكم الأموي في جميع أدواره اضطهاد الفقراء واحتقار الضعفاء، ويقول المؤرخون ان بني أمية كانوا لا يسمحون للفقراء بالدخول إلى دوائرهم الرسمية الا في آخر الناس يقول زياد بن أبيه لعجلان حاجبه:
- كيف تأذن للناس؟
- على البيوتات، ثم على الأسنان، ثم على الأدب.
- من تؤخر؟
- الذين لا يعبأ الله بهم.
- من هم؟
- الذين يلبسون كسوة الشتاء في الصيف، وكسوة الصيف في الشتاء. (٢)

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٤ / ٣٣.
(٢) نهاية الإرب ٦ / ٨٦.

وهدمت هذه السياسة قواعد العدل والمساواة التي جاء بها الاسلام فإنه لم يفرق بين المسلمين وجعلهم سواسية كأسنان المشط.

سياسة الخداع:

وأقام معاوية دولته على المخاتلة والخداع فلا ظل للواقع في اي تحرك من تحركاته السياسية، فما كان مثل ذلك الضمير المتحجر ان يعي الواقع أو يفقه الحق، وقد حفل التاريخ بصور كثيرة من خداعه، وهذه بعضها:

١ - لما دس معاوية السم إلى الزعيم الكبير مالك الأشتر اقبل على أهل الشام فقال لهم:

" ان عليا وجه الأشتر إلى مصر فادعوا الله ان يكفيكموه. "

فكان أهل الشام يدعون عليه في كل صلاة، ولما أخبر بموته أنبأ أهل الشام بان موته نتج عن دعائهم لأنهم حزب الله، ثم همس في اذن ابن العاص قائلا له: " ان لله جنودا من عسل ". (١)

٢ - ومن خداع معاوية وأضاليله ان جرير البجلي لما أوفده الامام إلى معاوية يدعوه إلى بيعته، طلب معاوية حضور شرحبيل الكندي، وهو من أبرز الشخصيات في الشام وقد عهد إلى جماعة من أصحابه ان ينفرد كل واحد منهم به، ويلقي في روعه ان عليا هو الذي قتل عثمان بن عفان، ولما قدم عليه شرحبيل اخبره معاوية بوفادة جرير، وانه يدعوه إلى بيعة الامام، وقد حبس نفسه في البيعة حتى يأخذ رأيه لان الامام قد قتل عثمان، وطلب منه شرحبيل ان يمهله لينظر في الامر، فلما خرج التقى به القوم كل على انفراده، وأخبروه ان الامام هو المسؤول

---

(١) شرح النهج ٢ / ٢٣.

عن إراقة دم عثمان فلم يشك الرجل في صدقهم فانبرى إلى معاوية وهو يقول له:
" يا معاوية أين الناس؟ الا ان عليا قتل عثمان، والله ان بايعت لنخرجنك من شامنا ولنقتلنك. "
فقال معاوية مخادعا له:
" ما كنت لأخالف عليكم ما أنا الا رجل من أهل الشام.. " (١)
بمثل هذا الخداع والبهتان أقام دعائم سلطانه، وبنى عليه عرش دولته.
٣ - ومن ألوان خداعه لأهل الشام انه لما راسل الزعيم قيس بن سعد يستميله ويمنيه بسلطان العراقيين وبسلطان الحجاز لمن أحب من أهل بيته ان صار معه فرد عليه قيس بأعنف القول فاظهر معاوية لأهل الشام انه قد بايع، وأمرهم بالدعاء له واختلق كتابا نسبه إليه وقد قراه عليهم وهذا نصبه:
" اما بعد: ان قتل عثمان كان حدثا في الاسلام عظيما، وقد نظرت لنفسي وديني فلم أر بوسعي مظاهرة قوم قتلوا امامهم مسلما محرما برا تقيا فنستغفر الله لذنوبنا الا واني قد القيت لكم بالسلام، وأحببت قتال قتلة امام الهدى المظلوم، فاطلب مني ما أحببت مني من الأموال والرجال أعجله إليك.. " (٢)
وبهذه الأساليب المنكرة خدع أهل الشام وزج بهم لحرب وصي رسول الله (ص) و باب مدينة علمه.
٤ - لقد كان الخداع من ذاتيات معاوية، ومن العناصر المقومة لسياسته، وقد بهر ولده يزيد حينما بويع وكان الناس يمدحونه فقال لأبيه:

---

(١) شرح النهج ١ / ١٢٩.
(٢) شرح النهج ٢ / ٢٣.

" يا أمير المؤمنين ما ندري انخدع الناس أم يخدعوننا؟؟ ".
فاجابه معاوية:
" كل من أردت خديعته فتخادع له حتى تبلغ منه حاجتك فقد خدعته ". (١)
لقد جر معاوية ذيله على الخداع وغذي به أهل مملكته حتى نشأ جبل كانت هذه الظاهرة من أبرز ما عرف منه.
إشاعة الانتهازية:
وعملت حكومة معاوية على إشاعة الانتهازية والوصولية بين الناس، ولم يعد ماثلا عند الكثيرين منهم ما جاء به الاسلام من ايثار الحق ونكران الذات، ومن مظاهر ذلك التذبذب ما رواه المؤرخون ان يزيد بن شجرة الرهاوي قد وفد على معاوية، وبينما هو مقبل على سماع حديثه إذ اصابه حجر عاثر فأدماه فاظهر تصنعا عدم الاعتناء به فقال له معاوية:
" لله أنت ما نزل بك!!؟ "
" ما ذاك يا أمير المؤمنين؟ "
" هذا دم وجهك يسيل.. "
" إن حديث أمير المؤمنين ألهاني حتى غمز فكري فما شعرت بشئ حتى نبهني أمير المؤمنين. "
فبهر معاوية وراح يقول:
" لقد ظلمك من جعلك في الف من العطاء، وأخرجك من عطاء أبناء المهاجرين، وكماة أهل صفين. " وامر له بخمسمائة ألف درهم،

---

(١) الكامل للمبرد ١ / ٣٠٥.

وزاد في عطائه ألف درهم. (١)
وكانت هذه الظاهرة سائدة في جميع أدوار الحكم الأموي فقد ذكر المؤرخون ان إسماعيل بن يسار كان زبير الهوى فلما ظفر آل مروان بال الزبير انقلب إسماعيل عن رأيه وأصبح مروانيا، وقد استأذن على الوليد فأخره ساعة فلما اذن له دخل وهو يبكي فسأله الوليد عن سبب بكائه فقال: " أخرتني وأنت تعلم مروانيتي، ومروانية أبي "
وأخذ الوليد يعتذر منه، وهو لا يزداد الا اغراقا في البكاء، فهون عليه الوليد وأحسن صلته، فلما خرج تبعه شخص ممن يعرفه فسأله عن مروانيته التي ادعاها متى كانت؟ فقال له:
" بغضنا لآل مروان، وهي التي حملت أباه يسار في حال موته ان يتقرب إلى الله بلعن مروان بن الحكم، وهي التي دعت أمه ان تلعن آل مروان مكان ما تتقرب به إلى الله من التسبيح.. " (٢)
ونقل المؤرخون بوادر كثيرة من ألوان هذا الخداع الذي ساد في تلك العصور وهو من دون شك من مخلفات سياسة معاوية الذي ربى جيله على التذبذب والانحراف عن الحق.
الخلاعة والمجون:
وعرف معاوية بالخلاعة والمجون، يقول ابن أبي الحديد: " كان معاوية أيام عثمان شديد التهتك موسوما بكل قبيح، وكان في أيام عمر يستر نفسه قليلا خوفا منه الا انه كان يلبس الحرير والديباج ويشرب في

---

(١) التاج في أخلاق الملوك (ص ٥٥).
(٢) الأغاني ٤ / ١٢٠.

آنية الذهب والفضة، ويركب البغلات ذوات السروج المحلات بها – اي بالذهب – وعليها جلال الديباج والوشي، وكان حينئذ شابا وعند نزق الصبا، واثر الشبيبة وسكر السلطان والامرة، ونقل الناس عنه في كتب السيرة انه كان يشرب الخمر في أيام عثمان في الشام...
ولا خلاف في أنه سمع الغناء، وطرب عليه، ووصل عليه أيضا.
وتأثر به ولده يزيد فكان مدمنا خليعا مستهترا، وتأثر بهذا السلوك جميع خلفاء بني أمية، يقول الجاحظ: " وكان يزيد – يعني بن معاوية – لا يمسي الا سكرانا، ولا يصبح الا مخمورا، وكان عبد الملك بن مروان يسكر في كل شهر مرة حتى لا يعقل في السماء هو أو في الماء.. وكان الوليد ابن عبد الملك يشرب يوما، ويدع يوما، وكان سليمان بن عبد الملك يشرب في كل ثلاث ليال ليلة، وكان هشام يشرب في كل جمعة، وكان يزيد بن الوليد، والوليد بن يزيد يدمنان اللهو والشراب، فاما يزيد بن الوليد فكان دهره بين حالتي سكر وخمار، ولا يوجد ابدا الا ومعه إحدى هاتين، وكان مروان بن محمد يشرب ليلة الثلاثاء وليلة السبت. (١)
وولى هشام بن عبد الملك الوليد على الحج سنة (١١٩ ه) فحمل معه كلابا في صناديق فسقط منها صندوق وفيه كلب.. وحمل معه قبة عملها على قدر الكعبة ليضعها عليها، وحمل معه خمرا، وأراد أن ينصب القبة على الكعبة ويجلس فيها فخوفه أصحابه، وقالوا له: لا نأمن الناس عليك وعلينا فترك (٢) ووفد علي بن عباس على الوليد بن يزيد في خلافته، وقد أتي بابن شراعة من الكوفة، فبادره قائلا:
" والله ما بعثت إليك لأسألك عن كتاب الله وسنة رسوله.. "

---

(١) التاج في أخلاق الملوك (ص ١٥١).
(٢) الطبري ٨ / ٢٨٨.

فضحك ابن شراعة وقال:
- انك لو سألتني عنهما لوجدتني حمارا.
- أنا أرسلت إليك لأسألك عن القهوة - أي الخمر - اخبرني عن الشراب؟
- يسأل أمير المؤمنين عما بدا له.
- ما تقول في الماء؟
- لا بد منه والحمار شريكي فيه.
وأخذ يسأله عن المشروبات حتى انتهى إلى الخمر فقال له:
- ما تقول في الخمر؟
أواه تلك صديق روحي.
- أنت والله صديق روحي. (١)
وأرسل الوليد إلى عامله على الكوفة يطلب منه أن يبعث إليه الخلعاء والشعراء الماجنين ليستمع ما يلهو به من الفسق والمجون، وقد سخر جميع أجهزة دولته للذاته وشهواته، وكتب إلى واليه على خراسان أن يبعث إليه ببرابط وطنابير، وقال أحد شعراء عصره ساخرا منه:
ابشر يا امين الله * ابشر بتباشير
بابل يحمل المال * عليها كالأنابير (٢)
بغال تحمل الخمر * حقائبها طنابير
فهذا لك في الدنيا * وفي الجنة تحبير (٣)
وسادت اللذة واللهو في المجتمع العربي، وتهالك الناس على الفسق

---

(١) نهاية الإرب ٤ / ٩٣، العقد الفريد ٣ / ١٨٤.
(٢) الأنابير: أكداس من الطعام.
(٣) تاريخ الطبري ٨ / ٢٩٨.

والفجور، ومن طريف ما ينقل في هذا الموضوع انه أوتي بشيخ إلى هشام ابن عبد الملك وكان معه قيان وخمر وبربط، فقال: اكسروا الطنبور على رأسه فبكى الشيخ فقال له أحد الجالسين عليك بالصبر، فقال له الشيخ أتراني أبكي للضرب؟ انما أبكي لاحتقاره البربط إذ سماه طنبورا (١)

لقد كانت سيرة الأمويين في جميع أدوارهم امتدادا لسيرة معاوية الذي أشاع حياة اللهو والخلاعة في البلاد للقضاء على أصالة الأمة، وسلب وعيها الديني والاجتماعي.

إشاعة المجون في الحرمين:

وعمد معاوية إلى إشاعة الدعارة والمجون في الحرمين للقضاء على قدسيتهما واسقاط مكانتهما الاجتماعية في نفوس المسلمين، يقول العلائلي: " وشجع الأمويون حياة المجون في مكة والمدينة إلى حد الإباحة، فقد استأجر طوائف من الشعراء والمخنثين من بينهم عمر بن أبي ربيعة لأجل أن يمسحوا عاصمتي مكة والمدينة بمسحة لا نليق، ولا تجعلهما صالحتين للزعامة الدينية. وقد قال الأصمعي: دخلت المدينة فما وجدت الا المخنثين، ورجلا يضع الاخبار والطرف: " (٢) وقد شاعت في يثرب مجالس الغناء، وكان الوالي يحضرها ويشارك فيها (٣) وانحسرت بذلك روح الأخلاق، وانصرف الناس عن المثل العليا التي جاء بها الاسلام.

---

(١) تاريخ الطبري ٨ / ٢٨٥.
(٢) سمو المعنى في سمو الذات (ص ٣٠).
(٣) العقد الفريد ٣ / ٢٤١.

الاستخفاف بالقيم الدينية:
واستخف معاوية بكافة القيم الدينية، ولم يعن بجميع ما جاء به الاسلام من الاحكام فاستعمل أواني الذهب والفضة، وأباح الربا، وتطيب في الاحرام، وعطل الحدود، (١) وقد ألغيت معظم الاحكام الاسلامية في أغلب أدوار الحكم الأموي، وفي ذلك يقول شاعر الاسلام الكميت:

وعطلت الاحكام حتى كأننا * على ملة غير التي نتنحل
أأهل كتاب نحن فيه وأنتم * على الحق نقضي بالكتاب ونعدل
كأن كتاب الله يعني بأمره * وبالنهي فيه الكوذني المركل (٢)
فتلك ملوك السوء قد طال ملكهم * فحتام حتام العناء المطول
وما ضرب الأمثال في الجور قبلنا * لأجور من حكامنا المتمثل (٣)

واستخف معاوية بالمقدسات الاسلامية واحتقرها، يقول الرواة إنه لما تغلب قيل له! لو سكنت المدينة، فهي دار الهجرة، وبها قبر النبي (ص) فقال: قد ظللت إذا وما أنا من المهتدين (٤) واقتدى به في ذلك جميع بني أمية فقد انبرى يحيى بن الحكم إلى عبد الله بن جعفر فقال له: " كيف تركت الخبيثة - يعني مدينة رسول الله (ص) -؟ "
فأنكر عليه ابن جعفر وصاح به:

---

(١) ذكرنا مصادر هذه الاحداث في الجزء الثاني من كتابنا (حياة الإمام الحسن).
(٢) الكوذني: البليد.
(٣) للهاشميات (ص ١١١).
(٤) المناقب والمثالب (ص ٧٠) للقاضي نعمان المصري.

" سماها رسول الله (ص) طيبة وتسميها خبيثة، فد اختلفتما في الدنيا وستختلفان في الآخرة.. "
قال يحيى: " والله لان أموت وادفن بأرض الشام المقدسة أحب إلي من أن أدفن بها. "
فقال له:
" اخترت مجاورة اليهود والنصارى على مجاورة رسول الله (ص) والمهاجرين ". (١)

استلحاق زياد:

ومن مظاهر استخفاف معاوية بالقيم الاسلامية استلحاقه زياد بن عبيد الرومي، والصاقه بنسبه من دون بينة شرعية، وانما اعتمد على شهادة أبي مريم الخمار وهو مما لا يثبت به نسب شرعي، وقد خالف بذلك قول رسول الله (ص): " الولد للفراش وللعاهر الحجر ".

لقد قام بذلك انطلاقا وراء أهدافه السياسية، وتدعيما لحكمه وسلطانه... ومن طريف ما ينقل في الموضوع ان نصر بن حجاج خاصم عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد عند معاوية في عبد الله مولى خالد بن الوليد فامر معاوية حاجبه أن يؤخرهما حتى يحتفل مجلسه، فلما اكتمل مجلسه، أمر بحجر فادني منه، والقى عليه طرفا من ثيابه ثم اذن لهما، فترافعا عنده في شان عبد الله
فقال له نصر:
" إن أخي وابن أبي عهد إلي انه - يعني عبد الله - منه "
وقال عبد الرحمن: " مولاي وابن عبد أبي وأمته ولد على فراشه "

---

(١) أنساب الأشراف ج ١ ق ١.

وأصدر معاوية الحكم في المسألة فقال يا حرسي: خذ هذا الحجر فادفعه إلى نصر بن حجاج، فقد قال رسول الله (ص): الولد للفراش وللعاهر الحجر ".

وانبرى نصر فقال: " أفلا أجريت هذا الحكم في زياد؟ "

فقال معاوية: " ذلك حكم معاوية وهذا حكم رسول الله (١).

انكار الإمام الحسين:

وأنكر الإمام الحسين (ع) على معاوية هذا الاستلحاق الذي خالف به قول رسول الله (ص) فكتب إليه مذكرة تضمنت الاحداث الجسام التي اقترفها معاوية وقد جاء فيها:

" أو لست المدعي زياد بن سمية المولود على فراش عبيد ثقيف فزعمت أنه ابن أبيك، وقد قال رسول الله (ص) " الولد للفراش وللعاهر الحجر " فتركت سنة رسول الله تعمدا واتبعت هواك بغير هدى من الله

لقد اثار استلحاق معاوية لزياد موجة من الغضب والاستياء عند الأخيار والمتحرجين في دينهم، وقد بسطنا الكلام في ذلك في كتابنا (حياة الإمام الحسن [ع]).

الحقد على النبي:

وحقد معاوية على النبي (ص) فقد مكث في أيام خلافته أربعين

---

(١) الطبري: ج ١٠ / ٤٨٠، العقد الفريد: ٦ / ١٣٣.

جمعة لا يصلي عليه، وسأله بعض أصحابه عن ذلك فقال: " لا يمنعني عن ذكره الا ان تشمخ رجال بآنافها (١) وسمع المؤذن يقول: اشهد ان لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فلم يملك اهابه، واندفع يقول:

" لله أبوك يا ابن عبد الله لقد كنت عالي الهمة، ما رضيت لنفسك الا ان يقرن اسمك باسم رب العالمين. " (٢)

ومن مظاهر حقده على الرسول الأعظم (ص) ما رواه مطرف بن المغيرة قال: وفدت مع أبي على معاوية، فكان أبي يتحدث عنده ثم ينصرف إلى، وهو يذكر معاوية وعقله، ويعجب بما يرى منه، واقبل ذات ليلة، وهو غضبان فامسك عن العشاء، فانتظرته ساعة، وقد ظننت انه لشئ جدث فينا أو في عملنا، فقلت له!

- مالي أراك مغتما منذ الليلة؟

- يا بني جئتك من أخبث الناس.

- ما ذاك؟

- خلوت بمعاوية فقلت له: إنك قد بلغت مناك يا أمير المؤمنين فلو أظهرت عدلا وبسطت خيرا، فإنك قد كبرت، ولو نظرت إلى أخوتك من بني هاشم فوصلت أرحامهم فوالله ما عندهم اليوم شئ تخافه.. "

فثار معاوية واندفع يقول:

" هيهات!! هيهات ملك أخو تيم فعدل، وفعل ما فعل فوالله ما عدا ان هلك فهلك ذكره، الا أن يقول قائل أبو بكر: ثم ملك أخو عدي فاجتهد وشمر عشر سنين فوالله ما عدا ان هلك فهلك ذكره الا ان يقول قائل عمر، ثم ملك أخونا عثمان فملك رجل لم يكن أحد في مثل نسبه

---

(١) النصائح الكافية (ص ٩٧).

(٢) النهج ١٠ / ١٠١.

فعمل به ما عمل فوالله ما عدا ان هلك فهلك ذكره وان أخا هاشم يصرخ به في كل يوم خمس مرات: اشهد ان محمدا رسول الله (ص) فأي عمل يبقى بعد هذا لا أم لك الا دفنا دفنا.. " (١)

ودلت هذه البادرة على مدى زعزعة العقيدة الدينية في نفس معاوية وانها لم تكن الا رداء رقيقا يشف عما تحته من حب الجاهلية والتأثر بها إلى حد بعيد، وكانت النزعة الالحادية ماثلة عند أغلب ملوك الأمويين يقول الوليد في بعض خمرياته منكرا للبعث والنشور:

أدر الكاس يمينا * لا تدرها ليسار
اسق هذا ثم هذا * صاحب العود النضار
من كميت عتقوها * منذ دهر في حرار
ختموها بالاماويه (٢) * وكافور وقار
فلقد أيقنت أني * غير مبعوث لنار
سأروض الناس * حتى يركبوا دين الحمار
وذروا من يطلب * الجنة يسعى لتبار (٣)

وتأثر الكثيرون من ولاتهم بهذا النزعة الالحادية، فكان الحجاج يخاطب الله امام الجماهير الحاشدة قائلا: " أرسولك أفضل أم خليفتك يعني ان عبد الملك أفضل من النبي العظيم (ص). " (٤) وكان ينقم على الذين يزورون قبر رسول الله (ص) ويقول: " تبا لهم انما يطوفون بأعواد

---

(١) شرح النهج ٢ / ٢٩٧.
(٢) الاماويه: من أنواع الطيب.
(٣) رسالة الغفران (ص ١٤٥).
(٤) النزاع والتخاصم للمقريزي (ص ٢٧) رسائل الجاحظ (ص ٢٩٧) العقد الفريد ٣ / ٣٥٥.

ورمة بالية، هلا طافوا بقصر أمير المؤمنين عبد الملك الا يعلمون ان خليفة المرء خير من رسوله " (١).

وهكذا كان جهاز الحكم الأموي في كثير من أدواره قد تنكر للرسول الأعظم (ص) وازدرى برسالته.

تغيير الواقع الاسلامي:

وعمد معاوية إلى تغيير الواقع الاسلامي المشرق الذي تبني الحركات النضالية والقضايا المصيرية لجميع الشعوب، فأهاب بالمسلمين أن لا يقروا على كظة ظالم، ولا سغب مظلوم، وقد تبنى هذا الشعار المقدس الصحابي العظيم أبو ذر الغفاري الذي فهم الاسلام، عن واقعه، فرفع راية الكفاح في وجه الحكم الأموي، وطالب عثمان، ومعاوية بانصاف المظلومين والمضطهدين وتوزيع ثروات الأمة على الفقراء والمحرومين.

لقد أراد معاوية اقبار هذا الوعي الديني، وإماتة الشعور بالمسؤولية فأوعز إلى لجان الوضع التي ابتدعها ان تفتعل الأحاديث على لسان المحرر العظيم الرسول (ص) في الزام الأمة بالخضوع للظلم، والخنوع للجور، والتسليم لما تقترفه سلطانها من الجور والاستبداد وهذه بعض الأحاديث:

١ - روى البخاري بسنده عن رسول الله (ص) انه قال لأصحابه:

" انكم سترون بعدي اثرة، وأمورا تنكرونها. قالوا فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: أدوا إليهم حقهم، واسالوا الله حقكم.. " (٢)

٢ - روى البخاري بسنده عن رسول الله (ص) أنه قال: " من

---

(١) شرح النهج ١٥ / ٢٤٢.

(٢) صحيح البخاري ٨ / ٨٧.

رأى من أميره شيئا يكره فليصبر عليه فإنه من فارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية.. " (١)

٣ - روى البخاري بسنده عن مسلمة بن زيد الجعفي أنه سال رسول الله (ص) فقال له: يا نبي الله أرأيت ان قامت علينا امراء يسألونا حقهم، ويمنعونا حقنا فما ترى؟ فاعرض " ص " عنه فسأله ثانيا وثالثا والرسول معرض فجذبه الأشعث بن قيس، فقال رسول الله (ص): اسمعوا وأطيعوا فان عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم. " (٢)

٤ - روى البخاري بسنده عن عجرفة قال: سمعت رسول الله (ص) يقول: إنه ستكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جمع فاضربوه بالسيف كائنا ما كان. " (٣)

إلى غير ذلك من الموضوعات التي خدرت الأمة، وشلت حركتها الثورية، وجعلتها قابعة ذليلة تحت وطأة الاستبداد الأموي وجوره، وقد هب الإمام الحسين (ع) الثائر الأول في الاسلام إلى اعلان الجهاد المقدس ليوقظ الأمة من سباتها ويعيد للاسلام نضارته وروحه النضالية التي انحسرت في عهد الحكم الأموي.

مع أهل البيت:

وسخر معاوية جميع أجهزته للحط من قيمة أهل البيت (ع) الذين هم وديعة رسول الله (ص) والعصب الحساس في هذه الأمة، وقد

---

(١) صحيح البخاري ٨ / ٨٧.
(٢) صحيح البخاري ٢ / ١١٩.
(٣) صحيح البخاري ٢ / ١٢١.

استخدام أخطر الوسائل في محاربتهم واقصائهم عن واقع الحياة الاسلامية، وكان من بين ما استخدمه في ذلك ما يلي:

١ – تسخير الوعاظ.

وسخر معاوية الوعاظ في جميع أنحاء البلاد ليحولوا القلوب عن أهل البيت (١) ويذيعوا الأضاليل في انتقاصهم تدعيما للحكم الأموي.

٢ – استخدام معاهد التعليم.

واستخدم معاوية معاهد التعليم وأجهزة الكتاتيب لتغدية النشئ ببغض أهل البيت (ع) وخلق جيل معاد لهم (٢) وقد قامت تلك الأجهزة بدور خطير في بث روح الكراهية في نفوس النشئ لعترة النبي (ص).

٣ – افتعال الاخبار.

وأقام معاوية شبكة لوضع الاخبار تعد من أخطر الشبكات التخريبية في الاسلام فعهد إليها بوضع الأحاديث على لسان النبي (ص) للحط من قيمة أهل البيت (ع) اما الأعضاء البارزون في هذه اللجنة فهم:

١ – أبو هريرة الدوسي.

٢ – سمرة بن جندب.

٣ – عمرو بن العاص.

٤ – المغيرة بن شعبة.

وقد افتعلوا آلاف الأحاديث على لسان النبي (ص) وكانت عدة طوائف مختلفة حسب التخطيط السياسي للدولة وهي:

الطائفة الأولى: وضع الاخبار في فضل الصحابة لجعلهم قبال أهل البيت، وقد عد الإمام الباقر (ع) أكثر من مائة حديث منها:

---

(١) حياة الإمام الحسن ٢ / ١٦١ الطبعة الثانية.

(٢) حياة الإمام الحسن ٢ / ١٦١ الطبعة الثانية.

أ – ان عمر محدث – بصيغة المفعول – اي تحدثه الملائكة.
ب – إن السكينة تنطق على لسان عمر.
ج – إن عمر يلقنه الملك.
د – إن الملائكة لتستحي من عثمان (١).
إلى كثير من أمثال هذه الأخبار التي وضعت في فضل الصحابة،
يقول المحدث ابن عرفة المعروف بنفطويه: " ان أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتعلت في أيام بني أمية تقربا إليهم بما يظنون أنهم يرغمون به أنوف بني هاشم... " (٢) كما وضعوا في فضل الصحابة الأحاديث المماثلة للأحاديث النبوية في فضل العترة الطاهرة كوضعهم: " ان سيدي كهول أهل الجنة أبو بكر وعمر " وقد عارضوا بذلك الأحاديث المتواتر " الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة " (٣).
الطائفة الثانية: وضع الاخبار في ذم العترة الطاهرة والحط من شانها
فقد اعطى معاوية سمرة بن جندب أربع مائة الف على أن يخطب في أهل الشام، ويروي لهم أن الآية الكريمة نزلت في علي وهي قوله تعالى:
" ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد " (٤) فروى لهم سمرة ذلك واخذ العوض الضخم من بيت المال المسلمين (٥)... ومما رووا أن النبي (ص) قال في آل

---

(١) حياة الإمام الحسن ٢ / ١٦٢ الطبعة الثانية.
(٢) النصائح الكافية (ص ٧٤).
(٣) حياة الإمام الحسن ٢ / ١٦٢.
(٤) سورة البقرة: آية ٢٠٣ و ٢٠٤.
(٥) النصائح الكافية (ص ٢٥٣).

أبي طالب " إن آل أبي طالب ليسوا بأولياء لي انما ولي الله وصالح المؤمنين " (١) وروى الأعمش انه لما قدم أبو هريرة العراق مع معاوية عام الجماعة (سنة ٤١) جاء إلى مسجد الكوفة فلما رأى كثرة من استقبله من الناس جثا على ركبتيه ثم ضرب صلعته مرارا، وقال: يا أهل العراق أتزعمون أني اكذب (٢) على رسول الله (ص) واحرق نفسي بالنار؟ لقد سمعت رسول الله (ص) يقول: ان لكل نبي حرما، وان حرمي بالمدينة ما بين عير إلى ثور فمن أحدث فيهما حدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، واشهد بالله ان عليا أحدث فيها!! فلما بلغ معاوية قوله اجازه وأكرمه وولاه امارة المدينة (٣).

إلى كثير من أمثال هذه الموضوعات التي تقدح في العترة الطاهرة التي هي مصدر الوعي والاحساس في العالم الاسلامي.

الطائفة الثالثة افتعال الاخبار في فضل معاوية لمحو العار الذي لحقه ولحق أباه وأسرته في مناهضتهم للاسلام، واخفاء ما أثر عن النبي (ص) في ذمهم، وهذه بعض الاخبار المفتعلة:

١ - قال (ص): " معاوية بن أبي سفيان أحلم أمتي وأجودها " (٤)

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٣ / ١٥.

(٢) علق على ذلك العلامة فقيد الاسلام الشيخ محمود أبو رية في كتابه أبو هريرة (ص ٢٣٦) بقوله " يدل هذا القول على أن كذب أبي هريرة على النبي كان قد اشتهر حتى عم الآفاق وأصبح الناس يتحدثون به في كل مكان. "

(٣) شرح نهج البلاغة ١ / ٣٥٩.

(٤) البداية والنهاية ٨ / ١٢١، تطهير الجنان المطبوع على هامش الصواعق المحرقة (ص ٢٦).

٢ - قال (ص): " صاحب سري معاوية بن أبي سفيان " (١)
٣ - قال (ص) " اللهم علمه - يعني معاوية - الكتاب وقه العذاب وادخله الجنة.. " (٢).
٤ - قال (ص) " إذا رأيتم معاوية يخطب على منبري فاقبلوه (٣) فإنه امين هذه الأمة " (٤) إلى غير ذلك من الأحاديث الموضوعة التي تعكس الصراع الفكري ضد الاسلام عند معاوية وانه حاول جاهدا محو هذا الدين والقضاء عليه.

حديث مفتعل على الحسين:

من الأحاديث الموضوعة على الإمام الحسين ما روى أنه وفد على معاوية زائرا في يوم الجمعة وكان قائما على المنبر خطيبا فقال له رجل من القوم ائذن للحسين يصعد المنبر فقال له معاوية: ويلك دعني افتخر، ثم حمد الله وأثنى عليه، ووجه خطابه للحسين قائلا له:

- سألتك يا أبا عبد الله أليس أنا ابن بطحاء مكة؟
- اي والذي بعث جدي بشيرا.
- سألتك يا أبا عبد الله أليس أنا خال المؤمنين؟
- اي والذي بعث جدي نبيا.

---

(١) تطهير الجنان (ص ٢٦).
(٢) تطهير الجنان (ص ٢٦).
(٣) وضع هذه الحديث لمعارضة الحديث الصحيح المروي عن رسول الله (ص) إذا رأيتم معاوية يخطب على منبري فاضربوا عنقه ".
(٤) تاريخ بغداد.

- سألتك يا أبا عبد الله أليس أنا كاتب الوحي؟
- اي والذي بعث جدي نذيرا.
ثم نزل معاوية عن المنبر، فصعد الحسين فحمد الله بمحامد لم يحمده الأولون والآخرون بمثلها ثم قال: حدثني أبي عن جدي عن جبرائيل عن الله تعالى ان تحت قائمة كرسي العرش ورقة آس خضراء مكتوب عليها " لا إله إلا الله محمد رسول الله، يا شيعة آل محمد لا يأتي أحدكم يوم القيامة الا أدخله الله الجنة ".
فقال له معاوية: سألتك يا أبا عبد الله من شيعة آل محمد؟ فقال عليه السلام: الذين لا يشتمون الشيخين أبا بكر وعمر، ولا يشتمون عثمان ولا يشتمونك يا معاوية.
وعلق الحافظ ابن عساكر على هذا الحديث بقوله: " هذا حديث منكر ولا أرى سنده متصلا إلى الحسين (١).
وقد امتحن المسلمون امتحانا عسيرا بهذه الموضوعات التي دونت في كتب السنة، وظن الكثيرون من المسلمين أنها حق، فأضفوا على معاوية ثوب القداسة، وألحقوه بالرعيل الأول من الصحابة المتحرجين في دينهم وهم من دون شك لو علموا واقعها لتبرؤا منها - كما يقول المدايني - (٢) ولم تقتصر الموضوعات على تقديس معاوية والحط من شان أهل البيت (ع) وانما تدخلت في شؤون الشريعة فألصقت بها المتناقضات والمستحيلات مما شوهت الواقع الاسلامي وأفسدت عقائد المسلمين.

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٤ / ٣١٣.
(٢) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ٣ / ١٦.

سب الامام أمير المؤمنين:
وتمادى معاوية في عدائه الامام أمير المؤمنين (ع) فأعلن سبه ولعنه في نواديه العامة والخاصة وأوعز إلى جميع عماله وولاته أن يذيعوا سبه بين الناس، وسرى سب الامام في جميع أنحاء العالم الاسلامي، وقد خطب معاوية في أهل الشام فقال لهم:
" أيها الناس، ان رسول الله (ص) قال لي: إنك ستلي الخلافة من بعدي فاختر الأرض المقدسة - يعني الشام - فان فيها الابدال، وقد اخترتكم فالعنوا أبا تراب ".
وعج أهل الشام بسب الامام (١) وخطب في أولئك الوحوش فقال لهم:
" ما ظنكم برجل - يعني عليا لا يصلح لأخيه - يعني عقيلا - يا أهل الشام إن أبا لهب المذموم في القران هو عم علي بن أبي طالب " (٢).
ويقول المؤرخون: انه كان إذا خطب ختم خطابه بقوله: " اللهم ان أبا تراب الحد في دينك وصد عن سبيلك فالعنه لعنا وبيلا، وعذبه عذابا أليما.. "
وكان يشاد بهذه الكلمات على المنابر (٣) ولما ولي معاوية المغيرة بن شعبة امارة الكوفة كان أهم ما عهد إليه ان لا يتسامح في شتم الإمام (ع) والترحم على عثمان، والعيب لأصحاب علي واقصائهم، وأقام المغيرة

---

(١) النصائح الكافية (ص ٧٢).
(٢) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ٣ / ٣٦١.
(٣) النصائح الكافية (ص).

واليا على الكوفة سبع سنين وهو لا يدع ذم علي والوقوع فيه (١). وقد أراد معاوية بذلك ان يصرف القلوب عن الإمام (ع) وان يحول بين الناس وبين مبادئه التي أصبحت تطارده في قصوره يقول الدكتور محمود صبحي: " لقد أصبح علي جثة هامدة لا يزاحمهم في سلطانهم، ويخيفهم بشخصه، ولا يعني ذلك - اي سب الامام - الا ان مبادئه في الحكم وآراءه في السياسة كانت تنغص عليهم في موته كما كانت في حياته.. " (٢)

لقد كان الامام رائد العدالة الانسانية والمثل الاعلى لهذا الدين، يقول الجاحظ: " لا يعلم رجل في الأرض متى ذكر السبق في الاسلام والتقدم فيه، ومتى ذكر النخوة والذب عن الاسلام، ومتى ذكر الفقه في الدين، ومتى ذكر الزهد في الأمور التي تناصر الناس عليها كان مذكورا في هذه الخلال كلها الا في علي. " (٣)

ويقول الحسن البصري:

" والله لقد فارقكم بالأمس رجل كان سهما صائبا من مرامي الله عز وجل، رباني هذه الأمة بعد نبيها (ص) وصاحب شرفها وفضلها وذا القرابة القريبة من رسول الله (ص) غير مسؤم لأمر الله، ولا سروقة لمال الله اعطى القران عزائمه فأورده رياضا مونقة، وحدائق مغدقة ذلك علي بن أبي طالب. " (٤)

لقد عادت اللعنات التي كان يصبها معاوية وولاته على الامام باظهار فضائله فقد برز الامام للناس أروع صفحة في تاريخ الانسانية كلها، وظهر للمجتمع انه المنادي الأول بحقوق الانسان، والمؤسس الأول للعدالة الاجتماعية

---

(١) تاريخ الطبري ٦ / ١٤١ طبع أوربا.

(٢) نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثني عشرية (ص ٢٨٢).

(٣) الاسلام والحضارة العربية ٢ / ١٤٥.

مناقب ابن المغازلي رقم الحديث ٦٩.

في الأرض لقد انطوت السنون والأحقاب، واندكت معالم تلك الدول التي ناوئت الامام سواء أكانت من بني أمية أم من بني العباس، ولم يبق لها أثر، وبقى الإمام (ع) وحده قد احتل قمة المجد فها هو رائد الانسانية الأول وقائدها الاعلى وإذا بحكمه القصير الأمد يصبح طغراء في حكام هذا الشرق، وإذا الوثائق الرسمية التي أثرت عنه تصبح منارا لكل حكم صالح يستهدف تحقيق القضايا المصيرية للشعوب، وإذا بحكم معاوية أصبح رمزا للخيانة والعمالة ورمزا لاضطهاد الشعوب واحتقارها.

ستر فضائل أهل البيت

وحاول معاوية بجميع طاقاته حجب فضائل آل البيت (ع) وستر مآثرهم عن المسلمين، وعدم إذاعة ما أثر عن النبي (ص) في فضلهم، يقول المؤرخون: إنه بعد عام الصلح حج بيت الله الحرام فاجتاز على جماعة فقاموا إليه تكريما ولم يقم إليه ابن عباس، فبادره معاوية قائلا:

يا بن عباس ما منعك من القيام؟ كما قام أصحابك إلا لموجدة علي بقتالي إياكم يوم صفين!! يا بن عباس إن ابن عمي عثمان قتل مظلوما.!

فرد عليه ابن عباس ببليغ منطقه قائلا:

– فعمر بن الخطاب قد قتل مظلوما، فسلم الامر إلى ولده، وهذا ابنه – وأشار إلى عبد الله بن عمر –

اجابه معاوية بمنطقه الرخيص.

" إن عمر قتله مشرك.. "

فانبرى ابن عباس قائلا:

– فمن قتل عثمان؟

– قتله المسلمون.
وامسك ابن عباس بزمامه فقال له:
" فذلك أدحض لحجتك إن كان المسلمون قتلوه وخذلوه فليس الا بحق " ولم يجد معاوية مجالا للرد عليه، فسلك حديثا آخر أهم عنده من دم عثمان فقال له:
" إنا كتبنا إلى الآفاق ننهي عن ذكر مناقب علي وأهل بيته فكف لسانك يا بن عباس "
فانبرى ابن عباس بفيض من منطقه وبليغ حجته يسدد سهاما لمعاوية قائلا:
– فتنهانا عن قراءة القرآن؟
– لا
– فتنهانا عن تأويله؟
– نعم
– فنقرأه ولا نسأل عما عنى الله به؟
– نعم
– فأيهما أوجب علينا قراءته أو العمل به؟
– العمل به.
– فكيف نعمل به حتى نعلم ما عنى الله بما أنزل علينا؟
– سل عن ذلك ممن يتأوله على غير ما تتأوله أنت وأهل بيتك.
– انما نزل القران على أهل بيتي، فاسال عنه آل أبي سفيان وآل أبي معيط؟!!
– فاقرأوا القران، ولا تروووا شيئا مما أنزل الله فيكم، ومما قاله رسول الله (ص) فيكم، وارووا ما سوى ذلك.

وسخر منه ابن عباس، وتلا قوله تعالى: " يريدون أن يطفؤا نور الله بأفواههم، ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون ".
وصاح به معاوية:
" اكفني نفسك، وكف عني لسانك، وإن كنت فاعلا فليكن سرا، ولا تسمعه أحدا علانية... " (١)
ودلت هذه المحاورة على عمق الوسائل التي اتخذها معاوية في مناهضته لأهل البيت، واخفاء مآثرهم.
وبلغ الحقد بمعاوية على الامام أنه لما ظهر عمرو بن العاص بمصر على محمد بن أبي بكر، وقتله استولى على كتبه ومذكراته وكان من بينها عهد الامام له، وهو من أروع الوثائق السياسية، فرفعه ابن العاص إلى معاوية فلما رآه قال لخاصته: إنا لا نقول هذا من كتب علي بن أبي طالب ولكن نقول: هذا من كتب أبي بكر التي كانت عنده (٢)
التحرج من ذكر الامام:
وأسرف الحكم الأموي إلى حد بعيد في محاربة الامام أمير المؤمنين (ع) فقد عهد بقتل كل مولود يسمى عليا، فبلغ ذلك علي بن رياح فخاف، وقال: لا اجعل في حل من سماني عليا فان اسمي علي - بضم العين - (٣)
ويقول المؤرخون: ان العلماء والمحدثين تحرجوا من ذكر الإمام علي والرواية عنه خوفا من بني أمية فكانوا إذا أرادوا أن يرووا عنه يقولون:

---

(١) حياة الإمام الحسن ٢ / ٣٤٣.
(٢) شرح النهج ٢ / ٢٨.
(٣) تهذيب التهذيب ٧ / ٣١٩.

" روى أبو زينب " (١) وروى معمر عن الزهري عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله (ص): " إن الله عز وجل منع بني إسرائيل قطر السماء لسوء رأيهم في أنبيائهم، واختلافهم في دينهم، وانه اخذ على هذه الأمة بالسنين، ومنعهم قطر السماء ببغضهم علي بن أبي طالب ".

قال معمر: حدثني الزهري في مرضة مرضها، ولم أسمعه يحدث عن عكرمة قبلها ولا بعدها فلما أبل من مرضه ندم على حديثه لي وقال: " يا يماني اكتم هذا الحديث، واطوه دوني فان هؤلاء - يعني بني أمية - لا يعذرون أحدا في تقريض علي وذكره. "

قال معمر: " فما بالك عبت عليا مع القوم، وقد سمعت الذي سمعت؟.. "

قال الزهري: " حسبك يا هذا انهم أشركونا مهمامهم فاتبعناهم في أهوائهم.. " (٢)

وقد امتحن المسلمون امتحانا عسيرا في مودتهم للامام وتحرجوا أشد التحرج في ذلك، يقول الشعبي: " ما ذا لقينا من علي إن أحببناه ذهبت دنيانا وان أبغضناه ذهب ديننا " ويقول الشاعر:

حب علي كله ضرب * يرجف من تذكاره القلب

هذه بعض المحن التي عاناها المسلمون في مودتهم لأهل البيت (ع) التي هي جزء من دينهم.

---

(١) شرح النهج ١١ / ١٤.

(٢) مناقب ابن المغازلي رقم الحديث (١٤٩).

مع الشيعة:
واضطهدت الشيعة أيام معاوية اضطهادا رسميا في جميع أنحاء البلاد، وقوبلوا بمزيد من العنف والشدة، فقد انتقم منهم معاوية كاشد ما يكون الانتقام قسوة وعذابا، فقد قاد مركبة حكومته على جثث الضحايا منهم، وقد حكى الإمام الباقر (ع) صورا مريعة من بطش الأمويين بشيعة آل البيت (ع) يقول: " وقتلت شيعتنا بكل بلدة، وقطعت الأيدي والأرجل على الظنة، وكان من يذكر بحبنا والانقطاع إلينا سجن أو نهب ما له أو هدمت داره " (١) وتحدث بعض رجال الشيعة إلى محمد بن الحنفية عما عانوه من المحن والخطوب بقول:
" فما زال بنا الشين في حبكم حتى ضربت عليه الأعناق، وأبطلت الشهادات، وشردنا في البلاد، وأوذينا حتى لقد هممت أن أذهبت في الأرض قفرا، فاعبد الله حتى ألقاه، لولا أن يخفى علي أمر آل محمد (ص) وحتى هممت أن اخرج مع أقوام (٢) شهادتنا وشهادتهم واحدة على أمرائنا فيخرجون فيقاتلون. " (٣)
لقد كان معاوية لا يتهيب من الاقدام على اقتراف اية جريمة من اجل ان يضمن ملكه وسلطانه، وقد كانت الشيعة تشكل خطرا على حكومته فاستعمل معهم أعنف الوسائل وأشدها قسوة من اجل القضاء عليهم، ومن بين الاجراءات القاسية التي استعملها ضدهم ما يلي:

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٣ / ١٥.
(٢) الأقوام: هم الخوارج.
(٣) طبقات ابن سعد ٥ / ٩٥.

القتل الجماعي
وأسرف معاوية إلى حد كبير في سفك دماء الشيعة، فقد عهد إلى الجلادين من قادة جيشه يتتبع الشيعة وقتلهم حيثما كانوا، وقد قتل بسر بن أبي أرطاة - بعد التحكيم - ثلاثين ألفا عدا من أحرقهم بالنار (١) وقتل سمرة بن جندب ثمانية الألف من أهل البصرة (٢) واما زياد بن أبيه فقد ارتكب أفظع المجازر فقطع الأيدي والأرجل وسمل العيون، وانزل بالشيعة من صنوف العذاب ما لا يوصف لمرارته وقسوته.
إبادة القوى الواعية:
وعمد معاوية إلى إبادة القوى المفكرة والواعية من الشيعة، وقد ساق زمرا منهم إلى ساحات الاعلام، واسكن الثكل والحداد في بيوتهم، وفيما يلي بعضهم.
١ - حجر بن عدي:
لقد رفع حجر بن عدي علم النضال، وكافح عن حقوق المظلومين والمضطهدين، وسحق إرادة الحاكمين من بني أمية الذين تلاعبوا في مقدرات الأمة وحولوها إلى مزرعة جماعية لهم ولعملائهم واتباعهم... لقد استهان حجر من الموت وسخر من الحياة، واستلذ الشهادة في سبيل عقيدته، فكان أحد المؤسسين لمذهب أهل البيت (ع).

---

(١) شرح النهج ٢ / ٦.
(٢) الطبري ٦ / ٣٢.

وامتحن حجر كاشد ما تكون المحنة قسوة حينما رأى السلطة تعلن سب الامام أمير المؤمنين (ع) وترغم الناس على البراءة منه فأنكر ذلك، وجاهر بالرد على ولاة الكوفة، واستحل زياد بن أبيه دمه فالقى عليه القبض، وبعثه مخفورا مع كوكبة من إخوانه إلى معاوية، وأوقفوا في (مرج عذراء) فصدرت الأوامر من دمشق باعدامهم، ونفذ الجلادون فيهم حكم الاعدام فخرت جثثهم على الأرض وهي ملفعة بدم الشهادة والكرامة وهي تضئ للناس معالم الطريق نحو حياة أفضل لا ظلم فيها، ولا طغيان.

مذكرة الإمام الحسين

وفزع الإمام الحسين حينما وافته الانباء بمقتل حجر فرفع مذكرة شديدة اللهجة إلى معاوية ذكر فيها احداثه وبدعه، والتي كان منها قتله لحجر والبررة من أصحابه، وقد جاء فيها:

" الست القاتل حجرا أخا كندة، والمصلين العابدين الذين كانوا ينكرون الظلم ويستعظمون البدع، ولا يخافون في الله لومة لائم... قتلتهم ظلما وعدوانا من بعد ما كنت أعطيتهم الايمان المغلظة، والمواثيق المؤكدة ان لا تأخذهم بحدث كان بينك وبينهم ولا بإحنة تجدها في نفسك عليهم.. " (١)

واحتوت هذه المذكرة على ما يلي:

١ - الانكار الشديد على معاوية لقتله حجرا وأصحابه من دون أن يقترفوا جرما أو يحدثوا فسادا في الأرض.

٢ - انها أشادت بالصفات البطولية في هؤلاء الشهداء من انكار الظلم،

---

(١) حياة الإمام الحسن ٢ / ٣٦٥.

ومقاومة الجور واستعظام البدع والمنكرات التي أحدثتها حكومة معاوية، وقد هبوا إلى ميادين الجهاد لإقامة الحق ومناهضة المنكر.

٣ – انها أثبتت ان معاوية قد اعطى حجرا وأصحابه عهدا خاصا في وثيقة وقعها قبل ابرام الصلح ان لا يعرض لهم باي إحنة كانت بينه وبينهم، ولا يصيبهم باي مكروه، ولكنه قد خاس بذلك فلم يف به كما لم يف للإمام الحسن بالشروط التي أعطاها له، وانما جعلها تحت قدميه كما أعلن ذلك في خطابه الذي ألقاه في النخيلة.

لقد كان قتل حجر من الاحداث الجسام في الاسلام، وقد توالت صيحات الانكار على معاوية من جميع الأقاليم الاسلامية، وقد ذكرناها بالتفصيل في كتابنا (حياة الإمام الحسن " ع ").

١ – رشيد الهجري:

وفي فترات المحنة الكبرى التي منيت بها الشيعة في عهد ابن سمية تعرض رشيد الهجري لأنواع المحن والبلوى فقد بعث زياد شرطته إليه فلما مثل عنده صاح به " ما قال لك خليلك – يعني عليا – انا فاعلون بك؟.. "

فاجابه بصدق وايمان:

" تقطعون يدي ورجلي، وتصلبوني "

وقال الخبيث مستهزءا وساخرا:

" اما والله لأكذبن حديثه، خلوا سبيله. "

وخلت الجلاوزة سراحه، وندم الطاغية فامر باحضاره فصاح به:

" لا نجد شيئا أصلح مما قال صاحبك: إنك لا تزال تبغي لنا سوءا إن بقيت، اقطعوا يديه ورجليه " وبادر الجلادون فقطعوا يديه ورجليه، وهو غير حافل بما يعانيه من الآلام، ويقول المؤرخون: انه اخذ يذكر مثالب بني أمية، ويدعو إلى ايقاظ الوعي والثورة، مما غاظ ذلك زيادا فامر بقطع

لسانه (١) الذي كان يطالب بالحق والعدل، وينافح عن حقوق الفقراء والمحرومين.

٣ - عمرو بن الحمق الخزاعي:

ومن شهداء العقيدة: الصحابي العظيم عمرو بن الحمق الخزاعي الذي دعا له النبي (ص) أن يمتعه الله بشبابه، واستحباب الله دعاء نبيه فقد اخذ عمرو بعنق الثمانين عاما ولم تر في كريمته شعرة بيضاء (٢) وتأثر عمرو بهدي أهل البيت واخذ من علومهم فكان من اعلام شيعتهم...

وفي أعقاب الفتنة الكبرى التي منيت بها الكوفة في عهد الطاغية زياد بن سمية شعر عمرو بتتبع السلطة له ففر مع زميله رفاعة بن شداد إلى الموصل، وقبل أن ينتهيا إليه كمنا في جبل ليستجما فيه، وارتابت الشرطة فبادرت إلى القاء القبض على عمرو اما رفاعة ففر ولم تستطع ان تلقي عليه القبض وجيئ بعمرو مخفورا إلى حاكم الموصل عبد الرحمن الثقفي، فرفع امره إلى معاوية فأمره بطعنه تسع طعنات بمشاقص (٣) لأنه طعن عثمان بن عفان، وبادرت الجلاوزة إلى طعنه فمات في الطعنة الأولى، واحتز رأسه الشريف وأرسل إلى طاغية دمشق فامر ان يطاف به في الشام، ويقول المؤرخون انه أول رأس طيف به في الاسلام، ثم أمر به معاوية ان يحمل إلى زوجته السيدة آمنة بنت شريد، وكانت في سجنه، فلم تشعر الا ورأس زوجها قد وضع في حجرها، فذعرت وكادت أن تموت وحملت من السجن إلى معاوية وجرت بينها وبينه محادثات دلت على ضعة معاوية واستهانته بالقيم العربية والاسلامية القاضية بمعاملة المرأة معاملة كريمة ولا تؤخذ باي ذنب يقترفه زوجها أو غيره.

---

(١) سفينة البحار ١ / ٥٢٢.

(٢) الإصابة ٢ / ٥٢٦.

(٣) المشاقص: - جمع مفردة مشقص - النصل العريض أو سهم فيه نصل عريض.

مذكرة الإمام الحسين:
والتاع الإمام الحسين (ع) أشد ما تكون اللوعة حينما علم بقتل عمرو فرفع مذكرة إلى معاوية عدد فيها احداثه وما تعانيه الأمة في عهده من الاضطهاد والجور، وجاء فيما يخص عمروا:
" أو لست قاتل عمرو بن الحمق صاحب رسول الله (ص) العبد الصالح الذي أبلته العبادة فنحل جسمه، واصفر لونه، بعدما أمنته، وأعطيته من عهود الله ومواثيقه ما لو أعطيته طائرا لنزل إليك من رأس الجبل، ثم قتلته جراءة على ربك واستخفافا بذلك العهد.. " (١)
لقد خاس معاوية بما أعطاه لهذا الصحابي الجليل - بعد الصلح - من العهد والمواثيق بان لا يعرض له بسوء ولا مكروه.
٤ - أوفى بن حصن:
وكان أوفى بن حصن من خيار الشيعة - في الكوفة - واحد اعلامهم النابهين، وهو من أشد الناقمين على معاوية فكان يذيع مساوءه واحداثه، ولما علم به ابن سمية أوعز إلى الشرطة بالقاء القبض عليه ولما علم أوفى بذلك اختفى، وفي ذات يوم استعرض زياد الناس فاجتاز عليه أوفى فشك في امره فسال عنه فأخبر باسمه، فامر باحضاره فلما مثل عنده سأله عن سياسته فعابها وأنكرها، فامر زياد بقتله، فهوى الجلادون عليه بسيوفهم وتركوه جثة هامدة (٢).

---

(١) حياة الإمام الحسن.
(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ١٨٠، الطبري ٦ / ١٣٠ - ١٣٢.

٥ – الحضرمي مع جماعته:
وكان عبد الله الحضرمي من أولياء الامام أمير المؤمنين ومن خلص شيعته كما كان من شرطة الخميس، وقد له الامام يوم الجمل:
" ابشر يا عبد الله فإنك وأباك من شرطة الخميس، لقد اخبرني رسول الله باسمك واسم أبيك في شرطة الخميس ولما قتل الامام جزع عليه الحضرمي وبنى له صومعة يتعبد فيها وانضم إليه جماعة من خيار الشيعة، فامر ابن سمية باحضارهم، ولما مثلوا عنده أمر بقتلهم، فقتلوا صبرا (١).
لقد كانت فاجعة عبد الله كفاجعة حجر بن عدي فكلاهما قتل صبرا وكلاهما اخذ بغير ذنب سوى الولاء لعترة رسول الله (ص).
انكار الإمام الحسين:
وفزع الإمام الحسين كاشد ما يكون الفزع ألما ومحنة على مقتل الحضرمي وجماعته الأخيار فأنكر على معاوية في مذكرته التي بعثها له وقد جاء فيها.
" أو لست قاتل الحضرمي الذي كتب فيه إليك زياد أنه على دين علي (ع) فكتبت إليه أن اقتل كل من كان على دين علي، فقتلهم ومثل فيهم بأمرك، ودين علي هو دين ابن عمه (ص) الذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه، ولولا ذلك لكان شرفك وشرف آبائك تجشم الرحلتين رحلة الشتاء والصيف. "
ودلت هذه المذكرة – بوضوح – على أن معاوية قد عهد إلى زياد بقتل كل من كان على دين علي (ع) الذي هو دين رسول الله (ص) كما دلت على أن زيادا قتل مثل بهؤلاء البررة بعد قتلهم تشفيا منهم لولائهم لعترة

---
(١) بحار الأنوار ١٠ / ١٠١.

رسول الله (ص).
٦ - جويرية العبدي:
ومن عيون شيعة الامام جويرية بن مسهر العبدي، وفي فترات المحنة الكبرى التي امتحنت بها الشيعة أيام ابن سمية، بعث خلفه فامر بقطع يده ورجله وصلبه على جذع قصير (١).
٧ - صيفي بن فسيل:
ومن ابطال العقيدة الاسلامية صيفي بن فسيل الذي ضرب أروع الأمثلة للايمان فقد سعي به إلى الطاغية زياد فلما جيئ به إليه صاح به:
- يا عدو الله ما تقول في أبي تراب؟
- ما اعرف أبا تراب (٢)
- ما أعرفك به؟
- اما تعرف علي بن أبي طالب؟
- بلى
- فذاك أبو تراب.
- كلا ذاك أبو الحسن والحسين.
وانبرى مدير شرطة زياد منكرا عليه:
" يقول لك الأمير: هو أبو تراب، وتقول: أنت لا:!! "
فصاح به البطل العظيم مستهزءا منه ومن أميره.
" وإن كذب الأمير أتريد أن أكذب؟ وأشهد على باطل كما شهد

---

(١) شرح ابن أبي الحديد.
(٢) كان الأمويون يرمزون بهذه الكتبية إلى جعل الامام كقاطع طريق جاء ذلك في التاريخ السياسي للدولة العربية ٢ / ٧٥، وجاء في الأغاني ١٣ / ١٦٨ ان زيادا كان يحتقر الشيعة ويسميهم الترابية.

وتحطم كبرياء الطاغية، ضاقت به الأرض فقال له:
" وهذا أيضا مع ذنبك "
وصاح بشرطته علي بالعصا، فأتوه بها، فقال له:
" ما قولك؟ "
وانبرى البطل بكل بسالة واقدام غير حافل به قائلا:
" أحسن قول أنا قائله في عبد من عباد الله المؤمنين.. "
وأوعز السفاك إلى جلاديه بضرب عاتقه حتى يلتصق بالأرض، فسعوا إليه بهراواتهم فضربوه ضربا مبرحا حتى وصل عاتقه إلى الأرض، ثم أمرهم بالكف عنه، وقال له:
" إيه ما قولك في علي؟ "
وحسب الطاغية ان وسائل تعذيبه سوف تقلبه عن عقيدته فقال له:
والله لو شرحتني بالمواسي والمدى، ما قلت الا ما سمعت مني "
وفقد السفاك اهابه فصاح به،
" لتلعنه أو لأضربن عنقك.. "
وهتف صيفي يقول:
" إذا تضربها والله قبل ذلك، فان أبيت الا أن تضربها رضيت بالله وشقيت أنت.. "
وأمر به ان يوقر في الحديد، ويلقى في ظلمات السجون (١) ثم بعثه مع حجر بن عدي فاستشهد معه (٢).

٨ - عبد الرحمن:

وكان عبد الرحمن العنزي من خيار الشيعة وقد وقع في قبضة جلاوزة

---

(١) الطبري ٤ / ١٩٨.
(٢) حياة الإمام الحسن ٢ / ٣٦٢.

زياد فطلب منهم مواجهة معاوية لعله أن يعفو عنه فاستجابوا له وأرسلوه مخفورا إلى دمشق فلما مثل عند الطاغية قال له:
" إيه أخا ربيعة ما تقول في علي؟... "
" دعني ولا تسألني فهو خير لك... "
" والله لا أدعك.. "
فانبرى البطل الفذ يدلي بفضائل الامام، ويشيد بمقامه قائلا:
أشهد انه كان من الذاكرين الله كثيرا، والآمرين بالحق، والقائمين بالقسط، والعافين عن الناس "
" والتاع معاوية فعرج نحو عثمان لعله أن ينال منه فيستحل إراقة دمه فقال له:
" ما قولك في عثمان؟ "
فاجابه عن انطباعاته عن عثمان، فغاظ ذلك معاوية وصاح به:
" قتلت نفسك "
بل إياك قتلت، ولا ربيعة بالوادي. "
وظن عبد الرحمن أن أسرته ستقوم بحمايته وانقاذه، فلم ينبر إليه أحد ولما أمن منهم معاوية بعثه إلى الطاغية زياد، وأمره بقتله فبعثه زياد إلى " قس الناطف " (١) فدفنه وهو حي (٢)
لقد رفع هذا البطل العظيم راية الحق، وحمل معول الهدم على قلاع الظلم والجور، واستشهد منافحا عن أقدس قضية في الاسلام.
هؤلاء بعض الشهداء من اعلام الشيعة الذين حملوا مشعل الحرية، وأضاؤا الطريق لغيرهم من الثوار الذين أسقطوا هيبة الحكم الأموي، وعملوا على أنقاضه.

---

(١) قس الناطف: موضع قريب من الكوفة.
(٢) الطبري ٦ / ١٥٥.

المروعون من اعلام الشيعة:
وروع معاوية طائفة كبيرة من الشخصيات البارزة من رؤساء الشيعة وفيما يلي بعضهم:
١ – عبد الله بن هاشم المرقال.
٢ – عدي بن حاتم الطائي.
٣ – صعصعة بن صوحان.
٤ – عبد الله بن خليفة الطائي.
وقد أرهق معاوية هؤلاء الاعلام ارهاقا شديدا، فطاردتهم شرطته وأفزعتهم إلى حد بعيد وقد ذكرنا ما عانوه من الخطوب في كتابنا " حياة الإمام الحسن ".
ترويع النساء:
ولم يقتصر معاوية في تنكيله على السادة من رجال الشيعة، وانما تجاوز ظلمه إلى السيدات من نسائهم، فأشاع فيهم الذعر والارهاب، فكتب إلى بعض عماله بحمل بعضهن إليه، فحملت له هذه السيدات:
١ – الزرقاء بنت عدي.
٢ – أم الخير البارقية.
٣ – سودة بنت عمارة.
٤ – أم البراء بنت صفوان.

٥ - بكارة الهلالية.
٦ - أروى بنت الحارث.
٧ - عكرش بنت الأطرش.
٨ - الدارمية الحجونية.
وقد قابلهن معاوية بمزيد من التوهين والاستخفاف، وأظهر لهن الجبروت والقدرة على الانتقام غير حافل بوهن المرأة وضعفها، وقد ذكرنا ما جرى عليهن في مجلسه من التحقير في كتابنا " حياة الإمام الحسن "

هدم دور الشيعة:

وأوعز معاوية إلى جميع عماله بهدم دور الشيعة، فقاموا بنقضها (١) وتركوا شيعة آل البيت (ع) بلا مأوى يأوون إليه، ولم يكن هناك اي مبرر لهذه الاجراءات القاسية سوى تحويل الناس عن عترة رسول الله (ص)

حرمان الشيعة من العطاء:

ومن الماسي الكئيبة التي عانتها الشيعة في أيام معاوية أنه كتب إلى جميع عماله نسخة واحدة جاء فيها " انظروا إلى من قامت عليه البينة انه يحب عليا وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه " (٢) وبادر عماله في الفحص في سجلاتهم فمن وجدوه محبا لآل البيت (ع) محوا اسمه وأسقطوا عطاءه.

---

(١) شرح النهج ١١ / ٤٤.
(٢) شرح النهج ١١ / ٤٤.

عدم قبول شهادة الشيعة:
وعمد معاوية إلى اسقاط الشيعة اجتماعيا فعهد إلى جميع عماله بعدم قبول شهادتهم في القضاء وغيره (١) مبالغة في اذلالهم وتحقيرهم.
ابعاد الشيعة إلى الخراسان:
وأراد زياد بن أبيه تصفية الشيعة من الكوفة، وكسر شوكتهم فأجلى خمسين ألفا منهم إلى خراسان المقاطعة الشرقية في فارس (٢) وقد دق زياد بذلك أول مسمار في نعش الحكم الأموي، فقد اخذت تلك الجماهير التي أبعدت إلى فارس تعمل على نشر التشيع في تلك البلاد، حتى تحولت إلى مركز للمعارضة ضد الحكم الأموي، وهي التي أطاحت به تحت قيادة أبي مسلم الخراساني.
هذا بعض ما عانته الشيعة في عهد معاوية من صنوف التعذيب والارهاب، وكان ما جرى عليهم من الماسي الأليمة من أهم الأسباب في ثورة الإمام الحسين، فقد رفع علم الثورة لينقذهم من المحنة الكبرى التي امتحنوا بها ويعيد لهم الامن والاستقرار.
البيعة ليزيد:
وختم معاوية حياته بأكبر اثم في الاسلام وأفظع جريمة في التاريخ،

---

(١) حياة الإمام الحسن.
(٢) تاريخ الشعوب الاسلامية ١ / ١٤٧.

فقد أقدم غير متحرج على فرض خليعه يزيد خليفة على المسلمين يعيث في دينهم ودنياهم، ويخلد لهم الويلات والخطوب،.. وقد استخدم
معاوية شتى الوسائل المنحطة في جعل الملك وراثة في أبنائه، ويرى الجاحظ أنه تشبه بملوك الفرس البزنطيين فحول الخلافة إلى ملك كسروي، وعصب قيصري.. وقبل أن نعرض إلى تلك البيعة المشومة، وما رافقها من الاحداث نذكر عرضا موجزا لسيرة يزيد، وما يتصف به من القابليات الشخصية التي عجت بذمها كتب التاريخ من يومه حتى يوم الناس هذا، وفيما يلي ذلك ولادة يزيد:

ولد يزد سنة (٢٥) أو (٢٦ ه) (١) وقد دهمت الأرض شعلة من نار جهنم وزفيرها تحوط به دائرة السوء وغضب من الله، وهو أخبث انسان وجد في الأرض فقد خلق للجريمة والإسائة إلى الناس، وأصبح علما للانحطاط الخلقي والظلم الاجتماعي وعنوانا بغيضا للاعتداء على الأمة وقهر ارادتها في جميع العصور، يقول الشيخ محمد جواد مغنية: " اما كلمة يزيد فقد كانت من قبل اسما لابن معاوية أما هي الان عند الشيعة فإنها رمز للفساد والاستبداد، والتهتك والخلاعة وعنوان للزندقة والالحاد فحيث يكون الشر والفساد فثم اسم يزيد، وحيثما يكون الخير والحق والعدل فثم اسم الحسين " (٢)

وقد أثر عن النبي (ص) انه نظر إلى معاوية يتبختر في بردة حبرة وينظر إلى عطفيه فقال (ص): " أي يوم لامتي منك، وأي يوم سوء

---

(١) تاريخ القضاعي من مصورات مكتبة الإمام الحكيم العامة.
(٢) الشيعة في الميزان (ص ٤٥٥).

لذريتي منك من جرو يخرج من صلبك يتخذ آيات الله هزوا ويستحل من حرمتي ما حرم الله عز وجل " (١).

نشأته:

نشأ يزيد عند أخواله في البادية من بني كلاب الذين كانوا يعتنقون المسيحية قبل الاسلام، وكان مرسل العنان مع شبابهم الماجنين، فتأثر بسلوكهم إلى حد بعيد فكان يشرب معهم الخمر ويلعب معهم بالكلاب، يقول العائلي: " إذا كان يقينا أو يشبه اليقين ان تربية يزيد لم تكن اسلامية خالصة أو بعبارة أخرى كانت مسيحية خالصة، فلم يبق ما يستغرب معه أن يكون متجاوزا مستهترا مستخفا بما عليه الجماعة الاسلامية، لا يحسب لتقاليدها واعتقاداتها أي حساب، ولا يقيم لها وزنا بل الذي نستغرب أن يكون على غير ذلك " (٢)

والذي نراه أن نشأته كانت نشاة جاهلية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، ولا تحمل أي طابع من الدين مهما كان، فان استهتاره في الفحشاء وامعانه في المنكر والاثم مما يوحي إلى الاعتقاد بذلك.

صفاته:

اما صفاته الجسمية فقد كان شديد الأدمة بوجهه آثار الجدري (٣)

---

(١) المناقب والمثالب " ص ٧١ " للقاضي نعمان المصري.
(٢) سمو المعنى في سمو الذات " ص ٥٩ ".
(٣) تاريخ القضاعي.

كما كان ضخما ذا سمنة كثير الشعر (١) واما صفاته النفسية فقد ورث صفات جده أبي سفيان وأبيه معاوية من الغدر والنفاق، والطيش والاستهتار يقول السيد مير علي الهندي:

" وكان يزيد قاسيا غدارا كأبيه، ولكنه ليس داهية مثله كانت تنقصه القدرة على تغليف تصرفاته القاسية بستار من اللباقة الدبلوماسية الناعمة وكانت طبيعته المنحلة، وخلقه المنحط لا تتسرب إليهما شفقة ولا عدل.. كان يقتل ويعذب نشدانا للمتعة واللذة التي يشعر بها، وهو ينظر إلى آلام الآخرين، وكان بؤرة لأبشغ الرذائل، وهاهم ندماؤه من الجنسين خير شاهد على ذلك.. لقد كانوا من حثالة المجتمع.. " (٢)

لقد كان جافي الخلق مستهترا، بعيدا عن جميع القيم الانسانية، ومن أبرز ذاتياته ميله إلى إراقة الدماء، والإسائة إلى الناس ففي السنة الأولى من حكمه القصير أباد عترة رسول الله " ص " وفي السنة الثانية أباح المدينة ثلاثة أيام وقتل سبعمائة رجل من المهاجرين والأنصار وعشرة آلاف من الموالي والعرب والتابعين.

ولعه بالصيد:

ومن مظاهر صفات يزيد ولعه بالصيد فكان يقضي أغلب أوقاته فيه، ويقول المؤرخون:

" كان يزيد بن معاوية كلفا بالصيد لاهيا به، وكان يلبس كلاب

---

(١) تاريخ الاسلام للذهبي ١ / ٢٦٧.

(٢) روح الاسلام (ص ٢٩٦)

الصيد الأساور من الذهب والجلال المنسوجة منه، ويهب لكل كلب عبدا يخدمه. " (١)

شغفه بالقرود:

وكان يزيد - فيما أجمع عليه المؤرخون - ولعا بالقرود، فكان له قرد يجعله بين يديه ويكنيه بابي قيس، ويسقيه فضل كأسه، ويقول: هذا شيخ من بني إسرائيل اصابته خطيئة فمسخ، وكان يحمله على أتان وحشية ويرسله مع الخيل في حلبة السباق، فحمله يوما فسبق الخيل فسر بذلك وجعل يقول:

تمسك أبا قيس بفضل زمامها * فليس عليها ان سقطت ضمان
فقد سبقت خيل الجماعة كلها * وخيل أمير المؤمنين أتان

وأرسله مرة في حلبة السباق فطرحته الريح فمات فحزن عليه حزنا شديدا وأمر بتكفينه ودفنه كما أمر أهل الشام أن يعزوه بمصابه الأليم، وأنشأ راثيا له:

كم من كرام وقوم ذوو محافظه * جاءوا لنا ليعزوا في أبي قيس
شيخ العشيرة أمضاها وأجملها * على الرؤوس وفي الأعناق والريس
لا يبعد الله قبرا أنت ساكنه * فيه جمال وفيه لحية التيس (٢)

وذاع بين الناس هيامه وشغفه بالقرود حتى لقبوه بها، ويقول رجل من تنوخ هاجيا له:

---

(١) الفخري (ص ٤٥).
(٢) جواهر المطالب في مناقب الإمام علي بن أبي طالب (ص ١٤٣) من مصورات مكتبة الإمام الحكيم.

يزيد صديق القرد مل جوارنا * فحن إلى ارض القرود يزيد
فتبا لم امسى علينا خليفة * صحابته الأدنون منه قرود (١)

ادمانه على الخمر:

والظاهرة البارزة من صفات يزيد ادمانه على الخمر، وقد أسرف في ذلك إلى حد كبير فلم ير في وقت الا وهو ثمل لا يعي من السكر، ومن شعره في الخمر

أقول لصحب ضمت الكاس شملهم * وداعي صبابات الهوى يترنم
خذوا بنصيب من نعيم ولذة * فكل وإن طال المدى يتصرم (٢)

وجلس يوما على الشراب وعن يمينه ابن زياد بعد قتل الحسين فقال:

اسقني شربة تروي شاشي * ثم صل مل فاسق مثلها ابن زياد
صاحب السر والأمانة عندي * ولتسديد مغنمي وجهادي (٣)

وفي عهده طرا تحول كبير على شكل المجتمع الاسلامي فقد ضعف ارتباط المجتمع بالدين، وانغمس الكثيرون من المسلمين في الدعارة والمجون ولم يكن ذلك التغيير اقليميا، وانما شمل جميع الأقاليم الاسلامية فقد سادت فيها الشهوات والمتعة والشراب، وقد تغيرت الاتجاهات الفكرية التي ينشدها الاسلام عند أغلب المسلمين.

وقد اندفع الأحرار من شعراء المسلمين في أغلب عصورهم إلى هجاء

---

(١) أنساب الأشراف ٢ / ٢.
(٢) تاريخ المظفري.
(٣) مروج الذهب ٢ / ٧٤.

يزيد لادمانه على الخمر، يقول الشاعر بن عرادة:
ابني أمية ان آخر ملككم * جسد بحو راين ثم مقيم
طرقت منيته وعند وساده * كوب وزق راعف مرثوم
ومرنة تبكي على نشوانه * بالصنج تقعد تارة وتقوم (١)
ويقول فيه أنور الجندي:
خلقت نفسه الأثيمة بالمكر * وهامت عيناه بالفحشاء
فهو والكاس في عناق طويل * وهو والعار والخناء في خباء
ويقول فيه بولس سلامة:
وترفق بصاحب العرش مشغولا * عن الله بالقيان الملاح
الف " الله أكبر " لا تساوي * بين كفي يزيد نهلة راح
تتلظى في الدن بكرا فلم * تدنس بلثم ولا بماء قراح (٢)
لقد عاقر يزيد الخمر، وأسرف في الادمان حتى أن بعض المصادر
تعز وسبب وفاته إلى أنه شرب كمية كبيرة منه فأصابه انفجار فهلك منه (٣)
ندماؤه:
واصطفى يزيد جماعة من الخلعاء والماجنين فكان يقضي معهم لياليه
الحمراء بين الشراب والغناء وفي طليعة ندمائه الأخطل الشاعر المسيحي الخليع

---

(١) تاريخ الطبري ٧ / ٤٣.
(٢) ملحمة الغدير (ص ٢٢٧).
(٣) تاريخ المظفري من مصورات مكتبة الإمام الحكيم، وجاء في
أنساب الأشراف ٤ / ق ٢ / ٢ ان سبب وفاة يزيد انه حمل قرده على
أتان، وهو سكران فركض خلفها فاندقت عنقه فانقطع شئ في جوفه فمات.

فكانا يشربان ويسمعان الغناء، وإذا أراد السفر صحبه معه (١) ولما هلك يزيد وآل أمر الخلافة إلى عبد الملك بن مروان قربه فكان يدخل عليه بغير استئذان، وعليه جبة خز، وفي عنقه سلسلة من ذهب، والخمر يقطر من لحيته (٢).

نصيحة معاوية ليزيد:

ولما شاع استهتار يزيد واقترافه لجميع ألوان المنكر والفساد، استدعاه معاوية فأوصاه بالتكتم في نيل الشهوات لئلا تسقط مكانته الاجتماعية، قائلا: يا بني ما أقدرك على أن تصير إلى حاجتك من غير تهتك يذهب بمروءتك وقدرك ثم أنشده.

انصب نهارا في طلاب العلى * واصبر على هجر الحبيب القريب
حتى إذا الليل اتى بالدجا * واكتحلت بالغمض عين الرقيب
فباشر الليل بما تشتهي * فإنما الليل نهار الأريب
كم فاسق تحسبه ناسكا * قد باشر الليل بأمر عجيب (٣)

دفاع محمد عزة دروزة:

من الكتاب الدين يحملون النزعة الأموية في هذا العصر محمد عزة دروزة فقد جهد نفسه - مع الأسف - على الدفاع عن منكرات الأمويين

---

(١) الأغاني ٧ / ١٧٠.
(٢) الأغاني ٧ / ١٧٠.
(٣) البداية والنهاية ٨ / ٢٢٨.

وتبرير ما أثر عنهم من الظلم والجور والفساد، وقد دافع عن معاوية ونزهه عما اقترفه من الموبقات التي هي لطخة عار في تاريخ الانسانية...
وقد علق على هذه البادرة بقوله: " نحن ننزه معاوية صاحب رسول الله (ص) وكاتب وحيه، والذي أثرت عنه مخافة الله وتقواه وحرصه، عن أن يرضى من ابنه الشذوذ عن هذه الحدود بله التشجيع بل نستبعد هذا عن يزيد " (١) وهذا مما يدعو إلى السخرية والتفكه، فقد تنكر دروزة للواضحات التي لا يشك فيها أي انسان يملك عقله واختياره، وقديما قد قيل.

وليس يصح في الأذهان شئ * إذا احتاج النهار إلى دليل

أن ما أثر عن معاوية من الاحداث الجسام كقتله حجر بن عدي، ورشيد الهجري وعمرو بن الحمق الخزاعي ونظرائهم من المؤمنين، وسبه للعترة الطاهرة، ونكايته بالأمة بفرض يزيد خليفة عليها وغير ذلك من الجرائم التي ألمعنا إلى بعضها في البحوث السابقة وهي مما تدل على تشويه اسلامه وانحرافه عن الطريق القويم، ولكن دروزة وأمثاله لا ينظرون إلى الواقع الا بمنظار اسود فراحوا يقدسون الأمويين الذين أثبتوا بتصرفاتهم السياسية والإدارية انهم خصوم الاسلام وأعداؤه.

اقرار معاوية لاستهتار يزيد:

وهام معاوية بحب ولده يزيد فأقره على فسقه وفجوره، ولم يردعه عنه ويقول المؤرخون: انه نقل له ان ولده على الشراب فاتاه يتجسس عليه فسمعه ينشد:

---

(١) تاريخ الجنس العربي ٨ / ٨٦.

أقول لصحب ضمت الكاس شملهم * وداعي صبابات الهوى يترنم
خذوا بنصيب من نعيم ولذة * فكل وإن طال المدى يتصرم
ولا تتركوا يوم السرور إلى غد * فان غدا يأتي بما ليس يعلم
الا ان أهنأ العيش ما سمحت به * صروف الليالي والحوادث نوم

فعاد معاوية إلى مكانه ولم يعلمه بنفسه، وراح يقول:
والله لا كنت عليه، ولا نغصت عليه عيشه (١)

حقد يزيد على النبي:

وأترعت نفس يزيد بالحقد على النبي (ص) والبغض له، لأنه وتره بأسرته يوم بدر، ولما أباد العترة الطاهرة جلس على أريكة الملك جذلانا مسرورا يهز اعطافه فقد استوفى ثاره من النبي (ص) وتمنى حضور أشياخه ليروا كيف أخذ بثأرهم وجعل يترنم بأبيات ابن الزبعرى:

ليت أشياخي ببدر شهدوا * جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلوا واستهلوا فرحا * ثم قالوا: يا يزيد لا تشل
قد قتلنا القرم من أشياخهم * وعدلناه ببدر فاعتدل
لعبت هاشم بالملك فلا * خبر جاء ولا وحي نزل
لست من خندف إن لم انتقم * من بني احمد ما كان فعل (٢)

---

(١) تاريخ المظفري من مصورات مكتبة الإمام الحكيم. (٢) البداية والنهاية ٨ / ١٩٢.

بغضه للأنصار: وكان يزيد يبغض الأنصار بغضا عارما لأنهم ناصروا النبي (ص) وقاتلوا قريشا، وحصدوا رؤوس اعلامهم، كما كانوا يبغضون بني أمية فقد قتل عثمان بين ظهرانيهم ولم يدافعوا عنه، ثم بايعوا عليا، وذهبوا معه إلى صفين لحرب معاوية، ولما استشهد الامام كانوا من أهم العناصر المعادية لمعاوية، وكان يزيد يتميز من الغيظ عليهم وطلب من كعب بن جعيل التغلبي أن يهجوهم فامتنع وقال له:

" أردتني إلى الاشراك بعد الايمان، لا أهجو قوما نصروا رسول الله (ص) ولكن أدلك على غلام منا نصراني كان لسانه لسان ثور - يعني الأخطل - "

فدعا يزيد الأخطل، طلب منه هجاء الأنصار فاجابه إلى ذلك، وهجاهم بهذه الأبيات المقذعة:

لعن الاله من اليهود عصابة * ما بين صليصل وبين صرار (١)
قوم إذا هدر القصير رايتهم * حمرا عيونهم من المسطار (٢)
خلوا المكارم لستم من أهلها * وخذوا مساحيكم بني النجار
ان الفوارس يعلمون ظهوركم * أولاد كل مقبح اكاز (٣)
ذهبت قريش بالمكارم كلها * واللؤم تحت عمائم الأنصار (٤)

---

(١) صليصل وصرار: من الأماكن القريبة للمدينة.
(٢) المسطار: الخمر الصارعة لشاربها.
(٣) اكاز: الحراث.
(٤) طبقات الشعراء (ص ٣٩٢)

لقد ابتدا الأخطل هجاءه للأنصار بذم اليهود وقرن بينهم وبين الأنصار لأنهم يساكنونهم في يثرب، وقد عاب على الأنصار بأنهم أهل زرع وفلاحة وانهم ليسوا أهل مجد ولا مكارم واتهمهم بالجبن عند اللقاء، ونسب الشرف والمجد إلى القرشيين واللؤم كله تحت عمائم الأنصار، وقد أثار هذا الهجاء المر حفيظة النعمان بن بشير الذي هو أحد عملاء الأمويين، فانبرى غضبانا إلى معاوية فلما مثل عنده حسر عمامته عن رأسه وقال:

" يا معاوية أترى لؤما؟. "

" لا بل أرى خيرا وكرما، فما ذاك؟!! "

" زعم الأخطل أن اللؤم تحت عمائمنا!! "

واندفع النعمان يستجلب عطف معاوية قائلا

معاوي الا تعطنا الحق تعترف * لحق الأزد مسدولا عليها العمائم

أيشتمنا عبد الأراقم ضلة * فما ذا الذي تجدي عليك الأراقم

فمالي ثار دون قطع لسانه * فدونك من ترضيه عنه الدراهم (١)

قال معاوية:

– ما حاجتك؟

– لسانه

– ذلك لك

وبلغ الخبر الأخطل فأسرع إلى يزيد مستجيرا به وقال له: هذا الذي كنت أخافه فطمانه يزيد وذهب إلى أبيه، فأخبره بأنه قد اجاره، فقال معاوية: لا سبيل إلى ذمة أبي خالد – يعني يزيدا – فعفى عنه، وجعل الأخطل يفخر برعاية يزيد له، ويشمت بالنعمان بقوله:

---

(١) العقد الفريد ٥ / ٣٢١ – ٣٢٢.

أبا خالد دافعت عني عظيمة * وأدركت لحمي قبل أن يتبددا
وأطفأت عني نار نعمان بعدما * أغذ لأمر عاجز وتجردا
ولما رأى النعمان دوني ابن حرة * طوى الكشح إذ لم يستطعني وعردا (١)

هذه بعض نزعات يزيد واتجاهاته، وقد كشفت عن مسخه وتمرسه في الجريمة وتجرده من كل خلق قويم.. وان من مهازل الزمن وعثرات الأيام ان يكون هذا الخليع حاكما على المسلمين واماما لهم.

دعوة المغيرة لبيعة يزيد

وأول من تصدى لهذه البيعة المشومة أعور ثقيف المغيرة بن شعبة صاحب الاحداث والموبقات في الاسلام (٢) وقد وصفه بركلمان بأنه رجل انتهازي لا ذمة له ولا ذمام (٣) وهو أحد دهاة العرب الخمسة (٤) وقد قضى حياته في التآمر على الأمة، والسعي وراء مصالحه الخاصة.

اما السبب في دعوته لبيعة يزيد – فيما يرويه المؤرخون – فهو ان معاوية أراد عزله من الكوفة ليولي عليها سعيد بن العاص (٥) فلما بلغه ذلك سافر إلى دمشق ليقدم استقالته من منصبه حتى لا تكون حزازة عليه في عزله، وأطال التفكير في امره فرأى أن خير وسيلة لاقراره في منصبه

---

(١) ديوان الأخطل (ص ٨٩).
(٢) من موبقات المغيرة انه أول من رشي في الاسلام كما يروي البيهقي كما أنه كان الوسيط في استلحاق زياد بمعاوية.
(٣) تاريخ الشعوب الاسلامية ١ / ١٤٥.
(٤) الطبري.
(٥) الإمامة والسياسة ٢ / ٢٦٢.

أن يجتمع بيزيد فيحبذ له الخلافة حتى يتوسط في شانه إلى أبيه والتقى الماكر بيزيد فأبدى له الاكبار، وأظهر له الحب، وقال له:
قد ذهب أعيان محمد (ص) وكبراء قريش وذوو أسنانهم، وانما بقى أبناؤهم، وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأيا، وأعلمهم بالسنة والسياسة، ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين ان يعقد لك البيعة؟.. ".
وغزت هذه الكلمات قلب يزيد فشكره واثنى على عواطفه، وقال له:
– أترى ذلك يتم؟
– نعم.
وانطلق يزيد مسرعا إلى أبيه فأخبره بمقالة المغيرة، فسر معاوية بذلك وأرسل خلفه، فلما مثل عنده أخذ يحفزه على المبادرة في أخذ البيعة ليزيد قائلا:
" يا أمير المؤمنين قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان وفي يزيد منك خلف فاعقد له، فان حدث بك حدث كان كهفا للناس، وخلفا منك، ولا تسفك دماء، ولا تكون فتنة.
وأصابت هذه الكلمات الوتر الحساس في قلب معاوية فراح يخادعه مستشيرا في الامر قائلا:
– من لي بهذا؟
– أكفيك أهل الكوفة، ويكفيك زياد أهل البصرة، وليس بعد هذين المصرين أحد يخالف.
واستحسن معاوية رأيه فشكره عليه وأقره على منصبه وأمره بالمبادرة إلى الكوفة لتحقيق غايته، ولما خرج من عند معاوية قال لحاشيته:
" لقد وضعت رجل معاوية في غرز بعيد الغاية على أمة محمد (ص)

وفتقت عليه فتقا لا يرتق ثم تمثل بقول الشاعر:
بمثلي شاهد النجوى وغالى * بي الأعداء والخصم الغضابا
ففي سبيل المغنم فتق المغيرة على أمة محمد (ص) فتقا لا يرتق، وأخلد لها الكوارث والخطوب.
وسار المغيرة إلى الكوفة، وهو يحمل الشر والدمار لأهلها ولعموم المسلمين، وفور وصوله عقد اجتماعا ضم عملاء الأمويين فعرض عليهم بيعة يزيد فأجابوه إلى ذلك، وأوفد جماعة منهم إلى دمشق وجعل عليهم ولده أبا موسى، فلما انتهوا إلى معاوية حفزوه على عقد البيعة ليزيد، فشكرهم على ذلك وأوصاهم بالكتمان، والتفت إلى ابن المغيرة فقال له:
- بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم؟
- بثلاثين ألف درهم.
فضحك معاوية وقال ساخرا:
لقد هان عليهم دينهم.
ثم أوصلهم بثلاثين ألف درهم (١) لقد استجاب لهذه البيعة ورضي بها كل من يحمل ضميرا قلقا عرضه للبيع والشراء.
تبرير معاوية:
ودافع جماعة من المؤلفين والكتاب عن معاوية وبرروا بيعته ليزيد التي كانت من أفجع النكبات التي مني بها العالم الاسلامي، وفيما يلي بعضهم:
- احمد دحلان
ومن أصلب المدافعين عن معاوية احمد دحلان قال: " فلما نظر

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٤٩.

معاوية إلى قوة شوكتهم - يعني الأمويين - واستحكام عصبيتهم حتى أنهم لو خرجت الخلافة عنهم بعده يحدثون فتنة ويقع افتراق للأمة فأراد اجتماع الكلمة بجعل الامر فيهم، ثم انه نظر فيمن كان منهم أقوى شوكة فرآه ابنه يزيد لأنه كان كبيرا، وباشر امارة الجيوش في حياة أبيه وصارت له هيبة عند الامراء، وله تمكن، ونفاذ كلمة فلو جعل الامر لغيره منهم كان ذلك سببا لمنازعته لا سيما وله تمكن واقتدار على الاستيلاء على ما في بيت المال من الأموال فيقع الافتراق والاختلاف لو جعل الامر لغيره، فرأى أن جعل الامر له بهذا الاجتهاد يكون سببا للألفة، وعدم الافتراق وهذا هو السبب في جعله ولي عهده، ولم يعلم ما يبديه الله بعد ذلك.. " (١).

حفنة من التراب على أمثال هؤلاء الذين دفعتهم العصبية الآثمة إلى تبرير المنكر وتوجيه الباطل، فهل ان أمر الخلافة التي هي ظل الله في الأرض يعود إلى الأمويين حتى يرعى معاوية عواطفهم ورغباتهم وهم الذين ناهضوا نبي الاسلام، وناجزوه الحرب، وعذبوا كل من دخل في دين الاسلام فكيف يكون أمر الخلافة بأيديهم ولو كان هناك منطق ووعي ديني لكانوا في ذيل القافلة ولا يحسب لهم أي حساب.

٢ - الدكتور عبد المنعم

ومن المبررين لمعاوية في بيعته ليزيد الدكتور عبد المنعم ماجد قال:

" ويبدو أن معاوية قصد من وراء توريث يزيد الخلافة القضاء على افتراق كلمة الأمة الاسلامية، ووقوع الفتنة مثلما حدث بعد عثمان، ولعله أيضا أراد أن يوجد حلا للمسألة، التي تركها النبي (ص) دون حل وهي ايجاد سلطة دائمة للاسلام ومن المحقق أن معاوية لم يكن له مندوحة من أن يفعل

---

(١) تاريخ دول الاسلامية (ص ٢٨).

ذلك خوفا من غضب بني أمية الذين لم يكونوا يرضون بتسليم الامر إلى سواهم. " (١) وهذا الرأي لا يحمل أي طابع من التوازن فان معاوية في بيعته ليزيد لم يجمع كلمة المسلمين وانما فرقها وأخلد لهم الشر والخطوب فقد عانت الأمة – في عهد يزيد – من ضروب البلاء والمحن ما لا يوصف لفضاعته ومرارته، فقد جهد حفيد أبي سفيان على تدمير الاسلام، وسحق جميع مقدساته وقيمه، فأباد العترة الطاهرة التي هي عديلة القران الكريم حسب النصوص النبوية المتواترة وأنزل باهل المدينة في واقعة الحرة من الجرائم ما تندى له جبين الانسانية، فهل جمع بذلك معاوية كلمة المسلمين ووحد صفوفهم ومما يدعو إلى السخرية ما ذهب إليه من أن النبي (ص) ترك مسالة الخلافة بغير حل فجاء معاوية فحل هذه العقدة، ببيعته ليزيد!!

إن النبي (ص) لم يترك أي شان من شؤون أمته بغير حل وانما وضع لها الحلول الحاسمة، وكان أهم ما عنى به شان الخلافة فقد عهد بها إلى أفضل أمته وباب مدينة علمه الامام أمير المؤمنين (ع) وقد بايعه كبار الصحابة وعموم من كان معه في يوم الغدير، ولكن القوم كرهوا اجتماع النبوة والخلافة في بيت واحد فزووا الخلافة عن أهل بيت نبيهم فادى ذلك إلى أن يلي أمر المسلمين يزيد وأمثاله من المنحرفين الذين أثبتوا في تصرفاتهم أنهم لا علاقة لهم بالاسلام، ولا عهد لهم بالدين.

٣ – حسين محمد يوسف

ومن المدافعين – بحرارة – عن معاوية في ولايته ليزيد حسين محمد يوسف وقد أطال الكلام – بغير حجة – في ذلك، قال في آخر حديثه: وخلاصة القول في موقف معاوية أنه كان مجتهدا في راية، وانه حين دعا

---

(١) التاريخ السياسي للدولة العربية ٢ / ٦٢.

الأمة إلى بيعة يزيد، كان حسن الظن به " لأنه لم يثبت عنده أي نقص فيه، بل كان يزيد يدس على أبيه من يحسن له حاله، حتى اعتقد أنه أولى من أبناء بقية الصحابة كلهم " فان كان معاوية قد أصاب في اختياره فله اجران، وان كان قد أخطأ فله أجر واحد، وليس لاحد بعد ذلك أن يخوض فيما وراء ذلك فإنما الأعمال بالنيات ولك امرئ ما نوى " (١).

ان من المؤسف - حقا - أن ينبري هؤلاء، لتبرير معاوية في اقترافه لهذه الجريمة النكراء التي أغرقت العالم الاسلامي بالفتن والخطوب.. ومتى اجتهد معاوية في فرض ابنه خليفة على المسلمين؟ فقد سلك في سبيل ذلك جميع المنعطفات والطريق الملتوية، فأرغم عليها المسلمين، وفرضها عليهم تحت غطاء مكثف من قوة الحديد... ان معاوية لم يجتهد في ذلك، وانما استجاب لعواطفه المترعة بالحنان والولاء لولده من دون أن يرعى أي مصلحة للأمة في ذلك.

هؤلاء بعض المؤيدين لمعاوية في عقده البيعة ليزيد، وهم مدفوعون بدافع غريب على الاسلام، وبعيد كل البعد عن منطق الحق.

كلمة الحسن البصري:

وشجب الحسن البصري بيعة يزيد، وجعلها من جملة موبقات معاوية قال: " أربع خصال: كن في معاوية لو لم يكن فيه منهن إلا واحدة لكانت موبقة: ابتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها بغير مشورة منهم، وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة، واستخلاف ابنه بعده سكيرا خميرا يلبس الحرير، ويضرب بالطنابير، وادعاؤه زيادا، وقد

---

(١) سيد شباب أهل الجنة الحسين بن علي (ص ٢٠٨).

قال رسول (ص): الولد للفراش وللعاهر، وقتله حجرا وأصحابه ويل له من حجر وأصحابه.. " (١).

كلمة ابن رشد:

ويرى الفيلسوف الكبير ابن رشد أن بيعة معاوية ليزيد قد غيرت مجرى الحياة الاسلامية وهدمت الحكم الصالح في الاسلام، قال: " ان أحوال العرب في عهد الخلفاء الراشدين كانت على غاية من الصلاح فكأنما وصف أفلاطون حكومتهم في (جمهوريته) الحكومة الجمهورية الصحيحة التي يجب أن تكون مثالا لجميع الحكومات، ولكن معاوية هدم ذلك البناء الجليل القديم، وأقام مكانه دولة بني أمية وسلطانها الشديد ففتح بذلك بابا للفتن التي لا تزال إلى الان قائمة حتى في بلادنا هذه - يعني الأندلس - " (٢).

لقد نقم على معاوية في بيعة يزيد جميع اعلام الفكر وقادة الرأي في الأمة الاسلامية منذ عهد معاوية حتى يوم الناس هذا، ووصفوها بأنها اعتداء صارخ على الأمة وخروج على ارادتها.

دوافع معاوية:

أما الدوافع التي دعت معاوية لفرض ابنه السكير خليفة على المسلمين فكان من أبرزها الحب العارم لولده، فقد هام بحبه، وقد أدلى بذلك

---

(١) الطبري ٦ / ٢٥٧ وغيره.

(٢) ابن رشد وفلسفته (ص ٦٠) لفرج انطون.

في حديثه مع سعيد بن عثمان حينما طلب منه أن يرشحه للخلافة، وبدع ابنه يزيد، فسخر منه معاوية وقاله له:

" والله " لو ملئت لي الغوطة رجالا مثلك لكان يزيد أحب إلي منكم كلكم.. " (١).

لقد أعماه حبه لولده، وأضله عن الحق، وقد قال:

" لولا هواي في يزيد لأبصرت رشدي.. " (٢).

وكان يؤمن بان استخلافه ليزيد من أعظم ما اقترفه من الذنوب، وقد صارح ولده بذلك فقال له:

" ما ألقى الله بشئ أعظم في نفسي من استخلافي إياك " (٣).

لقد اقترف معاوية وزرا عظيما فيما جناه على الأمة بتحويل الخلافة إيل ملك عضوض لا يعنى فيه بإرادة الأمة واختيارها.

الوسائل الدبلوماسية في أخذ البيعة:

أم الوسائل الدبلوماسية التي اعتمد عليها معاوية في فرض خليعه على المسلمين فهي:

١ - استخدام الشعراء

أما الشعراء فكانوا في ذلك العصر - من أقوى أجهزة الاعلام

---

(١) البداية والنهاية ٨ / ٨٠.

(٢) المناقب والمثالب (ص ٦٨) للقاضي نعمان المصري.

(٣) تاريخ الخلفاء لمؤلف مجهول قامت بنشره أكاديمية العلوم للاتحاد السوفيتي.

وقد أجزل لهم معاوية العطاء، وأغدق عليهم الأموال فانطلقت ألسنتهم بالمديح والثناء على يزيد فأضافوا إليه الصفات الرفيعة، وخلعوا عليه النعوت الحسنة، وفيما يلي بعضهم:

العجاج:

ومدحه العجاج مدحا عاطرا فقال فيه:

إذا زلزل الأقوام لم تزلزل * عن دين موسى والرسول المرسل
وكنت سيف الله لم يفلل * يفرع (١) أحيانا وحينا يختلي (٢)

ومعنى هذا الشعر أن يزيد يقتفي أثر الرسول موسى والنبي محمد (ص) وانه سيف الله البتار الا انه كان مشهورا على أولياء الله وأحبائه.

الأحوس:

ومدحه الشاعر الأحوس بقصيدة جاء فيها:

ملك تدين له الملوك مبارك * كادت لهيبته الجبال تزول
يجبى له بلخ ودجلة كلها * وله الفرات وما سفى والنيل

لقد جاءته تلك الهيبة التي تخضع لها الجباه، وتزول منها الجبال من ادمانه على الخمر ومزاملته للقرود، ولعبه بالكلاب واقترافه للجرائم والموبقات.

مسكين الدارمي:

ومن الشعراء المرتزقة مسكين الدارمي، وقد أوعز إليه معاوية أن يحثه على بيعة يزيد أمام من كان عنده من بني أمية وأشراف أهل الشام،

---

(١) يفرغ: يعلو رؤوس الناس.
(٢) شعراء النصرانية بعد الاسلام (ص ٢٣٤).

فدخل مسكين على معاوية فلما رأى مجلسه حاشدا بالناس رفع عقيرته:

ان ادع مسكينا فاني ابن معشر * من الناس أحمي عنهم وأذود
الا ليت شعري ما يقول ابن عامر * ومروان أم ماذا يقول سعيد
بني خلفاء الله مهلا فإنما * يبوئها الرحمن حيث يريد
إذا المنبر الغربي خلاه ربه * فان أمير المؤمنين يزيد
على الطائر الميمون والجد ساعد * لكل أناس طائر وجدود
فلا زلت أعلى الناس كعبا * ولم تزل وفود تساميها إليك وفود
ولا زال بيت الملك فوقك عاليا * تشيد أطناب له وعمود (١)

هؤلاء بعض الشعراء الذين مدحوا يزيد، وافتعلوا له الماثر لتغطية ما ذاع عنه من الدعارة والمجون.

بذل الأموال للوجوه:

وأنفق معاوية الأموال الطائلة بسخاء للوجوه والأشراف ليقروه على فرض ولده السكير خليفة على المسلمين، ويقول المؤرخون: إنه أعطى عبد الله بن عمر مائة ألف درهم فقبلها منه (٢) وكان ابن عمر من أصلب المدافعين عن بيعة يزيد وقد نقم على الإمام الحسين (ع) خروجه عليه، وسنذكر ذلك بمزيد من التفصيل في البحوث الآتية.

---

(١) الأغاني ٨ / ٧١.
(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٥٠.

مراسلة الولاة:
وراسل معاوية جميع عماله وولاته في الأقاليم الاسلامية بعزمه على عقد البيعة ليزيد، وأمرهم بتنفيذ ما يلي:
١ – إذاعة ذلك بين الجماهير الشعبية، واعلامها بما صممت عليه حكومة دمشق من عقد الخلافة ليزيد.
٢ – الايعاز للخطباء وسائر أجهزة الاعلام بالثناء على يزيد، وافتعال الماثر له:
٣ – ارسال الوفود إليه من الشخصيات الاسلامية حتى يتعرف على رأيها في البيعة ليزيد (١) وقام الولاة بتنفيذ ما عهد إليهم، فأذاعوا ما صمم عليه معاوية من عقد البيعة ليزيد، كما أو عزوا للخطباء وغيرهم بالثناء على يزيد.
وفود الأقطار الاسلامية:
واتصلت الحكومات المحلية في الأقطار الاسلامية بقادة الفكر فعرضت عليهم ما عزم عليه معاوية من تولية ولده للخلافة، وطلبوا منهم السفر فورا إلى دمشق لعرض آرائهم على معاوية، وسافرت الوفود إلى دمشق وكان في طليعتهم.
١ – الوفد العراقي بقيادة زعيم العراق الأحنف بن قيس.
٢ – الوفد المدني بقيادة محمد بن عمرو بن حزم (٢)

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٥٠.
(٢) نفس المصدر.

وانتهت الوفود إلى دمشق لعرض آرائها على عاهل الشام، وقد قام معاوية بضيافتهم والاحسان إليهم.

مؤتمر الوفود الاسلامية:

وعقدت وفود الأقطار الاسلامية مؤتمرا في البلاط الأموي في دمشق لعرض آرائها في البيعة ليزيد، وقد افتتح المؤتمر معاوية بالثناء على الاسلام، ولزوم طاعة ولاة الأمور، ثم ذكر يزيد وفضله، وعمله بالسياسة ودعاهم لبيعة.

المؤيدون للبيعة:

وانبرت كوكبة من أقطاب الحزب الأموي فأيدوا معاوية وحثوه على الاسراع للبيعة وهم:

١ – الضحاك بن قيس

٢ – عبد الرحمن بن عثمان

٣ – ثور بن معن السلمي

٤ – عبد الله بن عصام

٥ – عبد الله بن مسعدة

وكان معاوية قد عهد إليهم بالقيام بتأييده، والرد على المعارضين له

خطاب الأحنف بن قيس:
وانبرى إلى الخطابة زعيم العراق وسيد تميم الأحنف بن قيس الذي تقول فيه ميسون أم يزيد: " لو لم يكن في العراق إلا هذا لكفاهم " (١) وتقدم فحمد الله وأثنى عليه ثم التفت إلى معاوية قائلا:
" أصلح الله أمير المؤمنين " ان الناس في منكر زمان قد سلف، ومعروف زمان مؤتنف، ويزيد بن أمير المؤمنين نعم الخلف، وقد حلبت الدهر أشطره.
يا أمير المؤمنين فاعرف من تسند إليه الامر من بعدك، ثم أعصي أمر من يأمرك، ولا يغررك من يشير عليك، ولا ينظر لك، وأنت أنظر للجماعة، واعلم باستقامة الطاعة مع أن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا، ولا يبايعون ليزيد ما كان الحسن حيا... ".
وأثار خطاب الأحنف موجة من الغضب والاستياء عند الحزب الأموي فاندفع الضحاك بن قيس منددا به، وشتم أهل العراق، وقدح بالامام الحسن، ودعا الوفد العراقي إلى الاخلاص لمعاوية والامتثال لما دعا إليه، ولم يعن به الأحنف فقام ثانيا فنصح معاوية ودعاه إلى الوفاء بالعهد الذي قطعه على نفسه من تسليم الامر إلى الحسن من بعده حسب اتفاقية الصلح التي كان من أبرز بنودها ارجاع الخلافة من بعده إلى الإمام الحسن كما أنه هدد معاوية باعلان الحرب إذا لم يف بذلك.

---

(١) تذكرة ابن حمدون (ص ٨١).

فشل المؤتمر:
وفشل المؤتمر فشلا ذريعا بعد خطاب الزعيم الكبير الأحنف بن قيس، ووقع نزاع حاد بين أعضاء الوفود وأعضاء الحزب الأموي، وانبرى يزيد بن المقفع فهدد المعارضين باستعمال القوة قائلا:
" أمير المؤمنين هذا - وأشار إلى معاوية - فان هلك فهذا - وأشار إلى يزيد - ومن أبي فهذا - وأشار إلى السيف - ".
فاستحسن معاوية قوله وراح يقول له:
" أجلس فأنت سيد الخطباء وأكرمهم ".
ولم يعن به الأحنف بن قيس فانبرى إلى معاوية فدعاه إلى الامساك عن بيعة يزيد، وان لا يقدم أحدا على الحسن والحسين، وأعرض عنه معاوية، وبقي مصرا على فكرته التي هي أبعد ما تكون عن الاسلام.
وعلى أي حال فان المؤتمر لم يصل إلى النتيجة التي أرادها معاوية فقد استبان له أن بعض الوفود الاسلامية لا تقره على هذه البيعة ولا ترضى بها.
سفر معاوية ليثرب:
وقرر معاوية السفر إلى يثرب التي هي محط أنظار المسلمين، وفيها أبناء الصحابة الذين يمثلون الجبهة المعارضة للبيعة، فقد كانوا لا يرون يزيدا ندا لهم، وان أخذ البيعة له خروج على إرادة الأمة، وانحراف عن الشريعة الاسلامية التي لا تبيح ليزيد أن يتولى شؤون المسلمين لما عرف به من الاستهتار وتفسخ الأخلاق.

وسافر معاوية إلى يثرب في زيارة رسمية، وتحمل أعباء السفر لتحويل الخلافة الاسلامية إلى ملك عضوض لا ظل فيه للحق والعدل.

اجتماع مغلق:

وفور وصول معاوية إلى يثرب أمر باحضار عبد الله بن عباس، وعبد الله بن جعفر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وعقد معهم اجتماعا مغلقا، ولم يحضر معهم الحسن والحسين لأنه قد عاهد الحسن أن تكون الخلافة له من بعده فكيف يجتمع به، وماذا يقول له؟ وقد أمر حاجبه أن لا يسمح لأي أحد بالدخول عليه حتى ينتهي حديثه معهم.

كلمة معاوية:

وابتدأ معاوية الحديث بحمد الله والثناء عليه، وصلى على نبيه ثم قال:

" أما بعد: فقد كبر سني، ووهن عظمي، وقرب أجلي، وأوشكت أن ادعى فأجيب؟ وقد رأيت أن استخلف بعدي يزيد، ورايته لكم رضا وأنتم عبادلة قريش، وخيارهم، وأبناء خيارهم، ولم يمنعني أن أحضر حسنا وحسينا الا انهما أولاد أبيهما علي، على حسن رأي فيهما وشدة محبتي لهما فردوا على أمير المؤمنين خيرا رحمكم الله.. ".

ولم يستعمل معهم الشدة والارهاب استجلابا لعواطفهم ولم يخف عليهم ذلك، فانبروا جميعا إلى الانكار عليه،

كلمة عبد الله بن عباس:
وأول من كلمه عبد الله بن عباس فقال بعد حمد الله والثناء عليه:
" أما بعد: فإنك قد تكلمت فأنصتنا وقلت: فسمعنا، وان الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه اختار محمدا (ص) لرسالته، واختاره لوحيه وشرفه على خلقه فأشرف الناس من تشرف به، وأولاهم بالامر أخصهم به، وانما على الأمة التسليم لنبيها إذا اختاره الله لها، فإنه انما اختار محمدا بعلمه، وهو العليم الخبير، واستغفر الله لي ولكم.. "
وكانت دعوة ابن عباس صريحة في ارجاع الخلافة لأهل البيت (ع) الدين هم الصق الناس برسول الله (ص) وأمسهم به رحما، فان الخلافة انما هي امتداد لمركز رسول الله (ص) فأهل بيته أحق بمقامه وأولى بمكانته.
كلمة عبد الله بن جعفر:
وانبرى عبد الله بن جعفر فقال بعد حمد الله والثناء عليه:
" أما بعد: فان هذه الخلافة إن أخذ فيها بالقران فأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله، وإن أخذ فيها بسنة رسول الله (ص) فأولو رسول الله (ص) وإن أخذ فيها بسنة الشيخين أبي بكر وعمر فأي الناس أفضل وأكمل وأحق بهذا الامر من آل الرسول (ص)؟ وأيم الله لو ولوه بعد نبيهم لوضعوا الامر موضعه لحقه وصدقه، ولأطيع الرحمن، وعصي الشيطان، وما اختلف في الأمة سيفان، فائق الله يا معاوية فإنك قد صرت راعيا ونحن رعية فانظر لرعيتك فإنك مسؤول عنها غدا،

وأما ما ذكرت من ابني عمي، وتركك أن تحضرهما، فوالله ما أصبت الحق، ولا يجوز ذلك الا بهما، وانك لتعلم انهما معدن العلم والكرم فقل أودع، واستغفر الله لي ولكم.. ".

وحفل هذا الخطاب بالدعوة إلى الحق والاخلاص للأمة فقد رشح أهل البيت (ع) للخلافة وقيادة الأمة، وحذره من صرفها عنهم كما فعل غيره من الخلفاء فكان من جراء ذلك أن منيت الأمة بالأزمات والنكسات وعانت أعنف المشاكل وأقسى الحوادث:

كلمة عبد الله بن الزبير:

وانطلق عبد الله بن الزبير للخطابة فحمد الله وأثنى عليه وقال:

" أما بعد: فان هذه الخلافة لقريش خاصة نتناولها بمآثرها السنية وأفعالها المرضية، مع شرف الاباء وكرم الأبناء، فاتق الله يا معاوية وانصف نفسك فان هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله (ص) وهذا عبد الله ابن جعفر ذي الجناحين ابن عم رسول الله (ص) وأنا عبد الله بن الزبير ابن عمة رسول الله (ص) وعلي خلف حسنا وحسينا وأنت تعلم من هما وما هما؟ فاتق الله يا معاوية، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك... ".

وقد رشح ابن الزبير هؤلاء النفر للخلافة، وقد حفزهم بذلك لمعارضة معاوية وافساد مهمته:

كلمة عبد الله بن عمر:
واندفع عبد الله بن عمر فقال بعد حمد الله والصلاة على نبيه:
" أما بعد: فان هذه الخلافة ليست بهرقلية، ولا قيصرية، ولا كسروية يتوارثها الأبناء عن الاباء، ولو كان كذلك كنت القائم بها بعد أبي فوالله ما أدخلني مع الستة من أصحاب الشورى، الا على أن الخلافة ليست شرطا مشروطا وانما هي في قريش خاصة لمن كان لها أهلا ممن ارتضاه المسلمون لأنفسهم ممن كان اتقى وأرضى، فان كنت تريد الفتيان من قريش فلعمري أن يزيد من فتيانها، واعلم أنه لا يغني عنك من الله شيئا.. ".
ولم تعبر كلمات العبادلة عن شعورهم الفردي، وانما عبرت تعبيرا صادقا عن رأي الأغلبية الساحقة من المسلمين الذين كرهوا خلافة يزيد، ولم يرضوا بها.
كلمة معاوية:
وثقل على معاوية كلامهم، ولم يجد ثغرة ينفذ منها للحصول على رضاهم، فراح يشيد بابنه فقال:
" قد قلت: وقلتم: وانه قد ذهبت الاباء، وبقيت الأبناء فابني أحب إلي من أبنائهم، مع أن ابني إن قاولتموه وجد مقالا. وانما كان هذا الامر لبني عبد مناف لأنهم أهل رسول الله فلما مضى رسول الله ولى الناس أبا بكر وعمر من غير معدن الملك والخلافة غير أنهما سارا بسيرة جميلة ثم رجع الملك إلى بني عبد مناف فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة، وقد

أخرجك الله يا بن الزبير، وأنت يا بن عمر منها، فاما ابنا عمي هذا فليسا بخارجين من الرأي إن شاء الله.. " (١).

وانتهى اجتماع معاوية بالعبادلة، وقد أخفق فيه اخفاقا ذريعا، فقد استبان له ان القوم مصممون على رفض بيعة يزيد... وعلى اثر ذلك غادر يثرب، ولم تذكر المصادر التي بأيدينا اجتماعه بسبطي رسول الله (ص) فقد اهملت ذلك وأكبر الظن انه لم يجتمع بهما.

فزع المسلمين:

وذعر المسلمون حينما وافتهم الانباء بتصميم معاوية على فرض ابنه خليفة عليهم، وكان من أشد المسلمين خوفا المدنيون والكوفيون، فقد عرفوا واقع يزيد، ووقفوا على اتجاهاته المعادية للاسلام، يقول توماس آرنولد: " كان تقرير معاوية للمبدأ الوراثي نقلة خطيرة في حياة المسلمين الذين ألفوا البيعة والشورى، والنظم الأولى في الاسلام وهم بعد قريبون منها ولهذا أحسوا - وخاصة في مكة والمدينة حيث كانوا يتمسكون بالأحاديث والسنن النبوية الأولى - ان الأمويين نقلوا الخلافة إلى حكم زمني متأثر بأسباب دنيوية مطبوع بالعظمة وحب الذات بدلا من أن يحتفظوا بتقوى النبي وبساطته " (٢).

لقد كان اقدام معاوية على فرض ابنه يزيد حاكما على المسلمين تحولا خطيرا في حياة المسلمين الذين لم يألفوا مثل هذا النظام الثقيل الذي فرض عليهم بقوة السلاح.

---

(١) الإمامة والسياسة ١ / ١٨٠ - ١٨٣، جمهرة الخطب ٢ / ٢٣٣ - ٢٣٦.

(٢) الخلافة (ص ١٠) لتوماس.

الجبهة المعارضة:
وأعلن الأحرار والمصلحون في العالم الاسلامي رفضهم القاطع لبيعة يزيد، ولم يرضوا به حاكما على المسلمين، وفيما يلي بعضهم.
١ - الإمام الحسين
وفي طليعة المعارضين لبيعة يزيد الإمام الحسين فقد كان يحتقر يزيد، ويكره طباعه الذميمة، ووصفه بأنه صاحب شراب وقنص، وانه قد لزم طاعة الشيطان، وترك طاعة الرحمن، وأظهر الفساد وعطل الحدود واستأثر بالفئ، وأحل حرام الله وحرم حلاله (١) وإذا كان بهذا الضعة فكيف يبايعه ويقره حاكما على المسلمين، ولما دعاه الوليد إلى بيعة يزيد قال له الامام: " أيها الأمير إنا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة بنا فتح الله، وبنا يختم، ويزيد رجل فاسق، شارب الخمر، وقاتل النفس المحترمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله ".
ورفض بيعة يزيد جميع أفراد الأسرة النبوية تبعا لزعيمهم العظيم، ولم يشذوا عنه.
الحرمان الاقتصادي
وقابل معاوية الأسرة النبوية بحرمان اقتصادي عقوبة لهم لامتناعهم عن بيعة يزيد، فقد حبس عنهم العطاء سنة كاملة (٢) ولكن ذلك لم يثنهم عن عزمهم في شجب البيعة ورفضها.

---

(١) تاريخ ابن الأثير.
(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٥٢، الإمامة والسياسة ١ / ٢٠٠.

٢ – عبد الرحمن بن أبي بكر
ومن الذين نقموا على بيعة يزيد عبد الرحمن بن أبي بكر، فقد وسمها بأنها هرقلية كلما مات هرقل قام مكانه هرقل آخر (١) وأرسل إليه معاوية مائة ألف درهم ليشتري بها ضميره فأبى وقال: لا أبيع ديني (٢).
٣ – عبد الله بن الزبير
ورفض عبد الله بن الزبير بيعة يزيد، ووصفه بقوله: " يزيد الفجور، ويزيد القرود، ويزيد الكلاب، ويزيد النشوات، ويزيد الفلوات " (٣) ولما أجبرته السلطة المحلية في يثرب على البيعة فر منها، إلى مكة.
٤ – المنذر بن الزبير
وكره المنذر بن الزبير بيعة يزيد، وشجبها، وأدلى بحديث له عن فجور يزيد امام أهل المدينة فقال: " انه قد أجازني بمائة الف، ولا يمنعني ما صنع بي أن أخبركم خبره والله إنه ليشرب الخمر، والله إنه ليسكر حتى يدع الصلاة " (٤).
٥ – عبد الرحمن بن سعيد
وامتنع عبد الرحمن بن سعيد من البيعة ليزيد، وقال في هجائه:

---

(١) الاستيعاب.
(٢) الاستيعاب البداية والنهاية ٨ / ٨٩.
(٣) أنساب الأشراف ٤ / ٣٠.
(٤) الطبري ٤ / ٣٦٨.

لست منا وليس خالك منا * يا مضيع الصلاة للشهوات (١)

٦ - عابس بن سعيد

ورفض عابس بن سعيد بيعة يزيد، حينما دعاه إليه عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال له: " أنا أعرف به منك، وقد بعث دينك بدنياك " (٢).

٧ - عبد الله بن حنظلة

وكان عبد الله بن حنظلة من أشد الناقمين على البيعة ليزيد، وكان من الخارجين عليه في وقعة الحرة، وقد خاطب أهل المدينة فقال لهم: " فوالله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمي بالحجارة من السماء.. إن رجلا ينكح الأمهات والبنات، ويشرب الخمر، ويدع الصلاة والله لو لم يكن معي أحد من الناس لأبليت لله فيه بلاءا حسنا.. " (٣) وكان يرتجز في تلك الواقعة:

بعدا لمن رام الفساد وطغى * وجانب الحق وآيات الهدى

لا يبعد الرحمن الا من عصى (٤)

---

(١) الحسين بن علي ٢ / ٦.

(٢) القضاة الكندي (ص ٣١٠).

(٣) طبقات ابن سعد.

(٤) تاريخ الطبري ٧ / ١٢.

موقف الأسرة الأموية:
ونقمت الأسرة الأموية على معاوية في عقدة البيعة ليزيد، ولكن لم تكن نقمتهم عليه مشفوعة بدافع ديني أو اجتماعي، وانما كانت من أجل مصالحهم الشخصية الخاصة لان معاوية قلد ابنه الخلافة وحرمهم منها، وفيما يلي بعض الناقمين:

١ - سعيد بن عثمان

وحينما عقد معاوية البيعة ليزيد أقبل سعيد بن عثمان إلى معاوية وقد رفع عقيرته قائلا:

" علام جعلت ولدك يزيد ولي عهدك فوالله لأبي خير من أبيه، وأمي خير من أمه، وأنا خير منه، وقد وليناك فما عزلناك، وبنا نلت ما نلت.. ".

فراوغ معاوية: وقال له:

" أما قولك: إن أياك خير من أبيه فقد صدقت، لعمر الله إن عثمان لخير مني، وأما قولك: ان أمك خير من أمه فحسب المرأة أن تكون في بيت قومها وان يرضاها بعلها، وينجب ولدها، وأما قولك: انك خير من يزيد، فوالله ما يسرني أن لي بيزيد ملء الغوطة ذهبا مثلك وأما قولك: انكم وليتموني فما عزلتموني فما وليتموني انما ولاني من هو خير منكم عمر بن الخطاب فأقررتموني، وما كنت بئس الوالي لكم، لقد قمت بثأركم، وقتلت قتلة أبيكم، وجعلت الامر فيكم وأغنيت فقيركم، ورفعت الوضيع منكم... ".

وكلمة يزيد فأرضاه، وجعله واليا على خراسان (١).
٢ - مروان بن الحكم
وشحب مروان بن الحكم البيعة ليزيد، وتقديمه عليه فقد كان شيخ الأمويين وزعيمهم، فقال له:
" أقم يا ابن أبي سفيان، واهدأ من تأميرك الصبيان، واعلم أن لك في قومك نظراء وان لهم على مناوئتك وزرا ".
فخادعه معاوية وقال له:
" أنت نظير أمير المؤمنين بعده، وفي كل شدة عضده، فقد وليتك قومك، وأعظمنا في الخراج سهمك، وإنا مجيرو وفدك ومحسنو وفدك " (٢).
وقال مروان: لمعاوية " جئتم بها هرقلية تبايعون لأبناؤكم (٣).
٣ - زياد بن أبيه
وكره زياد بن أبيه بيعة معاوية لولده، وذلك لما عرف به من الاستهتار والخلاعة والمجون ويقول المؤرخون: ان معاوية كتب إليه يدعوه إلى أخذ البيعة بولايته العهد ليزيد، وانه ليس أولى من المغيرة بن شعبة، فلما قرا كتابه دعا برجل من أصحابه كان يأتمنه حيث لا يأتمن أحدا غيره فقال له: اني أريد أن ائتمنك على ما لم أئتمن على بطون الصحائف إئت معاوية وقل له: يا أمير المؤمنين ان كتابك ورد علي بكذا، فماذا يقول

---

(١) وفيات الأعيان ٥ / ٣٨٩ - ٣٩٠.
(٢) الإمامة والسياسة ١ / ١٢٨.
(٣) الاسلام والحضارة العربية ٢ / ٣٩٥.

الناس انا دعوناهم إلى بيعة يزيد، وهو يلعب بالكلاب والقرود، ويلبس المصبغ، ويدمن الشراب، ويمسي على الدفوف، ويحضرهم - أي الناس - الحسين بن علي، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله ابن عمر، ولكن تأمره أن يتخلق بأخلاق هؤلاء حولا أو حولين، فعسانا أن نموه على الناس، وسار الرسول إلى معاوية فادى إليه رسالة زياد فاستشاط غضبا، وراح يتهدده ويقول:

" ويلي على ابن عبيد لقد بلغني أن الحادي حدا له أن الأمير بعدي زياد، والله لأردنه إلى أمه سمية والى أبيه عبيد. " (١).

هؤلاء بعض الناقدين لمعاوية من الأسرة الأموية وغيرهم في توليته لخليعه يزيد خليفة على المسلمين.

ايقاع الخلاف بين الأمويين:

واتبع معاوية سياسة التفريق بين الأمويين حتى يصفو الامر لولده يزيد، فقد عزل عامله على يثرب سعيد بن العاص، واستعمل مكانه مروان بن الحكم، ثم عزل مروان واستعمل سعيدا مكانه، وأمره بهدم داره، ومصادرة أمواله، فأبى سعيد من تنفيذ ما أمره به معاوية فعزله، وولى مكانه مروان، وأمره بمصادرة أموال سعيد وهدم داره فلما هم مروان بتنفيذ ما عهد إليه أقبل إليه سعيد وأطلعه على كتاب معاوية في شانه فامتنع مروان من القيام بما أمره معاوية، وكتب سعيد إلى معاوية رسالة يندد فيها بعمله وقد جاء فيها:

" العجب مما صنع أمير المؤمنين بنا في قرابتنا له أن يضغن بعضنا

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ / ١٩٦.

على بعض.. فأمير المؤمنين في حمله وصبره على ما يكره من الأخبثين، وعفوه وادخاله القطيعة بنا، والشحناء وتوارث الأولاد ذلك " (١).

وعلق عمر أبو النصر على سياسة التفريق التي تبعها معاوية مع أسرته بقوله:

" إن سبب هذه السياسة هو رغبة معاوية في ايقاع الخلاف بين أقاربه الذين يخشى نفوذهم على يزيد من بعده فكان يضرب بعضهم ببعض حتى يظلوا بحاجة إلى عطفه وعنايته. " (٢).

تجميد البيعة:

وجمد معاوية رسميا البيعة ليزيد إلى اجل آخر حتى يتم له إزالة الحواجز والسدود التي تعترض طريقه، ويقول المؤرخون: انه بعد ما التقى بعبادلة قريش في يثرب واطلع على آرائهم المعادية لما ذهب إليه أوقف كل نشاط سياسي في ذلك وأرجئ العمل إلى وقت آخر (٣).

اغتيال الشخصيات الاسلامية:

ورأى معاوية انه لا يمكن باي حال تحقيق ما يصبوا إليه من تقليد ولده الخلافة مع وجود الشخصيات الرفيعة التي تتمتع باحترام بالغ في نفوس المسلمين فعزم على القيام باغتيالهم ليصفو له الجو فلا يبقى أمامه أي مزاحم

---

(١) الطبري ٤ / ١٨.

(٢) السياسة عند العرب (ص ٩٨) لعمر أبو النصر.

(٣) الإمامة والسياسة ١ / ١٨٢.

وقد قام باغتيال الذوات التالية:

١ – سعد بن أبي وقاص

ولسعد المكانة العليا في نفوس الكثيرين من المسلمين فهو أحد أعضاء الشورى وفاتح العراق، وقد ثقل مركزه على معاوية فدس إليه سما فمات منه (١).

٢ – عبد الرحمن بن خالد

وأخلص أهل الشام لعبد الرحمن بن خالد بن الوليد وأحبوه كثيرا وقد شاورهم معاوية فيمن يعقد له البيعة بعد وفاته، فقالوا له: رضينا بعبد الرحمن بن خالد، فشق ذلك عليه وأسرها في نفسه، ومرض عبد الرحمن، فامر معاوية طبيبا يهوديا كان مكينا عنده ان يأتيه للعلاج فيسقيه سقية تقتله، فسقاه الطبيب فمات على اثر ذلك (٢).

٣ – عبد الرحمن بن أبي بكر

وكان عبد الرحمن بن أبي بكر من أقوى العناصر المعادية لبيعة معاوية لولده، وقد أنكر عليه ذلك، وبعث إليه معاوية بمائة ألف درهم فردها عليه، وقال: لا أبيع ديني بدنياي ولم يلبث أن مات فجأة بمكة (٣) وتعزو المصادر سبب وفاته إلى أن معاوية دس إليه سما فقتله.

---

(١) مقاتل الطالبيين (ص ٢٩).

(٢) الاستيعاب.

(٣) المصدر نفسه.

٤ – الإمام الحسن

وقام معاوية باقتراف أعظم جريمة واثم في الاسلام، فقد عمد إلى اغتيال سبط النبي (ص) وريحانته الإمام الحسن (ع) الذي عاهده بان يكون الخليفة من بعده... ولم يتحرج الطاغية من هذه الجريمة في سبيل انشاء دولة أموية تنتقل بالوارثة إلى أبنائه وأعقابه، وقد وصفه " الميجر اوزبورن " بأنه مخادع وذا قلب خال من كل شفقة، وانه كان لا يتهبب من الاقدام على أية جريمة من أجل أن يضمن مركزه فالقتل إحدى وسائله لإزالة خصومه وهو الذي دبر تسميم حفيد الرسول (ص) كما تخلص من مالك الأشتر قائد علي بنفس الطريقة (١).

وقد استعرض الطاغية السفاكين ليعهد إليهم القيام باغتيال ريحانة النبي (ص) فلم ير أحدا خليقا بارتكاب الجريمة سوى جعيدة بنت الأشعث فإنها من بيت قد جبل على المكر وطبع على الغدر والخيانة، فأرسل إلى مروان بن الحكم سما فاتكا كان قد جلبه من ملك الروم، وأمره بان يغري جعيدة بالأموال، وزواج ولده يزيد إذا استجابت له، وفاوضها مروان سرا، ففرحت، فأخذت منه السم، ودسته للامام وكان صائما في وقت ملتهب من شدة الحر، ولما وصل إلى جوفه تقطعت أمعاؤه، والتفت إلى الخبيثة فقال لها:

" قتلتيني قتلك الله، والله لا تصيبن مني خلفا، لقد غرك – يعني معاوية – وسخر منك يخزيك الله، ويخزيه. ".

وأخذ حفيد الرسول (ص) يعاني الآلام الموجعة من شدة السم،

---

(١) روح الاسلام (ص ٢٩٥).

وقد ذيلت نضارته واصفر لونه، حتى وافاه الاجل المحتوم، وقد ذكرنا تفصيل وفاته مع ما رافقها من الاحداث في كتابنا (حياة الإمام الحسن)

اعلان البيعة رسميا:

وصفا الجو لمعاوية بعد اغتياله لسبط الرسول (ص) وريحانته، فقد قضى على من كان يحذر منه، وقد استبت له الأمور، وخلت الساحة من أقوى المعارضين له، وكتب إلى جميع عماله أن يبادروا دونما أي تأخير إلى اخذ البيعة ليزيد، ويرغموا المسلمين على قبولها، وأسرع الولاة في اخذ البيعة من الناس، ومن نحلف عنها نال أقصى العقوبات الصارمة.

مع المعارضين في يثرب:

وامتنعت يثرب من البيعة ليزيد، وأعلن زعماؤهم وعلى رأسهم الإمام الحسين (ع) رفضهم القاطع للبيعة، ورفعت السلطة المحلية ذلك إلى معاوية فرأى أن يسافر إلى يثرب ليتولى بنفسه اقناع المعارضين، فان أبوا أجبرهم على ذلك، واتجه معاوية إلى يثرب في موكب رسمي تحوطه قوة هائلة من الجيش، ولما انتهى إليها استقبله أعضاء المعارضة فجفاهم وهددهم وفي اليوم الثاني ارسل إلى الإمام الحسين والى عبد الله بن عباس، فلما مثلا عنده قابلهما بالتكريم والحفاوة، وأخذ يسأل الحسين (ع) عن أبناء أخيه والامام يجيبه ثم خطب معاوية فأشاد بالنبي (ص) وأثنى عليه، وعرض إلى بيعة يزيد ومنح ابنه الألقاب الفخمة والنعوت الكريمة ودعاهما إلى بيعته.

خطاب الإمام الحسين:
وانبرى أبى الضيم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:
" أما بعد: يا معاوية فلن يؤدي المادح وان أطنب في صفة الرسول (ص) من جميع جزءا، وقد فهمت ما لبست به الخلف بعد رسول الله (ص) من ايجاز الصفة، والتنكب عن استبلاغ النعت، وهيهات هيهات يا معاوية!! فضح الصبح فحمة الدجى، وبهرت الشمس أنوار السرج ولقد فضلت حتى أفرطت، واستأثرت حتى أجحفت، ومنعت حتى بخلت، وجرت حتى جاوزت، ما بذلت لذي حق من اسم حقه من نصيب، حتى اخذ الشيطان حظه الأوفر، ونصيبه الأكمل.
وفهمت ما ذكرته عن يزيد من اكتماله، وسياسته لامة محمد (ص) تريد أن توهم الناس في يزيد كأنك تصف محجوبا أو تنعت غائبا، أو تخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص، وقد دل يزيد من نفسه على موقع رأيه، فخذ ليزيد فيما أخذ به من استقرائه الكلاب المهارشة عند التحارش والحمام السبق لأترابهن، والقيان ذوات المعازف، وضروب الملاهي تجده ناصرا.
ودع عنك ما تحاول: فما أغناك ان تلقى الله بوزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقيه، فوالله ما برحت تقدح باطلا في جور، وحنقا في ظلم، حتى ملأت الأسقية، وما بينك وبين الموت الا غمضة فتقدم على عمل محفوظ في يوم مشهود، ولات حين مناص، ورأيتك عرضت بنا بعد هذا الامر، ومتعتنا عن آبائنا تراثا، ولعمر الله أورثنا الرسول (ص) ولادة، وجئت لنا بها ما حججتم به القائم عند موت الرسول فأذعن للحجة بذلك ورده الايمان إلى النصف فركبتم الأعاليل، وفعلتم الأفاعيل وقلتم: كان

ويكون حتى اتاك الامر يا معاوية من طريق كان قصدها لغيرك فهناك فاعتبروا يا أولي الابصار.
وذكرت قيادة الرجل القوم بعهد رسول الله (ص) وتأميره له، وقد كان ذلك ولعمرو بن العاص يومئذ فضيلة بصحبة الرسول وبيعته له، وما صار لعمر الله يومئذ مبعثهم حتى انف القوم امرته، وكرهوا تقديمه وعدوا عليه أفعاله، فقال (ص): لا جرم يا معشر المهاجرين لا يعمل عليكم بعد اليوم غيري، فكيف تحتج بالمنسوخ من فعل الرسول في أوكد الاحكام، وأولاها بالمجتمع عليه من الصواب؟ أم كيف صاحبت بصاحب تابعا، وحولك من لا يؤمن في صحبته، ولا يعتمد في دينه وقرايته، وتتخطاهم إلى مسرف مفتون، تريد أن تلبس الناس شبهة يسعد بهذا الباقي في دنياه وتشقي بها في آخرتك، ان هذا لهو الخسران المبين، واستغفر الله لي ولكم.. ".
وفند الامام في خطابه جميع شبهات معاوية وسد عليه جميع الطرق والنوافذ، وحمله المسؤولية الكبرى فيما أقدم عليه من ارغام المسلمين على البيعة لولده، كما عرض للخلافة وما منيت به من الانحراف عما أرادها الله من أن تكون في العترة الطاهرة الا ان القوم زووها عنهم، وحرفوها عن معدنها الأصيل.
وذهل معاوية من خطاب الامام، وضاقت عليه جميع السبل فقال لابن عباس:
" ما هذا يا بن عباس؟ ".
" لعمر الله إنها لذرية الرسول (ص) وأحد أصحاب الكساء، ومن البيت المطهر قاله: عما تريد، فان لك في الناس مقنعا حتى يحكم الله

بأمره وهو خير الحاكمين... " (١).
ونهض أبي الضيم وترك معاوية يتميز من الغيظ، وقد استبان له أنه لا يتمكن أن يخدع الإمام الحسين ويأخذ البيعة منه.
ارغام المعارضين:
وغادر معاوية يثرب متجها إلى مكة وهو يطيل التفكير في أمر المعارضين فرأى أن يعتمد على وسائل العنف والارهاب، وحينما وصل إلى مكة أحضر الإمام الحسين، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن عمر وعرض عليهم مرة أخرى البيعة إلى يزيد فاعلنوا رفضهم لها، فانبرى إليهم مغضبا وقال:
" اني أتقدم إليكم انه قد اعذر من انذر كنت أخطب فيكم فيقوم إلي القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس فاحمل ذلك واصفح، واني قائم بمقالة فاقسم بالله لئن رد علي أحدكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه، فلا يسبقني رجل الا على نفسه.. ".
ودعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال له: أقم على رأس كل رجل من هؤلاء، رجلين ومع كل واحد سيف فان ذهب رجل منهم يرد علي كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما، ثم خرج وخرجوا معه فرقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:
" ان هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبتز أمر دونهم،

---

(١) الإمامة والسياسة ١ / ١٩٥ - ١٩٦.

ولا يقضى الا عن مشورتهم، وانهم رضوا وبايعوا ليزيد، فبايعوا على اسم الله.. ".

فبايعه الناس، ثم ركب رواحله، وغادر مكة (١) وقد حسب معاوية ان الامر قد تم لولده، واستقر الملك في بيته، ولم يعلم أنه قد جر الدمار على دولته، واعد المجتمع للثورة على حكومة ولده.

موقف الإمام الحسين:

كان موقف الإمام الحسين مع معاوية يتسم بالشدة والصرامة، فقد أخذ يدعو المسلمين بشكل سافر إلى مقاومة معاوية، ويحذرهم من سياسته الهدامة الحاملة لشارات الدمار إلى الاسلام.

وفود الأقطار الاسلامية:

واخذت الوفود تترى على الامام من جميع الأقطار الاسلامية وهي تعج بالشكوى إليه وتستغيث به مما ألم بها من الظلم والجور، وتطلب منه القيام بانقاذها من الاضطهاد، ونقلت الاستخبارات في يثرب إلى السلطة المحلية تجمع الناس واختلافهم على الإمام الحسين، وكان الوالي مروان ففزع من ذلك وخاف إلى حد بعيد.

---

(١) الكامل ٣ / ٢٥٢، الأمالي ٢ / ٧٣، ذيل الأمالي (ص ١٧٧) عيون الاخبار ٢ / ٢١٠ البيان والتبيين ١ / ٣٠٠.

مذكرة مروان لمعاوية:
ورفع مروان مذكرة لمعاوية سجل فيها تخوفه من تحرك الامام، واختلاف الناس عليه، وهذا نصها:
" أما بعد فقد كثر اختلاف الناس إلى حسين، والله اني لارى لكم منه يوما عصبيا " (١).
جواب معاوية:
وأمره معاوية بعدم القيام باي حركة مضادة للامام فقد كتب إليه:
" اترك حسينا ما تركك، ولم يظهر لك عداوته، وبيد صفحته، وأكمن عنه كمون الثرى إن شاء الله والسلام.. " (٢).
لقد خاف معاوية من تطور الا حدث، فعهد إلى مروان بعدم التعرض له باي أذى أو مكروه.
رأى مروان في ابعاد الامام:
واقترح مروان على معاوية ابعاد الامام عن يثرب وفرض الإقامة الجبرية عليه في الشام، ليقطعه عن الاتصال باهل العراق، ولم يرتض معاوية ذلك فرد عليه " أردت والله أن تستريح منه وتبتليني به، فان صبرت عليه صبرت على ما أكره وان أسأت الله قطعت رحمه.. " (٣).

---

(١) أنساب الأشراف ق ١ ج ١.
(٢) أنساب الأشراف ق ١ ج ١.
(٣) العقد الفريد ٢ / ١١٦.

رسالة معاوية للحسين:
واضطرب معاوية من تحرك الامام واختلاف الناس عليه فكتب إليه رسالة، وقد رويت بصورتين.
١ - رواها البلاذري وهذا نصها: " أما بعد: فقد أنهيت إلي عنك أمور إن كانت حقا فاني لم أظنها بك رغبة عنها، وان كانت باطلة فأنت أسعد الناس بمجانبتها، وبحظ نفسك تبدأ، وبعهد الله توفي فلا تحملني على قطعيتك والإسائة إليك، فإنك متى تنكرني أنكرك، ومتى تكدني أكدك فاتق الله يا حسين في شق عصا الأمة، وان تردهم في فتنة. " (١).
٢ - رواها ابن كثير وهذا نصها: " ان من اعطى الله صفقة يمينه وعهده لجدير بالوفاء، وقد أنبئت أن قوما من أهل الكوفة قد دعوك إلى الشقاق، وأهل العراق من قد جربت، قد أفسدوا على أبيك وأخيك، فاتق الله، واذكر الميثاق فإنك متى تكدني أكدك " (٢).
واحتوت هذه الرسالة حسب النص الأخير على ما يلي:
١ - ان معاوية قد طالب الامام بتنفيذ ما شرطه عليه في بنود الصلح أن لا يخرج عليه، وقد وفى له الامام بذلك الا ان معاوية لم يف بشئ مما أبرمه على نفسه من شروط الصلح.
٢ - ان معاوية كان على علم بوفود أهل الكوفة التي دعت الامام للخروج عليه وقد وسمهم بأنهم أهل الشقاق وانهم قد غدروا بعلي والحسن من قبل.
٣ - التهديد السافر للامام بأنه متى كاد معاوية فإنه يكيده.

---

(١) أنساب الأشراف ق ١ ج ١.
(٢) تاريخ ابن كثير ٨ / ١٦٢.

جواب الامام:
ورفع الامام إلى معاوية مذكرة خطيرة كانت جوبا لرسالته حمله مسؤوليات جميع ما وقع في البلاد من سفك الدماء، وفقدان الامن، وتعريض الأمة للأزمات، وهي من أروع الوثائق الرسمية التي حفلت بذكر الاحداث التي صدرت من معاوية وهذا نصها:
" أما بعد: فقد بلغني كتابك تذكر فيه أنه انتهت إليك عني أمور أنت عنها راغب وأنا بغيرها عندك جدير، وان الحسنات لا يهدي لها ولا يسدد إليها إلا الله تعالى.
أما ما ذكرت أنه رقي إليك عني، فإنه انما رقاه إليك الملاقون المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الجمع، وكذب الغاوون. ما أردت لك حربا، ولا عليك خلافا، واني لأخشى الله في ترك ذلك منك، ومن الاعذار فيه إليك وإلى أوليائك القاسطين حزب الظلمة.
ألست القاتل حجر بن عدي أخا كندة وأصحابه المصلين العابدين الذين كانوا ينكرون الظلم، ويستعظمون البدع، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ولا يخافون في الله لومة لائم، ثم قتلتهم ظلما وعدوانا، من بعد ما أعطيتهم الايمان المغلظة والمواثيق المؤكدة، جراءة على الله واستخفافا بعهده.
أو لست قاتل عمرو بن الحمق الخزاعي صاحب رسول الله (ص) العبد الصالح الذي أبلته العبادة فنحل جسمه واصفر لونه، فقتلته بعد ما أمنته وأعطيته ما لو فهمته العصم لنزلت من رؤوس الجبال.
أو لست بمدعي زياد بن سمية المولود على فراش عبيد ثقيف، فزعمت أن ابن أبيك، وقد قال رسول الله (ص): الولد للفراش وللعاهر الحجر

فتركت سنة رسول الله (ص) تعمدا وتبعت بغير هدى من الله ثم سلطته على أهل الاسلام يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم، ويسمل أعينهم، ويصلبهم على جذوع النخل، كأنك لست من هذه الأمة وليسوا منك.

أو لست قاتل الحضرمي الذي كتب فيه إليك زياد أنه على دين علي كرم الله وجهه فكتب إليه أن اقتل كل من كان على دين علي، فقتلهم، ومثل بهم بأمرك، ودين علي هو دين ابن عمه (ص) الذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه، ولولا ذلك لكان شرفك وشرف آبائك تجشم الرحلتين رحلة الشتاء والصيف.

وقلت: فيما قلت: انظر لنفسك ودينك ولامة محمد (ص) واتق شق عصا هذه الأمة، وان تردهم إلى فتنة، واني لا اعلم فتنة أعظم على هذه الأمة من ولايتك عليها، ولا أعظم لنفسي ولديني ولامة محمد (ص) أفضل من أن أجاهرك، فان فعلت فإنه قربة إلى الله، وان تركته فاني استغفر الله لديني، واساله توفيقه لارشاد أمري.

وقلت: فيما قلت: إنني إن أنكرتك تنكرني، وإن أكدك تكدني فكدني ما بدا لك وفإني أرجو أن لا يضرني كيدك، وان لا يكون على أحد أضر منه على نفسك، لأنك قد ركبت جهلك وتحرصت على نقض عهدك.

ولعمري ما وفيت بشرط، ولقد نقضت عهدك بقتل هؤلاء النفر الذين قتلتهم بعد الصلح والايمان والعهود والمواثيق فقتلتهم من غير أن يكونوا قاتلوا وقتلوا، ولم تفعل ذلك بهم الا لذكرهم فضلنا وتعظيمهم حقنا، مخافة أمر لعلك لو لم تقتلهم مت قبل يفعلوا، أو ماتوا قبل أن يدركوا.

فابشر يا معاوية بالقصاص، واستيقن بالحساب، واعلم أن الله تعالى كتابا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. وليس الله بناس لأخذك بالظنة وقتلك أولياءه على التهم، ونفيك إياهم من دورهم إلى دار الغربة واخذك الناس ببيعة ابنك الغلام الحدث يشرب الشراب، ويلعب بالكلاب ما أراك الا قد خسرت نفسك، وتبرت دينك (١) وغششت رعيتك وسمعت مقالة السفيه الجاهل وأخفت الورع التقي والسلام " (٢).

لا أكاد أعرف وثيقة سياسة في ذلك العهد عرضت لعبث السلطة وسجلت الجرائم التي ارتكبها معاوية، والدماء التي سفكها، والنفوس التي أرعبها غير هذه الوثيقة، وهي صرخة في وجه الظلم والاستبداد " والله كم هي هذه الكلمة رقيقة شاعرة (كأنك لست من هذه الأمة وليسوا منك) هذه الكلمة المشبعة بالشعور القومي الشريف وقديما قال الصابي، " إن الرجل من قوم ليست له أعصاب تقسو عليهم " وهو اتهام من الحسين لمعاوية في وطنيته وفوميته، واتخذ من الدماء الغزيرة المسفوكة عنوانا على ذلك " (٣).

لقد حفلت هذه المذكرة بالاحداث الخطيرة التي اقترفها معاوية وعماله خصوصا زياد بن سمية الذي نشر الارهاب والظلم بين الناس فقتل على الظنة والتهمة، وأعدم كل من كان على دين الامام أمير المؤمنين الذي هو دين ابن عمه رسول الله (ص) وقد أسرف هذا الطاغية في سفك الدماء بغير حق، ومن الطبيعي انه لم يقترف ذلك الا بايعاز من معاوية فهو الذي عهد إليه بذلك:

---

(١) تبرت: أهلكت دينك.

(٢) الإمامة والسياسة ١ / ٢٨٤، رجال الكشي (ص ٣٢) الدرجات الرفيعة (ص ٣٣٤).

(٣) الإمام الحسين (ص ٣٣٨).

صدى الرسالة:
ولما انتهت رسالة الامام إلى معاوية ضاق بها ذرعا، وراح يراوغ على عادته ويقول: " ان أثرنا بابي عبد الله الا أسدا " (١).
المؤتمر السياسي العام:
وعقد الامام في مكة مؤتمرا سياسيا عاما دعا فيه جمهورا غفيرا ممن شهد موسم الحج من المهاجرين والأنصار والتابعين وغيرهم من سائر المسلمين فانبرى (ع) خطيبا فيهم، وتحدث ببليغ بيانه بما ألم بعترة النبي (ص) وشيعتهم من المحن والخطوب التي صبها عليهم معاوية وما اتخذه من الاجراءات المشددة من أخفاء فضائلهم، وستر ما أثر عن الرسول الأعظم في حقهم والزم حضار مؤتمره بإذاعة ذلك بين المسلمين، وفيما يلي نص حديثه فيما رواه سليم بن قيس قال:
" ولما كان قبل موت معاوية بسنة حج الحسين بن علي، وعبد الله ابن عباس، وعبد الله بن جعفر، فجمع الحسين بني هاشم ونساءهم ومواليهم، ومن حج من الأنصار ممن يعرفهم الحسين وأهل بيته، ثم أرسل رسلا، وقال لهم: لا تدعوا أحدا حج العام من أصحاب رسول الله (ص) المعروفين بالصلاح والنسك الا أجمعوهم لي، فاجتمع إليه بمنى أكثر من سبعمائة رجل وهم في سرادق، عامتهم من التابعين، ونحو من مائتي رجل من أصحاب النبي (ص) فقام فيهم خطيبا " فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد: فان هذا الطاغية - يعني معاوية - قد فعل بنا وبشيعتنا

---
(١) سير الاعلام النبلاء ٣ / ١٩٨.

ما قد رأيتم، وعلمتم وشهدتم، واني أريد أن أسألكم عن شئ فان صدقت فصدقوني، وإن كذبت فكذبوني، اسمعوا مقالتي، واكتبوا قولي، ثم ارجعوا إلى أمصاركم وقبائلكم، فمن أمنتم من الناس، ووثقتم به فادعوهم إلى ما تعلمون من حقنا، فاني أتخوف أن يدرس هذا الامر ويغلب، والله متم نوره ولو كره الكافرون ".

وما ترك شيئا مما أنزله الله فيهم من القران الا تلاه وفسره ولا شيئا مما قاله رسول الله (ص) في أبيه وأخيه وفي نفسه وأهل بيته إلا رواه. وكل ذلك يقول أصحابه: اللهم نعم. قد سمعنا وشهدنا، ويقول التابعي: اللهم قد حدثني به من أصدقه وأئتمنه من الصحابة فقال (ع). أنشدكم الله الا حدثتم به من تثقون به وبدينه.. " (١).

وكان هذا المؤتمر أول مؤتمر اسلامي عرفه المسلمون في ذلك الوقت وقد شجب فيه الامام سياسة معاوية ودعا المسلمين لإشاعة فضائل أهل البيت (ع)، وإذاعة مآثرهم التي حاولت السلطة حجبها عن المسلمين.

رسالة جعدة للامام:

وكان جعدة بن هبيرة بن أبي وهب من أخلص الناس للإمام الحسين عليه السلام، وأكثرهم مودة له وقد اجتمعت عنده الشيعة، وأخذوا يلحون عليه في مراسلة الامام للقدوم إلى مصرهم ليعلن الثورة على حكومة معاوية، ورفع جعدة رسالة للامام وهذا نصها:

" أما بعد: فان من قبلنا من شيعتك متطلعة أنفسهم إليك، لا يعدلون بك أحد، وقد كانوا عرفوا رأي الحسن أخيك في الحرب. وعرفوك باللين

---

(١) حياة الإمام الحسن ٢ / ٢١٦ - ٢١٧.

لأوليائك والغلظة على أعدائك، والشدة في أمر الله، فان كنت تحب أن تطلب هذا الامر فأقدم علينا فقد وطنا أنفسنا على الموت معك. ".

جواب الامام:

ولم يكن من رأي الإمام الحسين الخروج على معاوية، وذلك لعلمه بفشل الثورة وعدم نجاحها، فان معاوية بما يملك من وسائل دبلوماسية وعسكرية لابد أن يقضي عليها، ويخرجها من إطارها الاسلامي إلى حركة غير شرعية ويوسم القائمين بها بالتمرد والخروج على النظام، وقد أجابهم عليه السلام بعد البسملة والثناء على الله بما يلي:

" أما أخي فاني أرجو أن يكون الله قد وفقه وسدده، وأما أنا فليس رأيي اليوم ذلك، فالصقوا رحمكم الله بالأرض، واكمنوا في البيوت واحترسوا من الظنة ما دام معاوية حيا، فان يحدث الله به حدثا وأنا حي كتبت إليكم برأيي والسلام... " (١).

لقد أمر (ع) شيعته بالخلود إلى الصبر والامساك عن المعارضة، وأن يلزموا بيوتهم خوفا عليهم من سلطان معاوية الذي كان يأخذ البرئ بالسقيم والمقبل بالمدبر ويقتل على الظنة والتهمة، وأكبر الظن ان هذه الرسالة كانت في عهد زيادة الذي سمل عيون الشيعة، وصلبهم على جذرع النخل ودمرهم تدميرا ساحقا.

---

(١) الاخبار الطوال (ص ٢٠٣) أنساب الأشراف ج ١ ق ١.

نصيحة الخدري للامام:
وشاعت في الأوساط الاجتماعية أنباء وفود أهل الكوفة على الإمام الحسين (ع) واستنجادهم به لإنقاذهم من ظلم معاوية وجوره، وهذا نص حديثه: " يا أبا عبد الله اني انا ناصح، واني عليكم مشفق، وقد بلغني أنه قد كاتبك قوم من شيعتكم بالكوفة، يدعونكم إلى الخروج إليهم، فلا تخرج إليهم، فاني سمعت أباك يقول بالكوفة، والله لقد مللتهم، وأبغضتهم وملوني وأبغضوني، وما يكون منهم وفاء قط، ومن فاز به فاز بالسهم الأخيب، والله ما لهم ثبات ولا عزم على أمر، ولا صبر على السيف " (١)
وليس من شك في أن أبا سعيد الخدري كان من ألمع أصحاب الإمام أمير المؤمنين وأكثرهم اخلاصا وولاء لأهل البيت، وقد دفعه حرصه على الإمام الحسين، وخوفه عليه من معاوية أن يقوم بالنصيحة له في عدم خروجه على معاوية، ولم تذكر المصادر التي بأيدينا جواب الإمام الحسين له.
استيلاء الحسين على أموال للدولة:
وكان معاوية ينفق أكثر أموال الدولة على تدعيم ملكه، كما كان يهب الأموال الطائلة لبني أمية لتقوية مركزهم السياسي والاجتماعي، وكان الإمام الحسين يشجب هذه السياسة، ويروي ضرورة انفاذ الأموال من من معاوية وانفاقها على المحتاجين، وقد اجتازت على يثرب أموال من اليمن إلى خزينة دمشق، فعمد الامام إلى الاستيلاء عليها، ووزعها على

---

(١) البداية والنهاية ٨ / ١٦١، تاريخ ابن عساكر ١٣ / ٦٧.

المحتاجين من بني هاشم وغيرهم وكتب إلى معاوية:
" من الحسين بن علي إلى معاوية بن أبي سفيان، أما بعد: فان عيرا مرت بنا من اليمن تحمل مالا وحللا وعنبرا وطيبا إليك، لتودعها خزائن دمشق، وتعل بها بعد النهل بني أبيك، واني احتجت إليها فأخذتها والسلام.. ".
وأجابه معاوية:
" من عبد الله معاوية إلى الحسين بن علي، أما بعد: فان كتابك ورد علي تذكر ان عيرا مرت بك من اليمن تحمل مالا، وحللا وعنبرا وطيبا إلي لأودعها خزائن دمشق، واعل بها بعد النهل بني أبي، وانك احتجت إليها فأخذتها، ولم تكن جديرا باخذها إذ نسبتها إلي لان الوالي أحق بالمال، ثم عليه المخرج منه، وأيم الله لو تركت ذلك حتى صار إلي لم أبخسك حظك منه ولكنني قد ظننت يا بن أخي ان في رأسك نزوة، وبودي أن يكون ذلك في زماني فاعرف لك قدرك، وأتجاوز عن ذلك ولكنني والله أتخوف أن تبلى بمن لا ينظرك فواق ناقة ".
وكتب في أسفل كتابه هذه الأبيات:
يا حسين بن علي ليس ما * جئت بالسائغ يوما والعلل
أخذك المال ولم تؤمر به * ان هذا من حسين لعجل
قد أجزناها ولم نغضب لها * واحتملنا من حسين ما فعل
يا حسين بن علي ذا الامل * لك بعدي وثبة لا تحتمل
وبودي انني شاهدها * فإليها منك بالخلق الاجل
انني أرهب ان تصل بمن * عنده قد سبق السيف العذل (١)

---

(١) شرح نهج البلاغة ٤ / ٣٢٧ الطبعة الأولى.

وفي هذا الكتاب تهديد للامام بمن يخلف معاوية وهو ابنه يزيد الذي لا يؤمن بمقام الحسين ومكانته من رسول الله (ص).
وعلى أي حال فقد قام الامام بانقاذ هذه الأموال من معاوية وأنفقها على الفقراء في حين أنه لم يكن يأخذ لنفسه أي صلة من معاوية، وقد قدم له مالا كثيرا وثيابا وافرة وكسوة فاخرة فرد الجميع عليه (١)، وقد روى الإمام موسى بن جعفر (ع) ان الحسن والحسين كانا لا يقبلان جوائز معاوية (٢).

حديث موضوع:

من الاخبار الموضوعة ما روي أن الإمام الحسين وقد مع أخيه الحسن على معاوية فامر لهما بمائة ألف درهم وقال لهما:
" خذاها وأنا ابن هند، ما أعطاها أحد قبلي، ولا يعطيها أحد بعدي.. ".
فانبرى إليه الإمام الحسين قائلا:
" والله ما أعطى أحد قبلك ولا بعدك لرجلين أشرف منا.. ".
ولا مجال للقول بصحة هذه الرواية فان الإمام الحسين (ع) لم يفد على معاوية بالشام، وانما وفد عليه الإمام الحسن (ع) لا لأجل الصلة والعطاء كما يذهب لذلك بعض السذج من المؤرخين، وانما كان الغرض ابراز الواقع الأموي، والتدليل على مساوئ معاوية، كما أثبتت ذلك

---

(١) الحسين ١ / ١١٧ لعلي جلال.
(٢) حياة الإمام موسى بن جعفر ٢ / ٣٣٢.

مناظراته مع معاوية وبطانته، والتي لم يقصد فيها الا تلك الغاية، وقد أوضحنا ذلك بصورة مفصلة في كتابنا (حياة الإمام الحسن).

الحسين مع بني أمية:

كانت العداوة بين الحسين وبين بني أمية ذاتية فهي عداوة الضد للضد، وقد سال سعيد الهمداني الإمام الحسين عن بني أمية فقال (ع) " إنا وهم الخصمان اللذان اختصما في ربهم.. " (١).

أجل انهما خصمان في أهدافهما، وخصمان في اتجاههما، فالحسين (ع) كان يمثل جوهر الايمان بالله، وبمثل القيم الكريمة التي يشرف بها الانسان وبنو أمية كانوا يمثلون مساوئ الجاهلية التي تهبط بالانسان إلى مستوى سحيق وكان الأمويين بحسب طباعهم الشريرة، يحقدون على الإمام الحسين ويبالغون في توهينه، وقد جرت منازعة بين الحسين وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان في مال كان بينهما فتحامل الوليد على الحسين في حقه، فثار الامام في وجهه وقال:

" احلف بالله لتنصفني من حقي أو لأخذن سيفي، ثم لأقومن في مسجد رسول الله (ص) وادعون بحلف الفضول.. ".

لقد أراد أن يحيى حلف الفضول الذي أسسه الهاشميون والذي كان شعاره انصاف المظلومين والاخذ بحقوقهم، وقد حاربه الأمويون في جاهليتهم لأنه يتنافى مع طباعهم ومصالحهم.

وانبرى عبد الله بن الزبير فانضم للحسين وانتصر له وقال:

---

(١) الكنى والأسماء ١ / ٧٧ لأبي بشر الدولابي.

" وأنا احلف بالله لئن دعا به لآخذن سيفي ثم لأقومن معه حتى ينتصف من حقه أو تموت جميعا. ".

وبلغ المسور بن مخرمة بن نوفل الزهري الحديث فانضم للحسين، وقال بمثل مقالته وشعر الوليد بالوهن والضعف، فتراجع عن غيه، وانصف الحسين (ع) من حقه (١).

ومن ألوان الحقد الأموي على الحسين أنه كان جالسا في مسجد النبي (ص) فسمع رجلا يحدث أصحابه، ويرفع صوته ليسمع الحسين وهو يقول:

" انا شاركنا آل أبي طالب في النبوة حتى نلنا منها مثل ما نالوا منها من السبب والنسب، ونلنا من الخلافة ما لم ينالوا فبم يفخرون علينا؟ ".

وكرر هذا القول ثلاثا، فاقبل عليه الحسين فقال له: اني كففت عن جوابك في قولك الأول حلما، وفي الثاني عفوا، وأما في الثالث فاني مجيبك اني سمعت أبي يقول: ان في الوحي الذي أنزله الله على محمد (ص) إذا قامت القيامة الكبرى حشر الله بني أمية في صور الذر يطأهم الناس حتى يفرغ من الحساب ثم يؤتى بهم فيحاسبوا، ويصار بهم إلى النار (٢) ولم يطق الأموي جوابا وانصرف وهو يتميز من الغيظ..

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن موقف الامام مع معاوية وبني أمية، ونعرض فيما يلي إلى وفاة معاوية وما رافقها من الاحداث.

---

(١) سيرة ابن هشام ١ / ١٤٢.

(٢) المناقب والمثالب للقاضي نعمان المصري (ص ٦١).

مرض معاوية:
ومرض معاوية وتدهورت صحته، ولم تجد معه الوصفات الطيبة، فقد تناهب جسمه الأمراض، وفد شعر بدنو اجله، وكان في حزن على ما اقترفه في قتله لحجز بن عدي فكان ينظر إليه شبحا مخفيا، وكان يقول: ويلي منك يا حجر! إن لي مع ابن عدي ليوما طويلا (١) وتحدث الناس عن مرضه، فقالوا إنه الموت، فامر أهله أن يحشوا عينيه أثمدا، ويسبغوا على رأسه الطيب، ويجلسوه ثم أذن للناس فدخلوا وسلموا عليه قياما فلما خرجوا من عنده أنشد قائلا:

وتجلدي للشامتين أريهم * أنى لريب الدهر لا أتضعضع

فسمعه رجل من العلويين فاجابه.

وإذا المنية أنشبت أظفارها * ألفيت كل تميمة لا تنفع (٢)

وصاياه:
ولما ثقل حال معاوية عهد بوصيته إلى يزيد، وقد جاء فيها " يا بني اني قد كفيتك الشر والترحال، ووطأت لك الأمور، وذلك لك الأعداء وأخضعت لك رقاب العرب وجمعت لك ما لم يجمعه أحد فانظر أهل الحجاز فإنهم أصلك، وأكرم من قدم عليك منهم، وتعاهد من غاب، وانظر أهل العراق فان سألوك أن تعزل كل يوم عاملا فافعل فان عزل عامل

---

(١) الفتنة الكبرى ٢ / ٢٤٥.
(٢) حياة الحيوان للدميري ١ / ٥٩.

أيسر من أن يشهر عليك مائة الف سيف، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك، فان رابك من عدوك شئ فانتصر بهم فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم فان أقاموا بغير بلادهم تغيرت أخلاقهم..
وانى لست أخاف عليك أن ينازعك في هذا الامر الا أربعة نفر من قريش الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن ابن أبي بكر، فاما ابن عمر فإنه رجل قد وقذته العبادة، فإذا لم يبق أحد غيره بايعك واما الحسين بن علي فهو رجل خفيف، ولن يترك أهل العراق حتى يخرجوه، فان خرج وظفرت به فاصفح عنه فان له رحما ماسة وحقا عظيما وقرابة من محمد، وأما ابن أبي بكر فان رأى أصحابه صنعوا شيئا صنع مثله ليس له همة الا في النساء واللهو، واما الذي بجثم لك جثوم الأسد، ويراوغك مراوغة الثعلب فان أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير فان هو فعلها بك فظفرت به فقطعه إربا إربا وأحقن دماء قومك ما استطعت... " (١).

وأكبر الظن ان هذه الوصية من الموضوعات فقد افتعلت لاثبات حلم معاوية وانه عهد إلى ولده بالاحسان الشامل إلى المسلمين وهو غير مسؤول عن تصرفاته... ومما يؤيد وضعها ما يلي:

١ - ان المؤرخين رووا أن معاوية أوصى يزيد بغير ذلك فقال له: ان لك من أهل المدينة يوما فان فعلوها فارمهم بمسلم بن عقبة فإنه رجل قد عرفنا نصيحته (٢) وكان مسلم بن عقبة جزارا جلادا لا يعرف الرحمة والرأفة، وقد استعمله يزيد بعهد من أبيه في واقعة الحرة فاقترف كل موبقة

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٥٩.
(٢) تاريخ خليفة خياط ١ / ٢٢٩.

واثم، فكيف تلتقي هذه الوصية بتلك الوصية التي عهد فيها بالاحسان إلى أهل الحجاز.

٢ – انه أوصاه برعاية عواطف العراقيين، والاستجابة لهم إذا سألوه في كل يوم عزل من ولاه عليهم، وهذا يتنافى مع ما ذكره المؤرخون انه عهد بولاية العراق إلى عبيد الله بن زياد، وهو يعلم شدته وصرامته وغدره، فهو ابن زياد الذي أغرق العراق بدماء الأبرياء فهل العهد إليه بولايته العراق من الاحسان إلى العراقيين والبر بهم؟!!

٣ – انه جاء في هذه الوصية انه يتخوف عليه من عبد الله بن عمر وقد وصفه بأنه قد وقذته العبادة، وإذا كان كذلك فهو بطبيعة الحال منصرف عن السلطة والمنازعات السياسية فما معنى التخوف منه؟!!

٤ – انه جاء في هذه الوصية انه يتخوف عليه من عبد الرحمن بن أبي بكر، وقد نص المؤرخون انه توفي في حياة معاوية، فما معنى التخوف عليه من انسان ميت؟

٥ – انه أوصاه برعاية الحسين (ع) وان له رحما ماسة وحقا عظيما وقرابة من رسول الله (ص) ومن المؤكد ان معاوية بالذات لم يرع أي جانب من جوانب القرابة من رسول الله، فقد قطع جميع أواصرها فقد فرض سبها على رؤوس الاشهاد، وعهد إلى لجان التربية والتعليم بتربية النشئ ببغض أهل البيت، ولم يتردد في ارتكاب أي وسيلة للحط من شانهم، وقد علق الأستاذ عبد الهادي المختار على هذه الفقرات من الوصية بقوله:

" وتقول بعض المصادر ان معاوية أوصى ولده يزيد برعاية الحسين والذي نعتقده أنه لا أثر لها من الصحة، فان معاوية لم يتردد في اغتيال

الإمام الحسن حتى بعد ما بايعه، فكيف يوصي ولده بالعفو عن الحسين ان ظفر به.
لم يكن معاوية بالذي يرعي لرسول الله (ص) حرمة أو قرابة حتى يوصي ابنه برعاية آل محمد، كلا ابدا فقد حارب الرسول في الجاهلية حتى أسلم كرها يوم فتح مكة، ثم حارب صهر الرسول وخليفته وابن عمه عليا، ونزا على خلافة المسلمين، وانتزعها قهرا، وسم ابن بنت الرسول الحسن، فهل يصدق بعد هذا كله أن يوصي بمثل ما أوصى به.
قد يكون أوصاه أن يغتاله سرا ويدس له السم، أو يبعث له من يطعنه بليل - ربما كان هذا الفرض أقرب إلى الصحة من تلك الوصية - ولكن المؤرخون سامحهم الله أرادوا أن يبرؤا ساحة الأب، ويلقوا جميع التبعات على الابن وهما في الحقيقة غرس اثم واحد وثمرة جريمة واحدة
وأضاف يقول:
ولو أن الوصية المزعومة كانت صحيحة لما كان يزيد لأهم له بعد موت أبيه الا تحصيل البيعة من الحسين وتشديده على عامله بالمدينة بلزوم اجبار الحسين على البيعة. " (١).
موت معاوية:
واستقبل معاوية الموت غير مطمئن فكان يتوجع ويظهر الجزع على ما اقترفه من الاسراف في سفك دماء المسلمين ونهب أموالهم، وقد وافاه الاجل في دمشق محروما عن رؤية ولده الذي اغتصب له الخلافة وحمله

---

(١) مجلة الغري السنة الثامنة العدد ٩ و ١٠.

على رقاب المسلمين، وكان يزيد – فيما يقول المؤرخون مشغولا عن أبيه – في أثناء وفاته – برحلات الصيد وعربدات السكر، ونغمة العيدان.
وبهذا ينتهي بنا الحديث عن حكومة معاوية، وما رافقها من الاحداث الجسام.

وتسلم يزيد بعد هلاك أبيه قيادة الدولة الاسلامية، وهو في غضارة العمر، لم تهذبه الأيام ولم تصقله التجارب، وانما كان - فيما أجمع عليه المؤرخون - موفور الرغبة في اللهو والقنص والخمر والنساء وكلاب الصيد وممعنا كل الامعان في اقتراف المنكر والفحشاء، ولم يكن حين هلاك أبيه في دمشق، وانما كان في رحلات الصيد في حوارين الثنية (١) فأرسل إليه الضحاك بن قيس رسالة يعزيه فيها بوفاة معاوية، ويهنئه بالخلافة، ويطلب منه الاسراع إلى دمشق ليتولى أزمة الحكم، وحينما قرا الرسالة اتجه فورا نحو عاصمته في ركب من أخواله، وكان ضخما كثير الشعر، وقد شعث في الطريق وليس عليه عمامة، ولا منقلدا بسيف، فاقبل الناس يسملون عليه، ويعزونه، وقد عابوا عليه ما هو فيه، وراحوا يقولون: " هذا الأعرابي الذي ولاه معاوية أمر الناس، والله سأله عنه " (٢)

واتجه نحو قبر أبيه فجلس عنده وهو باك العين، وأنشأ يقول:

جاء البريد بقرطاس يخب به * فأوجس القلب من قرطاسه فزعا
قلنا لك الويل ماذا في كتابكم * قال الخليفة أمسى مدنفا وجعا (٣)

ثم سار متجها نحو القبة الخضراء في موكب رسمي تحف به علوج أهل الشام وأخواله وسائر بني أمية.

---

(١) الفتوح ٤ / ٢٦٥.
(٢) تاريخ الاسلام للذهبي ١ / ٢٦٧.
(٣) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦١.

خطاب العرش:

واتجه يزيد نحو منصة الخطابة ليعلن للناس سياسته، ومخططات حكومته، فلما استوى عليها ارتج عليه، ولم يطق الكلام، فقام إليه الضحاك بن قيس، فصاح به يزيد ما جاء بك؟ قال له الضحاك: كلم الناس وخذ عليهم، فأمره بالجلوس (١)، وانبرى خطيبا فقال:

" الحمد لله الذي ما شاء صنع، ومن شاء منع، ومن شاء خفض ومن شاء رفع ان أمير المؤمنين – يعني معاوية – كان حبلا من حبال الله مده، ما شاء أن يمده، ثم قطعه حين أراد أن يقطعه، وكان دون من قبله، وخيرا مما يأتي بعده، ولا أزكيه عند ربه وقد صار إليه، فان يعف عنه فبرحمته وإن يعاقبه فبذنبه، وقد وليت بعده الامر ولست اعتذر من جهل، ولا اتي على طلب علم، وعلى رسلكم إذا كره الله شيئا غيره وإذا أحب شيئا يسره.. " (٢).

ولم يعرض يزيد في هذا الخطاب لسياسة دولته، ولم يدل باي شئ مما تحتاج إليه الأمة في مجالاتهم الاقتصادية والاجتماعية، ومن المقطوع به ان ذلك مما لم يفكر به، وانما عرض لطيشه وجبروته واستهانته بالأمة فهو لا يعتذر إليها من أي جهل يرتكبه، ولا من سيئة يقترفها، وانما على الأمة الاذعان والرضا لظلمه وبطشه.

---

(١) تاريخ الخلفاء، نشر أكاديمية العلوم للاتحاد السوفيتي.

(٢) العقد الفريد ٤ / ١٥٣ عيون الاخبار ٢ / ٢٣٩.

خطابه في أهل الشام:
وخطب في أهل الشام خطابا أعلن فيه عن عزمه وتصميمه على الخوض في حرب مدمرة مع أهل العراق، وهذا نصه:
" يا أهل الشام فان الخير لم يزل فيكم، وسيكون بيني وبين أهل العراق حرب شديد، وقد رأيت في منامي كان نهرا يجري بيني وبينهم دما عبيطا، وجعلت أجهد في منامي أن أجوز ذلك النهر فلم أقدر على ذلك حتى جاءني عبيد الله بن زياد فجازه بين يدي، وأنا أنظر إليه. ".
وانبرى أهل الشام فاعلنوا تأييدهم ودعمهم الكامل له قائلين:
" يا أمير المؤمنين امض بنا حيث شئت " وأقدم بنا على من أحببت فنحن بين يديك، وسيوفنا تعرفها أهل العراق في يوم صفين. "
فشكرهم يزيد واثنى على اخلاصهم وولائهم له (١) وقد بات من المقطوع به عند أوساط الشام ان يزيد سيعلن الحرب على أهل العراق لكراهتهم لبيعة، وتجاوبهم مع الإمام الحسين.
مع المعارضة في يثرب:
ولم يرق ليزيد أن يرى جبهة معارضة، لا تخضع لسلطانه، ولا تدين بالولاء لحكومته وقد عزم على التنكيل بها بغير هوادة، فقد استتبت له الأمور وخضعت له الرقاب، وصارت أجهزة الدولة كلها بيده فما الذي يمنعه من ارغام أعدائه ومناوئيه.
وأهم ما كان يفكر به من المعارضين الإمام الحسين (ع) لأنه يتمتع

---

(١) الفتوح ٥ / ٦.

بنفوذ واسع النطاق، ومكانة مرموقة بين المسلمين فهو حفيد صاحب الرسالة وسيد شباب أهل الجنة، أما ابن الزبير فلم تكن له تلك الأهمية البالغة في نفسها.

الأوامر المشددة إلى الوليد:

وأصدر يزيد أوامره المشددة إلى عامله على يثرب الوليد بن عتبة بارغام المعارضين له على البيعة، وقد كتب إليه رسالتين:

الأولى وقد رويت بصورتين وهما:

١ - رواها الخوارزمي وهذا نصها: أما بعد: فان معاوية كان عبدا من عباد الله أكرمه، واستخلصه، ومكن له ثم قبضه إلى روحه وريحانه ورحمته، عاش بقدر ومات بأجل، وقد كان عهد إلي وأوصاني ان الله تبارك وتعالى منتقم للمظلوم عثمان بآل أبي سفيان لأنهم أنصار الحق وطلاب العدل فإذا ورد عليك كتابي هذا فخذ البيعة على أهل المدينة " (١).

وقد احتوت هذه الرسالة على ما يلي:

١ - نعي معاوية إلى الوليد

٢ - تخوف يزيد من الأسرة النبوية لأنه قد عهد إليه أبوه بالحذر منها، وهذا يتنافى مع تلك الوصية المزعومة لمعاوية التي جاء فيها اهتمامه بشأن الحسين (ع) والزام ولده بتكريمه ورعاية مقامه.

٣ - الاسراع في اخذ البيعة من أهل المدينة.

٢ - رواها البلاذري، وهذا نصها: " أما بعد: فان معاوية بن أبي سفيان كان عبدا من عباد الله أكرمه الله، واستخلفه، وخوله،

---

(١) مقتل الخوازمي ١ / ١٧٨.

ومكن له فعاش بقدر ومات بأجل، فرحمة الله عليه، فقد عاش محمودا ومات برا تقيا والسلام.. " (١).
وأكبر الظن ان هذه الرواية هي الصحيحة فالها قد اقتصرت على نعي معاوية إلى الوليد من دون أن تعرض إلى أخذ البيعة من الحسين وغيره من المعارضين، اما على الرواية الأولى، فإنه يصبح ذكر الرسالة التالية – التي بعثها يزيد إلى الوليد لارغام الحسين على البيعة لغوا.
الثانية: رسالة صغيرة، وصفت كأنها اذن فارة، وقد رويت بثلاث صور:
١ – رواها الطبري والبلاذري، وهذا نصها: " أما بعد، فخذ حسينا، وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير أخذا شديدا ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام " (٢).
٢ – رواها اليعقوبي وهذا نصها: " إذا أتاك كتابي فاحضر الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير، فخذهما بالبيعة فان امتنعا فاضرب أعناقهما، وابعث إلي برؤوسهما وخذ الناس بالبيعة فمن امتنع فانفذ فيه الحكم، وفي الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير والسلام " (٣).
وليس في الرواية الثانية ذكر لعبد الله بن عمر، وأكبر الظن أنه أضيف اسمه إلى الحسين وابن الزبير لالحاقه بالجبهة المعارضة وتبريره من التأييد السافر لبيعة يزيد.
٣ – رواها الحافظ ابن عساكر، وهذا نصها: " إن ادع الناس

---

(١) أنساب الأشراف ج ١ ق ١ ص ١٢٤.
(٢) تاريخ الطبري ٦ / ٨٤ أنساب الأشراف ج ١ ق ١ ص ١٢٤.
(٣) تاريخ اليعقوبي ٢ / ٢١٥.

فبايعهم، وابدأ بوجوه قريش وليكن أول من تبدأ به الحسين بن علي فان أمير المؤمنين – يعني معاوية – عهد إلى في أمره الرفق واستصلاحه " (١)
وليس في هده الرواية ذكر لابن الزبير وابن عمر إذ لم تكن لهما أية أهمية في نظر يزيد إلا انا نشك فيما جاء في أخر هذه الرسالة من أن معاوية قد عهد إلى يزيد الرفق بالحسين واستصلاحه، فان معاوية قد وقف موقفا ايجابيا يتسم بالعداء والكراهية لعموم أهل البيت (ع) واتخذ ضدهم جميع الاجراءات القاسية كما ألمعنا إلى ذلك في البحوث السابقة، وأكبر الظن ان هذه الجملة قد أضيفت إليها لتبرير معاوية، ونفي للمسؤولية عنه فيما ارتكبه ولده من الجرائم ضد العترة الطاهرة.
بفي هنا شئ وهوان هذه الرسالة قد وصفها المؤرخون كأنها اذان فارة لصغرها ولعل السبب في ارسالها بهذا الحجم هو ان يزبد قد حسب أن الوليد سينفذ ما عهد إليه من قتل الحسين وابن الزبير، ومن الطبيعي ان لذلك كثيرا من المضاعفات السيئة ومن أهمها ما يلحقه من التذمر والسخط الشامل بين المسلمين فأراد أن يجعل التبعة على الوليد، وأنه لم يعهد إليه بقتلهما، وانه لو أمره بذلك لا صدر مرسوما خاصا مطولا به.
وحمل الرسالتين زريق مولى فاخذ يجذ في السير لا يلوي على شئ حتى انتهى إلى يثرب (٢) وكان معه عبد الله بن سعد بن أبي سرح متلثما لا يبدو منه الا عيناه فصادفه عبد الله بن الزبير فاخذ بيده وجعل

---

(١) تاريخ ابن عساكر ١٣ / ٦٨.
(٢) تاريخ الاسلام للذهبي ١ / ٢٦٩، تاريخ خليفة خياط ١ / ٢٢٢ وجاء في تاريخ ابن عساكر ١٣ / ٦٨ وكتب يزيد مع عبد الله بن عمر، وابن إدريس العامري عامر بن لؤي هذه الرسالة.

يسأله عن معاوية وهو لا يجيبه، فقال له: أمات معاوية؟ فلم يكلمه بشئ فاعتقد بموت معاوية، وقفل مسرعا إلى الحسين وأخبره الخبر (١)، فقال له الحسين: إني أظن أن معاوية قد مات، فقد رأيت البارحة في منامي كان منير معاوية منكوس، ورأيت داره تشتعل نارا فأولت ذلك في نفسي بموته (٢).

واقبل زريق إلى دار الوليد فقال للحاجب استأذن لي، فقال قد دخل ولا سبيل إليه، فصاح به زريق: انى جئته بأمر، فدخل الحاجب وأخبره بالامر فاذن له، وكان جالسا على سرير فلما قرا كتاب يزيد بوفاة معاوية جزع جزعا شديدا، وجعل يقوم على رجليه، ويرمي بنفسه على فراشه (٣).

فزع الوليد:

وفزع الوليد مما عهد إلى يزيد من التنكيل بالمعارضين، فقد كان على يقين من أن أخذ البيعة من هؤلاء النفر ليس بالامر السهل، حتى يقابلهم بالعنف، أو يضرب أعناقهم - كما أمره يزيد - ان هؤلاء النفر لم يستطع معاوية مع ما يتمتع به من القابليات الدبلوماسية أن يخضعهم لبيعة يزيد، فكيف يصنع الوليد أمرا عجز عنه معاوية.

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢ / ١١٥.
(٢) الفتوح ٥ / ١٤.
(٣) تاريخ خليفة خياط ١ / ٢٢٢.

استشارته لمروان:
وحار الوليد في امره فرأى أنه في حاجة إلى مشورة مروان عميد الأسرة الأموية فبعث خلفه، فاقبل مروان وعليه قميص أبيض وملأه موردة (١) فنعى إليه معاوية فجزع مروان وعرض عليه ما أمره يزيد من ارغام المعارضين على البيعة له وإذا أصروا على الامتناع فيضرب أعناقهم، وطلب من مروان أن يمنحه النصيحة، ويخلص له في الرأي.
رأي مروان:
وأشار مروان على الوليد فقال له: ابعث إليهم في هذه الساعة فتدعوهم إلى البيعة والدخول في طاعة يزيد، فان فعلوا قبلت ذلك منهم، وان أبوا قدمهم، واضرب أعناقهم قبل أن يدروا بموت معاوية، فإنهم إن عملوا ذلك وثب كل رجل منهم فاظهر الخلاف، ودعا إلى نفسه، فعند ذلك أخاف أن يأتيك من قبلهم مالا قبل لك به، الا عبد الله بن عمر فإنه لا ينازع في هذا الامر أحدا... مع اني اعلم أن الحسين بن علي لا يجيبك إلى بيعة يزيد، ولا يرى له عليه طاعة، ووالله لو كنت في وضعك لم أراجع الحسين بكلمة واحدة حتى أضرب رقبته كأننا في ذلك ما كان.
وعظم ذلك على الوليد وهو أحنك بني أمية وأملكهم لعقله ورشده فقال لمروان:
" يا ليت الوليد لم يولد ولم يك شيئا مذكورا. ".

---

(١) تاريخ الاسلام للذهبي ١ / ٢٦٩.

فسخر منه مروان وراح يندد به قائلا:
" لا تجزع مما قلت لك: فان آل أبي تراب هم الأعداء من قديم الدهر ولم يزالوا وهم الدين قتلوا الخليفة عثمان بن عفان، ثم ساروا إلى أمير المؤمنين - يعني معاوية - فحاربوه... ".
ونهره الوليد فقال له:
" ويحك يا مروان عن كلامك هذا، وأحسن القول في ابن فاطمة فإنه بقية النبوة " (١).
واتفق رأيهم على استدعاء القوم، وعرض الامر عليهم للوقوف على مدى تجاوبهم مع السلطة في هذا الامر.
أضواء على موقف مروان:
لقد حرض مروان الوليد على التنكيل بالمعارضين، واستهدف بالذات الإمام الحسين، فألح بالفتك به ان امتنع من البيعة وفيما أحسب انه انما دعاه لذلك ما يلي:
١ - ان مروان كان يحفد على الوليد، وكانت بينهما عداوة متأصلة وهو - على يقين - ان الوليد يحب العافية، ولا ينفذ ما عهد إليه في شان الإمام الحسين، فاستغل الموقف، وراح يشدد عليه في اتخاذ الاجراءات الصارمة ضد الامام، ليستبين لطاغية الشام موقفه فيسلب ثقته عنه، ويقصيه عن ولاية يثرب، وفعلا قد تحقق ذلك فان يزيد حينما علم بموقف الوليد مع الحسين (ع) غضب عليه وقد وأقصاه عن منصبه.

---

(١) الفتوح ٥ / ١٢ - ١٣.

٢ – ان مروان كان ناقما على معاوية حينما عهد بالخلافة لولده ولم يرشحه لها، لأنه شيخ الأمويين وأكبرهم سنا، فأراد أن يورط يزيد في قتل الامام ليكون به زوال ملكه.

٣ – كان مروان من الحاقدين على الحسين لأنه سبط رسول الله (ص) الذي حصد رؤوس بني أمية ونفي أباه الحكم عن يثرب، وقد لعنه ولعن من تناسل منه، وقد بلغ الحقد بمروان للأسرة النبوية أنه منع من دفن جنازة الحسن (ع) مع جده رسول الله (ص) ويقول المؤرخون: إنه كان يبغض أبا هريرة لأنه يروي ما سمعه من رسول الله (ص) فسمع في فضل سبطيه وريحانتيه، وقد دخل على أبي هريرة عائدا له فقال له:

" يا أبا هريرة ما وجدت عليك في شئ منذ اصطحبنا الا في حبك الحسن والحسين ".

فاجابه أبو هريرة:

" اشهد لقد خرجنا مع رسول الله (ص) فسمع الحسن والحسين يبكيان، فقال: ما شان ابني؟ فقالت فاطمة: العطش.. يا مروان كيف لا أحب هذين، وقد رأيت من رسول الله ما رأيت. " (١).

لقد دفع مروان الوليد إلى الفتك بالحسين لعله يستجيب له فيروي بذلك نفسه المترعة بالحقد والكراهية لعترة النبي (ص).

٤ – كان مروان – على يقين – انه سيلي الخلافة، فقد أخبره الامام أمير المؤمنين وصي النبي (ص) وباب المدينة علمه حينما تشفع الحسنان به بعد واقعة الجمل، فقال: ان له امرة كلعقة الكلب أنفه، وقد اعتقد بذلك مروان، وقد حرض الوليد على الفتك بالحسين ليكون

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٤ / ٢٠٨.

ذلك سببا لزوال ملك بني سفيان، ورجوع الخلافة إليه.
هذه بعض الأسباب التي حفزت مروان إلى الإشارة على الوليد بقتل الإمام الحسين وانه لم يكن بذلك مشفوعا بالولاء والاخلاص إلى يزيد.
استدعاء الحسين:
وأرسل الوليد في منتصف الليل (١) عبد الله بن عمرو بن عثمان وهو غلام حدث خلف الحسين وابن الزبير، وانما بعثه في هذا الوقت لعله يحصل على الوفاق من الحسين ولو سرا على البيعة ليزيد، وهو يعلم أنه إذا أعطاه ذلك فلن يخيس بعهده، ولن يتخلف عن قوله.
ومضى الفتى يدعو الحسين وابن الزبير للحضور عند الوليد فوجدهما في مسجد النبي (ص) فدعاهما إلى ذلك فاستجابا له، وأمراه بالانصراف وذعر ابن الزبير، فقال للامام:
- ما تراه بعث إلينا في هذه الساعة التي لم يكن يجلس فيها؟
- أظن أن طاغيتهم - يعني معاوية - قد هلك فبعث إلينا بالبيعة قبل أن يفشو بالناس الخبر.
- وأنا ما أظن غيره فما تريد أن تصنع؟
- أجمع فتياني الساعة، ثم أسير إليه، وأجلسهم على الباب.
- إني أخاف عليك إذا دخلت.
- لا آتيه إلا وأنا قادر على الامتناع (٢).

---

(١) البداية والنهاية ٨ / ١٦٠.
(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٤.

وانصرف أبي الضيم إلى منزله فاغتسل، وصلى ودعا الله (١) وأمر أهل بيته بلبس السلاح والخروج معه، فخفوا محدقين به، فأمرهم بالجلوس على باب الدار، وقال لهم: اني داخل فإذا دعوتكم أو سمعتم صوتي قد علا فأدخلوني علي بأجمعكم، ودخل الامام على الوليد فرأى مروان عنده وكانت بينهما قطيعة فأمرهما الامام بالتقارب والاصلاح، وترك الأحقاد، وكانت سجية الإمام (ع) التي طبع عليها الاصلاح حتى مع أعدائه وخصومه، فقال (ع) لهما:

" الصلة خير من القطيعة، والصلح خير من الفساد، وقد آن لكما أن تجتمعا، أصلح الله ذا بينكما. "

(٢) ولم يجيباه بشئ فقد علاهما صمت رهيب، والتفت الامام إلى الوليد فقال له: هل اتاك من معاوية خير؟ فإنه كان عليلا وقد طالت علته، فكيف حاله الان؟

فقال الوليد بصوت خافت حزين النبرات:

" آجرك الله في معاوية فقد كان لك عم صدوق، وقد ذاق الموت وهذا كتاب أمير المؤمنين يزيد... ".

فاسترجع الحسين، وقال له:

" لماذا دعوتني؟ ".

" دعوتك للبيعة " (٣)

فقال (ع): إن مثلي لا يبايع سرا، ولا يجتزئ بها مني سرا، فإذا خرجت إلى الناس ودعتهم للبيعة، دعوتنا معهم كان الامر واحدا.

---

(١) الدر النظيم (ص ١٦٢).
(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٤.
(٣) الفتوح ٥ / ١٧.

لقد طلب الامام تأجيل الامر إلى الصباح، حنى يعقد اجتماع جماهيري فيدلي برأيه في شحب البيعة ليزيد، ويستنهض همم المسلمين على الثورة والإطاحة بحكمه، وكان الوليد - فيما يقول المؤرخون - بحب العافية ويكره الفتنة فشكر الامام على مقالته، وسمح له بالانصراف إلى داره، وانبرى الوغد الخبيث مروان بن الحكم وهو مغيظ محنق فصاح بالوليد " " لئن فارقك الساعة ولم يبايع لا قدرت منه على مثلها أبدا حتى تكثر القتلى بينكم وبينه، احبسه فان بايع والا ضربت عنقه ".

ووثب أبي الضيم إلى الوزغ ابن الوزغ فقال له:

" يا بن الزرقاء أأنت تقتلني أم هو؟ كذبت والله ولؤمت " (١).

وأقبل على الوليد فأخبره عن عزمه وتصميمه على رفض البيعة ليزيد قائلا:

" أيها الأمير إنا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة ومحل الرحمة، بنا فتح الله، وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق، شارب خمر قاتل النفس المحرمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله، ولكن نصبح وتصبحون، وننظر، وتنظرون أينا أحق بالخلافة والبيعة " (٢).

وكان هذا أول اعلان له على الصعيد الرسمي - بعد هلاك معاوية - في رفض البيعة ليزيد، وقد أعلن ذلك في بيت الامارة ورواق السلطة بدون مبالاة ولا خوف ولا ذعر.

لقد جاء تصريحه بالرفض لبيعة يزيد معبرا عن تصميمه، وتوطين نفسه حتى النهاية على التضحية عن سمو مبدئه، وشرف عقيدته، فهو بحكم مواريثه الروحية ك، وبحكم بيته الذي كان ملتقى لجميع الكمالات الانسانية

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٤.

(٢) الفتوح ٥ / ١٨.

كيف يبايع يزيد الذي هو من عناصر الفسق والفجور، ولو أقره إماما على المسلمين لساق الحياة الاسلامية إلى الانهيار والدمار وعصف بالعقيدة الدينية في متاهات سحيقة من مجاهل هذه الحياة.

وكانت كلمة الحق الصارخة التي أعلنها أبو الأحرار قد أحدثت استياء في نفس مروان فاندفع يعنف الوليد ويلومه على اطلاق سراحه قائلا: " عصيتني! لا والله لا يمكنك مثلها من نفسه أبدا ".

وتأثر الوليد من منطق الامام، وتيقظ ضميره فاندفع يرد أباطيل مروان قائلا:

" ويحك!! انك أشرت علي بذهاب ديني ودنياي، والله ما أحب أن أملك الدنيا بأسرها، واني قتلت حسينا: سبحان الله!! أأقتل حسينا ان قال: لا أبايع، والله ما أظن أحدا يلقى الله بدم الحسين الا وهو خفيف الميزان، لا ينظر الله إليه يوم القيامة، ولا يزكيه وله عذاب اليم "

وسخر منه مروان وطفق يقول:

" إذا كان هذا رأيك فقد أصبت!! " (١).

وعزم الحسين على مغادرة يثرب والتوجه إلى مكة ليلوذ بالبيت الحرام ويكون بمأمن من شرور الأمويين واعتدائهم.

الحسين مع مروان:

والتقى أبي الضيم في أثناء الطريق بمروان بن الحكم في صبيحة تلك الليلة التي أعلن فيها رفضه لبيعة يزيد، فبادره مروان قائلا:

---

(١) الطبري.

" اني ناصح، فأطعني ترشد وتسدد.. ".
" وما ذاك يا مروان؟ ".
" اني آمرك ببيعة أمير المؤمنين يزيد فإنه خير لك في دينك ودنياك. "
والتاع كاشد ما تكون اللوعة واسترجع، وأخذ يرد على مقالة مروان ببليغ منطقه قائلا: " على الاسلام السلام، إذ قد بليت الأمة براع مثل يزيد، ويحك يا مروان!! أتأمرني ببيعة يزيد، وهو رجل فاسق: لقد قلت: شططا من القول.. لا ألومك على قولك، لأنك اللعين الذي لعنك رسول الله (ص) وأنت في صلب أبيك الحكم بن أبي العاص
وأضاف الامام يقول:
" إليك عني يا عدو الله!! فانا أهل البيت رسول الله (ص) والحق فينا، وبالحق تنطق ألسنتنا، وقد سمعت رسول الله (ص) يقول: الخلافة محرمة على آل أبي سفيان، وعلى الطلقاء وأبناء الطلقاء، وقال: إذا رأيتم معاوية على منبري فابقروا بطنه، فوالله لقد رآه أهل المدينة على منبر جدي فلم يفعلوا ما أمروا به.. ":
وتميز الخبيث الدنس مروان غيظا وغضبا، واندفع يصيح:
" والله لا تفارقني أو تبايع ليزيد صاغرا فإنكم آل أبي تراب، قد أشربتم بغض آل أبي سفيان، وحق عليكم أن تبغضوهم، وحق عليهم أن يبغضوكم " وصاح به الامام:
" إليك عني فإنك رجس، وأنا من أهل بيت الطهارة الذين انزل الله فيهم على نبيه (ص): " انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ".
ولم يطق مروان الكلام، وقد تحرق ألما وحزنا، فقال له الامام:
" ابشر يا بن الزرقاء بكل ما تكره من الرسول (ص) يوم تقدم

على ربك فيسألك جدي عن حقي وحق يزيد.. ".
وانصرف مروان مسرعا إلى الوليد فأخبره بمقالة الحسين له (١).
اتصال الوليد بدمشق:
وأحاط الوليد يزيد علما بالأوضاع الراهنة في يثرب، وعرفه بامتناع الحسين (ع) من البيعة، وانه لا يرى له طاعة عليه، ولما فهم يزيد بذلك تميز غيظا وغضبا.
الأوامر المشددة من دمشق:
وأصدر يزيد أوامره المشددة إلى الوليد بأخذ البيعة من أهل المدينة ثانيا، وقتل الحسين (ع) وارسال رأسه إليه وهذا نص كتابه.
" من عبد الله يزيد أمير المؤمنين إلى الوليد بن عتبة، أما بعد: فإذا ورد عليك كنا هذا فخذ البيعة ثانيا على أهل المدينة بتوكيد منك عليهم وذر عبد الله بن الزبير فإنه لن يفوت أبدا ما دام حيا، وليكن مع جوابك إلي براس الحسين بن علي، فان فعلت ذلك، فقد جعلت لك أعنة الخيل ولك عندي الجائزة، والحظ الأوفر والنعمة والسلام.. ".
رفض الوليد:
ورفض الوليد رسميا ما عهد إليه يزيد من قتل الحسين، وقال: لا والله لا يراني الله قاتل الحسين بن علي.. لا أقتل ابن بنت رسول الله (ص)

---

(١) الفتوح: ٥ / ٢٤.

ولو أعطاني يزيد الدنيا بحذافيرها (١) وقد جاءته هذه الرسالة بعد مغادرة الامام يثرب إلى مكة.

وداع الحسين لقبر جده:

وخف الحسين (ع) في الليلة الثانية إلى قبر جده (ص) وهو حزين كئيب ليشكو إليه ظلم الظالمين له، ووقف أمام القبر الشريف - بعد أن صلى ركعتين - وقد ثارت مشاعره وعواطفه، فاندفع يشكو إلى الله ما ألم به من المحن والخطوب قائلا:

" اللهم إن هذا قبر نبيك محمد، وأنا ابن بنت محمد، وقد حضرني من الامر ما قد علمت، اللهم إني أحب المعروف وأنكر المنكر، وأنا أسألك يا ذا الجلال والاكرام بحق هذا القبر ومن فيه الا ما اخترت لي ما هو لك رضى ولرسولك رضى. "

رؤيا الحسين لجده:

وأخذ الحسين يطيل النظر إلى قبر جده، وقد وثقت نفسه أنه لا يتمتع برؤيته، وانفجر بالبكاء، وقبل أن يندلع نور الفجر غلبه النوم فرأى جده الرسول (ص) قد اقبل في كتيبة من الملائكة فضم الحسين إلى صدره وقبل ما بين عينيه، وهو يقول له:

" يا بني كأنك عن قريب أراك مقتولا مذبوحا بأرض كرب وبلاء، بين عصابة من أمتي، وأنت مع ذلك عطشان لا تسقى، وظمآن

---

(١) الفتوح ٥ / ٢٦ - ٢٧.

لا تروى، وهم مع ذلك يرجون شفاعتي يوم القيامة، فما لهم عند الله من خلاق.
حبيبي يا حسين إن أباك وأمك وأخاك قد قدموا علي، وهم إليك مشتاقون ان لك في الجنة درجات لن تنالها إلا بالشهادة... ".
وجعل الحسين يطيل النظر إلى جده (ص) ويذكر عطفه وحنانه عليه فازداد وجيبه، وتمثلت أمامه المحن الكبرى التي يعانيها من الحكم الأموي فهو اما ان يبايع فاجر بني أمية أو يقتل، وأخذ يتوسل إلى جده ويتضرع إليه قائلا:
" يا جداه لا حاجة لي في الرجوع إلى الدنيا، فخذني إليك، وادخلني معك إلى منزلك ".
والتاع النبي (ص) فقال له:
" لا بد لك من الرجوع إلى الدنيا، حتى ترزق الشهادة، وما كتب الله لك فيها من الثواب العظيم فإنك، وأباك، وأخاك، وعمك، وعم أبيك تحشرون يوم القيامة، في زمرة واحدة حتى تدخلوا الجنة " (١).
واستيقظ الحسين فزعا مرعوبا قد المت به تيارات من الأسى والأحزان وصار على يقين لا يخامره أدنى شك انه لا بد أن يرزق الشهادة، وجمع أهل بيته فقص عليهم رؤياه الحزينة، فطافت بهم الآلام، وأيقنوا بنزول الرزء القاصم، ووصف المؤرخون شدة حزنهم، بأنه لم يكن في ذلك اليوم لا في شرق الأرض ولا في غربها أشد غما من أهل البيت رسول الله (ص) ولا أكثر باكية وباك منهم (٢).

---

(١) الفتوح ٥ / ٢٨ - ٢٩. (٢) مقتل العوالم (ص ٥٤).

وداعه لقبره أمه وأخيه:
وتوجه الحسين في غلس الليل البهيم إلى قبر أمه وديعة النبي (ص) وبضعته، ووقف امام قبرها الشريف مليا، وهو يلقى عليه نظرات الوداع الأخير، وقد تمثلت امامه عواطفها الفياضة، وشدة حنوها عليه، وقد ود أن تنشق الأرض لتواريه معها، وانفجر بالبكاء، وودع القبر وداعا حارا، ثم انصرف إلى قبر أخيه الزكي أبي محمد، فاخذ يروي ثرى القبر من دموع عينيه، وقد ألمت به الآلام والأحزان، ثم رجع إلى منزله، وهو غارق بالأسى والشجون (١).
فزع الهاشميات:
ولما عزم الامام على مغادرة يثرب واللجوء إلى مكة اجتمعن السيدات من نساء بني عبد المطلب، وقد جاشت عواطفهن بالأسى والحزن: فقد تواترت عليهن الانباء عن رسول الله (ص) عن مقتل ولده الحسين، وجعلن ينحن، وتعالت أصواتهن بالبكاء، وكان منظرا مفزعا، وانبرى إليهن الحسين، وهو رابط الجاش فقال لهن:
" أنشدكن الله أن تبدين هذا الامر معصية لله ولرسوله ".
فذابت نفوسهن، وصحن:
" لمن نستبقي النياحة والبكاء، فهو عندنا كيوم مات فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعلي وفاطمة والحسن.. جعلنا الله فداك يا حبيب الأبرار.. ".

---

(١) الفتوح ٥ / ٢٩.

وأقبلت عليه بعض عماته، وهي شاحبة اللون، فقالت بنبرات منقطعة بالبكاء لقد سمعت هاتفا يقول:

وان قتيل الطف من آل الهاشم * أذل رقابا من قريش فذلت

وجعل الإمام (ع) يهدأ أعصابهم، يأمرها بالخلود إلى الصبر، كما أمر سائر السيدات من بني عبد المطلب بذلك (١).

مع أخيه ابن الحنفية:

وفزع محمد بن الحنيفة إلى الحسين، فجاء يتعثر في خطاه، وهو لا يبصر طريقه من شدة الحزن والأسى، ولما استقر به المجلس اقبل على الحسين قال له بنبرات مشفوعة بالاخلاص والحنو عليه.

" يا أخي فدتك نفسي، أنت أحب الناس إلي، وأعزهم علي، ولست والله أدخر النصيحة لاحد من الخلق، وليس أحد أحق بها منك فإنك كنفسي وروحي، وكبير أهل بيتي، ومن عليه اعتمادي، وطاعته في عنقه لان الله تبارك وتعالى قد شرفك وجعلك من سادات أهل الجنة واني أريد أن أشير عليك برأيي فاقبله مني... ".

لقد عبر محمد بهذا الحديث الرقيق عن عواطفه الفياضة المترعة بالولاء والاكبار لأخيه، واقبل عليه الامام فقال له محمد:

" أشير عليك أن تتنح ببيعتك عن يزيد بن معاوية وعن الأمصار ما استطعت، ثم ابعث برسلك إلى الناس، فان بايعوك حمدت الله على ذلك وان اجتمعوا على غيرك لم ينقض الله بذلك دينك، ولا عقلك، ولم تذهب مروءتك، ولا فضلك، واني أخاف عليك أن تدخل مصرا من هذه

---

(١) مقتل الحسين للمقرم (ص ١٤٨).

الأمصار فيختلف الناس بينهم فطائفة معك، وأخرى عليك، فيقتتلون، فتكون لأول الأسنة غرضا، فإذا خير هذه الأمة كلها نفسا وأبا وأما أضيعها دما وأذلها اهلا.. ".

وبادر الإمام الحسين فقال له:

" أين أذهب؟ "

" تنزل مكة فان اطمانت بك الدار، والا لحقت بالرمال، وشعب الجبال وخرجت من بلد إلى آخر حتى ننظر ما يصير إليه أمر الناس، فإنك أصوب ما تكون رأيا وأحزمهم عملا، حتى تستقل الأمور استقبالا ولا تكون الأمور أبدا أشكل عليك منها حتى تستدبرها استدبارا " (١).

وانطلق الامام وهو غير حافل بالاحداث، فأخبره عن عزمه وتصميمه الكامل على رفض البيعة ليزيد قائلا:

" يا أخي: لو لم يكن في الدنيا ملجا ولا مأوى لما بايعت يزيد ان معاوية ".

وانفجر ابن الحنفية بالبكاء، فقد أيقن بالرزء القاصم، واستشف ماذا سيجري على أخيه من الرزايا والخطوب، وشكر الامام نصيحته وقال له: " يا أخي: جزاك الله خيرا لقد نصحت، وأشرت بالصواب، وأنا عازم على الخروج إلى مكة، وقد تهيأت لذلك أنا وإخوتي وبنو أخي وشيعتي أمرهم أمري، ورأيهم رأيي، وأما أنت فلا عليك أن تقيم بالمدينة فتكون لي عينا لا تخف عني شيئا من أمورهم " (٢).

---

(١) تاريخ الطبري ٦ / ١٩١.

(٢) الفتوح ٥ / ٣٢.

وصيته لابن الحنفية:
وعهد الامام بوصيته الخالدة إلى أخيه ابن الحنفية، وقد تحدث فيها عن أسباب ثورته الكبرى على حكومة يزيد وقد جاء فيها بعد البسملة:
" هذا ما أوصى به الحسين بن علي إلى أخيه محمد بن الحنفية، ان الحسين يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله جاء بالحق من عنده، وان الجنة حق، والنار حق، وان الساعة آتية لا ريب فيها، وان الله يبعث من في القبور.
واني لم أخرج أشرا، ولا بطرا، ولا مفسدا، ولا ظالما، وانما خرجت لطلب الاصلاح في أمة جدي (ص) أريد أن آمر بالمعروف وانهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب، فمن قبلني بقبول الحق، فالله أولى بالحق، ومن رد علي أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم وهو خير الحاكمين.
" وهذه وصيتي إليك يا أخي، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب " (١).
من أجل هذه الأهداف النبيلة فجر الامام ثورته الخالدة فهو لم يخرج أشرا ولا بطرا، ولم يبغ أي مصلحة مادية له أو لأسرته، وانما خرج على حكم الظلم والطغيان، يريد أن يقيم صروح العدل بين الناس، وما أروع قوله:
" فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن رد علي أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم وهو خير الحاكمين ".
لقد حدود الامام خروجه بأنه كان من أجل إحقاق الحق وإماتة الباطل

---
(١) الفتوح ٥ / ٣٣ مقتل الخوارزمي ١ / ١٨٨.

ودعا الأمة باسم الحق إلى الالتفات حوله لتحمى حقوقها وتصون كرامتها وعزتها التي انهارت على أيدي الأمويين، وإذا لم تستجب لنصرته فسيواصل وحده مسيرته النضالية بصبر وثبات في مناجزة الظالمين والمعتدين حتى يحكم الله بينه وبينهم بالحق وهو خير الحاكمين... كما حدد الامام خروجه بأنه يريد أن يسير على منهاج جده وأبيه، وليس على منهاج أي أحد من الخلفاء.

وهذه الوصية من البنود التي نرجع إليها في دراستنا عن أسباب ثورته (ع).

وتهيأ الامام بعد وصيته لأخيه محمد إلى السفر إلى مكة ليلتقي بحجاج بيت الله الحرام وغيرهم، ويعرض عليهم الأوضاع الراهنة في البلاد، وما تعانيه الأمة من الأزمات والاخطار في عهد يزيد.

وقبل أن يغادر الإمام (ع) يثرب متجها إلى مكة دخل مسجد جده الرسول (ص) وهو غارق في الأسى والشجون فالقى عليه نظرة الوداع الأخير، وقد نظر إلى محراب جده (ص) ومنبره، فطافت به ذكريات ذلك العطف الذي كان يفيضه عليه جده (ص) حينما كان في غضون الصبا، فلم ينس الحسين في جميع فترات حياته ذلك الحنان الذي أغدقه عليه جده حينما يقول فيه:

" حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسينا، حسين سبط من الأسباط... ":

وتذكر كيف كان النبي (ص) يفرغ عليه ما انطوت عليه نفسه الكبيرة من المثل العليا التي كان بها خاتم النبيين وسيد المرسلين، وأيقن انه لم يكن يشيع ذلك في نفسه بمحض العاطفة بل بشعور آخر هو الابقاء على رسالته، ومبادئه، ورأى أنه لا بد أن يقدم التضحية الرهيبة التي تصون

رسالة الاسلام من عبث الناقمين عليه... ويقول المؤرخون: انه دخل المسجد بين أهل بيته، وهو يعتمد في مشيه على رجلين ويتمثل بقول يزيد بن مفرغ:

لا ذعرت السوام في فلق الصبح * مغيرا ولا دعيت يزيدا
يوم أعطى من المهانة ضيما * والمنايا ترصدنني أن أحيدا (١)

ويقول أبو سعيد: لما سمعت هذين البيتين قلت في نفسي: انه ما تمثل بهما الا لشئ يريده فما مكث الا قليلا حتى بلغني أنه سار إلى مكة (٢) لقد صمم على التضحية والفداء ليغير مجرى الحياة، ويرفع كلمة الله وفكرة الخير في الأرض.

أما يثرب مهد النبوة فإنه حينما أذيع فيها مغادرة الحسين عنها علتها الكآبة وخيم على أهلها الحزن والذعر فقد أيقنوا بالخسارة الفادحة التي ستحل بهم، فسيغيب عنهم قبس من نور الرسالة الذي كان يضئ لهم الحياة، وحزنت البقية الباقية من صحابة النبي (ص) كأعظم ما يكون الحزن، فقد كانوا يرون في الحسين امتدادا لجده الرسول (ص) الذي أنقذهم من حياة التيه في الصحراء.

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٥.
(٢) تاريخ ابن عساكر ٤ / ٣٢٩، تاريخ الطبري.

ولم يفجر الإمام الحسين (ع) ثورته الكبرى أشرا، ولا بطرا، ولا ظالما، ولا مفسدا - حسب ما يقول - وانما انطلق ليؤسس معالم الاصلاح في البلاد، ويحقق العدل الاجتماعي بين الناس، ويقضي على أسباب النكسة الأليمة التي مني بها المسلمون في ظل الحكم الأموي الذي الحق بهم الهزيمة والعار.

لقد انطلق الامام ليصحح الأوضاع الراهنة في البلاد، ويعيد للأمة ما فقدته من مقوماتها وذاتياتها، ويعيد لشرايينها الحياة الكريمة التي تملك بها ارادتها وحريتها في مسيرتها النضالية لقيادة أمم العالم في ظل حكم متوازن تذاب فيه الفوارق الاجتماعية، وتقام الحياة على أسس صلبة من المحبة والإخاء، انه حكم الله خالق الكون وواهب الحياة، لا حكم معاوية الذي قاد مركبة حكومته على إماتة وعي الانسان، وشل حركاته الفكرية والاجتماعية.

لقد فجر الإمام (ع) ثورته الكبرى التي أوضح الله بها الكتاب، وجعلها عبرة لأولي الألباب، فأضاء بها الطريق، وأوضح بها القصد، وأنار بها الفكر، فانهارت بها السدود والحواجز التي وضعها الحكم الأموي امام التطور الشامل الذي يريده الاسلام لأبنائه، فلم يعد بعد الثورة أي ظل للسلبيات الرهيبة التي أقامها الحكم الأموي على مسرح الحياة الاسلامية، فقد انتقضت الأمة - بعد مقتل الامام - كالمارد الجبار وهي تسخر من الحياة، وتستهزأ بالموت، وتزج بأبنائها في ثورات متلاحقة حتى أطاحت بالحكم الأموي، واكتسحت معالم زهوه.

ولم يقدم الامام على الثورة إلا بعد أن انسدت امامه جميع الوسائل وانقطع كل أمل له في اصلاح الأمة، وانقاذها من السلوك في المنعطفات فأيقن انه لا طريق للاصلاح إلا بالتضحية الحمراء، فهي وحدها التي

تتغير بها الحياة، وترتفع راية الحق عالية في الأرض.
وفيما اعتقد ان أهم ما يتطلبه القراء لأمثال هذه البحوث الوقوف على أسباب الثورة الحسينية ومخططاتها، وفيما يلي ذلك.
أسباب الثورة: وأحاطت بالامام (ع) عدة من المسؤوليات الدينية والواجبات الاجتماعية وغيرها، فحفزته إلى الثورة ودفعته إلى التضحية والفداء وهذه بعضها.
١ - المسؤولية الدينية:
وأعلن الاسلام المسؤولية الكبرى على كل مسلم عما يحدث في بلاد المسلمين من الاحداث والأزمات التي تتنافى مع دينهم، وتتجافى مع مصالحهم، فإنه ليس من الاسلام في شئ أن يقف المسلم موقفا يتسم بالميوعة واللا مبالات أما الهزات التي تدهم الأمة وتدمر مصالحها، وقد أعلن الرسول (ص) هذه المسؤولية، يقول (ص): كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته " فالمسلم مسؤول أمام الله عن رعاية مجتمعه، والسهر على صالح بلاده، والدفاع عن أمته.
وعلى ضوء هذه المسؤولية الكبرى ناهض الامام جور الأمويين، وناجز مخططاتهم الهادفة إلى استعباد الأمة واذلالها، ونهب ثرواتها، وقد أدلى (ع) بما يحتمه الاسلام عليه من الجهاد لحكم الطاغية يزيد، امام الحر وأصحابه قال (ع):

" يا أيها الناس: إن رسول الله (ص) قال: " من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله ناكثا لعهد الله، مخالفا لسنة رسول الله (ص) يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بقول ولا فعل كان حقا على الله أن يدخله مدخله ".

لقد كان الواجب الديني يحتم عليه القيام بوجه الحكم الأموي الذي استحل حرمات الله، ونكث عهوده وخالف سنة رسول الله (ص)، وقد صرح جماعة من علماء المسلمين بان الواجب الديني كان يقضي على الامام أن ينطلق في ميادين الجهاد دفاعا عن الاسلام، وفيما يلي بعضهم.

١ - الإمام محمد عبده

وألمع الإمام محمد عبده في حديثه عن الحكومة العادلة والجائرة في الاسلام إلى خروج الامام على حكومة يزيد، ووصفه بأنه كان واجبا شرعيا عليه، قال: " إذا وجد في الدنيا حكومة عادلة تقيم الشرع، وحكومة جائرة تعطله، وجب على كل مسلم نصر الأولى، وخذل الثانية...

ومن هذا الباب خروج الإمام الحسين (ع) سبط الرسول (ص) على امام الجور والبغي الذي ولي أمر المسلمين بالقوة والمنكر يزيد بن معاوية خذله الله، وخذل من انتصر له من الكرامية والنواصب " (١).

٢ - محمد عبد الباقي

وتحدث الأستاذ محمد عبد الباقي سرور عن المسؤولية الدينية والاجتماعية اللتين تحتمان على الامام القيام بمناهضة حكم يزيد قال:

---

(١) تفسير المنار ١ / ٣٦٧، و ١٢ / ١٨٣ و ١٨٥.

" لو بايع الحسين يزيد الفاسق المستهتر، الذي أباح الخمر والزنا وحط بكرامة الخلافة إلى مجالسة الغانيات، وعقد حلقات الشراب في مجلس الحكم، والذي البس الكلاب والقرود خلاخل من ذهب، ومئات الألوف من المسلمين صرعى الجوع، والحرمان.

لو بايع الحسين يزيد أن يكون خليفة لرسول الله (ص) على هذا الوضع لكانت فتيا من الحسين بإباحة هذا للمسلمين، وكان سكوته هذا أيضا رضى، والرضا من ارتكاب المنكرات ولو بالسكوت اثم وجريمة في حكم الشريعة الاسلامية.. والحسين بوضعه الراهن في عهد يزيد هو الشخصية المسؤولة في الجزيرة العربية بل في البلاد الاسلامية كافة عن حماية التراث الاسلامي لمكانته في المسلمين، ولقرابته من رسول رب العالمين، ولكونه بعد موت كبار المسلمين كان أعظم المسلمين في ذلك الوقت علما وزهدا وحسبا ومكانة. فعلى هذا الوضع أحسن بالمسؤولية تناديه وتطلبه لايقاف المنكرات عند حدها، ولا سيما ان الذي يضع هذه المنكرات ويشجع عليها هو الجالس في مقعد رسول الله (ص) هذا أولا:

وثانيا: انه (ع) جاءته المبايعات بالخلافة من جزيرة العرب، وجاءه ثلاثون ألفا من الخطابات من ثلاثين الف من العراقيين من سكان البصرة والكوفة يطلبون فيها منه الشخوص لمشاركتهم في محاربة يزيد بن معاوية، وألحوا تكرار هذه الخطابات حتى قال رئيسهم عبد الله بن الحصين الأزدي: يا حسين سنشكوك إلى الله تعالى يوم القيامة إذا لم تلب طلبنا، وتقوم بنجدة الاسلام، وكيف والحسين ذو حمية دينية ونخوة اسلامية، والمفاسد تترى أمام عينيه، كيف لا يقوم بتلبية النداء، وعلى هذا الوضع لبى النداء، كما تأمر به الشريعة الاسلامية، وتوجه نحو العراق " (١).

---

(١) الثائر الأول في الاسلام (ص ٧٩).

وهذا الرأي وثيق للغاية فقد شفع بالأدلة الشرعية التي حملت الامام مسؤولية الجهاد والخروج على حكم طاغية زمانه.

٣ – عبد الحفيظ أبو السعود

يقول الأستاذ عبد الحفيظ أبو السعود: " ورأى الحسين أنه مطالب الان – يعني بعد هلاك معاوية – أن يعلن رفضه لهذه البيعة، وان يأخذ البيعة لنفسه من المسلمين، وهذا أقل ما يجب حفاظا لأمر الله، ورفعا للظلم، وابعادا لهذه العابث يعني يزيد – عن ذلك المنصب الجليل " (١).

٤ – الدكتور احمد محمود صبحي

وممن صرح بهذه المسؤولية الدينية الدكتور احمد محمود صبحي قال: " ففي اقدام الحسين على بيعة يزيد انحراف عن أصل من أصول الدين من حيث أن السياسة الدينية للمسلمين لا ترى في ولاية العهد وراثة الملك إلا بدعة هرقلية دخيلة على الاسلام، ومن حيث أن اختيار شخص يزيد مع ما عرف عنه من سوء السيرة، وميله إلى اللهو وشرب الخمر، ومنادمة القرود ليتولى منصب الخلافة عن رسول الله (ص) أكبر وزر يحل بالنظام السياسي للاسلام. يتحمل وزره كل من شارك فيه ورضى عنه، فما بالك إذا كان المقدم على ذلك هو ابن بنت رسول الله.

كان خروج الحسين إذا أمرا يتصل بالدعوة والعقيدة أكثر مما يتصل بالسياسة والحرب " (٢).

---

(١) سبط الرسول (ص ١٣٣).

(٢) نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثني عشرية (ص ٣٣٤).

٥ – العلائلي
يقول العلائلي: " وهناك واجب على الخليفة إذا تجاوزه وجب على الأمة اسقاطه، ووجبت على الناس الثورة عليه وهو المبالغة باحترام القانون الذي يخضع له الناس عامة، والا فأي تظاهر بخلافه يكون تلاعبا وعبثا، ومن ثم وجب على رجل القانون أن يكون أكثر تظاهرا باحترام القانون من أي شخص آخر، وأكبر مسؤولية من هذه الناحية، فإذا فسق الملك ثم جاهر بفسقه وتحدى الله ورسوله والمؤمنين لم يكن الخضوع له إلا خضوعا للفسق وخضوعا للفحشاء والمنكر، ولم يكن الاطمئنان إليه الا اطمئنانا للتلاعب والمعالنة الفاسقة.
هذا هو المعنى التحليلي لقوله (ع): " ويزيد رجل فاسق، وشارب للخمر وقاتل النفس المحرمة، معلن بالفسق " (١).
هذه بعض الآراء التي أدلي بها جماعة من العلماء في الزام الامام شرعا بالخروج على حكم الطاغية يزيد، وانه ليس له أن يقف موقفا سليبا أمام ما يقترفه يزيد من الظلم والجور.
٢ – مسؤولية الاجتماعية:
وكان الإمام (ع) بحكم مركزه الاجتماعي مسؤولا أمام الأمة عما منيت به من الظلم والاضطهاد من قيل الأمويين، ومن هو أولى بحمايتها ورد الاعتداء عنها غيره فهو سبط رسول الله (ص) وريحانته، والدين دين جده، والأمة أمة جده، وهو المسؤول بالدرجة الأولى عن رعايتهما.

---

(١) الإمام الحسين (ص ٩٤).

لقد رأى الامام أنه مسؤول عن هذه الأمة، وانه لا يجدي باي حال في تغيير الأوضاع الاجتماعية التزام جانب الصمت، وعدم الوثوب في وجه الحكم الأموي الملئ بالجور والآثام، فنهض (ع) بأعباء هذه المسؤولية الكبرى، وأدى رسالته بأمانة واخلاص، وضحى بنفسه وأهل بيته وأصحابه ليعيد على مسرح الحياة عدالة الاسلام وحكم القران.

٣ - إقامة الحجة عليه:

وقامت الحجة على الامام لاعلان الجهاد، ومناجزة قوى البغي والالحاد، فقد تواترت عليه الرسائل والوفود من أقوى حامية عسكرية في الاسلام، وهي الكوفة فكانت رسائل أهلها تحمله المسؤولية أمام الله إن لم يستجب لدعواتهم الملحة لانقاذهم من عسف الأمويين وبغيهم، ومن الطبيعي أنه لو لم يجيبهم لكان مسؤولا أمام الله، وأمام الأمة في جميع مراحل التاريخ، وتكون الحجة قائمة عليه.

٤ - حماية الاسلام:

ومن أوكد الأسباب التي ثار من أجلها حفيد الرسول (ص) حماية الاسلام من خطر الحكم الأموي الذي جهد على محو سطوره، وقلع جذوره واقبار قيمه، فقد أعلن يزيد وهو على دست الخلافة الاسلامية الكفر والالحاد بقوله:

لعبت هاشم بالملك فلا خبر * جاء ولا وحي نزل

وكشف هذا الشعر عن العقيدة الجاهلية التي كان يدين بها يزيد فهو لم يؤمن بوحي ولا كتاب، ولا جنة ولا نار، وقد رأى السبط أنه ان لم يثار لحماية الدين فسوف يجهز عليه حفيد أبي سفيان ويجعله أثرا بعد عين، فثار (ع) ثورته الكبرى التي فدى بها دين الله، فكان دمه الزاكي المعطر بشذى الرسالة، هو البلسم لهذا الدين، فان من المؤكد أنه لولا تضحيته لم يبق للاسلام اسم ولا رسم، وصار الدين دين الجاهلية ودين الدعارة والفسوق، ولذهبت سدى جميع جهود النبي (ص) وما كان ينشده للناس من خير وهدى، وقد نظر النبي (ص) من وراء الغيب واستشف مستقبل أمته، فرأى بعين اليقين، ما تمنى به الأمة من الانحراف عن الدين، وما يصيبها من الفتن والخطوب على أيدي أغيلمة من قريش، ورأى أن الذي يقوم بحماية الاسلام هو الحسين (ع) فقال (ص) كلمته الخالدة: " حسين مني وأنا من حسين " فكان النبي (ص) حقا من الحسين لان تضحيته كانت وقاية للقران، وسيبقى دمه الزكي يروي شجرة الاسلام على ممر الأحقاب والآباد.

٥ – صيانة الخلافة:

ومن ألمع الأسباب التي ثار من أجلها الإمام الحسين (ع) تطهير الخلافة الاسلامية من أرجاس الأمويين الذين نزوا عليها بغير حق.. فلم تعد الخلافة – في عهدهم كما يريدها الاسلام – وسيلة لتحقيق العدل الاجتماعي بين الناس، والقضاء على جميع أسباب التخلف والفساد في الأرض.

لقد اهتم الاسلام اهتماما بالغا بشأن الخلافة باعتبارها القاعدة الصلبة لإشاعة الحق والعدل بين الناس، فإذا صلحت نعمت الأمة بأسرها،

وإذا انحرفت عن واجباتها فان الأمة تصاب بتدهور سريع في جميع مقوماتها الفكرية والاجتماعية... ومن ثم فقد عنى الاسلام في شانها أشد ما تكون العناية، فالزم من يتصدى لها بان تتوفر فيه النزعات الخيرة والصفات الشريفة من العدالة والأمانة، والخبرة بما تحتاج إليه الأمة في مجالاتها الاقتصادية والإدارية والسياسية، وحرم على من فقد هذه الصفات أن يرشح نفسه للخلافة.. وقد تحدث (ع) في أولى رسائله إلى أهل الكوفة عن الصفات التي يجب أن تتوفر فيمن يرشح نفسه إلى امامة المسلمين وإدارة شؤونهم قال (ع):

" فلعمري ما الامام إلا العامل بالكتاب، والاخذ بالقسط، والدائن بالحق، والحابس نفسه على ذات الله " (١).

فمن تخلى بهذه الصفات كان له الحق في تقديم نفسه لامامة المسلمين وخلافتهم، ومن لم يتصف بها فلا حق له في التصدي لهذا المركز الخطير الذي كان يشغله الرسول (ص)... ان الخلافة الاسلامية ليست مجرد سلطة زمينة على الأمة، وانما هي نيابة عن الرسول (ص) وامتداد ذاتي لحكومته المشرقة.

وقد رأي الإمام الحسين أن مركز جده قد صار إلى سكير مستهتر لا يعي الا شهواته ورغباته، فثار (ع) ليعيد للخلافة الاسلامية كيانها المشرق وماضيها الزاهر.

---

(١) الطبري ٦ / ١٩٧.

٦ – تحرير إرادة الأمة:
ولم تملك الأمة في عهد معاوية ويزيد ارادتها واختيارها فقد كانت جثة هامدة لا وعي فيها ولا اختيار، قد كبلت بقيود ثقيلة سدت في وجهها منافذ النور والوعي، وحيل بينها وبين ارادتها.
لقد عمل الحكم الأموي على تخدير المسلمين وشل تفكيرهم، وكانت قلوبهم مع الإمام الحسين، الا انهم لا يتمكنون من متابعة قلوبهم وضمائرهم فقد استولت عليها حكومة الأمويين بالقهر، فلم يملكوا من أمرهم شيئا، فلا إرادة لهم ولا اختيار، ولا عزم ولا تصميم فأصبحوا كالأنصاب لا وعي فيهم ولا حراك، قد قبعوا أذلاء " صاغرين تحت وطأة سياط الأمويين وبطشهم ".
لقد هب الامام إلى ساحات الجهاد والفداء ليطعم المسلمين بروح العزة والكرامة، فكان مقتله نقطة تحول في تاريخ المسلمين وحياتهم، فانقلبوا رأسا على عقب، فتسلحوا بقوة العزم والتصميم، وتحرروا ومن جميع السلبيات التي كانت ملمة بهم، وانقلبت مفاهيم الخوف والخنوع التي كانت جاثمة عليهم إلى مبادئ الثورة والنضال، فهبوا متضامنين في ثورات مكثفة، وكان شعارهم (يا لثارات الحسين) فكان هذا الشعار هو الصرخة المدوية التي دكت عروش الأمويين وأزالت سلطانهم.
٧ – تحرير اقتصاد الأمة:
وانهار اقتصاد الأمة الذي هو شرايين حياتها الاجتماعية والفردية فقد عمد الأمويين بشكل سافر إلى نهب الخزينة المركزية والاستئثار بالفئ

وسائر تمرات الفتوح والغنائم، فحازوا الثراء العريض، وتكدست في بيوتهم الأموال الهائلة التي حاروا في صرفها، وقد أعلن معاوية امام المسلمين ان المال مال الله، وليس مال المسلمين فهو أحق به، ويقول سعيد بن العاص: انما السواد بستان قريش، وقد أخذوا ينفقون الأموال على أغراضهم السياسية التي لا تمت بصلة لصالح الأمة. أما مواد انفاقهم البارزة فهي:

أ – شراء الضمائر والأديان، وقد تقدمت الشواهد المؤيدة لذلك عند البحث عن سياسة معاوية الاقتصادية.

ب – الانفاق على لجان الوضع لافتعال الاخبار التي تدعم الكيان الأموي وتحط من قيمة أهل البيت، وقد ألمعنا إلى ذلك بصورة مفصلة.

ج – الهبات الهائلة والعطايا الوافرة للوجوه والأشراف لكم أفواههم عما تقترفه السلطة من الظلم للرعية.

د – الصرف على المجون والدعارة، فقد امتلئت بيوتهم بالمغنين والمغنيات وأدوات العزف وسائر المنكرات.

هذه بعض الموارد التي كان ينفق عليها الأموال، في حين أن الجوع قد نهش الأمة وعمت فيها المجاعة، وانتشر شبح الفقر في جميع الأقطار الاسلامية سوى الشام فقد رفه عليها لأنها الحصن المنيع الذي كان يحمي جور الأمويين وظلمهم.

وقد ثار الإمام الحسين (ع) ليحمي اقتصاد الأمة ويعيد توازن حياتها المعاشية، وقد صادر أموالا من الخراج كانت قد أرسلت لمعاوية، كما صادر أموالا أخرى أرسلت من اليمن إلى خزينة دمشق في أيام يزيد، وقد أنفقها على الفقراء والمعوزين، وكان (ع) أكثر ما يعاني من الآلام هو انه يرى الفقر قد أخذ بخناق المواطنين، ولم ينفق شئ من بيت المال على انعاش حياتهم.

٨ - المظالم الاجتماعية:
وانتشرت المظالم الاجتماعية في أنحاء البلاد الاسلامية، فلم يعد قطر من الأقطار إلا وهو يعج بالظلم والاضطهاد من جورهم، وكان من مظاهر ذلك الظلم ما يلي:
١ - فقد الامن
وانعدم الامن في جميع أنحاء البلاد، وساد الخوف والارهاب على جميع المواطنين، فقد أسرفت السلطة الأموية بالظلم، فجعلت تأخذ البرئ بالسقيم، والمقبل بالمدبر، وتعاقب على الظنة والتهمة، وتسوق الأبرياء بغير حساب إلى السجون والقبور، وكان الناس في عهد زياد يقولون: " انج سعد فقد هلك سعيد " ولا يوجد أحد الا وهو خائف على دمه، وماله، فثار الإمام الحسين (ع) لينقذ الناس من هذا الجور الهائل.
٢ - احتقار الأمة
وكان الخط السياسي الذي انتهجه الأمويون العمل على اذلال الأمة والاستهانة بها وكان من مظاهر ذلك الاحتقار انهم كانوا يختمون في أعناق المسلمين كما توسم الخيل علامة لاستعبادهم كما نقشوا على اكف المسلمين علامة لاسترقاقهم كما يصنع بالعلوج من الروم والحبشة (١) وقد هب الإمام (ع) في ميادين الجهاد ليفتح للمسلمين أبواب العزة والكرامة، ويحطم عنهم ذلك الكابوس المظلم الذي أحال حياتهم إلى ظلام قاتم لا بصيص فيه من النور.

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي.

٩ – المظالم الهائلة على الشيعة:
وذهبت نفس الإمام الحسين أسى على ما عانته الشيعة – في عهد معاوية – من ضروب المحن والبلاء، فقد أمعن معاوية في ظلمهم وارهاقهم وفتك بهم فتكا ذريعا، وراح يقول للإمام الحسين: " يا أبا عبد الله علمت أنا قتلنا شيعة أبيك فحنطناهم وكفناهم وصلينا عليهم ودفناهم " (١) وقد بذل قصارى جهوده في تصفية الحساب معهم، وقد ذكرنا عرضا مفصلا لما عانوه في عهد معاوية وخلاصته.
١ – اعدام اعلامهم كحجر بن عدي، وعمرو بن الحمق الخزاعي وصيفي بن فسيل وغيرهم.
٢ – صلبهم على جذوع النخل
٣ – دفنهم أحياءا
٤ – هدم دورهم
٥ – عدم قبول شهادتهم
٦ – حرمانهم من العطاء
٧ – ترويع السيدات من نسائهم
٨ – إذاعة الذعر والخوف في جميع أوساطهم
إلى غير ذلك من صنوف الارهاق الذي عالوه، وقد ذعر الإمام الحسين (ع) مما حل بهم، فبعث بمذكرته الخطيرة لمعاوية التي سجل فيها جرائم ما ارتكبه في حق الشيعة، وقد ذكرناها في البحث عن حكومة معاوية.

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ / ٢٠٦.

لقد كانت الاجراءات القاسية التي اتخذها الحكم الأموي ضد الشيعة من أسباب ثورته فهب لانقاذهم من واقعهم المرير، وحمايتهم من الجور والظلم.

١٠ – محو ذكر أهل البيت:

ومن ألمع الأسباب التي ثار من أجلها أبو الشهداء (ع) هو ان الحكم الأموي قد جهد على محو ذكر أهل البيت (ع) واستئصال مآثرهم ومناقبهم وقد استخدم معاوية في هذا السبيل أخبث الوسائل وهي:

١ – افتعال الاخبار في الحط من شانهم

٢ – استخدام أجهزة التربية والتعليم لتربية النشئ على بغضهم

٣ – معاقبة من يذكر مناقبهم بأقصى العقوبات

٤ – سبهم على المنابر والمآذن وخطب الجمعة

وقد عقد الإمام الحسين (ع) مؤتمرة السياسي الكبير في مكة المكرمة وأحاط المسلمين علما بالاجراءات الخطيرة التي اتخذها معاوية إلى إزالة أهل البيت عن الرصيد السلامي... وكان (ع) يتحرق شوقا إلى الجهاد، ويود أن الموت قد وافاه ولا يسمع سب أبيه على المنابر والمآذن.

١١ – تدمير القيم الاسلامية:

وعمد الأمويون إلى تدمير القيم الاسلامية، فلم يعد لها اي ظل على واقع الحياة الاسلامية وهذه بعضها:

أ – الوحدة الاسلامية
وأشاع الأمويون الفرقة والاختلاف بين المسلمين فأحيوا العصبيات القبلية، وشجعوا الهجاء بين الأسر والقبائل العربية حتى لا تقوم وحدة بين المسلمين، وقد شجع يزيد الأخطل على هجاء الأنصار الذين آووا النبي (ص) وحاموا عن دينه أيام غربة الاسلام ومحنته.
لقد كانت الظاهرة البارزة في شعر ذلك العصر هي الهجاء المقذع فقد قصر الشعراء مواهبهم الأدبية على الهجاء والتفنن في أساليب القذف والسب للأسر التي كانت تنافس قبائلهم، وقد خلى الشعر الأموي عن كل نزعة انسانية أو مقصد اجتماعي، وتفرد بظاهرة الهجاء، وقد خولف بذلك ما كان ينشده الاسلام من الوحدة الشاملة بين أبنائه.
ب – المساواة
وهدم الأمويون المساواة العادلة التي أعلنها الاسلام، فقدموا العرب على الموالي وأشاعوا جوا رهيبا من التوتر والتكتل السياسي بين المسلمين، وكان من جراء ذلك أن الف الموالي مجموعة من الكتب في نقض العرب وذمهم، كما ألف العرب كتبا في نقص الموالي واحتقارهم، وعلى رأس القائمة التي أثارت هذا النحو من التوتر بين المسلمين زياد بن أبيه فقد كان حاقدا على العرب، وقد عهد إلى الكتاب بانتقاصهم.
وقد خالفت هذه السياسة النكراء روح الاسلام الذي ساوى بين المسلمين في جميع الحقوق والواجبات على اختلاف قومياتهم.

ج – الحرية
ولم يعد أي مفهوم للحرية ماثلا على مسرح الحياة طيلة الحكم الأموي فقد كانت السلطة تحاسب الشعب حسابا منكرا وعسيرا على كل بادرة لا تتفق مع رغباتها، حتى لم يعد في مقدور أي أحد أن يطالب بحقوقه، أو يتكلم بأي مصلحة للناس فقد كان حكم النطع والسيف هو السائد في ذلك العصر.
لقد ثار أبو الأحرار لينقذ الانسان المسلم وغيره من الاضطهاد الشامل وبعيد للناس حقوقهم التي ضاعت في أيام معاوية ويزيد.
١٢ – انهيار المجتمع:
وانهار المجتمع في عصر الأمويين، وتحلل من جميع القيم الاسلامية أما أهل العوامل التي أدت إلى انهياره فهي:
١ – حرمان المجتمع من التربية الروحية فلم يحفل بها أحد من الخلفاء سوى الامام أمير المؤمنين (ع) فقد عني بها عناية بالغة إلا أنه قد مني بالاحداث الرهيبة التي منعته من مواصلة مسيرته في اصلاح الناس وتقويم أخلاقهم.
٢ – امعان الحكم الأموي في افساد المجتمع وتضليله، وتغذيته بكل ما هو بعيد عن واقع الاسلام وهديه.
ان هذين العاملين – فيما نحسب – من أهم العوامل التي أدت على إلى انهيار ذلك المجتمع.. اما مظاهر ذلك التحلل والانهيار فهي:

١ – نقض العهود
ولم يتأثم أغلب أبناء ذلك المجتمع من نقض العهود والمواثيق، فقد كان عدم الوفاء بها أمرا عاديا، ومتسالما عليه، وقد شجعهم على ذلك (كسرى العرب)، فقد أعلن في خطابه بالنخيلة ان كل ما شرطه على نفسه للإمام الحسن لا يفي به، وعمد إلى نقض جميع الشروط التي أعطاها له.. وكانت هذه الظاهرة من أبرز ذاتيات الكوفيين، فقد أعطوا للإمام الحسين أعظم العهود والمواثيق على مناصرته، ومناجزة عدوه إلا انهم خاسوا ما عاهدوا عليه الله فخذلوه وقتلوه.
٢ – عدم التحرج من الكذب
ومن الأمراض التي أصيب بها ذلك المجتمع عدم التحرج من الكذب وقد مني الكوفيون بذلك بصورة خاصة، فإنهم لما أحاطوا بالامام الحسين (ع) – يوم الطف – لقتله، وجه (ع) سؤالا إلى قادة الفرق الذين كاتبوه بالقدوم إليهم فقال:
" يا شبث بن ربعي، ويا حجار بن أبجر، ويا قيس بن الأشعث، ويا زيد بن الحرث، ألم تكتبوا إلي أن قد أينعت الثمار، واخضر الجناب وانما تقدم على جند لك مجندة.. ".
ولم تحجل تلك النفوس القدرة من تعمد الكذب فأجابوه مجمعين:
" لم نفعل "
وبهر الامام فاندفع يقول:
" سبحان الله!! بلى والله لقد فعلتم.. ".

وقد جروا إلى المجتمع بما اقترفوه من الآثام كثيرا من الويلات والخطوب، وتسلح بهم أئمة الظلم والجور إلى اضطهاد المسلمين وارغامهم على ما يكرهون.

٣ – عرض الضمائر للبيع

وقد كان من أحط ما وصل إليه ذلك المجتمع من الانحراف والزيغ عرض الضمائر والأديان لبيعها على السلطة جهارا، وقد ألمعنا إلى ذلك بصورة مفصلة عند البحث عن عهد معاوية.

٤ – الاقبال على اللهو

وأقبل المجتمع بنهم على اللهو والدعارة، وقد شجع الأمويون بصورة مباشرة حياة المجون لزعزعة العقيدة الدينية من النفوس، وصرف الناس عما ينشده الاسلام من التوازن في سلوك الفرد.

هذه بعض الأمراض التي المت بالمجتمع الاسلامي، وقد أدت إلى تسيبه، وانهيار قيمه وقد ثار الإمام الحسين (ع) ليقضى على التذبذب والانحراف الذي منيت به الأمة.

١٣ – الدفاع عن حقوقه:

وانبرى الإمام الحسين (ع) للجهاد دفاعا عن حقوقه التي نهبها الأمويون واغتصبوها، وأهمها – فيما نحسب – ما يلي:

١ - الخلافة
وآمن الإمام الحسين (ع) - كأبيه - أن العترة الطاهرة أولى بمقام رسول الله (ص) وأحق بمركزه من غيرهم، لأنهم أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة، بهم فتح الله، وبهم ختم - على حد تعبيره - وقد طبع على هذا الشعور وهو في غضون الصبا، فقد انطلق إلى عمر وكان على منبر رسول الله (ص) فصاح به.
" انزل عن منبر أبي، واذهب إلى منبر أبيك ".
ولم ينفرد الإمام الحسين بهذا الشعور وانما كان سائدا عند أئمة أهل البيت عليهم السلام فهم يرون أن الخلافة من حقوقهم لأنهم الصق الناس برسول الله (ص) وأكثرهم وعيا لأهدافه.. وهناك شئ آخر جدير بالاهتمام وهو ان الحسين (ع) كان هو الخليفة الشرعي بمقتضى معاهدة الصلح التي تم الاتفاق عليها، فقد جاء في بنودها ليس لمعاوية أن يعهد بالامر إلى أحد من بعده والامر بعده للحسن، فان حدث به حدث فالامر للحسين " (١) وعلى هذا، فلم تكن بيعة يزيد شرعية، فلم يخرج الإمام الحسين (ع) على امام من أئمة المسلمين - كما يذهب لذلك بعض ذوي النزعات الأموية وانما خرج (ع) على ظالم مغتصب لحقه.
٢ - الخمس
والخمس حق مفروض لأهل البيت (ع) نص عليه القران وتواترت به السنة، ولكن الحكومات السابقة تناهيته فلم تؤد لهم منه شيئا لشل حركة المقاومة عند العلويين، وقد أشار الإمام الحسين (ع) إلى ذلك في

---
(١) حياة الإمام الحسن ٢ / ٢٨٨ الطبعة الثانية.

حديثه مع أبي هرة الذي نهاه عن الخروج على بني أمية، فقال (ع) له:
" ويحك أبا هرة ان بني أمية أخذوا مالي فصبرت ".
وأكبر الظن ان المال الذي أخذته بنو أمية منه هو الخمس، وقد أعلن ذلك دعبل الخزاعي في رائعته التي أنشدها أمام الرضا (ع) في خراسان بقوله:
أرى فيئهم في غيرهم متقسما * وأيديهم من فيئهم صفرات
والتاع الإمام الرضا (ع) فجعل يقلب يديه وهو يقول:
" انها - والله - لصفرات " وقد أقض مضاجع العلويين منعهم من الخمس باعتباره أحد المصادر الرئيسية لحياتهم الاقتصادية.
ولعل الإمام الحسين قد استهدف بنهضته ارجاع هذا الحق السليب لأهل البيت (ع).

١٤ - الامر بالمعروف:

ومن أوكد الأسباب التي ثار من أجلها أبي الضيم (ع) إقامة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنهما من مقومات هذا الدين، والامام بالدرجة الأولى مسؤول عنهما. وقد أدلى (ع) بذلك في وصيته لأخيه ابن الحنفية التي أعلن فيها عن أسباب خروجه على يزيد، فقال (ع) " اني لم اخرج أشرا، ولا بطرا، ولا ظالما، ولا مفسدا، وانما خرجت لطلب الاصلاح في أمة جدي أريد أن أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ".
لقد انطلق (ع) إلى ميادين الجهاد ليقيم هذا الصرح الشامخ الذي بنيت عليه الحياة الكريمة في الاسلام، وقد انهارت دعائمه أيام الحكم الأموي فقد أصبح المعروف في عهدهم منكرا، والمنكر معروفا، وقد

أنكر عليهم الامام في كثير من المواقف، والتي كان منها خطابه الرائع امام المهاجرين والأنصار، فقد شجب فيه تخاذلهم عن نصرة الحق و دحض الباطل، وايثارهم للعافية، وقد ذكرناه في الحلقة الأولى من هذا الكتاب.

ومما قاله (ع) في هذا المجال امام أصحابه وأهل بيته يوم الطف: " الا ترون إلى الحق لا يعمل به، وإلى الباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء ربه " لقد آثر الموت على الحياة، لأنه يرى الحق قد تلاشى والباطل قد استشرى.

١٥ - إماتة البدع:

وعمد الحكم الأموي إلى نشر البدع بين المسلمين، التي لم يقصد منها إلا محق الاسلام، والحاق الهزيمة به، وقد أشار الإمام (ع) إلى ذلك في رسالته بعثها لأهل البصرة يقول (ع): " فان السنة قد أميتت والبدعة قد أحييت " (١).

لقد ثار (ع) ليقضي على البدع الجاهلية التي تبناها الأمويون، ويحيي سنة جده التي أماتوها، فكانت نهضته الخالدة من اجل إماتة الجاهلية ونشر راية الاسلام.

---

(١) الطبري ٦ / ٢٠٠.

١٦ – العهد النبوي:
واستشف النبي (ص) من وراء الغيب ما يمنى به الاسلام من الاخطار الهائلة على أيدي الأمويين، وانه لا يمكن باي حال تجديد رسالته وتخليد مبادئه إلا بتضحية ولده الإمام الحسين (ع) فإنه هو الذي يكون الدرع الواقي لصيانة الاسلام فعهد إليه بالتضحية والفداء، وقد أدلى الحسين بذلك حينما عدله المشفقون عليه من الخروج إلى العراق فقال (ع) لهم:
" أمرني رسول الله (ص) بأمر وأنا ماض إليه.. ".
ويقول المؤرخون: ان النبي (ص) كان قد نعى الحسين إلى المسلمين وأحاطهم علما بشهادتهم وما يعانيه من أهوال المصائب، وكان – باستمرار – يتفجع عليه ويلعن قاتله، وكذلك أخير الامام أمير المؤمنين (ع) بشهادته وما يجرى عليه، وقد ذكرنا في الحلقة الأولى من هذا الكتاب الأخبار المتواترة بذلك.. وكان الإمام الحسين (ع) على علم وثيق بما يجرى عليه فقد سمع ذلك من جده وأبيه وقد أيقن بالشهادة، ولم يكن له أي أمل في الحياة فمشى إلى الموت بعزم وتصميم امتثالا لأمر جده الذي عهد إليه بذلك.
١٧ – العزة والكرامة:
ومن أوثق الأسباب التي ثار من أجلها أبو الأحرار هو العزة والكرامة فقد أراد الأمويون ارغامه على الذل، والخنوع، فأبى إلا أن يعيش عزيرا تحت ظلال السيوف والرماح، وقد أعلن سلام الله عليه ذلك يوم الطف بقوله:
" الا وان الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلة والذلة،

وهيهات منا الذلة يأبى الله لنا ذلك ورسوله، ونفوس أبية، وأنوف حمية من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام.. ".

وقال (ع):

" لا أرى الموت الا سعادة والحياة مع الظالمين الا برما.. ".

لقد عائق الموت بثغر باسم في سبيل ابائه وعزته، وضحى بكل شئ من أجل حريته وكرامته.

١٨ - غدر الأمويين وفتكهم:

وأيقن الإمام الحسين (ع) ان الأمويين لا يتركونه، ولا تكف أيديهم عن الغدر والفتك به حتى لو سالمهم وبايعهم، وذلك لما يلي:

١ - ان الامام كان ألمع شخصية في العالم الاسلامي، وقد عقد له المسلمون في دخائل نفوسهم خالص الود والولاء لأنه حفيد نبيهم وسيد شباب أهل الجنة، ومن الطبيعي انه لا يروق للأمويين وجود شخصية تتمتع بنفوذ قوي: ومكانة مرموقة في جميع الأوساط فإنها تشكل خطرا على سلطانهم وملكهم.

٢ - ان الأمويين كانوا حاقدين على النبي (ص) لأنه وترهم في واقعة بدر، وألحق بهم الهزيمة والعار، وكان يزيد يترقب الفرص للانتقام من أهل البيت النبي (ص) ليأخذ ثارات بدر منهم، ويقول الرواة إنه كان يقول:

لست من خندف إن لم انتقم * من بني احمد ما كان فعل

ولما استوفى ثاره وروى أحقاده بإبادتهم أخذ يترنهم ويقول:

قد قتلنا القرم من ساداتهم * وعدلناه ببدر فاعتدل

٣ – ان الأمويين قد عرفوا بالغدر ونقض العهود، فقد صالح الحسن معاوية، وسلم إليه الخلافة ومع ذلك فقد غدر معاوية به فدس إليه سما فقتله، وأعطوا الأمان لمسلم بن عقيل فخانوا به.. وقد ذكرنا في البحوث السابقة مجموعة من الشخصيات التي اغتالها معاوية خشية منهم.

وقد أعلن الإمام الحسين (ع) ان بني أمية لا يتركونه يقول (ع) لأخيه محمد بن الحنفية: " لو دخلت في حجر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقتلوني " وقال (ع) لجعفر بن سليمان الضبعي: " والله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة – يعني قلبه الشريف – من جوفي ".

واختار (ع) أن يعلن الحرب ويموت ميتة كريمة تهز عروشهم وتقضي على جبروتهم وطغيانهم.

هذه بعض الأسباب التي حفزت أبا الأحرار إلى الثورة على حكم يزيد رأي رخيص:

ووصف جماعة من المتعصبين لبني أمية خروج الامام على يزيد بأنه كان من اجل الملك والظفر بخيرات البلاد، وهذا الرأي ينم عن حقدهم على الامام بما أحرزه من الانتصارات الرائعة في نهضته المباركة التي لم يظفر بمثل معطياتها أي مصلح اجتماعي في الأرض، وقد يكون لبعضهم العذر لجهلهم بواقع النهضة الحسينية، وعدم الوقوف على أسبابها، لقد كان الامام على يقين باخفاق ثورته في الميادين العسكرية، لان خصمه كان يدعمه جند مكثف أولو قوة وأولو باس شديد، وهو لم تكن عنده أية قوة عسكرية ليحصل على الملك، ولو كان الملك غايته – كما يقولون – لعاد

إلى الحجاز أو مكان آخر حينما بلغه مقتل سفيره مسلم بن عقيل، وانقلاب الكوفة عليه، ويعمل حينئذ من جديد على ضمان غايته، نجاح مهمته

لقد كان الامام على علم بان الأوضاع السائدة كلها كانت في صالح بني أمية وليس منها مما يدعمه أو يعود لصالحه، يقول ابن خلدون: " ان هزيمة الحسين كانت أمرا محتما لان الحسين لم تكن له الشوكة التي تمكنه من هزيمة الأمويين لان عصبية مضر في قريش، وعصبية قريش في عبد مناف وعصبية عبد مناف في بني أمية، فعرف ذلك لهم قريش وسائر الناس لا ينكرونه " (١).

لقد كانت ثورة الامام من اجل غاية لا يفكر بها أولئك الذين فقدوا وعيهم، واختيارهم فقد كان خروجه على حكم يزيد من اجل حماية المثل الاسلامية والقيم الكريمة من الأمويين الذين حملوا معول الهدم..

يقول بعض الكتاب المعاصرين.

" ويحق لنا أن نسأل ما ذا كان هدف الحسين عليه السلام، وماذا كانت القضية التي يعمل من أجلها؟ أما لو كان هدفه شخصيا يتمثل في رغبته في اسقاط يزيد ليتولى هو بنفسه الخلافة التي كان يطمع إليها، ما وجدنا فيه هذا الاصرار على التقدم نحو الكوفة رغم وضوح تفرق الناس من حوله، واستسلامهم لابن زياد، وحملهم السلاح في اعداد كثيرة لمواجهته والقضاء عليه.

ان أقصر الناس نظرا كان يدرك ان مصيره لن يختلف عما آل إليه فعله، ولو كان الحسين بهذه المكانة من قصر النظر لعاد إلى مكة ليعمل من جديد للوصول إلى منصب الخلافة.. ولو كان هدفه في أول الامر الوصول إلى منصب الخلافة ثم لما بلغه مصرع ابن عمه قرر مواصلة السفر للثار

---

(١) المقدمة (ص ١٥٢).

من قاتليه – كما يزعم بعض الباحثين – استجابة لقضية أهله وأقاربه، لو كان هذا هدفه لأدرك ان جماعته التي خرجت معه للثار وهي لا تزيد على التسعين رجالا ونساءا وأطفالا لن تصل إلى شئ من ذلك من دون ان يقضى على افرادها جميعا، وبغير ان يضحي هو بنفسه ضحية رخيصة في ميدان الثار. ومن ثم يكون من واجبه للثار ان يرجع ليعيد تجميع صفوف أنصاره وأقربائه، ويتقدم في الجمع العظيم من الغاصبين والموتورين.

فالقضية إذا ليست في الجمع ثار والهدف ليس هدفا شخصيا، وانما الامر أمر الأمة، والقضية كانت للحق، والاقدام اقدام الفدائي الذي أراد أن يضرب المثل بنفسه في البذل والتضحية، ولم يكن اصرار الحسين على التقدم نحو الكوفة بعد ما علم من تخاذل أهلها ونكوصهم عن الجهاد إلا ليجعل من استشهاده علما تلتف حوله القلة التي كانت لا تزال تؤمن بالمثل وتلتمس في القادة من ينير لها طريق الجد في الكفاح.. وتحريكا لضمائر المتخاذلين القاعدين عن صيانة حقوقهم ورعاية صوالحهم ".

والم هذا القول بالواقع المشرق الذي ناضل من أجله الإمام الحسين فهو لم يستهدف أي مصلحة ذاتية، وانما استهدف مصلحة الأمة وصيانتها من الأمويين.

تخطيط الثورة:

ودرس الإمام الحسين (ع) أبعاد الثورة بعمق وشمول، وخطط أساليبها بوعي وايمان، فرأى أن يزج بجميع ثقله في المعركة، ويضحي بكل شئ لانقاذ الأمة من محنتها في ظل ذلك الحكم الأسود الذي تنكر لجميع متطلبات الأمة.. وقد أدرك المستشرق الألماني ماريين تخطيط الامام

الحسين لثورته، فاعتبر أن الحسين قد توخى النصر منذ اللحظة الأولى، وعلم النصر فيه، فحركة الحسين في خروجه على يزيد - كما يقول - انما كانت عزمة قلب كبير عز عليه الاذعان، وعز عليه النصر العاجل، فخرج باهله وذويه ذلك الخروج الذي يبلغ به النصر الاجل بعد موته، ويحيي به قضية مخذولة ليس لها بغير ذلك حياة.

لقد أيقن أبو الشهداء (ع) ان القضية الاسلامية لا يمكن أن تنتصر إلا بفخامة ما يقدمه من التضحيات فصمم بعزم وايمان على تقديم أروع التضحيات وهذه بعضها:

١ - للتضحية بنفسه:

وأعلن الإمام (ع) عن عزمه على التضحية بنفسه، فأذاع ذلك في مكة فأخبر المسلمين ان أوصاله سوف تتقطع بين النواويس وكربلا، وكان في أثناء مسيرته إلى العراق يتحدث عن مصرعه، ويشابه بينه وبين أخيه يحيى بن زكريا وان رأسه الشريف سوف يرفع إلى بغي من بغايا بني أمية كما رفع رأس يحيى إلى بغي من بغايا بني إسرائيل.

لقد صمم على الموت واستهان بالحياة من أجل أن ترتفع راية الحق وتعلو كلمة الله في الأرض وبقي صامدا على عزمه الجبار فلم يرتهب حينما أحاطت به الجيوش الهائلة وهي تبيد أهل بيته وأصحابه في مجزرة رهيبة اهتز من هولها الضمير الانساني، وقد كان في تلك المحنة الحازبة من أربط الناس جأشا، وأمضاهم جنانا، فلم ير قلبه ولا بعده شبيها له في شدة بأسه وقوة عزيمته، كما لا يعرف التاريخ في جميع مراحله تضحية أبلغ أثرا في

حياة الناس من تضحيته عليه السلام فقد بقيت صرخة مدوية في وجوه الظالمين والمستبدين.

٢ – التضحية باهل بيته:

وأقدم أبو الشهداء (ع) على أعظم تضحية لم يقدمها أي مصلح اجتماعي في الأرض، فقد قدم أبناؤه وأهل بيته وأصحابه فداءا لما يرتأيه ضميره من تعميم العدل وإشاعة الحق والخير بين الناس.

وقد خطط هذه التضحية، وآمن بأنها جزء من رسالته الكبرى، وقد أذاع ذلك وهو في يثرب حينما خفت إليه السيدة أم سلمة زوج النبي تعذله عن الخروج، فأخبرها عن قتله وقتل أطفاله.. وقد مضى إلى ساحات الجهاد وهو متسلح بهذا الايمان، فكان يشاهد الصفوة من أصحابه الذين هم من أنبل من عرفتهم الانسانية في ولائهم للحق، وثم يتسابقون إلى المنية بين يديه، ويرى الكواكب من أهل بيته وأبنائه، وهم في غضارة العمر وريعان الشباب، وقد تناهبت أشلاءهم السيوف والرماح، فكان يأمرهم بالثبات والخلود إلى الصبر قائلا:

" صبرا يا بني عمومتي، صبرا يا أهل بيتي لا رأيتم هوانا بعد هذا اليوم أبدا!! ".

واهتزت الدنيا من هول هذه التضحية التي تمثل شرف العقيدة، وسمو القصد وعظمته المبادئ التي ناضل من أجلها، وهي – من دون شك – ستبقى قائمة على ممر القرون والأجيال، تضئ للناس الطريق، وتمدهم بأروع الدروس عن التضحية في سبيل الحق والواجب.

٣ – التضحية بأمواله:
وضحى أبي الضيم بجميع ما يملك فداءا للقران، ووقاية لدين الله، وقد هجمت – بعد مقتله – الوحوش الكاسرة من جيوش الأمويين على مخيمه فتناهبوا ثقله ومتاعه حتى لم يتركوا ملحفة أو إزارا على مخدرات الرسالة الا نهبوه، ومثلوا بذلك خسة الانسان حينما يفقد ذاتياته، ويمسخ ضميره.
٤ – حمل عقائل النبوة:
وكان من أروع ما خططه الامام العظيم (ع) في ثورته الكبرى حمله لعقائل النبوة ومخدرات الرسالة إلى كربلاء، وهو يعلم ما سيجري عليهن من النكبات والخطوب، وقد أعلن ذلك حينما عذله ابن عباس عن حملهن معه إلى العراق، فقال له:
" قد شاء الله ان يراهن سبايا.. ".
لقد أراد (ع) بذلك ان يستكمل أداء رسالته الخالدة في تحرير الأمة وانقاذها من الاستبعاد الأموي. وقد قمن تلك السيدات بدور مشرق في اكمال نهضة أبي الشهداء (ع) فأيقظن المجتمع بعد سباته، وأسقطن هيبة الحكم الأموي، وفتحن باب الثورة عليه، ولولا هن لم يتمكن أحد أن يفوه بكلمة واحدة أمام ذلك الطغيان الفاجر، وقد أدرك ذلك كل من تأمل في نهضة الامام ودرس ابعادها " وقد ألمع إليها بعض العلماء والكتاب، وفيما يلي بعضهم:

١ - الامام كاشف الغطاء
وأكد الامام الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء رحمه الله في كثير من مؤلفاته أن الغاية من خروج الامام بعائلته إلى كربلا اكمالا لنهضته وبلوغا إلى هدفه في تحطيم دولة الأمويين يقول: " وهل تشك وترتاب في أن الحسين (ع) لو قتل هي وولده، ولم يتعقبه قيام تلك الحرائر في تلك المقامات بتلك التحديات لذهب قتله جبارا، ولم يطلب به أحد ثارا ولضاع دمه هدرا، فكان الحسين يعلم أن هذا علم لابد منه، وأنه لا يقوم به إلا تلك العقائل فوجب عليه حتما أن يحملهن معه لا لأجل المظلومية بسببهن فقط، بل لنظر سياسي وفكر عميق، وهو تكميل الغرض، وبلوغ الغاية من قلب الدولة على يزيد، والمبادرة إلى القضاء عليها قبل أن تقضي على الاسلام وتعود الناس إلى جاهليتها الأولى.. " (١).
٢ - أحمد فهمي
يقول الأستاذ السيد أحمد فهمي: " وقد أدرك الحسين أنه مقتول إذ هو يعلم علم اليقين قبح طوية يزيد، واسفاف نحيزته، وسوء سريرته فيزيد بعد قتل الحسين ستمتد يده إلى أن يؤذي النبي (ص) في سلالته من قتل الأطفال الأبرياء، وانتهاك حرمة النساء، وحملهن ومن بقي من الأطفال من قفرة إلى قفرة ومن بلد إلى بلد، فيثير مرأى أولئك حفيظة المسلمين، فليس ثمة أشنع، ولا أفظع من التشفي والانتقام من النساء والأطفال بعد قتل الشباب والرجال فهو بخروجه بتلك الحالة أراد أن يثار

---

(١) تحدث الامام كاشف الغطاء عن هذه الجهة بالتفضيل في كتابه السياسة الحسينية.

من يزيد في خلافته، ويقتله في كرامته، وحقا لقد وقع ما توقعه، فكان لما فعله يزيد وعصبته من فظيع الأثر في نفوس المسلمين، وزاد في اضعانهم ما عرضوا به سلالة النبوة من هتك خدر النساء، وهن اللاتي ما عرفن إلا بالصيانة والطهر والعز والمنعة، مما أطلق السنة الشعراء بالهجاء والذم، ونفر أكثر المسلمين من خلافة الأمويين، وأسخط عليهم قلوب المؤمنين، فقد قتله الحسين أشد من قتله إياه " (١).

٣ - أحمد محمود صبحي

يقول الدكتور احمد محمود صبحي: " ثم رفض - يعني الحسين - إلا أن يصحب أهله ليشهد الناس على ما يقترفه أعداؤه بما لا يبرره دين ولا وازع من انسانية، فلا تضيع قضيته مع دمه المراق في الصحراء فيفتري عليه أشد الافتراء حين يعدم الشاهد العادل على كل ما جرى بينه وبين أعدائه، تقول الدكتورة بنت الشاطئ: أفسدت زينت أخت الحسين على ابن زياد وبني أمية لذة النصر، وسكبت قطرات من السم الزعاف في كؤوس الظافرين وان كل الاحداث السياسية التي ترتبت بعد ذلك من خروج المختار وثورة ابن الزبير وسقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية ثم تأصل مذهب الشيعة انما كانت زينب هي باعثة ذلك ومثيرته (٢).

أريد أن أقول ما ذا يكون الحال لو قتل الحسين ومن معه جميعا من الرجال الا أن يسجل التاريخ هذه الحادثة الخطيرة من وجهة نظر أعدائه

---

(١) ريحانة الرسول (ص ١٦٧).

(٢) بطلة كربلا (ص ١٧٦ و ١٨٠).

فيضيع كل اثر لقضيته مع دمه المسفوك في الصحراء.. " (١).
هذه بعض الآراء التي تدعم ما ذكرناه من أن خروج الحسين (ع) بعائلته لم يكن الغرض من إلا بلورة الرأي العام، وايضاح المقاصد الرفيعة التي ثار من أجلها ومن أهمها القضاء على دولة الأمويين التي كانت تشكل خطرا مباشرا على العقيدة الاسلامية وهناك رأي آخر أدلى به العلامة المغفور له الشيخ عبد الواحد المظفر، وهو ان الحسين انما خرج بعائلته خوفا عليها من اعتقال الأمويين وزجها في سجونهم قال: " الحسين لو أبقى النساء في المدينة لوضعت السلطة الأموية عليها الحجر، لا بل اعتقلتها علنا وزجتها في ظلمات السجون، ولابد له حينئذ من أحد أمرين خطيرين كل منهما يشل أعضاء نهضته المقدسة!
اما الاستسلام لأعدائه واعطاء صفقته لهم طائعا ليستنفذ العائلة المصونة وهذا خلاف الاصلاح الذي ينشده، وفرض على نفسه القيام به مهما كلفه الامر من الاخطار، أو يمضي في سبيل احياء دعوته، ويترك المخدرات اللواتي ضرب عليهن الوحي سترا من العظمة والاجلال، وهذا مالا تطيق احتماله نفس الحسين الغيور ولا يرادع أمية رادع من الحياء، ولا يزجرها زاجر من الاسلام.
ان أمية لا يهمها اقتراف الشائن في بلوغ مقاصدها، وادراك غاياتها فتتوصل إلى غرضها ولو بارتكاب أقبح المنكرات الدينية والعقلية.
ألم يطرق سمعك سجن الأمويين لزوجة عمرو بن الحمق الخزاعي، وزوجة عبيد الله بن الحر الجعفي وأخيرا زوجة الكميت الأسدي " (٢).

---

(١) نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثني عشرية (ص ٣٤٣).
(٢) توضيح الغامض من أسرار السنن والفرائض (ص ٢٩٧ - ٢٩٨).

وعلى أي حال فقد حطم الامام بخروجه لعائلته جميع مخططات السياسة الأموية ونسف جميع ما أقامه معاوية من معالم الظلم، فقد قمن عقائل الوحي بدور فعال ببث الوعي الاجتماعي، وتعريف المجتمع بواقع الأمويين وتجريدهم من الإطار الديني، ولولاهن لاندرست معالم ثورة الحسين، وذهبت ادراج الرياح.

إن من ألمع الأسباب في استمرار خلود مأساة الإمام الحسين (ع) واستمرار فعالياتها في بث الاصلاح الاجتماعي على امتداد التاريخ هو حمل ودائع الرسالة وعقائل الوحي مع الامام فقد قمن بدور مشرق ببلورة الرأي العام، فحملن راية الايمان التي حملها الامام العظيم، ونشرن مبادءه العليا التي استشهد من أجلها، فقد انبرت حفيدة الرسول (ص) وشقيقة الحسين السيدة زينب بنت أمير المؤمنين (ع) إلى ساحات الجهاد، وهي تدك حصون الظالمين، وتدمر جميع ما أحرزوه من الانتصارات في قتل أخيها، وتلحق بهم الهزيمة والعار، وتملأ بيوتهم مأساة وحزنا.

لقد أقبلت قائدة المسيرة الحسينية عقيلة الوحي زينب (ع) إلى ساحة المعركة وهي تشق صفوف الجيش تفتش عن جثمان أخيها الامام العظيم فلما وقفت عليه شخصت لها ابصار الجيش، واستحال إلى سمع فماذا تقول أمام هذه الخطوب المذهلة التي تواكبت عليها؟ انها وقفت عليها غير مدهوشة لم تذهلها الرزايا التي تميد منها الجبال، فشخصت يبصرها إلى السماء؟ وهي تقول بحماسة الايمان وحرارة العقيدة قائلة:

" اللهم تقبل منا هذا القربان ".

واطلقت بذلك أول شرارة للثورة على الحكم الأموي بعد أخيها، وود الجيش أن تسيخ به الأرض فقد استبان له عظم ما اقترفه من الاثم وانه قد أباد

عناصر الاسلام، ومراكز الوعي والايمان.
ولما اقتربت سبايا أهل البيت (ع) إلى الكوفة خرجت الجماهير الحاشدة لاستقبال السبايا فخطبت فيهم عقيلة الوحي خطابا مثيرا ومذهلا وإذا بالناس حيارى لا يعون ولا يدرون قد استحالت بيوتهم إلى مأتم وهم يندبون حظهم التعيس ويبكون على ما اقترفوه من الجرم، وحينما انتهت إلى دار الامارة استقبلها الطاغية متشفيا بأحط وأخس ما يكون التشفي قائلا:
" كيف رأيت صنع الله بأخيك؟ "
وانطلقت عقيلة بني هاشم ببسالة وصمود فأجابته بكلمات النصر والظفر قائلة:
" ما رأيت إلا جميلا هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاج وتخاصم فانظر لمن الفلج يومئذ ثكلتك أمك يا بن مرجانة ".
وأخزت هذه الكلمات ابن مرجانة فكانت أشق عليه من ضرب السيوف وطعن الرماح، ولما انتهت إلى الشام هزت العرش الأموي بخطابها المثير الرائع، وحققت بذلك من النصر ما لم تحققه الجيوش...
لقد كان حمل الإمام الحسين لعائلته قائما على أساس من الوعي العميق الذي أحرز به الفتح والنصر.
وبهذا ينتهي بنا الحديث عن بعض أسباب الثورة الحسينية ومخططاتها.

في مكة

وبعد ما أعلن الإمام الحسين (ع) رفضه الكامل لبيعة يزيد اتجه مع أهل بيته إلى مكة التي هي حرم الله، وحرم رسوله، عائذا ببيتها الحرام الذي فرض فيه تعالى الامن والطمأنينة لجميع العباد.

لقد اتجه إلى هذا البلد الأمين ليكون بمأمن من شرور الأمويين واعتداءاتهم، ويقول المؤرخون: إنه خرج ليلة الأحد لليلتين بقيتا من رجب سنة (٦٠ ه) (١) وقد خيم الذعر على المدنيين حينما رؤوا آل النبي (ص) ينزحون عنهم إلى غير مآب.

وفصل الركب من يثرب، وهو جاد في مسيرته، وكان الإمام (ع) يتلو قوله تعالى:

" رب نجني من القوم الظالمين "

لقد شبه خروجه بخروج موسى على فرعون زمانه، وكذلك قد خرج على طاغية زمانه فرعون هذه الأمة ليقيم الحق، ويبني صروح العدل وسلك الطريق العام الذي يسلكه الناس من دون أن يتجنب عنه، وأشار عليه بعض أصحابه ان يحيد عنه - كما فعل ابن الزبير - مخافة أن يدركه الطلب من السلطة في يثرب، فاجابه عليه السلام بكل بساطة وثقة في النفس قائلا:

(لا والله لا فارقت هذا الطريق ابدا أو انظر إلى أبيات مكة، أو يقضي الله في ذلك ما يجب ويرضى.. ".

لقد رضي بكل قضاء يبرمه الله، ولم يضعف، ولم توهن عزيمته الاحداث الهائلة التي لا يطيقها أي انسان، وكان يتمثل في أثناء مسيرته

---

(١) خطط المقريزي ٢ / ٢٨٥، المنتظم لابن الجوزي، الإفادة في تاريخ الأئمة السادة وفي الفتوح ٥ / ٣٤ انه خرج لثلاث ليال مضين من شعبان.

بشعر يزيد بن المفرغ:

لا ذعرت السوام في فلق الصبح * مغيرا ولا دعيت يزيدا

يوم أعطي مخافة الموت ضيما * والمنايا ترصدنني أن أحيدا (١)

لقد كان على ثقة ان المنايا ترصده ما دام مصمما على عزمه الجبار في أن يعيش عزيزا لا يضام ولا يذل ولا يخضع لحكم يزيد.. ويقول بعض الرواة انه كان في مسيرته ينشد هذه الأبيات:

إذا المرء لم يحم بنيه وعرسه * ونسوته كان اللئيم المسببا

وفي دون ما يبقي يزيد بنا غدا * نخوض حياض الموت شرقا ومغربا

ونضرب كالحريق مقدما * إذا ما رآه ضيغم راح هاربا

ودل هذا الشعر على مدى عزمه على أن يخوض حياض الموت سواء أكانت في المشرق أم في المغرب ولا يبايع يزيد بن معاوية.

مع عبد الله بن مطيع:

واستقبله في أثناء الطريق عبد الله بن مطيع العدوي، فقال له:

- أين تريد أبا عبد الله، جعلني الله فداك؟

- اما في وقتي هذا أريد مكة، فإذا صرت إليها استخرت الله في أمري بعد ذلك.

- خار الله لك، يا ابن بنت رسول الله فيما قد عزمت عليه، اني أشير عليك بمشورة فاقبلها مني.

- ما هي؟

---

(١) تاريخ الطبري.

- إذا أتيت مكة فاحذر أن يغرك أهل الكوفة، فيها قتل أبوك وأخوك طعنوه بطعنة كادت أن تاني على نفسه، فالزم الحرم فإنك سيد العرب في دهرك " فوالله لئن هلكت ليهلكن أهل بيتك بهلاكك ".
وشكره الامام وودعه ودعا له بخير (١) وسار موكب الامام يجد السير لا يلوي على شئ حتى انتهى إلى مكة فلما نظر الامام إلى جبالها تلا قوله تعالى: " ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل " (٢).

---

(١) المنتظم لابن الجوزي الجزء الخامس، الفتوح ٥ / ٣٤ وجاء في تاريخ ابن عساكر ١٣ / ٥٥ ان الحسين مر بابن مطيع وهو يحفر بئرا، فقال له: إلى أين فداك أبي وأمي، فقال له: أردت مكة، وذكر له كتب أهل الكوفة إليه، فقال ابن مطيع: فداك أبي وأمي متعنا بنفسك ولا تسر إليهم، فأبى الحسين ثم قال له ابن مطيع: إن بئري هذه قد رسحتها وهذا اليوم أوان تمامها قد خرج إلينا في الدلو شئ من مائها، فلو دعوت الله لنا فيها بالبركة، فقال (ع): هات من مائها فاتاه منه فشرب منه، وتمضمض ورده في البئر فعذب ماؤها، وجاء في وسيلة المال في عد مناقب الآل (ص ١٨٥) لصفي الدين: ان عبد الله لقي الحسين فقال له: جعلت فداك أين تريد؟ فقال: أما الان فمكة، وأما بعدها فأستخير الله، فقال: خار الله لك وجعلنا فداك الزم الحرم فإنك سيد العرب لا يعدل بك أهل الحجاز أحدا، وتتداعى إليك الناس من كل جانب، لا تفارق الحرم فداك عمي وخالي، فوالله ان هلكت لنسترقن بعدك.
(٢) الفتوح ٥ / ٣٧.

لقد كانت هجرته إلى مكة كهجرة موسى إلى مدين، فكل منهما قد فر من فرعون زمانه، وهاجر لمقاومة الظلم ومناهضة الطغيان.

في مكة:

وانتهى الامام إلى مكة ليلة الجمعة لثلاث ليال مضين من شعبان (١) وقد حط رحله في دار العباس بن عبد المطلب (٢) وقد استقبل استقبالا حافلا من المكيين، وجعلوا يختلفون إليه بكرة وعشية، وهم يسألونه عن أحكام دينهم، وأحاديث نبيهم، يقول ابن كثير: " وعكف الناس بمكة يفدون إليه، ويجلسون حواليه، ويستمعون كلامه، وينتفعون بما يسمعون منه، ويضبطون ما يروون عنه " (٣) لقد كان بجاذبيته الروحية مهوي القلوب، وندي الأفئدة، وقد حامت حوله النفوس تروي غليلها من نمير علومه التي هي امتداد من علوم جده مفجر العلم والنور في الأرض.

احتفاء الحجاج والمعتمرين به:

وأخذ القادمون إلى بيت الله من الحجاج والمعتمرين من سائر الآفاق يختلفون إليه (٤) ويهتفون بالدعوة إليه، ويطوفون حوله، هذا يلتمس

---

(١) المنتظم لابن الجوزي، الإفادة في تاريخ الأئمة السادة.

(٢) تاريخ ابن عساكر ١٣ / ٦٨، وفي الاخبار الطوال (ص ٢٠٩) انه نزل في شعب علي.

(٣) البداية والنهاية

(٤) الفصول المهمة لابن الصباغ (١٧٠) وسيلة المال في عد مناقب الآل (١٨٥).

منه العلم والحديث، وذاك يقتبس منه الحكم النافعة، والكلم الجامعة ليهتدي بأنوارهما في ظلمات الحياة (١) ولم يترك الامام ثانية من وقته تمر دون أن يبث الوعي الاجتماعي، ويدعو إلى اليقظة والحذر من السياسة الأموية الهادفة إلى استعباد المسلمين واذلالهم.

فزع ابن الزبير:

وكان ابن الزبير لاجئا إلى مكة فرارا من البيعة ليزيد، وقد ثقل عليه اختلاف الناس على الإمام الحسين (ع) واجماعهم على تعظيمه وتبجيله وزهد الناس وانصرافهم عنه لأنه لم يكن يتمتع بصفة محبوبة، ولا بنزعة كريمة، يقول زيد بن علي الجذعاني: " وكانت فيه خلال لا تصلح معها الخلافة لأنه كان بخيلا ضيق العطن (٢) سيئ الخلق، حسودا كثير الخلاف أخرج محمد بن الحنفية، ونفى عبد الله بن عباس إلى الطائف " (٣)

ومن مظاهر ذاتياته الشح والبخل، وفيه يقول الشاعر:

رأيت أبا بكر وربك غالب * على أمره يبغي الخلافة بالتمر (٤)

وقد عانى الشعب في أيام حكمه القصير الجوع والحرمان، كما عانت الموالي التي بالغت في نصرته أشد ألوان الضيق، وقد عبر شاعرهم عن خيبة أملهم في نصرته يقول:

---

(١) نهضة الحسين (ص ٧٣).
(٢) العطن: مبرك الإبل، ومربض الغنم.
(٣) فوات الوفيات ١ / ٤٤٨.
(٤) المعارف لابن قتيبة (ص ٧٦).

إن الموالي أمست وهي عاتبة * على الخليفة تشكو الجوع والسغبا
ماذا علينا وماذا كان يرزؤنا * أي الملوك على من حولنا غلبا (١)
وأظهر ابن الزبير النسك والطاعة والتقشف تصنعا لصيد البسطاء واغراء السذج، وقد وصفه الامام أمير المؤمنين (ع) بقوله: " ينصب حبالة الدين لاصطفاء الدنيا " (٢).
ومن المؤكد أنه لم يكن يبغي في خروجه على سلطان بني أمية وجه الله وانما كان يبغي الملك والسلطان، وقد أدلى بذلك عبد الله بن عمر حينما ألحت عليه زوجته في مبايعته، وذكرت له طاعته وتقواه فقال لها: " أما رأيت بغلات معاوية التي كان يحج عليها الشهباء؟ فان ابن الزبير ما يريد غيرهن " (٣).
وعلى أي حال فان ابن الزبير لم يكن شئ أثقل عليه من أمر الحسين لعلمه بأنه لا يبايعه أحد مع وجود الحسين (ع) لأنه ابن رسول الله (ص) فليس على وجه الأرض أحد يساميه ولا يساويه - كما يقول ابن كثير - (٤) واكد ذلك (اوكلي) قال: ان ابن الزبير كان مقتنعا تماما بان كل جهوده ستضيع عبثا طالما بقي الحسين على قيد الحياة، ولكن إذا أصابه مكروه فان طريق الخلافة سيكون ممهدا له.

---

(١) مروج الذهب ٣ / ٢٢.
(٢) شرح النهج ٧ / ٢٤.
(٣) المختار (ص ٩٥).
(٤) البداية والنهاية ٨ / ١٥٠ وجاء في وسيلة المال (ص ١٨٥) وقد ثقلت وطأة الحسين على ابن الزبير لان أهل الحجاز لا يبايعونه ما دام الحسين بالبلد، ولا يتهيأ له ما يطلب منهم مع وجود الحسين.

وكان يشير على الامام بالخروج إلى العراق للتخلص منه، ويقول له: " ما يمنعك من شيعتك وشيعة أبيك؟ فوالله لو أن لي مثلهم ما توجهت إلا إليهم " (١).

ولم يمنح ابن الزبير النصيحة للامام، ولم يخلص له في الرأي، وانما أراد أن يستريح منه، ولم تخف على الامام دوافعه، فراح يقول لأصحابه: " إن هذا - وأشار إلى ابن الزبير - ليس شئ من الدنيا أحب إليه من أن اخرج من الحجاز وقد علم أن الناس لا يعدلونه بي فود أني خرجت حتى يخلو له " (٢).

ولم تحفل السلطة الأموية بابن الزبير وإنما وجهت جميع اهتمامها نحو الإمام الحسين.

رأي الغزالي:

واستبعد الشيخ محمد الغزالي أن ابن الزبير قد أشار على الحسين بالخروج إلى العراق ليستريح منه، قال: " فعبد الله بن الزبير اتقى الله وأعرق في الاسلام من أن يقترف هذه الدنية " (٣).

وهذا الرأي بعيد عن الواقع فان ابن الزبير لم تكن له أية حريجة في الدين فهو الذي أجج نار الفتنة في حرب الجمل وزج أباه فيها، وقد تهالك على السلطان، وضحى بكل شئ في سبيله، وقد كان من

---

(١) تاريخ الاسلام للذهبي ٢ / ٢٦٨.
تاريخ ابن الأثير ٤ / ١٦، الطبري ٦ / ٢١٦.
(٣) من معالم الحق (ص ١٣١).

أعدى الناس للعترة الطاهرة، ومن كان هذا شانه فهل يكون تقيا وعريقا في الاسلام؟.

رأي رخيص:

من الآراء الرخيصة ما ذهب إليه أنيس زكريا المعروف بنزعته الأموية ان من أهم الأسباب التي أدت إلى قتل الإمام الحسين (ع) تشجيع ابن الزبير له في الخروج إلى العراق، فقد كان له أثره المهم في نفسه (١) وهذا القول من أهزل الآراء فان الإمام الحسين (ع) لم يتأثر بقول ابن الزبير، ولم ينخدع بتشجيعه له، وانما كانت هناك عوامل أخرى حفزته إلى الخروج إلى العراق، وقد ذكرناها بالتفصيل في البحوث السابقة.

فزع السلطة المحلية:

وذعرت السلطة المحلية في مكة من قدوم الامام إليها، وخافت أن يتخذها مقرا سياسيا لدعوته، ومنطلقا لاعلان الثورة على حكومة دمشق، وقد خفت حاكم مكة عمرو بن سعيد الأشدق وهو مذعور فقابل الامام، فقال له:

- ما أقدمك؟

- عائذا بالله، وبهذا البيت.. (٢).

---

(١) الدولة الأموية في الشام (ص ٥٤).

(٢) تذكرة الخواص (ص ٢٤٨).

لقد جاء الامام عائذا ببيت الله الحرام الذي من دخله كان آمنا، وكان محصنا من كل ظلم واعتداء.

ولم يحفل الأشدق بكلام الامام وانما رفع رسالة إلى يزيد أحاطه بها علما بمجيئ الامام إلى مكة، واختلاف الناس إليه، وازدحامهم على مجلسه، واجماعهم على تعظيمه، وأخبره ان ذلك يشكل خطرا على الدولة الأموية.

قلق يزيد:

واضطرب يزيد كأشد ما يكون الاضطراب حينما وافته الانباء بامتناع الحسين عن بيعته وهجرته إلى مكة، واتخاذها مركزا لدعوته، وارسال العراق الوفود والرسائل إلى الدعوة لبيعته، فكتب إلى عبد الله بن عباس رسالة، وهذا نصها:

" أما بعد: فان ابن عمك حسينا، وعدو الله ابن الزبير التويا ببيعتي ولحقا بمكة مرصدين للفتنة، معرضين أنفسهما للهلكة، فاما ابن الزبير فإنه صريع الفنا، وقتيل السيف غدا، وأما الحسين فقد أحببت الاعذار إليكم أهل البيت مما كان منه، وقد بلغني أن رجالا من شيعته من أهل العراق يكاتبونه، ويكاتبهم، ويمنونه الخلافة، ويمنيهم الامرة، وقد تعلمون ما بيني وبينكم من الوصلة وعظيم الحرمة ونتائج الأرحام، وقد قطع ذلك الحسين، وبته، وأنت زعيم أهل بيتك، وسيد بلادك، فالقه فارددده عن السعي في الفتنة، فان قبل منك وأناب فله عندي الأمان، والكرامة الواسعة، وأجري عليه ما كان أبي يجريه على أخيه وإن طلب الزيادة فاضمن له ما أديك، وأنفذ ضمانك، وأقوم له بذلك

وله علي الايمان المغلظة، والمواثيق المؤكدة بما تطمئن به نفسه، ويعتمد في كل الأمور عليه، عجل بجواب كتابي، وبكل حاجة لك قبلي والسلام
وختم كتابه بهذه الأبيات:
يا أيها الراكب العادي مطيته * على غذافرة في سيرها فحم
أبلغ قريشا على ناي المزار بها * بيني وبين الحسين الله والرحم
وموقف بفنا البيت أنشده * عهد الاله غدا وما توفي به الذمم
عنيتم قومكم فخرا بأمكم * أم لعمري حصان عفة كرم
هي التي لا يداني فضلها أحد * بنت الرسول وخير الناس قد علموا
اني لاعلم أو ظنا كعالمه * والظن يصدق أحيانا فينتظم
ان سوف يترككم ما تدعون بها * قتلى تهاداكم العقبان والرخم
يا قومنا لا تشبوا الحرب إذ سكنت * وأمسكوا بحبال السلم واعتصموا
قد جرب الحرب من قد كان قبلكم * من القرون وقد بادت بها الأمم
فأنصفوا قومكم لا تهلكوا برحا * فرب ذي برح زلت به القدم
ودلت هذه الرسالة على غباوة يزيد فقد حسب أن الامام يطلب المال والثراء في خروجه عليه، ولم يعلم أنه انما ناهضه لا يبغي بذلك إلا الله والتماس الاجر في الدار الآخرة.
جواب ابن عباس:
وأجابه ابن عباس " أما بعد: فقد ورد كتابك تذكر فيه لحاق الحسين وابن الزبير بمكة، فاما ابن الزبير فرجل منقطع عنا برأيه وهواه يكاتمنا مع ذلك أضغانا يسرها في صدره يوري علينا وري الزناد، لا فك الله أسيرها فأرى في أمره ما أنت راء.
واما الحسين فإنه لما نزل مكة

وترك حرم جده، ومنازل آبائه سألته عن مقدمه فأخبرني ان عمالك بالمدينة أساؤا إليه، وعجلوا عليه بالكلام الفاحش، فاقبل إلى حرم الله مستجيرا به، وسألقاه فيما أشرت إليه، ولن أدع النصيحة فيما يجمع الله به الكلمة، ويطفئ به النائرة ويخمد به الفتنة، ويحقن به دماء الأمة، فاتق الله في السر والعلانية، ولا تبيتن ليلة وأنت تريد لمسلم غائلة، ولا ترصده بمظلمة، ولا تحقر له مهراة (١) فكم من حافر لغيره حفرا وقع فيه، وكم من مؤمل أملا لم يؤت أمله، وخذ بحظك من تلاوة القران، ونشر السنة، وعليك بالصيام والقيام لا تشغلك عنهما ملاهي الدنيا وأباطيلها فان كل ما اشتغلت به عن الله يضر ويفنى وكل ما اشتغلت به من أسباب الآخرة ينفع ويبقى. والسلام... " (٢).

وحفلت هذه الرسالة بما يلي:

١ - إنه لا علاقة لبني هاشم بابن الزبير،، ولا هم مسؤولون عن تصرفاته، فقد كان عدوا لهم يتربص بهم الدوائر، ويبغي لهم الغوائل.

٢ - ان الإمام الحسين انما نزح من يثرب إلى مكة لا لإثارة الفتنة وانما لإساءة عمال يزيد له، وقد قدم إلى مكة ليستجير ببيتها الحرام.

اقصاء حاكم المدينة:

كان الوليد بن عتبة بن أبي سفيان واليا على يثرب بعد عزل مروان عنها، وكان - فيما يقول المؤرخون - فطنا ذكيا يحب العافية ويكره الفتنة، ولما امتنع الإمام الحسين (ع) من البيعة ليزيد لم يتخذ معه

---

(١) المهراة: الحفرة

(٢) تذكرة الخواص (ص ٢٤٨ - ٢٥٠) تاريخ ابن عساكر ١٣ / ٧٠

الاجراءات الصارمة، ولم يكرهه على ما لا يحب، وانما فسح له المجال في الرحيل إلى مكة من دون أن يعوقه عنها، في حين قد أصر عليه مروان بالتنكيل به فرفض ذلك، وقد نقل الأمويون موقفه المتسم باللين والتسامح مع الحسين إلى يزيد فغضب عليه وعزله عن ولايته (١)، وقد عهد بها إلى جبار من جبابرة الأمويين عمرو بن سعيد الأشدق (٢) وقد عرف بالقسوة والغلظة، قدم إلى المدينة في رمضان بعد أن تسلم ولايته عليها فصلى، بالناس صلاة العتمة، وفي الصباح خرج على الناس وعليه قميص احمر وعمامة حمراء فرماه الناس بابصارهم منكرين ما هو عليه، فصعد المنبر فقال:

" يا أهل المدينة، ما لكم ترموننا بأبصاركم كأنكم تقروننا سيوفكم؟ أنسيتم ما فعلتم! أما لو انتقم في الأول ما عدتم إلى الثانية، أغركم إذ قتلتم عثمان فوجدتموه صابرا حليما، واماما، فذهب غضبه، وذهبت ذاته، فاغتنموا أنفسكم، فقد وليكم امام بالشباب المقتبل البعيد الامل، وقد اعتدل جسمه، واشتد عظمه، ورمى الدهر ببصره، واستقبله بأسره، فهو إن عض لهس، وان وطئ فرس، لا يقلقه الحصى، ولا تقرع له العصا "

وعرض في خطابه لابن الزبير فقال:

" فوالله لنغزونه، ثم لئن دخل الكعبة لنحرقنها عليه، على رغم

---

(١) البداية والنهاية ٨ / ١٤٨.

(٢) الأشدق: لقب بذلك لتشادقه الكلام، وقيل انما لقب بذلك لأنه كان أفقم مائل الذقن، جاء ذلك في البيان والتبيين ١ / ٣١٥، وقيل انما لقب بذلك لأنه أصابه اعوجاج في حلقه لاغراقه في شتم علي جاء ذلك في معجم الشعراء (٢٣١).

انف من رغم.. " (١)
ورعف الطاغية على المنبر فالقى إليه رجل عمامة فمسح بها دمه
فقال رجل من خثعم: " دم على المنبر في عمامة، فتنة عمت وعلا ذكرها
ورب الكعبة " (٢).
وقد أثر عن رسول الله (ص) أنه قال: " ليرعفن على منبري
جبار من جبابرة بني أمية فيسيل رعافه " (٣):
وعزم الأشدق على مقابلة الجبهة المعارضة بالقوة والبطش، وقد
حفزه إلى ذلك ما حل بسلفه الوليد من الاقصاء وسلب الثقة عنه نتيجة
تساهله مع الحسين (ع)، ولعل من أوثق الأسباب التي دعت الإمام الحسين
(ع) إلى مغادرة الحجاز هو الحذر من بطش هذا الطاغية به،
والخوف من اغتياله وهو في الحرم.
الحسين مع ابن عمر وابن عباس:
وكان عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر مقيمين في مكة حينما
أقبل الإمام الحسين إليها، وقد خفا لاستقباله والتشرف بخدمته، وكانا قد
عزما على مغادرة مكة، فقال له ابن عمر!
" أبا عبد الله، رحمك الله، اتق الله الذي إليه معادك، فقد عرفت
من عداوة أهل البيت - يعني بني أمية - لكم، وقد ولي الناس هذا
الرجل يزيد بن معاوية، ولست آمن أن يميل الناس إليه لمكان هذه الصفراء

---

(١) تاريخ الاسلام للذهبي ٢ / ٢٦٨.
(٢) سمط النجوم العوالي ٣ / ٥٧.
(٣) مجمع الزوائد ٥ / ٢٤٠.

موطن، يريدون في ذلك قتله، وسفك دمه، وهو لم يشرك بالله ولا اتخذ من دونه وليا، ولم يتغير عما كان عليه رسول الله (ص). "

وانبرى ابن عباس يؤيد كلامه، ويدعم قوله قائلا:

" ما أقول: فيهم الا انهم كفروا بالله ورسوله، ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا مذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومن يظل الله فلن تجد له سبيلا، وعلى مثل هؤلاء تنزل البطشة الكبرى، وأما أنت يا بن رسول الله فإنك رأس الفخار برسول الله، فلا تظن يا بن بنت رسول الله أن الله غافل عما يفعل الظالمون وأنا اشهد أن من رغب عن مجاورتك، وطمع في محاربتك، ومحاربة نبيك محمد فماله من خلاق... ".

وانبرى الإمام الحسين فصدق قوله قائلا: " اللهم نعم ".

وانطلق ابن عباس يظهر له الاستعداد للقيام بنصرته قائلا:

" جعلت فداك يا بن بنت رسول الله، كأنك تريدني إلى نفسك، وتريد مني أن أنصرك، والله الذي لا إله إلا هو ان لو ضربت بين يديك بسيفي هذا بيدي حتى انخلعا جميعا من كفي لما كنت ممن وفى من حقك عشر العشر، وها انا بين يديك مرني بأمرك ".

وقطع ابن عمر كلامه، وأقبل على الحسين فقال له:

" مهلا عما قد عزمت عليه، وارجع من هنا إلى المدينة، وادخل في صلح القوم، ولا تغب عن وطنك، وحرم جدك رسول الله (ص) ولا تجعل لهؤلاء الذين لا خلاق لهم على نفسك حجة، وسبيلا، وإن أحببت أن لا تبايع فأنت متروك حتى ترى رأيك، فان يزيد بن معاوية عسى أن لا يعيش إلى قليلا فيكفيك الله أمره ".

وزجره الامام، ورد عليه قوله قائلا:

والبيضاء، فيقتلونك، ويهلك فيك بشر كثير، فاني قد سمعت رسول الله (ص) يقول:
" حسين مقتول، ولئن قتلوه وخذلوه، ولن ينصروه ليخذلهم الله إلى يوم القيامة، وأنا أشير عليك أن تدخل في صلح ما دخل فيه الناس واصبر كما صبرت لمعاوية من قبل، فلعل الله أن يحكم بينك وبين القوم الظالمين. ".
فقال له أبي الضيم "
" أنا أبايع يزيد، وأدخل في صلحه؟!! وقد قال النبي (ص) فيه وفي أبيه ما قال ":
وانبرى ابن عباس فقال له:
" صدقت أبا عبد الله قال النبي (ص) في حياته: " ما لي وليزيد لا بارك الله في يزيد، وانه يقتل ولدي، وولد ابنتي الحسين، والذي نفسي بيده، لا يقتل ولدي بين ظهراني قوم فلا يمنعونه الا خالف الله بين قلوبهم وألسنتهم ".
وبكى ابن عباس والحسين، والتفت إليه قائلا:
" يا بن عباس أتعلم أني ابن بنت رسول الله (ص)؟ ".
" اللهم نعم.. نعلم ما في الدنيا أحد هو ابن بنت رسول الله غيرك وان نصرك لفرض على هذه الأمة كفريضة الصلاة والزكاة التي لا يقبل أحدهما دون الأخرى.. ".
فقال له الحسين:
" يا بن عباس، ما تقول في قوم أخرجوا ابن بنت رسول الله (ص) من داره، وقراره، ومولده وحرم رسوله، ومجاورة قبره ومسجده وموضع مهاجره، فتركوه خائفا مرعوبا لا يستقر في قرار، ولا يأوي في

" أف لهذا الكلام أبدا ما دامت السماوات والأرض، أسألك يا عبد الله أنا عندك على خطا من أمري؟ فان كنت على خطا ردني فانا أخضع، وأسمع وأطيع ":

فقال ابن عمر:

" اللهم لا، ولم يكن الله تعالى يجعل ابن بنت رسول الله على خطا وليس مثلك من طهارته وصفوته من رسول الله (ص) على مثل يزيد ابن معاوية، ولكن أخشى أن يضرب وجهك هذا الحسن الجميل بالسيوف وترى من هذه الأمة ما لا تحب، فارجع معنا إلى المدينة، وان لم تحب أن تبايع، فلا تبايع أبدا، واقعد في منزلك ".

" والتفت إليه الامام فأخبره عن خبث الأمويين، وسوء نواياهم نحوه قائلا:

" هيهات يا بن عمر ان القوم لا يتركوني، وإن أصابوني، وان لم يصيبوني، فلا يزالون حي أبايع وأنا كاره، أو يقتلوني، أما تعلم يا عبد الله ان من هوان الدنيا على الله تعالى أنه أتي براس يحيى بن زكريا إلى بغي من بغايا بني إسرائيل، والرأس ينطق بالحجة عليهم؟!! أما تعلم يا أبا عبد الرحمن ان بني إسرائيل كانوا يقتلون ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس سبعين نبيا ثم يجلسون في أسواقهم يبيعون ويشترون كلهم كأنهم لم يصنعوا شيئا، فلم يعجل الله عليهم ثم أخذهم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر.. " (١).

وكشفت هذه المحاورة عن تصميمه على الثورة، وعزمه على مناجزة يزيد لأنه لا يتركه وشأنه، فاما أن يبايع، وبذلك يذل هو ويذل الاسلام

---

(١) الفتوح ٥ / ٣٨ - ٤٢.

وتستباح حرماته، وأما أن يقتل عزيزا كريما، فاختار المنية للحفاظ على كرامته وكرامة الأمة ومقدساتها.

وصيته لابن عباس:

وأقبل الحسين على ابن عباس، فعهد إليه بهذه الوصية قائلا:

" وأنت يا بن عباس ابن عم أبي، لم تزل تأمر بالخير منذ عرفتك، وكنت مع أبي تشير عليه بما فيه الرشاد والسداد، وقد كان أبي يستصحبك ويستنصحك ويستشيرك، وتشير عليه بالصواب، فامض إلى المدينة في حفظ الله، ولا تخف علي شيئا من أخبارك، فاني مستوطن هذا الحرم، ومقيم به ما رأيت أهله يحبونني، وينصرونني، فإذا هم خذلوني استبدلت بهم غيرهم، واستعصمت بالكلمة التي قالها إبراهيم يوم ألقي في النار (حسبي الله ونعم الوكيل، فكانت النار عليه بردا وسلاما..) (١).

رسائله إلى زعماء البصرة:

وكتب الامام إلى رؤساء الأخماس بالبصرة يستنهضهم على نصرته والاخذ بحقه وقد كتب إلى الاشراف ومن بينهم:

١ - مالك بن مسمع البكري

٢ - الأحنف بن قيس

٣ - المنذر بن الجارود

٤ - مسعود بن عمرو

---

(١) مقتل الخوارزمي ١ / ١٩٣.

٥ - قيس بن الهيثم
٦ - عمر بن عبيد الله بن معمر (١)
وقد أرسل كتابا إليهم بنسخة واحدة وهذا نصه:
" أما بعد: فان الله اصطفى محمدا (ص) من خلقه، وأكرمه بنبوته، واختاره لرسالته، ثم قبضه إليه، وقد نصح لعباده، وبلغ ما أرسل به، وكنا أهله وأولياءه وأوصياؤه وورثته، وأحق الناس بمقامه فاستأثر علينا قومنا بذلك، فرضينا، وكرهنا الفرقة، وأحببنا العافية، ونحن نعلم أنا أحق بذلك الحق المستحق علينا ممن تولاه: وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، فان السنة قد أميتت، والبدعة قد أحببت فان تسمعوا قولي: أهدكم إلى سبيل الرشاد.. " (٢).
وألقت هذه الرسالة الأضواء على الخلافة الاسلامية فهي - حسب تصريح الامام - حق لأهل البيت (ع) لأنهم الصق الناس برسول الله (ص) وأكثرهم وعيا لأهدافه إلا أن القوم استأثروا بها، فلم يسع العترة الطاهرة إلا الصبر كراهة للفتنة وحفظا على وحدة المسلمين... كما حفلت هذه الرسالة بالدعوة إلى الحق بجميع رحابه ومفاهيمه، فدعت إلى احياء كتاب الله وسنة نبيه فان الحكم الأموي عمد إلى اقصائهما عن واقع الحياة...
وعلق بعض الكتاب على دعوة الامام لأهل البصرة لبيعته فقال:
" ان رسالة الحسين إلى أهل البصرة ترينا كيف كان يعرف مسؤوليته ويمضي معها، فأهل البصرة لم يكتبوا إليه: ولم يدعوه إلى بلدهم، كما فعل أهل الكوفة، ومع هذا فهو يكتب إليهم، ويعدهم للمجابهة المحتومة

---
(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٨.
(٢) تاريخ الطبري ٦ / ٢٠٠.

ذلك أنه حين قرر أن ينهض بتبعات دينه وأمته، كان قراره هذا آتيا من أعماق روحه وضميره، وليس من حركة أهل الكوفة ودعوتهم إياه ".

وعلى أي حال فقد بعث الامام كتبه لأهل البصرة بيد مولى له يقال له سليمان، ويكني أبا رزين، وقد جد في السير حتى انتهى إلى البصرة فسلم الكتب إلى أربابها.

جواب الأحنف بن قيس:

وأجاب الأحنف بن قيس زعيم العراق الامام برسالة كتب فيها هذه الآية الكريمة ولم يزد عليها " فاصبر ان وعد الله حق، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون " (١) وقد طلب من الامام الخلود إلى الصبر، ولا يستخفه الذين لا يوقنون بالله ولا يرجون له وقارا.

جريمة المنذر:

أما المنذر بن الجارود العبدي فقد كان من أجلاف العرب وحقرائهم فقد عمد إلى رسول الامام فبعثه مخفورا إلى ابن زياد، وكان زوج ابنته ليظهر له الاخلاص والولاء، فقتله ابن مرجانة وصلبه عشية الليلة التي خرج في صبيحتها إلى الكوفة (٢) واعتذر بعض المؤرخين عن المنذر أو هو اعتذر عن نفسه بأنه خشي أن يكون الرسول من قبل ابن مرجانة

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣ / ٢٠٠.

(٢) تاريخ الطبري ٦ / ٢٠٠.

لاختياره فلذا سلمه إليه وهو اعتذار مهلهل، فان اللازم كان اجراء التحقيق معه حتى يستبين له الامر.

استجابة يزيد بن مسعود:

واستجاب الزعيم الكبير يزيد بن مسعود النهشلي إلى تلبية نداء الحق فاندفع بوحي من ايمانه وعقيدته إلى نصرة الامام، فعقد مؤتمرا عاما دعا فيه القبائل العربية الموالية له وهي:

١ - بنو تميم

٢ - بنو حنظلة

٣ - بنو سعد

ولما اجتمعت هذه القبائل، انبرى فيهم خطيبا، فوجه خطابه أولا إلى بني تميم فقال لهم:

" يا بني تميم: كيف ترون موضعي فيكم، وحسبي منكم؟! "

وتعالت أصوات بني تميم، وهي تعلن ولاءها المطلق، واكبارها له قائلين بلسان واحد:

" بخ بخ!! أنت والله فقرة الظهر، ورأس الفخر حللت في الشرف وسطا، وتقدمت فيه فرطا.. "

وسره تأييدهم فانطلق يقول:

إني جمعتكم لأمر أريد أن أشاوركم، وأستعين بكم عليه.. "

واندفعوا جميعا يظهرون له الولاء والطاعة قائلين:

" إنا والله نمنحك النصيحة، ونجهد لك الرأي فقل حتى نسمع "

وتطاولت الأعناق، واشرأبت النفوس لتسمع ما يقول: الزعيم الكبير، وانبرى قائلا:

" إن معاوية مات، فأهون به - والله - هالكا ومفقودا، الا انه قد انكسر باب الجور والاثم، وتضعضعت أركان الظلم، وكان قد أحدث بيعة عقد بها أمرا ظن أنه قد أحكمه، وهيهات الذي أراد!! اجتهد والله ففشل، وشاور فخذل، وقد قام يزيد شارب الخمور ورأس الفجور يدعي الخلافة على المسلمين، ويتأمر عليهم بغير رضا منهم مع قصر حلم وقلة علم، لا يعرف من الحق موطأ قدميه، فاقسم بالله قسما مبرورا لجهاده على الدين أفضل من جهاد المشركين.

وهذا الحسين بن علي، وابن رسول الله (ص) ذو الشرف الأصيل والرأي الأثيل (١) له فضل لا يوصف، وعلم لا ينزف، وهو أولى بهذا الامر لسابقته وسنه، وقدمه وقرابته، يعطف على الصغير، ويحسن إلى الكبير، فأكرم به راعي رعية، وامام قوم وجبت لله به الحجة وبلغت به الموعظة، فلا تعشوا عن نور الحق، ولا تسكعوا في وهد الباطل، فقد كان صخر بن قيس انخذل بكم يوم الجمل فاغسلوها بخروجكم إلى ابن رسول الله (ص) ونصرته، والله لا يقصر أحدكم عن نصرته إلا أورثه الله الذل في ولده، والقلة في عشيرته.

وها أنا ذا قد لبست للحرب لامتها، وادرعت لها بدرعها، من لم يقتل يمت، ومن يهرب لم يفت، فاحسنوا رحمكم الله رد الجواب "

وحفل هذا الخطاب الرائع بأمور بالغة الأهمية وهي:

أولا -: الاستهانة بهلاك معاوية، وانه قد انكسر بموته باب الظلم والجور.

---

(١) الرأي الأثيل: الأصيل.

ثانيا -: القدح في بيعة معاوية ليزيد.
ثالثا -: عرض الصفات الشريرة الماثلة في يزيد من الادمان على الخمر، وفقد الحلم، وعدم العلم، وعدم التبصر بالحق.
رابعا -: الدعوة إلى الالتفات حول الإمام الحسين (ع) وذلك لما يتمتع به من الصفات الشريفة كأصالة الفكر، وغزارة العلم، وكبر السن، والعطف على الكبير والصغير وغير ذلك من النزعات الكريمة التي تجعله أهلا لامامة المسلمين.
خامسا -: انه عرض للجماهير عن استعداده الكامل للقيام بنصرة الامام والذب عنه.
ولما أنهى الزعيم العظيم خطابه انبرى وجهاء بني حنظلة فأظهروا الدعم الكامل له قائلين:
" يا أبا خالد: نحن نبل كنانتك، وفرسان عشيرتك. إن رميت بنا أصبت، وان غزوت بنا فتحت. لا تخوض والله غمرة الا خضناها ولا تلقى والله شدة إلا لقيناها ننصرك بأسيافنا ونقيك بأبداننا إذا شئت "
وكان منطقا مشرفا دل على تعاطفهم، ووقوفهم إلى جانبه، وقام من بعدهم بنو عامر فأعربوا عن ولائهم العميق له قائلين:
" يا أبا خالد نحن بنو أبيك، وحلفاؤك لا نرضى إن غضبت، ولا نبقى ان ظعنت والامر إليك فادعنا إذا شئت.. ".
وأما بنو سعيد فأظهروا التردد وعدم الرغبة فيما دعاهم إليه، قائلين:
" يا أبا خالد: ان أبغض الأشياء إلينا خلافك، والخروج عن رأيك، وقد كان صخر بن قيس أمرنا بترك القتال يوم الجمل، فحمدنا أمرنا، وبقي عزنا فينا، فأمهلنا نراجع المشورة، ونأتيك برأينا. ".
وساءه تخاذلهم فاندفع يندد بهم قائلا:

" لئن فعلتموها لا رفع الله السيف عنكم أبدا، ولا زال سيفكم فيكم.. ".

جوابه للامام:

ورفع يزيد بن مسعود رسالة للامام دلت على شرفه ونبله، واستجابته لدعوته، وهذا نصها:

" أما بعد: فقد وصل إلي كتابك، وفهمت ما ندبتني إليه، ودعوتني له من الاخذ بحظي من طاعتك، والفوز بنصيبي من نصرتك.. وان الله لم يخل الأرض قط من عامل بخير، ودليل على سبيل نجاة، وأنتم حجة الله على خلقه، ووديعته في أرضه تفرعتم من زيتونة أحمدية هو أصلها وأنتم فرعها، فأقدم سعدت بأسعد طائر فقد ذلك لك أعناق بني تميم، وتركتهم أشد تتابعا في طاعتك من الإبل الظماء لورود الماء يوم خمسها (١) وقد ذلك لك رقاب بني سعد، وغسلت درن قلوبها بماء سحابة مزن حين استهل برقها فلمع.. ".

وحفلت هذه الرسالة بسمو أدبه، وكريم طباعه، وتقديره البالغ للامام، ويقول بعض المؤرخين انها انتهت إلى الامام في اليوم العاشر من المحرم بعد مقتل أصحابه وأهل بيته، وهو وحيد فريد قد أحاطت به القوى الغادرة، فلما قرا الرسالة طفق يقول:

" ما لك، آمنك الله من الخوف، وأرواك يوم العطش الأكبر "

ولما تجهز ابن مسعود لنصرة الامام بلغه قتله فجزع لذلك وذابت

---

(١) خمسها: بالكسر الإبل الضماء التي ترعى ثلاثة أيام وترد الرابع

نفسه أسى وحسرات (١).

استجابة يزيد البصري:

ولبى نداء الحق يزيد بن نبيط البصري، وكان - فيما يقول المؤرخون - يتردد إلى دار مارية ابنة سعد أو منقذ، وكانت دارها من منتديات الشيعة، وفيها تذاع فضائل أهل البيت (ع) وتنشر مآثرهم، ولما وجه الامام دعوته إلى أهل البصرة لنصرته استجاب لها يزيد بن نبيط، ولحق به من أولاده العشرة عبد الله وعبيد الله، وخاف عليه أصحابه أن يدركه الطلب من شرطة ابن زياد، فقال لهم: لو استوت أخفافها بالجدد لهان علي طلب من طلبني (٢) واستوى على جواده مع ولديه، وصحبه مولاه عامر، وسيف بن مالك والأدهم بن أمية فلحقوا بالامام في مكة وصحبوه إلى العراق واستشهدوا بين يديه في كربلا (٣).

نقمة العراق على الأمويين:

وكره العراقيون بصورة عامة حكم الأمويين، وبغضوا سلطانهم، وفيما نحسب ان الأسباب في ذلك ما يلي:

١ - ان العراق أيام معاوية أصبح يساس بالروح العسكرية والاحكام العرفية التي يا تتقيد بالقانون خصوصا أيام زياد بن سمية فقد كان يأخذ

---

(١) اللهوف (ص ١٦ - ١٩).

(٢) تاريخ الطبري ٦ / ١٩٨.

(٣) مقتل المقرم (ص ١٥٨) نقلا عن ذخيرة الدارين (ص ٢٢٤).

البرئ بالسقيم، والمقبل بالمدبر، ويقتل على الظنة والتهمة، مما أدى إلى إشاعة الكراهية للأمويين.

٢ - ان الكوفة كانت في عهد الامام أمير المؤمنين (ع) عاصمة الدولة الاسلامية، وفي أيام معاوية أصبحت دمشق العاصمة ومركز الحكم وأصبح العراق مصرا كسائر الأمصار، وانتقلت عنه الخزينة المركزية، وقد أخذ الكوفيون يندبون حظهم التعيس بعد تحول الخلافة عنهم وأصبح اسم الامام عندهم رمزا إلى دولتهم المفقودة، وتعلقت آمالهم بأبناء الامام فكانوا ينظرون إليهم انهم الابطال لاستقلال بلادهم السياسي وتحررها من التبعية لدمشق فقد كره أهل العراق الخضوع لأهل الشام، كما كره أهل الشام الخضوع والسيطرة لأهل العراق وقد صور شاعر الشام هذه النزعة بقوله:

أرى الشام تكره ملك العراق * وأهل العراق لهم كارهونا
وقالوا: علي امام لنا * فقلنا: رضينا ابن هند رضينا

وصور شاعر العراق هذه النزعة السائدة عند العراقيين بقوله مخاطبا أهل الشام:

أتاكم علي باهل العراق * وأهل الحجاز فما تصنعونا
فان يكره القوم ملك العراق * فقدما رضينا الذي تكرهونا (١)

وكانت الثورات المتلاحقة التي قام بها العراق انما هي لكراهية أهل الشام والتخلص من حكم الأمويين.

٣ - ان السياسة الخاطئة التي تبعها معاوية مع زعماء الشيعة الذين تبنوا القضايا المصيرية للشعب العراقي وكافة الشعوب الاسلامية وما عانوه من القتل والتنكيل قد هزت مشاعر الكوفيين، وأوغرت صدورهم بالحقد

---

(١) الاخبار الطوال (ص ٧٠) طبع ليدن

على الأمويين، كما أن سب الامام على المنابر قد زاد في بغضهم للأمويين وأشعل جذوة المعارضة في نفوسهم.
٤ – ان الأمويين كانوا ينظرون إلى أهل الكوفة انهم الجبهة المعارضة لحكمهم وانهم المصدر الخطير الذي يهدد دولتهم فقابلوهم بمزيد من القسوة والارهاب، مما دعى الكوفيين إلى العمل المستمر لمناهضة الحكم الأموي وتقويض سلطانه... هذه بعض الأسباب التي أدت إلى نقمة العراق على الحكم الأموي وبغضهم له،

اعلان التمرد في العراق:

وبعد هلاك معاوية أيقن العراقيون بانهيار الدولة الأموية، وقد رؤوا أن في تقليد يزيد مهام الخلافة انما هو استمرار للحكم الأموي الذي جهد على اذلالهم وقهرهم.

وقد أجمعت الشيعة في الكوفة على مناجزته والخروج على سلطانه ورأوا أن في كفاحهم له جهادا دينيا، حسب ما يقول جولد تسهير " (١) ويرى (كريمر) ان الأخيار والصلحاء من الشيعة كانوا ينظرون إلى يزيد نظرتهم إلى ورثة أعداء الاسلام وخلفاء أبي سفيان (٢):

وعلى أي حال فان شيعة الكوفة لم ترض بحكم يزيد، وأجمعت على خلعه، والبيعة للإمام الحسين (ع) وقد قاموا بما يلي:

---

(١) العقيدة والشريعة في الاسلام (ص ٦٩).
(٢) العقيدة والشريعة في الاسلام (ص ٦٩).

المؤتمر العام:
وعقدت الشيعة بعد هلاك معاوية مؤتمرا عاما في بيت أكبر زعمائها سليمان بن صرد الخزاعي، واندفعوا اندفاعا كليا في القاء الخطب الحماسية التي تظهر مساوئ الحكم الأموي وفضائحه، كما أشادوا بالامام الحسين ودعوا إلى البيعة له.
خطبة سليمان:
واعتلى سليمان بن صرد منصة الخطابة، فافتتح أولى جلساتهم بهذا الخطاب، وقد جاء فيه:
" ان معاوية قد هلك، وان حسينا قد قبض على القوم ببيعته، وقد خرج إلى مكة وأنتم شيعته، وشيعة أبيه فان كنتم تعلمون أنكم ناصروه ومجاهدو عدوه فاكتبوا إليه، وان خفتم الوهن والفشل فلا تغروا الرجل من نفسه.. ".
وتعالت أصواتهم من كل جانب وهم يقولون بحماس بالغ:
" نقتل أنفسنا دونه.. ".
" لا بل نقاتل عدوه.. " (١).
وأظهروا رغبتهم الملحة ودعمهم الكامل للامام، وقرروا ما يلي:
١ - خلع بيعة يزيد
٢ - ارسال وفد للامام يدعونه للقدوم إليهم

---

(١) الارشاد (ص ٢٢٣ - ٢٢٤).

٣ - بعث الرسائل للامام من مختلف الطبقات الشعبية التي تمثل رغبة الجماهير الحاشدة لحكم الامام.

وفد الكوفة:

وأوفدت وفدا إلى الامام يدعوه إلى القدوم إليهم، ومن بين ذلك الوفد عبد الله الجدلي (١) ولما مثل الوفد عند الامام عرض عليه اجماع أهل الكوفة على نصرته والاخذ بحقه، وانه ليس لهم امام غيره، وحثوه على القدوم إليهم.

الرسائل:

وعمد أهل الكوفة بعد مؤتمرهم فكتبوا الرسائل إلى الإمام (ع) وهي تعرب عن اخلاصهم وولائهم له، وتحثه على القدوم إليهم ليتولى قيادة الأمة وهذه بعضها.

١ - قد جاء فيما بعد البسملة ما نصه:

" من سليمان بن صرد، والمسيب بن نجية، ورفاعة بن شداد، وحبيب بن مظاهر، وشيعته والمسلمين من أهل الكوفة.

أما بعد: فالحمد لله الذي قصم عدوك الجبار العنيد - يعني معاوية - الذي انتزى على هذه الأمة فابتزها أمرها، واغتصبها فيئها، وتآمر عليها بغير رضى منها، ثم قتل خيارها واستبقى شرارها، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وأغنيائها فبعدا له كما بعدت ثمود... إنه ليس علينا امام

---

(١) مقاتل الطالبيين (ص ٩٥).

فاقبل لعل الله يجمعنا بك على الحق، والنعمان بن بشير في قصر الامارة لسنا نجتمع معه في جمعة، ولا نخرج معه إلى عيد، ولو بلغنا أنك قد أقبلت إلينا أخرجناه حتى نلحقه بالشام إن شاء الله والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.. " (١).

وكتبت هذه الرسالة في أواخر شهر شعبان، وحملها عبد الله الهمداني وعبد الله بن وائل الهمداني وقد أمروهما بالاسراع والحذر من العدو، وأخذا يجدان في السير لا يلويان على شئ وقدما مكة لعشر مضين من رمضان (٢) وسلما الرسالة للامام وعرفاه بشوق الناس إلى قدومه.

وقد عرضت هذه الرسالة مساوئ الحكم الأموي، فوصفت معاوية بالجبار العنيد، وانه ابتز أمر الأمة بالقهر والغلبة، وتآمر عليها بغير رضى منها، وقد قتل خيارها وصلحاءها وجعل العطاء خاصة للأغنياء والوجوه، وحرم منه بقية طوائف الشعب، كما عرضت إلى مقاطعة الشيعة لحاكم الكوفة النعمان بن بشير، وانهم إذا بلغهم قدوم الامام قاموا باقصائه عن الكوفة والحاقه بدمشق.

٢ - وقد أرسل الرسالة الثانية جماعة من أهل الكوفة وهذا نصها:

" إلى الحسين بن علي من شيعته والمسلمين، أما بعد: فحي هلا (٣) فان الناس ينتظرونك ولا رأي لهم غيرك (٤) فالعجل ثم العجل والسلام " (٥)

---

(١) أنساب الأشراف (ق ١ ج ١) الإمامة والسياسة ٢ / ٣ - ٤ الطبري.

(٢) الفتوح ٥ / ٤٤.

(٣) حي هلا: اسم فعل بمعنى اقبل وعجل

(٤) في تاريخ اليعقوبي ٢ / ٢١٥، لا امام لهم غيرك.

(٥) الارشاد (ص ٢٢٤).

وحمل هذه الرسالة قيس بن مسهر الصيداوي من بني أسد، وعبد الرحمن ابن عبد الله الأرحبي وعمارة بن عبد الله السلولي، كما حملوا معهم نحوا من خمسين صحيفة من الرجل والاثنين والثلاثة والأربعة (١) وهي تحت الامام على الاسراع إليهم والترحيب بقدومه، وتعلن دعمهم الكامل له.

٣ - وأرسل هذه الرسالة جماعة من الانتهازيين الذين لا يؤمنون بالله، وهم شبث بن ربعي اليربوعي ومحمد بن عمر التميمي، وحجار بن أبجر العجلي، ويزيد بن الحارث الشيباني، وعزرة بن قيس الأحمسي، وعمرو بن الحجاج الزبيدي، وهذا نصها:

" أما بعد: فقد اخضر الجناب، وأينعت الثمار، وطمت الجمام (٢) فأقدم على جند لك مجندة والسلام عليك،.. " (٣).

وأعربت هذه الرسالة عن شيوع الامل وازدهار الحياة، وتهيأة البلاد عسكريا للاخذ بحق الامام، ومناجزة خصومه، وقد وقعها أولئك الأشخاص الذين كانوا في طليعة القوى التي زجها ابن مرجانة لحرب الامام ومن المؤكد أنهم لم يكونوا مؤمنين بحقه، وانما اندفعوا لمساومة السلطة الأموية، والحصول منها على الأموال ومتع الحياة، كما صرح الإمام الحسين بذلك أمام أصحابه.

٤ - ومن بين تلك الرسائل " انا قد حبسنا أنفسنا عليك، ولسنا نحضر الصلاة مع الولاة، فأقدم علينا فنحن في مائة الف سيف، فقد فشا فينا الجور، وعمل فينا بغير كتاب الله وسنة نبيه، ونرجوا أن يجمعنا

---

(١) أنساب الأشراف ق ١ ج ٤.

(٢) الجمام: الابار.

(٣) أنساب الأشراف ق ١ ج ١ مطالب السؤول في مناقب آل الرسول (ص ٧٤).

الله بك على الحق، وينفي عنا بك الظلم، فأنت أحق بهذا الامر من يزيد وأبيه الذي غضب الأمة، وشرب الخمور، ولعب بالقرود والطنابير، وتلا عب بالدين " (١).

٥ - وكتب جمهور أهل الكوفة الرسالة الآتية ووقعوها وهذا نصها:

" للحسين بن علي أمير المؤمنين من شيعة أبيه (ع) أما بعد:

فان الناس ينتظرونك لا رأي لهم في غيرك العجل العجل يا بن رسول الله (ص) لعل الله أن يجمعنا بك على الحق ويؤيد بك المسلمين والاسلام... بعد أجزل السلام وأتمه عليك ورحمة الله وبركاته " (٢).

٦ - وكتب إليه جماعة هذه الرسالة الموجزة: " انا معك، ومعنا مائة الف سيف " (٣).

٧ - وكانت آخر الرسائل التي وصلت إليه هذه الرسالة: " عجل القدوم يا بن رسول الله فان لك بالكوفة مائة الف سيف فلا تتأخر " (٤).

وقد تتابعت عليه الرسائل ما ملا منها خرجين، ويقول المؤرخون: إنه اجتمع عنده في نوب متفرقة اثنا عشر الف كتاب (٥) ووردت إليه قائمة فيها مائة وأربعون الف اسم يعربون عن نصرتهم له حال ما يصلى إلى

---

(١) تذكرة الخواص (ص ٢٤٨) الصراط السوي في مناقب آل النبي للسيد محمود القادي من مصورات مكتبة الامام أمير المؤمنين، وبصورة موجزة رواه المسعودي في مروج الذهب ٣ / ٤.

(٢) وسيلة المال (ص ١٨٥) الفصول المهمة لابن الصباغ (ص ١٧٠)

(٣) أنساب الأشراف ق ١ ج ١.

(٤) بحار الأنوار ١٠ / ١٨٠.

(٥) اللهوف (ص ١٩).

الكوفة (١) كما وردت عليه في يوم واحد ستمائة كتاب (٢).
وعلى أي حال فقد كثرت كتب أهل الكوفة إلى الامام وقد وقع فيها الأشراف وقراء المصر وهي تمثل تعطشهم لقدوم الامام ليكون منقذا لهم من طغمة الحكم الأموي ولكن بمزيد الأسف فقد انطوت صحيفة ذلك الامل، وانقلب الوضع وتغيرت الحالة، وإذا بالكوفة تنتظر الحسين لتسقي سيوفها من دمه، وتطعم نبالها من لحمه.. تريد أن تحتضن جسد الحسين لتوزعه السيوف، تطعنه الرماح، وتسحقه الخيول بحوافرها:
الكوفة تنتظر الحسين لتشب عليه وثبة الأسد، وتنشب أظفارها بذلك الجسد الطاهر، الكوفة تنتظر الحسين لتسبي عياله بدل أن تحميهم، وتروع أطفاله بدل أن تؤويهم (٣).
وهكذا شاءت المقادير، ولا راد لأمر الله على نكث القوم لبيعة الامام واجماعهم على حربه ويقول المؤرخون ان الامام بعد ما وافته هذه الرسائل عزم على أن يلبي أهل الكوفة ويوفد إليهم ممثله العظيم مسلم بن عقيل.

---

(١) الوافي في المسألة الشرقية ١ / ٤٣.
(٢) الدر المسلوك في أحوال الأنبياء والأوصياء ١ / ١٠٧ من مخطوطات مكتبة الإمام الحكيم.
(٣) مع الحسين في نهضته (ص ١٥٧).

إيفاد مسلم إلى العراق

و تتابعت كتب أهل الكوفة – كالسيل – إلى الإمام الحسين، وهي تحثه على المسير والقدوم إليهم لانقاذهم من ظلم الأمويين وعنفهم، وكانت بعض تلك الرسائل تحمله المسؤولية أمام الله والأمة إن تأخير عن اجابتهم.
ورأى الامام – قبل كل شئ – أن يختار للقياهم سفيرا له يعرفه باتجاهاتهم، وصدق نياتهم، فان رأى منهم نية صادقة، وعزيمة مصممة فيأخذ البيعة منهم، ثم يتوجه إليهم بعد ذلك، وقد اختار لسفارته ثقته وكبير أهل بيته، والمبرز بالفضل فيهم مسلم بن عقيل، وهو من أفذاذ التاريخ، ومن أمهر الساسة، وأكثرهم قابلية على مواجهة الظروف، وللصمود أمام الحداث، وعرض عليه الامام القيام بهذه المهمة. فاستجاب له عن رضى ورغبة، وزوده برسالة رويت بصور متعددة وهي:
الأولى: رواها أبو حنيفة الدينوري وهذا نصها:
" من الحسين بن علي إلى من بلغه كتابي هذا من أوليائه وشيعته بالكوفة، سلام عليكم، أما بعد: فقد أتتني كتبكم، وفهمت ما ذكرتم من محبتكم لقدومي عليكم وأنا باعث إليكم بأخي وابن عمي، وثقتي من أهلي مسلم بن عقيل ليعلم لي كنه أمركم، ويكتب إلي بما يتبين له من اجتماعكم فان كان أمركم على ما أتتني به كتبكم، وأخبرتني به رسلكم أسرعت القدوم إليكم إن شاء الله والسلام.. " (١).
الثانية: رواها صفي الدين وقد جاء فيها بعد البسملة:
" أما بعد فقد وصلتني كتبكم، وفهمت ما اقتضته آراؤكم، وقد بعثت إليكم ثقتي وابن عمي مسلم بن عقيل، وسأقدم عليكم وشيكا في أثره إن شاء الله.. " (٢).

---

(١) الاخبار الطوال (ص ٢١٠).
(٢) وسيلة المال (ص ١٨٦) من مصورات مكتبة الإمام الحكيم.

وهذه الرواية شاذة إذ لم يذكر فيها مهمة مسلم في ايفاده إليهم من أخذ البيعة له، وغير ذلك مما هو من صميم الموضوع في ارسال مسلم.
الثالثة: رواها الطبري وقد جاء فيها بعد البسملة:
" من الحسين بن علي إلى الملاء من المؤمنين والمسلمين أما بعد: فان هانئا وسعيدا (١) قدما علي بكتبكم، وكانا آخر من قدم علي من رسلكم وقد فهمت كل الذي اقتصصتم، وذكرتم ومقالة جلكم، أنه ليس علينا امام فاقبل لعل الله يجمعنا بك على الهدى والحق.
وقد بعثت لكم أخي وابن عمي، وثقتي من أهل بيتي، وأمرته أن يكتب إلي بحالكم وأمركم ورأيكم، فان كتب أنه قد اجتمع رأي ملاكم وذوي الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت علي به رسلكم، وقرات في كتبكم، أقدم عليكم وشيكا إن شاء الله، فلعمري ما الامام الا العامل بالكتاب والاخذ بالقسط والدائن بالحق، والحابس نفسه على ذات الله والسلام.. " (٢).
وحفلت هذه الرسالة - حسب نص الطبري - بالأمور التالية:
١ - توثيق مسلم والتدليل على سمو مكانته، فهو ثقة الحسين.
٢ - تحديد صلاحية مسلم باستكشاف الأوضاع الراهنة، ومعرفة التيارات السياسية، ومدى صدق القوم في دعواهم، ومن الطبيعي أنه لا تناط معرفة هذه الأمور الحساسة إلا بمن كانت له المعرفة التامة بشؤون المجتمع وأحوال الناس:
٣ - انه أوقف قدومه عليهم بتعريف مسلم له باجماع الجماهير ورجال الفكر على بيعته، فلا يقدم عليهم حتى يعرفه سفيره بذلك.

---

(١) هما: هانئ بن هانئ السبيعي، وسعيد بن عبد الله الحنفي.
(٢) الطبري ٦ / ١٩٧.

٤ – انه تحدث عما يجب أن يتصف به الامام، والقائد لمسيرة الأمة من الصفات وهي:
أ – العمل بكتاب الله
ب – الاخذ بالقسط
ج – الإداناة بالحق
د – حبس النفس على ذات الله
ولم تتوفر هذه الصفات الرفيعة إلا في شخصيته الكريمة التي تحكي اتجاهات الرسول (ص) ونزعاته.
وتسلم مسلم هذه الرسالة، وقد أوصاه الامام بتقوى الله، وكتمان أمره (١) وغادر مسلم مكة ليلة النصف من رمضان (٢) وعرج في طريقه على يثرب فصلى في مسجد الرسول (ص) وطاف بضريحه، وودع أهله وأصحابه (٣) وكان ذلك هو الوداع الأخير لهم، واتجه صوب العراق وكان معه قيس بن مسهر الصيداوي، وعمارة بن عبد الله السلولي، وعبد الرحمن بن عبد الله الأزدي، واستأجر من يثرب دليلين من قيس يدلانه على الطريق (٤).
وسارت قافلة مسلم تجذ في السير لا تلوي علي شئ، يتقدمها الدليلان وهما يتنكبان الطريق خوفا من الطلب، فضلا عن الطريق، ولم يهتديا له وقد أعياهما السير واشتد بهما العطش، فأشارا إلى مسلم بسنن الطريق بعد

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٧
(٢) مروج الذهب ٢ / ٨٦
(٣) تاريخ الطبري ٦ / ١٩٨
(٤) الاخبار الطوال (ص ٢٣١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٧.

أن بان لهما، وتوفيا في ذلك المكان حسبما يقوله المؤرخون (١) وسار مسلم مع رفقائه حتى أفضوا إلى الطريق، ووجدوا ماءا فأقاموا فيه ليستريحوا مما ألم بهم من عظيم الجهد والعناء.

رسالة مسلم للحسين:

ويقول المؤرخون ان مسلم تخوف من سفره وتطير بعد أن أصابه من الجهد وموت الدليلين، فرفع للامام رسالة يرجو فيها الاستقالة من سفارته وهذا نصها:

" أما بعد: فاني أقبلت من المدينة مع دليلين، فجازا (٢) عن الطريق فضلا واشتد عليهما العطش فلم يلبثا أن ماتا، وأقبلنا حتى انتهينا إلى الماء فلم ننج إلا بحشاشة أنفسنا، وذلك الماء بمكان يدعى المضيق من بطن الخبث، وقد تطيرت من توجهي هذا فان رأيت أعفيتني منه، وبعثت غيري والسلام.. ".

جواب الحسين:

وكتب الإمام الحسين جوابا لرسالة مسلم ندد فيه بموقفه، واتهمه بالجبن وهذا نصه:

" أما بعد: فقد خشيت إن لا يكون حملك على الكتاب إلى في الاستعفاء من الوجه الذي وجهتك له إلا الجبن، فامض لوجهك الذي

---

(١) الارشاد (ص ٢٢٧)

(٢) جازا عن الطريق: أي تركاه خلفهما.

وجهتك فيه والسلام.. " (١).

أضواء على الموضوع:

وأكبر الظن ان رسالة مسلم مع جواب الامام من الموضوعات، ولا نصيب لها من الصحة وذلك لما يلي:

١ - ان مضيق الخبث الذي بعث منه مسلم رسالته إلى الامام يقع ما بين مكة والمدينة حسب ما نص عليه الحموي (٢) في حين أن الرواية تنص على أنه استأجر الدليلين من يثرب، وخرجوا إلى العراق فضلوا عن الطريق، وماتا الدليلان، ومن الطبيعي ان هذه الحادثة وقعت ما بين المدينة والعراق ولم تقع ما بين مكة والمدينة.

٢ - انه لو كان هناك مكان يدعى بهذا الاسم يقع ما بين يثرب والعراق لم يذكره الحموي فان السفر منه إلى مكة ذهابا وإيابا يستوعب زمانا يزيد على عشرة أيام في حين أن سفر مسلم من مكة إلى العراق قد حدده المؤرخون فقالوا: انه سافر من مكة في اليوم الخامس عشر من رمضان، وقدم إلى الكوفة في اليوم الخامس من شوال فيكون مجموع سفره عشرين يوما، وهي أسرع مدة يقطعها المسافر من مكة إلى المدينة فان المسافة بينهما تزيد على الف وستمائة كيلومتر، وإذا استثنينا من هذه المدة سفر رسول مسلم من ذلك المكان ورجوعه إليه، فان مدة سفره من مكة إلى الكوفة تكون أقل من عشرة أيام ويستحيل عادة قطع تلك

---

(١) الارشاد (ص ٢٢٦) وفي الحدائق الوردية ١ / ١١٧ خرج مسلم من مكة حتى اتى المدينة وأخذ منها دليلين قمرا به في البرية فأصابهما عطش فمات أحد الدليلين فكتب مسلم إلى الحسين يستعفيه، فكتب إليه الحسين ان امض إلى الكوفة.

(٢) معجم البلدان ٢ / ٣٤٣.

المسافة بهذه الفترة من الزمن.
٣ – ان الامام اتهم مسلما – في رسالته – بالجبن، وهو يناقض توثيقه له من أنه ثقته وكبير أهل بيته، والمبرز بالفضل عليهم، ومع اتصافه بهذه الصفات كيف يتهمه بالجبن؟!.
٤ – ان اتهام مسلم بالجبن يتناقض مع سيرته، فقد أبدى هذا البطل العظيم من البسالة والشجاعة النادرة ما يبهر العقول فإنه حينما انقلبت عليه جموع أهل الكوفة قابلها وحده من دون أن يعينه أو يقف إلى جنبه أي أحد، وقد أشاع في تلك الجيوش المكثفة القتل مما ملا قلوبهم ذعرا وخوفا ولما جئ به أسيرا إلى ابن زياد لم يظهر عليه أي ذل أو انكسار، ويقول فيه البلاذري انه أشجع بني عقيل وأرجلهم (١) بل هو أشجع هاشمي عرفه التاريخ بعد أئمة أهل البيت عليهم السلام.. ان هذا الحديث من المفتريات الذي وضع للحط من قيمة هذا القائد العظيم الذي هو من مفاخر الأمة العربية والاسلامية.

في بيت المختار:

وسار مسلم يطوي البيداء حتى دخل الكوفة فاختار النزول في بيت المختار الثقفي (٢) وهو من أشهر أعلام الشيعة وأحد سيوفهم، ومن أحب الناس وأنصحهم للإمام الحسين.

---

(١) أنساب الأشراف ق ١ ج ١.
(٢) الارشاد (ص ٢٢٦) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٧، وقيل نزل مسلم في بيت مسلم بن عوسجة، وقيل نزل في بيت هانئ بن عروة جاء ذلك في كل من الإصابة ١ / ٣٣٢ وتهذيب التهذيب.

لقد اختار مسلم النزول في بيت المختار دون غيره من زعماء الشيعة وذلك لوثوقه باخلاصه للإمام الحسين، وتفانيه في حبه، كما أن هناك عاملا آخر له أهميته، فقد كان المختار زوجا لعمرة بنت النعمان بن بشير حاكم الكوفة، ولا شك أن يده لن تمتد إلى المسلم طالما كان مقيما في بيت صهره المختار، وقد دل ذلك على إحاطة مسلم بالشؤون الاجتماعية.

وفتح المختار أبواب داره لمسلم، وقابله بمزيد من الحفاوة والتكريم ودعا الشيعة إلى مقابلته فاقبلوا إليه من كل حدب وصوب، وهم يظهرون له الولاء والطاعة.

ابتهاج الكوفة:

وعمت الأفراح بمقدم مسلم جميع الأوساط الشيعية في الكوفة، وقد وجد منهم مسلم ترحيبا حارا، وتأييدا شاملا، وكان يقرا عليهم رسالة الحسين، وهم يبكون، ويبدون التعطش لقدومه، والتفاني في نصرته، لينقذهم من جور الأمويين وظلمهم، ويعيد في مصرهم حكم الامام أمير المؤمنين مؤسس العدالة الكبرى في الأرض، وكان مسلم يوصيهم بتقوى الله، وكتمان أمرهم حتى يقدم إليهم الإمام الحسين.

البيعة للحسين:

وانثالت الشيعة على مسلم تبايعه للإمام الحسين، وكانت صيغة البيعة الدعوة إلى كتاب الله وسنة رسوله، وجهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين واعطاء المحرومين، وقسمة الغنائم بين المسلمين بالسوية، ورد المظالم إلى

أهلها، ونصرة أهل البيت، والمسالمة لمن سالموا، والمحاربة لمن حربوا وقد شبه السيد المقرم هذه البيعة ببيعة الأوس والخزرج للنبي (ص) (١) وكان حبيب بن مظاهر الأسدي يأخذ البيعة منهم للحسين (٢).

كلمة عابس الشاكري:

وانبرى المؤمن الفذ عابس بن شبيب الشاكري فاعرب لمسلم عن ولائه الشخصي واستعداده للموت في سبيل الدعوة الا انه لم يتعهد له باي أحد من أهل مصره قائلا:

" أما بعد: فاني لا أخبرك عن الناس، ولا أعلم ما في أنفسهم، وما أغرك منهم، والله إني محدثك عما أنا موطن عليه نفسي، والله لأجيبنكم إذا دعوتم، ولأقاتلن معكم عدوكم، ولأضربن بسيفي دونكم حتى ألقى الله، لا أريد بذلك الا ما عند الله... ".

وقد صدق عابس ما عاهد عليه الله، فلم يخن ضميره ففدى بنفسه ريحانة رسول الله (ص) واستشهد بين يديه في كربلا.. وانبرى حبيب ابن مظاهر فخاطب عابسا قائلا له:

" رحمك الله، فقد قضيت ما في نفسك بواجز من قولك، وانا والله الذي لا إله الا هو على مثل ما أنت عليه ".

واندفع سعيد الحنفي فايد مقالة صاحبيه (٣) وهؤلاء الابطال من

---

(١) الشهيد مسلم بن عقيل (ص ١٠٣).

(٢) الحدائق الوردية ١ / ١٢٥ من مخطوطات مكتبة الامام كاشف الغطاء العامة.

(٣) تاريخ الطبري ٦ / ١٩٩.

انبل من عرفهم التاريخ صدقا ووفاء، فقد بذلوا أرواحهم بسخاء إلى الإمام الحسين، واستشهدوا بين يديه في كربلا:

عدد المبايعين:

وتسابقت جماهير الكوفة إلى بيعة الحسين على يد سفيره مسلم بن عقيل، وقد اختلف المؤرخون في عدد من بايعه، وهذه بعض الأقوال:

١ - أربعون ألفا (١).

٢ - ثلاثون ألفا ومن بينهم حاكم الكوفة النعمان بن بشير (٢).

٣ - ثمانية وعشرون ألفا (٣)

٤ - ثمانية عشر ألفا، حسب ما جاء في رسالة مسلم إلى الحسين يقول فيها: " وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفا فعجل الاقبال " (٤)

---

(١) شرح شافية أبي فراس ١ / ٩٠ من مصورات مكتبة الإمام الحكيم مثير الأحزان لابن نما (ص ١١).

(٢) دائرة معارف وجدي ٣ / ٤٤٤، حقائق الاخبار عن دول البحار، روضة الأعيان في أخبار مشاهير الزمان (ص ٦٧) لمحمد بن أبي بكر المتوفي سنة (٧٣٠ ه) من مصورات مكتبة الحكيم، مناقب الإمام علي بن أبي طالب (ص ١٣) وجاء فيه ان النعمان قال: يا أهل الكوفة ابن بنت رسول الله (ص) أحب إليكم من ابن بنت بجدل.

(٣) تاريخ أبي الفداء ١ / ٣٠٠.

(٤) تاريخ الطبري ٦ / ٢٢٤.

٥ - اثنا عشر ألفا.. (١).
رسالة مسلم للحسين:
وازداد مسلم ايمان ووثوقا بنجاح الدعوة حينما بايعه ذلك العدد الهائل من أهل الكوفة، فكتب للامام يستحثه فيها على القدوم إليهم، وكان قد كتبها قبل شهادته ببضع وعشرين ليلة (٢) وهذا نصها:
" أما بعد: فان الرائد لا يكذب أهله، وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفا (٣) فعجل حين يأتيك كتابي، فان الناس كلهم معك ليس لهم في آل معاوية رأي ولا هوي " (٤).
لقد كتب مسلم هذه الرسالة لأنه لم ير أية مقاومة لدعوته، وانما رأى إجماعا شاملا على بيعة الامام، وتلهفا حارا لرؤيته، وحمل الكتاب جماعة من أهل الكوفة، وعليهم البطل العظيم عابس الشاكري، وقدم الوفد مكة المكرمة، وسلم الرسالة إلى الامام، وقد استحثوه على القدوم إلى الكوفة، وذكروا اجماع أهلها على بيعته، وما قالاه مسلم من الحفاوة البالغة منهم، وعند ذلك تهيا الامام إلى السفر للكوفة.

---

(١) مروج الذهب ٣ / ٤، الصراط السوي في مناقب آل النبي (ص ٨٦) من مصورات مكتبة الإمام الحكيم، تهذيب التهذيب ٢ / ٣٥٠ الإصابة ١ / ٣٣٢، الحدائق الوردية ١ / ١١٧.
(٢) أنساب الأشراف ق ١ ج ١.
(٣) وفي رواية البلاذري " ان جميع أهل الكوفة معك ".
(٤) الطبري ٦ / ٢٢٤.

موقف النعمان بن بشير:
كان موقف النعمان بن بشير (١) من الثورة موقفا يتسم باللين والتسامح وقد اتهمه الحزب الأموي بالضعف، أو التضاعف في حفظ مصلحة الدولة والاهتمام بسلامتها فأجابهم.
" لان أكون ضعيفا وأنا في طاعة الله أحب إلي من أن أكون قويا في معصية الله، وما كنت لأهتك سترا ستره الله " (٢).
وقد اعطى الشيعة بموقفه هذا قوة، وشجعهم على العمل ضد الحكومة علنا، ولعل سبب ذلك يعود لامرين:
١ - ان مسلم بن عقيل كان ضيفا عند المختار وهو زوج ابنته عمرة فلم يعرض للثوار بسوء رعاية للمختار.

---

(١) النعمان بن بشير الأنصاري الخزرجي كان قد ولاه معاوية الكوفة بعد عبد الرحمن بن الحكم، وكان عثماني الهوى يجاهر ببغض علي ويسئ القول فيه، وقد حاربه يوم الجمل وصفين، وسعى باخلاص لتوطيد الملك إلى معاوية، وهو الذي قاد بعض الحملات الارهابية على بعض المناطق العراقية، ويقول المحققون: إنه كان ناقما على يزيد، ويتمنى زوال الملك عنه شريطة أن لا تعود الخلافة لآل علي، ومن الغريب في شان هذا الرجل أن يزيد لما أوقع باهل المدينة وأباحها لجنده ثلاثة أيام لم يثار النعمان لكرامة وطنه وقومه، وفي الإصابة ٣ / ٥٣٠ انه لما هلك يزيد دعا النعمان إلى ابن الزبير ثم دعا إلى نفسه فقاتله مروان، فقتل وذلك في سنة (٦٥ ه) وكان شاعرا مجيدا له ديوان شعر طبع حديثا.
(٢) سير أعلام النبلاء ٣ / ٢٠٦.

٢ – ان النعمان كان ناقما على يزيد وذلك لبغضه للأنصار فقد أغرى الأخطل الشاعر المسيحي في هجائهم فثار لهم النعمان كما ألمعنا إلى ذلك في البحوث السابقة، ولعل لهذا ولغيره لم يتخذ النعمان أي اجراء مضاد للثورة.

خطبة النعمان:

وأعطى النعمان للشيعة قوة في ترتيب الثورة وتنظيما، وهيا لهم الفرص في احكام قواعدها مما ساء الحزب الأموي، فأنكروا عليه ذلك، وحرضوه على ضرب الشيعة فخرج النعمان، وصعد المنبر فأعلن للناس سياسته المتسمة بالرفق، فقال بعد حمد الله والثناء عليه.

" أما بعد: فاتقوا الله عباد الله، ولا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة فان فيها تهلك الرجال وتسفك الدماء، وتغضب الأموال. إني لم أقاتل من لم يقاتلني، ولا أثب على من لا يثب علي، ولا أشاتمكم، ولا أتحرش بكم، ولا آخذ بالقرف (١) ولا الظنة ولا التهمة، ولكنكم إن أبديتم صفحتكم لي، ونكثتم بيعتكم، وخالفتم امامكم فوالله الذي لا إله إلا هو لأضربنكم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولو لم يكن منكم ناصر، أما اني أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم أكثر ممن يرديه الباطل " (٢).

وليس في هذا الخطاب أي ركون إلى وسائل العنف والشدة، وانما كان فيه تحذير من مغبة الفتنة وحب للعافية، وعدم التعرض لمن لا يثب على السلطة، وعدم أخذ الناس بالظنة والتهمة كما كان يفعل زياد بن أبيه

---

(١) القرف: التهمة.

(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٧.

والي العراق، وعلق أنيس زكريا على خطاب النعمان بقوله:
" ولنا من خطبه – أي خطب النعمان – في الكوفة برهان آخر على أنه كان يرى الفتنة يقظى، ولا بد أن تشتعل، وانه لن يهاجم القائمين بها قبل أن يهاجموه، فجعل لأنصارها قوة وطيدة الأركان، ويدا فعالة في ترتيب المؤامرة وتنظيمها على الأسس المتينة " (١).

سخط الحزب الأموي:

وأغضبت سياسة النعمان عملاء الحكم الأموي فانبرى إليه عبد الله بن مسلم الحضرمي حليف بني أمية، فأنكر خطته قائلا:
(إنه لا يصلح ما ترى الا الغشم (٢) ان هذا الذي أنت عليه فيما بينك وبين عدوك رأي المستضعفين؟! " (٣).

ودافع النعمان عن نفسه بأنه لا يعتمد على أية وسيلة تبعده عن الله ولا يسلك طريقا يتجافى مع دينه، وقد استبان للحزب الأموي ضعف النعمان، وانهياره أمام الثورة.

اتصال الحزب الأموي بدمشق:

وفزع الحزب الأموي من تجاوب الرأي العام مع مسلم، واتساع نطاق الثورة في حين أن السلطة المحلية أغضت النظر عن مجريات الاحداث

---

(١) الدولة الأموية في الشام (ص ٤١).
(٢) الغشم: الظلم.
(٣) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٧.

وقد اتهمتها بالضعف أو بالتوطأ مع الثوار، وقام الحزب الأموي باتصال سريع بحكومة دمشق، وطلبوا منها اتخاذ الاجراءات الفورية قبل أن يتسع نطاق الثورة، ويأخذ العراق استقلاله، وينفصل عن التبعية لدمشق، ومن بين الرسائل التي وفدت على يزيد رسالة عبد الله الحضرمي، جاء فيها:

" أما بعد: فان مسلم بن عقيل، قدم الكوفة، وبايعته الشيعة للحسين بن علي، فان كان لك بالكوفة حاجة فابعث إليها رجلا قويا ينفذ أمرك، ويعمل مثل عملك في عدوك فان النعمان بن بشير رجل ضعيف أو هو يتضعف. " (١).

وتدعو هذه الرسالة إلى اقصاء النعمان عن مركزه، واستعمال شخص آخر مكانه قوي البطش ليتمكن من القضاء على الثورة، فان النعمان لا يصلح للقضاء عليها، كتب إليه بمثل ذلك عمارة بن الوليد بن عقبة وعمر ابن سعد.

فزع يزيد:

وفزع يزيد حينما توافدت عليه رسائل عملائه في الكوفة بمبايعة أهلها للحسين، فراودته الهواجس، وظل ينفق ليله ساهرا يطيل التفكير في الامر فهو يعلم أن العراق مركز القوة في العالم الاسلامي وهو يبغضه ويحقد على أبيه، فقد أصبح موترا منهم لما صبوه عليه من الظلم والجور، وان كراهية أهل العراق ليزيد لا تقل عن كراهيتهم لأبيه، كما أنه على

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٧.

يقين ان الأغلبية الساحقة في العالم الاسلامي تتعطش لحكم الإمام الحسين لأنه المثل الشرعي لجده وأبيه، ولا يرضون بغيره بديلا.

استشارته لسرجون:

وأحاطت الهواجس بيزيد، وشعر بالخطر الذي يهدد ملكه فاستدعى سرجون الرومي، وكان مستودع أسرار أبيه، ومن أدهى الناس، فعرض عليه الامر، وقال له:

" ما رأيك ان حسينا قد توجه إلى الكوفة، ومسلم بن عقيل بالكوفة يبايع للحسين، وقد بلغني عن النعمان ضعف وقول سئ، فما ترى من استعمل على الكوفة؟ ".

وتأمل سرجون، واخذ يطيل التفكير فقال له:

" أرأيت أن معاوية لو نشر أكنت آخذا رأيه؟ "

فقال يزيد: نعم.

فاخرج سرجون عهد معاوية لعبيد الله بن زياد على الكوفة، وقال:

" هذا رأي معاوية وقد مات، وقد أمر بهذا الكتاب " (١) أما دوافع سرجون في ترشيح ابن زياد لولاية الكوفة فهي لا تخلو من أمرين:

١ - إنه يعرف قسوة ابن زياد وبطشه وأنه لا يقوى أحد على اخضاع العراق غيره فهو الذي يتمكن من القضاء على الثورة بما يملك من وسائل الارهاب والعنف.

٢ - انه قد دفعته العصبية القومية لهذا الترشيح فان ابن زياد رومي

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٨.

ولاية ابن زياد على الكوفة:
وكان يزيد ناقما على ابن زياد كاشد ما تكون النقمة، وأراد عزله عن البصرة (١) وذلك لمعارضة أبيه في البيعة له، الا انه استجاب لرأي سرجون فقد رأى فيه الحفاظ على مصلحة دولته، فهد له بولاية الكوفة والبصرة، وبذلك فقد خضع العراق بأسره لحكمه، وكتب إليه هذه الرسالة:
" أما بعد: فإنه كتب إلي شيعتي من أهل الكوفة يخبرونني أن ابن عقيل بالكوفة يجمع الجموع لشق عصا المسلمين، فسر حين تقرأ كتابي هذا حتى تأتي الكوفة فتطلب ابن عقيل كطلب الخرزة حتى تثقفه فتوثقه أو تقتله أو تنفيه، والسلام ".
وأشارت هذه الرسالة إلى مدى قلق السلطة في دمشق وفزعها من مسلم ابن عقيل، وقد شددت على ابن زياد في الاسراع بالسفر إلى الكوفة لالقاء القبض عليه، وتنص بعض المصادر ان يزيد كتب إلى ابن زياد " ان كان لك جناحان فطر إلى الكوفة " (٢) وهذا مما ينبئ عن الخوف الذي ألم بيزيد من الثورة في العراق.
وحمل مسلم بن عمرو الباهلي العهد لابن زياد بولاية الكوفة مع تلك الرسالة، ويقول المؤرخون ان الباهلي كان من عيون بني أمية في الكوفة ومن أهم عملائهم، كما كان من أجلاف العرب وهو الذي ظن على مسلم أن يشرب جرعة من الماء حينما جيئ به أسيرا إلى ابن زياد.

---

(١) البداية والنهاية ٨ / ١٥٢.
(٢) سير أعلام النبلاء ٣ / ٢٠١.

وتسلم ابن زياد من الباهلي العهد له بولاية الكوفة، وقد طار فرحا فقد تم له الحكم على جميع أنحاء العراق بعد ما كان مهددا بالعزل عن ولاية البصرة، وقد سر ما خولته دمشق من الحكم المطلق على العراق.

وبما سوغت له من استعمال الشدة والقسوة وسفك الدماء لكل من لا يدخل في طاعة يزيد أو يشترك باية مؤامرة ضده، وكان هذا التفويض المطلق في استعمال القسوة على الناس مما يتفق مع رغبات ابن زياد وميوله فقد كان من عوامل استمتاعاته النفسية حب الجريمة والإسائة إلى الناس، وعدم التردد في سفك الدماء.

خطبة ابن زياد في البصرة:

وتهيأ ابن زياد لمغادرة البصرة والتوجه إلى الكوفة، وقبل مغادرته لها جمع الناس، وخطب فيهم خطابا قاسيا جاء فيه:

" ان أمير المؤمنين يزيد ولاني الكوفة، وأنا غاد إليها الغداة، فوالله إني ما تقرن بي الصعبة، ولا يقعقع لي بالشنآن، واني لنكل لمن عاداني، وسم لمن حاربني، انصف القارة من راماها.

يا أهل البصرة قد استخلفت عليكم عثمان بن زياد بن أبي سفيان، وإياكم والخلاف والارجاف فوالله الذي لا إله غيره لئن بلغني عن رجل منكم خلاف لأقتلنه وعرينه (١) ووليه، ولآخذن الأدنى بالأقصى حتى تسمعوا لي، ولا يكون فيكم مخالف ولا مشاق... أنا ابن زياد أشبهه

---

(١) العرين: الجماعة

بين من وطأ الحصى، ولم ينتزعني شبه خال ولا ابن عم " (١).
ما أهون سفك الدماء عند أولئك البرابرة الوحوش من ولاة بني أمية!! لقد تحدث الطاغية عن نفسيته الشريرة التي توغلت في الاثم، فهو يأخذ البرئ بالسقيم، والمقبل بالمدبر، والأدنى بالأقصى، ويقتل على الظنة والتهمة كما كان يفعل أبوه زياد الذي أشاع القتل في ربوع العراق.

سفر الطاغية إلى الكوفة:

وسار الخبيث الدنس من البصرة متجها إلى الكوفة ليقترف أعظم موبقة لم يقترفها شقي غيره، وقد صحبه من أهل البصرة خمسمائة رجل فيهم عبد الله بن الحارث بن نوفل وشريك بن الأعور الحارثي (٢) وهو من أخلص أصحاب الإمام الحسين، وقد صحب ابن زياد ليكون عينا عليه، وبتعرف على خططه، وقد صحب ابن زياد هذا العدد ليستعين بهم على بث الارهاب، وإذاعة الخوف بين الناس والاتصال بزعماء الكوفة لصرفهم عن الثورة.

وعلى أي حال فقد أخذ ابن زياد يجذ في السير لا يلوي على شئ قد واصل السير إلى الكوفة مخافة أن يسبقه الحسين إليها، وقد جهد أصحابه، وأعياهم المسير فسقط منهم جماعة منهم عبد الله بن الحارث فلم يعبأ، ولما ورد القادسية سقط مولاه (مهران) فقال له ابن زياد:

" إن أمسكت على هذا الحال فتنظر إلى القصر فلك مائة الف ".

فقال له مهران: لا والله لا أستطيع، ونزيل الطاغية فلبس ثيابا

---

(١) الطبري ٦ / ٢٠٠.
(٢) الطبري ٦ / ١٩٩.

يمانية وعمامة سوداء وتلثم ليوهم من رآه أنه الحسين وسار وحده فدخل الكوفة مما يلي النجف (١) وكان قلبه كجناح طائر من شدة الخوف، ولو كانت عنده مسكة من البسالة والشجاعة لما تنكر وغير بزته، وأوهم على الناس أنه الحسين.. وقد تذرع الجبان بهذه الوسائل لحماية نفسه، وتنص بعض المصادر انه حبس نفسه عن الكلام خوفا من أن يعرفه الناس فتأخذه سيوفهم.

في قصر الامارة:

وأسرع الخبيث نحو قصر الامارة (٢) وقد علاه الفزع. وساءه كاشد ما يكون الاستياء من تباشير الناس وفرحهم بقدوم الإمام الحسين،

---

(١) مقتل الحسين للمقرم (ص ١٦٥).

(٢) قصر الامارة: هو أقدم بناية حكومية شيدت في الاسلام بناها سعد بن أبي وقاص، وقد اندثرت معالمه، كما اندثرت جميع معالم الكوفة ما عدا الجامع، وقد اهتمت مديرية الآثار العامة في العراق بالتعرف عليه، فكشفت في مواسم مختلفة أسسه، وقد أظهرت نتائج الحفائر التي أجريت عليه انه يتألف من سور خارجي يضم أربعة جدران تقريبا طولها ١٧٠ مترا ومعدل سمكها ٤ أمتار وتدعم كل ضلع من الخارج ستة أبراج نصف دائرية باستثناء الضلع الشمالي، حيث يدعمها برجان فقط، والمسافة ما بين كل برج وآخر ٢٤ و ٦٠ سنتمتر، وارتفاع هذا السور بأبراجه يصل إلى ما يقرب من عشرين مترا، وقد بني القصر بناء محكما، وصممت هندسته على غاية حربية ليكون في حماية آمنة من كل غزو خارجي جاء ذلك في تخطيط مدينة الكوفة للدكتور كاظم الجنابي (ص ١٣٥ - ١٥٥) وقد وقفت عليه غير مرة، وتطلعت إلى كثير من معالمه، ففي بعض أبوابه الرئيسية مظلات لحراس القصر قد ردمت ولم يبق منها إلا بعض معالمها، وفي جانب منه بعض الغرف التي أعدت للسجن، وقد صممت بشكل غريب، وفي جانب منه مطابخ القصر ولم يشر الأستاذ الجنابي إليها وقد احكم بناء القصر حتى كان من المتعذر اقتحامه والاستيلاء عليه.

ولما انتهى إلى باب القصر وجده مغلقا، والنعمان بن بشير مشرف من أعلا القصر، وكان قد توهم أن القادم هو الحسين لان أصوات الناس قد تعالت بالترحيب به والهتاف بحياته، فانبرى يخاطبه.

" ما أنا بمؤد إليك أمانتي يا بن رسول الله، ومالي في قتالك من إرب.. ".

ولمس ابن مرجانة في كلام النعمان الضعف والانهيار فصاح به بنبرات تقطر غيظا.

" افتح لا فتحت فقد طال ليلك ".

ولما تكلم عرفه بعض من كان خلفه فصاح بالناس: " انه ابن مرجانة ورب الكعبة " ومن الغريب أن ذلك المجتمع لم يميز بين الإمام الحسين وبين ابن مرجانة، مع أن كلا منهما قد عاش فترة في ديارهم، ولعل الذي أوقعهم في ذلك تغيير ابن زياد لبزته، ولبسه للعمامة السوداء.

وعلى أي حال فان الناس حينما علموا انه ابن زياد جفلوا وخفوا مسرعين إلى دورهم، وهم يتحدثون عما عانوه من الظلم والجور أيام أبيه وقد أوجسوا من عبيد الله الشر.. وبادر ابن زياد في ليلته فاستولى على المال والسلاح، وأنفق ليله ساهرا قد جمع حوله عملاء الحكم الأموي فأخذوا يحدثونه عن الثورة ويعرفونه بأعضائها البارزين، ويضعون معه المخططات للقضاء عليها.

خطابه في الكوفة:
وعندما انبثق نور الصبح أمر ابن مرجانة بجمع الناس في المسجد الأعظم، فاجتمعت الجماهير، وقد خيم عليها الذعر والخوف، وخرج ابن زياد متقلدا سيفه ومعتما بعمامة، فاعتلى أعواد المنبر، وخطب الناس فقال:
" أما بعد: فان أمير المؤمنين - أصلحه الله - ولاني مصركم وثغركم وفيئكم، وأمرني بانصاف مظلومكم واعطاء محرومكم، وبالاحسان إلى سامعكم ومطيعكم، وبالشدة على مربيكم، فانا لمطيعكم كالوالد البر الشفيق وسيفي وسوطي على من ترك أمري، وخالف عهدي فليبق امرؤ على نفسه الصدق ينبئ عنك لا الوعيد.. " (١).
وحفل هذا الخطاب بما يلي:
١ - اعلام أهل الكوفة بولايته على مصرهم، وعزل النعمان بن بشير عنه.
٢ - تعريفهم أن حكومة دمشق قد عهدت له بالاحسان على من يتبع السلطة، ولم يتمرد عليها واستعمال الشدة والقسوة على الخارجين عليها.
ولم يعرض ابن مرجانة في خطابه للإمام الحسين وسفيره مسلم خوفا من انتفاضة الجماهير عليه وهو بعد لم يحكم أمره.

---

(١) مقاتل الطالبيين (ص ٩٧).

نشر الارهاب:
وعمد ابن زياد إلى نشر الارهاب، وإذاعة الخوف، ويقول بعض المؤرخين: انه لما أصبح ابن زياد بعد قدومه إلى الكوفة صال وجال، وارعد وأبرق، وأمسك جماعة من أهل الكوفة فقتلهم في الساعة (١) وقد عمد إلى ذلك لإماتة الأعصاب، وصرف الناس عن الثورة.
وفي اليوم الثاني أمر بجمع الناس في المسجد. وخرج إليهم بزي غير ما كان يخرج به، فخطب فيهم خطابا عنيفا تهدد فيه وتوعد، فقد قال بعد حمد الله والثناء عليه:
" أما بعد: فإنه لا يصلح هذا الامر الا في شدة من غير عنف، ولين من غير ضعف، وان آخذ البرئ بالسقيم، والشاهد بالغائب، والولي بالولي "..
فانبرى إليه رجل من أهل الكوفة يقال له أسد بن عبد الله المري فرد عليه:
" أيها الأمير، إن الله تبارك وتعالى يقول: " ولا تزر وزارة وزر أخرى " انما المرء بجده والسيف بحده، والفرس بشدة، وعليك أن تقول: وعلينا أن نسمع، فلا تقدم فينا السيئة قبل الحسنة.. ".
وأفحم ابن زياد فنزل عن المنبر ودخل قصر الامارة (٢).

---

(١) الفصول المهمة (ص ١٩٧) وسيلة المال (ص ١٨٦)
(٢) الفتوح ٥ / ٦٧.

تحول مسلم إلى دار هانئ:
واضطر مسلم إلى تغيير مقره، وإحاطة نشاطه السياسي بكثير من السر والكتمان، فقد شعر بالخطر الذي داهمه حينما قد الطاغية إلى الكوفة فهو يعلم بخبث هذا الوغد، وانه لا يرجو لله وقارا ولا يتحرج من اقتراف الاثم، وقد أجمع أمره على مغادرة دار المختار لأنه لم تكن عنده قوة تحميه ولم يكن يأوي إلى ركن شديد، فالتجأ إلى دار هانئ بن عروة فهو سيد المصر وزعيم مراد، وعنده من القوة ما يضمن حماية الثورة والتغلب على الاحداث، فقد كان فيما يقول المؤرخون: إذا ركب يركب معه أربعة آلاف دارع وثمانية آلاف راجل، فإذا اجابتها احلافها من كندة وغيرها كان في ثلاثين الف دارع (١) كما كانت له ألطاف وأياد بيضاء على أسرته مما جعلتهم يكنون له أعمق الود والاخلاص،
ومضى مسلم إلى دار هذا الزعيم العربي الكبير فرحب به، واستقبله بحفاوة بالغة، وتنص بعض المصادر (٢) انه قد ثقل على هانئ استجارة مسلم به، وعظم عليه أن يتخذ داره معقلا للثورة، ومركزا للتجمعات ضد الدولة، فإنه بذلك يعرض نفسه للنقمة والبلاء الا أنه استجاب لمسلم على كره خضوعا للعادات العربية التي لا تطرد اللاجئ إليها، وان عانت من ذلك أعظم المصاعب والمشاكل.. والذي نراه انه لا صحة لذلك فان مسلما لو شعر منه عدم الرضا، والقبول لما ركن إليه، وتخرج كاشد ما يكون التحرج من دخول داره وذلك لما توفرت في مسلم من الطاقات التربوية الدينية، وما عرف به من الشمم والإباء الذي يبعده كل البعد من

---

(١) مروج الذهب ٢ / ٨٩.
(٢) الاخبار الطوال (ص ٢١٣).

سلوك أي طريق فيه حرج أو تكلف على الناس، وبالإضافة إلى ذلك فان مسلما لو لم يحرز منه التجاوب التام، والايمان الخالص بدعوته لما التجأ إليه في تلك الفترة العصبية التي تحيط به.

ان من المؤكد ان هانيا لم يستجب لحماية مسلم والدفاع عنه على كره أو حياء، وانما استجاب له عن رضى وايمان يوحي من دينه وعقيدته.

وعلى أي حال فقد استقر مسلم في دار هانئ واتخذها مقرا للثورة، وقد أحنف به هانئ، ودعا القبائل لمبايعته، فبايعه في منزله ثمانية عشر ألفا (١) وقد عرف مسلم هانئا بشؤون الثورة، وأحاطه علما بدعاتها وأعضائها البارزين.

امتناع مسلم من اغتيال ابن زياد:

وذهب معظم المؤرخين إلى أن شريك بن الأعور مرض مرضا شديدا في بيت هانئ بن عروة أو في بيته (٢) فانتهى خبره إلى ابن زياد فأرسل إليه رسولا يعلمه أنه آت لعيادته، فاغتنم شريك هذه الفرصة فقال لمسلم: " انما غايتك وغاية شيعتك هلاك هذا الطاغية، وقد أمكنك الله منه وهو صائر إلي ليعودني فقم فادخل الخزانة حتى إذا اطمأن عندي فاخرج إليه فاقتله، ثم صر إلى قصر الامارة فاجلس فيه فإنه لا ينازعك فيه أحد من الناس، وان رزقني الله العافية صرت إلى البصرة فكفيتك أمرها، وبايع

---

(١) الاخبار الطوال (ص ٢١٤).

(٢) البداية والنهاية ٨ / ١٥٣، والمشهور بين المؤرخون ان شريكا كان في بيت هانئ لا في بيته فقد كان مقيما بالبصرة، وجاء مع ابن زياد إلى الكوفة.

لك أهلها " (١).
وكره هانئ أن يقتل ابن زياد في داره تمسكا بالعادات العربية التي لا تبيح قتل الضيف والقاصد إليها في بيوتها (٢) فقال له:
" ما أحب أن يقتل في داري "
فقال له شريك: " ولم فوالله ان قتله لقربان إلى الله "
ولم يعن شريك بهانئ والتفت إلى مسلم يحثه على اغتيال ابن زياد قائلا له: " لا تقصر في ذلك " وبينما هم في الحديث وإذا بالضجة على الباب فقد أقبل ابن مرجانة مع حاشيته، فقام مسلم ودخل الخزانة مختفيا بها، ودخل ابن زياد فجعل يسأل شريكا عن مرضه، وشريك يجيبه، ولما استبطأ شريك خروج مسلم جعل يقول:
ما الانتظار بسلمى أن تحيوها * حيوا سليمى وحيوا من يحيها
كأس المنية بالتعجيل فاسقوها (٣)

---

(١) الاخبار الطوال (ص ٢١٤) مقاتل الطالبيين (ص ٩٨) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٩، وذهب بعض المؤرخين إلى أن الذي دعا مسلما لاغتيال ابن زياد هو هانئ بن عروة كما في الإمامة والسياسة ٢ / ٤.
(٢) يشير إلى ذلك ما جاء في مقاتل الطالبيين (ص ٩٨) ان هانئا استقبح قتل ابن زياد في داره.
(٣) مقاتل الطالبيين (ص ٩٨) وفي مقتل أبي مخنف أنه أنشد هذه الأبيات:
ما تنظرون بسلمي لا تحييوها * حيوا سليمى وحيوا من يحيها
هل شربة عذبة أسقى على ظما * ولو تلفت وكانت منيتي فيها
وان تخشيت من سلمى مراقبة * فلست تأمن يوما من دواهيها
وفي الفتوح ٥ / ٧٢ والاخبار الطوال (ص ٢١٤) انه أنشد هذا البيت:
ما تنظرون بسلمى عند فرصتها * فقدوني ودها واستوسق الصرم

ورفع صوته ليسمع مسلما قائلا:
" لله أبوك اسقنيها وان كانت فيها نفسي " (١)
وغفل ابن زياد عن مراده، وظن أنه يهجر فقال لهانئ:
- أيهجر؟
- نعم أصلح الله الأمير لم يزل هكذا منذ أصبح (٢)
وفطن مهران مولى ابن زياد، وكان ذكيا إلى ما دبر لسيده، فغمزه ونهض به سريعا فقال له شريك: أيها الأمير إني أريد أن أوصي إليك فقال له ابن زياد: اني أعود إليك والتفت مهران وهو مذعور إلى ابن زياد فقال له:
" انه أراد قتلك "
فبهر ابن زياد، وقال:
" كيف مع اكرامي له؟!! وفي بيت هانئ ويد أبي عنده! "
ولما ولى الطاغية خرج مسلم من الحجرة، فالتفت إليه شريك وقلبه يذوب أسى وحسرات قال له:
" ما منعك من قتله؟ " (٣)
فقال مسلم: منعني منه خلتان: إحداهما كراهية هانئ لقتله في

---

(١) مقاتل الطالبيين (ص ٩٩).
(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٠.
(٣) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٩ - ٢٧٠.

منزله، والأخرى قول رسول الله (ص): ان الايمان قيد الفتك لا يفتك مؤمن، فقال له شريك: أما والله لو قتلته لاستقام لك أمرك، واستوسق لك سلطانك (١).

ولم يلبث شريك بعد الحادثة الا ثلاثة أيام حتى توفي، فصلي عليه ابن زياد ودفنه بالثوية، ولما تبين له ما دبره له شريك طفق يقول: والله لا أصلي على جنازة عراقي، ولولا أن قبر زياد فيهم لنبشت شريكا (٢)

أضواء على الموقف:

ويتساءل الكثيرون من الناس عن موقف مسلم، فيلقون عليه اللوم والتقريع، ويحملونه مسؤولية ما وقع من الاحداث، فلو اغتال الطاغية لأنقذ المسلمين من شر عظيم، وما مني المسلمون بتلك الأزمات الموجعة التي أغرقتهم في المحن والخطوب... أما هذا النقد فليس موضوعيا، ولا يحمل أي طابع من التوازن والتحقيق، وذلك لعدم التقائه بسيرة مسلم ولا بواقع شخصيته، فقد كان الرجل فذا من أفذاذ الاسلام في ورعه وتقواه، وتحرجه في الدين، فقد تربى في بيت عمه أمير المؤمنين (ع) وحمل اتجاهاته الفكرية، واتخذ سيرته المشرقة منهاجا يسير على أضوائها

---

(١) الاخبار الطوال (ص ٢١٤) وفي تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٠ ان هانئا قال لمسلم: لو قتلته لقتلت فاسقا فاجرا كافرا غادرا، وذكر ابن نما ان امرأة هانئ تعلقت بمسلم، وأقسمت عليه بالله ان لا يقتل ابن زياد في دارها، فلما علم هانئ قال: يا ويلها قتلتني وقتلت نفسها والذي فرت منه وقعت فيه.

(٢) تاريخ الطبري ٦ / ٢٠٢، الأغاني ٦ / ٥٩.

في حياته، وقد بنى الامام أمير المؤمنين (ع) واقع حياته على الحق المحض الذي لا التواء فيه، وتحرج كأعظم ما يكون التحرج في سلوكه فلم يرتكب أي شئ شذ عن هدي الاسلام وواقعه وهو القائل: " قد يرى الحول القلب وجه الحيلة ودونها حاجز من تقوى الله ".

وعلى ضوء هذه السيرة بنى ابن عقيل حياته الفكرية، وتكاد أن تكون هذه السيرة هي المنهاج البارز في سلوك العلويين يقول الدكتور محمد طاهر دروش:

" كان للهاشميين مجال يحيون فيه، ولا يعرفون سواه، فهم منذ جاهليتهم للرياسة الدينية قد طبعوا على ما توحي به من الايمان والصراحة والصدق والعفة والشرف والفضيلة، والترفع والخلائق المثالية والمزايا الأديبة والشمائل الدينية والآداب النبوية " (١).

ان مسلما لم يقدم على اغتيال عدوه الماكر لان الايمان قيد الفتك، ولا يفتك مؤمن، وعلق هبة الدين على هذه الكلمة بقوله: " كلمة كبيرة المغزى، بعيدة المدى فان آل علي من قوة تمسكهم بالحق والصدق نبذوا الغدر والمكر حتى لدى الضرورة، واختاروا النصر الاجل بقوة الحق على النصر العاجل بالخديعة، شنشنة فيهم معروفة عن أسلافهم، وموروثة في أخلاقهم، كأنهم مخلوقون لإقامة حكم العدل والفضيلة في قلوب العرفاء الأصفياء، وقد حفظ التاريخ لهم الكراسي في القلوب " (٢).

ويقول الشيخ احمد فهمي:

" فهذا عبيد الله بن زياد، وهو من هو في دهائه، وشدة مراسه أمكنت مسلما الفرصة منه إذا كان بين يديه، ورأسه قريب المنال منه،

---

(١) الخطابة في صدر الاسلام ٢ / ١٣.

(٢) نهضة الحسين (ص ٨٤).

وكان في استطاعته قتله ولو أنه فعل ذلك لحرم يزيد نفسا جبارة، ويدا فتاكة، وقوة لا يستهان بها، ولكن مسلما متأثر بهدي ابن عمه عاف هذا المسلك وصان نفسه من أن يقتله غيلة ومكرا، (١).

وان مهمة مسلم التي عهد بها إليه هي أخذ البيعة من الناس والتعرف على مجريات الاحداث، ولم يعهد إليه بأكثر من ذلك، ولو قام باغتيال الطاغية لخرج عن حدود مسؤولياته.. على أن الحكومة التي جاء ممثلا لها انما هي حكومة دينية تعني قبل كل شئ بمبادئ الدين والالتزام بتطبيق سننه وأحكامه، وليس من الاسلام في شئ القيام بعملية الاغتيال.

وقد كان أهل البيت (ع) يتحرجون كاشد ما يكون التحرج من السلوك في المنعطفات، وكانوا ينعون على الأمويين شذوذ أعمالهم التي لا تتفق مع نواميس الدين، وما قام الحسين بنهضته الكبرى الا لتصحيح الأوضاع الراهنة وإعادة المنهج الاسلامي إلى الناس.. وما ذا يقول مسلم للأخيار والمتحرجين في دينهم لو قام بهذه العملية التي لا يقرها الدين.

وعلى أي حال فقد استمسك مسلم بفضائل دينه وشرفه من اغتيال ابن زياد، وكان تحت قبضته، وان من أهزل الأقوال وأوهنها القول بان عدم فتكه به ناشئ عن ضعفه وخوره، فان هذا أمر لا يمكن أن يصغى إليه فقد أثبت في مواقفه البطولية في الكوفة حينما غدر به أهلها ما لم يشاهد التاريخ له نظيرا في جميع مراحله، فقد صمد أمام ذلك الزحف الهائل من الجيوش فقابلها وحده ولم تظهر عليه أي بادرة من الخوف والوهن، فقد قام بعزم ثابت يحصد الرؤوس ويحطم الجيوش حتى ضجت الكوفة من كثرة من قتل منها، فكيف يتهم بطل هاشم وفخر عدنان بالوهن والضعف؟

---

(١) ريحانة الرسول (ص ١٧٨).

المخططات الرهيبة:
وأدت المخططات الرهيبة التي صممها الطاغية إلى نجاحه في الميادين السياسية وتغلبه على الاحداث، فبعد أن كانت الكوفة تحت قبضة مسلم انقلبت عليه رأسا على عقب، فزج بها الماكر الخبيث إلى حرب مسلم، والقضاء عليه، ومن بين هذه المخططات.
١ - التجسس على مسلم:
وأول بادرة سلكها ابن زياد هي التجسس على مسلم، ومعرفة جميع نشاطاته السياسية والوقوف على نقاط القوة والضعف عنده، وقد اختار للقيام بهذه المهمة مولاه معقلا، وكان من صنائعه، وتربى في كنفه، ودرس طباعه، ووثق باخلاصه، وكان فطنا ذكيا، فأعطاه ثلاثة آلاف درهم، وأمره أن يتصل بالشيعة، ويعرفهم أنه من أهل الشام، وانه مولى الذي الكلاع الحميري، وكانت الصبغة السائدة على الموالي هي الاخلاص لأهل البيت (ع) ولذا أمره بالانتساب إلى الموالي، حتى ينفي الشك والريب عنه، وقال له: انه إذا التقى بهم فليعرفهم بأنه ممن أنعم الله عليه بحب أهل البيت (ع) وقد بلغه قدوم رجل إلى الكوفة يدعو للإمام الحسين، وعنده مال يريد أن يلقاه ليوصله إليه حتى يستعين به على حرب عدوه، ومضى معقل في مهمته فدخل الجامع، وجعل يفحص ويسأل عمن له معرفة بمسلم، فارشد إلى مسلم بن عوسجة، فانبرى إليه، وهو يظهر الاخلاص والولاء للعترة الطاهرة قائلا له:
" إني أتيتك لتقبض مني هذا المال، وتدلني على صاحبك لأبايعه،

وان شئت أخذت بيعتي قبل لقائي إياه... ".
فقال مسلم: لقد سرني لقاؤك إياي لتنال الذي تحب، وينصر الله بك أهل نبيه، وقد ساني معرفة الناس إياي من قبل أن يتم مخافة هذا الطاغية وسطوته، ثم اخذ منه البيعة وأخذ منه المواثيق المغلظة على النصيحة وكتمان الامر (١) وفي اليوم الثاني أدخله على مسلم فبايعه وأخذ منه المال وأعطاه إلى أبي ثمامة الصائدي، وكان قد عينه لقبض المال ليشتري به السلاح والكراع، وكان معقل فيما يقول المؤرخون: أول من يدخل على مسلم، وآخر من يخرج منه، وجميع البوادر والاحداث التي تصدر ينقلها بتحفظ في المساء إلى ابن زياد (٢) حتى وقف على جميع أسرار الثورة.
مع أعضاء الثورة.
والذي يواجه أعضاء الثورة من المؤاخذات ما يلي:
أولا: ان معقل كان من أهل الشام الذي عرفوا بالبغض والكراهية لأهل البيت (ع) والولاء لبني أمية والتفاني في حبهم فما معنى الركون إليه؟
ثانيا: ان اللازم التريب حينما أعطى المال لمسلم بن عوسجة وهو يبكي، فما معنى بكائه أو تباكيه؟ أليس ذلك مما يوجب الريب في شانه.
ثالثا: انه حينما اتصل بهم كان أول داخل وآخر خارج، فما معنى هذا الاستمرار والمكث الطويل في مقر القيادة العامة؟ أليس ذلك مما يوجب الشك في أمره؟
لقد كان الأولى بالقوم التحرز منه، ولكن القوم قد خدعتهم الظاهر المزيفة، ومن الحق ان هذا الجاسوس كان ماهرا في صناعتهم، وخبيرا فيما انتدب إليه.

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٦٩.
(٢) الاخبار الطوال (ص ٢١٥).

وعلى أي حال فان ابن زياد قد استفاد من عملية التجسس أمورا بالغة الخطورة فقد عرف العناصر الفعالة في الثورة، وعرف مواطن الضعف فيها، وغير ذلك من الأمور التي ساعدته على التغلب على الاحداث

٢ - رشوة الزعماء والوجوه:

ووقف ابن زياد على نبض الكوفة، وعرف كيف يستدرج أهلها فبادر إلى ارشاء الوجوه والزعماء فبذل لهم المال بسخاء فاستمال ودهم، واستولى على قلوبهم فصارت ألسنتهم تكيل له المدح والثناء، وكانوا ساعده القوي في تشتيت شمل الناس وتفريق جموعهم عن مسلم.

لقد استعبدهم ابن مرجانة بما بذله من الأموال فأخلصوا له ومنحوه النصيحة وخانوا بعهودهم ومواثيقهم التي أعطوها لمسلم، وقد أخبر بعض أهل الكوفة الامام عن هذه الظاهرة حينما التقي به في أثناء الطريق فقال له: " أما اشراف الناس فقد عظمت رشوتهم، وملئت غرائرهم، يستمال ودهم، ويستخلص به نصيحتهم، وأما سائر الناس فان أفئدتهم تهوى إليك، وسيوفهم غدا مشهورة عليك " (١).

لقد تناسى الكوفيون كتبهم التي أرسلوها للامام وبيعتهم له على يد سفيره من أجل الأموال التي أغدقتها عليه السلطة، يقول بعض الكتاب: " ان الجماعات التي أقامها النكير على بني أمية، وراسلت الحسين واكدت له اخلاصها، وذرقت أمام مسلم أعز دموعها هي الجماعات التي ابتاعها عبيد الله بن زياد بالدرهم والدينار، وقد ابتاعها فيما بعد مصعب

---

(١) تاريخ الطبري ٦ / ٢٣٣.

ابن الزبير فتخلوا عن المختار، وتركوه وحيدا يلقى حتفه ثم اشتراها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان فتخلوا عن مصعب، وتركوه يلقى مصيره على يد عبد الملك بن مروان " (١).

الاحجام عن كبس دار هانئ:

وعلم الطاغية ان هانئا هو العضو البارز في الثورة، فقد اطلعه الجاسوس الخطير معقل على الدور الفعال الذي يقوم به هانئ في دعم الثورة، ومساندتها بجميع قدراته، وعرفه أن داره أصبحت المركز العام للشيعة، والمقر الرئيسي لسفير الحسين مسلم... فلماذا لم يقم بكبسها وتطويقها بالجيش ليقضي بذلك على الثورة، وانما أحجم عن ذلك لعجزه عسكريا، وعدم مقدرته على فتح باب الحرب فان دار هانئ مع الدور التي كانت محيطة بها كانت تضم أربعة آلاف مقاتل ممن بايعوا مسلما بالإضافة إلى اتباع هانئ ومكانته المرموقة في المصر، فلهذا لم يستطع ابن زياد من القيام بذلك نظرا للمضاعفات السيئة.

رسل الغدر:

وأنفق ابن زياد لياليه ساهرا يطيل التفكير، ويطيل البحث مع حاشيته في شان هانئ، فهو أعز من في المصر، وأقوى شخصية يستطيع القيام بحماية الثورة، ولا يدع مسلما فريسة لأعدائه، فإذا قضى عليه فقد استأصل الثورة من جذورها، وقد أعرضوا عن القاء القبض عليه،

---

(١) المختار الثقفي مرآة العصر الأموي (ص ٦٩ - ٧٠).

وتطويق داره فان ذلك ليس بالامر الممكن، وقد اتفق رأيهم على خديعته بارسال وفد إليه من قبل السلطة يعرض عليه رغبة ابن زياد في زيارته، فإذا وقع تحت قبضته فقد تم كل شئ، ويكون تشتبت اتباعه ليس بالامر العسير، وشكلوا وفدا لدعوته وهم:

١ - حسان بن أسماء بن خارجة زعيم فزارة

٢ - محمد بن الأشعث زعيم كندة

٣ - عمرو بن الحجاج

ولم يكن لحسان بن أسماء علم بالمؤامرة التي دبرت ضد هانئ، وانما كان يعلم بها محمد بن الأشعث وعمرو بن الحجاج، وقد أمرهم ابن زياد أن يحملوا له عواطفه ورغبته الملحة في زيارته، ويعلموا جاهدين على اقناعه.

اعتقال هانئ:

وأسرع الوفد إلى هانئ عشية فوجدوه جالسا على باب داره فسلموا عليه، وقالوا له:

" ما يمنعك من لقاء الأمير فإنه قد ذكرك؟ وقال: لو أعلم أنه شاك لعدته ".

فقال لهم: الشكوى تمنعني.

وأبطلوا هذا الزعم وقالوا له: إنه قد بلغه انك تجلس كل عشية على باب دارك، وقد استبطأك، والابطاء والجفاء لا يحتمله السلطان، أقسمنا عليك لما ركبت معنا.

وأخذوا يلحون عليه في زيارته فاستجاب لهم على كره فدعا بثيابه

فلبسها، ودعا ببغلة فركبها فلما كان قريبا من القصر أحست نفسه بالشر فعزم على الانصراف وقال لحسان بن سماء: يا بن الأخ إني والله لخائف من هذا الرجل فما ترى؟ فقال حسان: يا عم والله ما أتخوف عليك شيئا ولم تجعل على نفسك سبيلا؟ واخذ القوم يلحون عليه حتى ادخلوه على ابن مرجانة، فاستقبله بعنف وشراسة، وقال:

" أتتك بخائن رجلاه ".

وكان شريح إلى جانبه، فقال له:

أريد حياته (١) ويريد قتلي * عذيرك من خليلك من مراد

وذعر هانئ فقال له:

" ما ذاك أيها الأمير؟ "

فصاح به الطاغية بعنف

" ايه يا هانئ ما هذه الأمور التي تتربص في دارك لأمير المؤمنين وعامة المسلمين؟ جئت بمسلم بن عقيل فأدخلته دارك، وجمعت له السلاح والرجال في الدور حولك، وظننت أن ذلك يخفى علي؟ ".

فأنكر ذلك هانئ وقال:

" ما فعلت ذلك وما مسلم عندي "

" بلى قد فعلت "

وطال النزاع واحتدم الجدال بينهما، فرأى ابن زياد ان يحسم النزاع فدعا معقلا الذي جعله عينا عليهم فلما مثل عنده قال لهانئ: " أتعرف هذا؟ "

" نعم "

---

(١) يروى (حياءه) من العطاء.

وأسقط ما في يدي هانئ، وأطرق برأسه إلى الأرض، ولكن سرعان ما سيطرت شجاعته على الوقف، فانتفض كالأسد، وقال لابن مرجانة:
" قد كان الذي بلغك، ولن أضيع يدك عندي (١) تشخص لأهل الشام أنت وأهل بيتك سالمين بأموالكم، فإنه جاء حق من هو أحق من حقك وحق صاحبك... " (٢).
فثار ابن زياد وصاح به:
" والله لا تفارقني حتى تأتيني به. "
وسخر منه هانئ، وأنكر عليه قائلا له مقالة الرجل الشريف:
" لا آتيك بضيفي ابدا "
ولما طال الجدال بينهما انبرى إلى هانئ مسلم بن عمر الباهلي وهو من خدام السلطة، ولم يكن رجل في المجلس غريب غيره فطلب من ابن زياد أن يختلي بهانئ، ليقنعه فاذن له، فقام وخلا به ناحية بحيث يراهما ابن زياد ويسمع صوتهما إذا علا، وحاول الباهلي اقناع هانئ فحذره من نقمة السلطان وان السلطة لا تنوي السوء بمسلم قائلا:
" يا هانئ أنشدك الله ان تقتل نفسك، وتدخل البلاء على قومك، إن هذا الرجل - يعني مسلما - ابن عم القوم، وليسوا بقاتليه، ولا ضائريه، فادفعه إليه فليس عليك بذلك مخزاة، ولا منقصة انما تدفعه إلى السلطان.. ".

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧١.
(٢) مروج الذهب ٣ / ٧، سمط النجوم العوالي ٣ / ٦١ تاريخ الاسلام للذهبي ٢ / ٢٦٩ وروي كلامه بصورة أخرى وهي تخالف ما رواه مشهور المؤرخين.

ولم يخنف على هانئ هذا المنطق الرخيص، فهو يعلم أن السلطة إذا ظفرت بمسلم فسوف تنكل به، ولا تدعه حيا وان ذلك يعود عليه بالعار والخزي ان سلم ضيفه وافد آل محمد فريسة لهم قائلا:

" بلى والله علي في ذلك أعظم العار أن يكون مسلم في جواري وضيفي وهو رسول ابن بنت رسول الله (ص) وأنا حي صحيح الساعدين كثير الأعوان، والله لو لم أكن إلا وحدي لما سلمته أبدا ".

وحفل هذا الكلام بمنطق الأحرار الذين يهبون حياتهم للمثل العليا ولا يخضعون لما يخل بشرفهم.

ولما يئس الباهلي من اقناع هانئ انطلق نحو ابن زياد فقال له:

" أيها الأمير قد أبى ان يسلم مسلما أو يقتل " (١).

وصاح الطاغية بهانئ:

" أتأتيني به أو لأضربن عنقك "

فلم يعبأ به هانئ وقال:

" اذن تكثر البارقة حولك "

فثار الطاغية وانتفخت أوداجه وقال:

" والهفا عليك أبالبارقة تخوفني " (٢)

وصاح بغلامه مهران وقال: خذه، فاخذ بضفيرتي هانئ، وأخذ ابن زياد القضيب فاستعرض به وجهه، وضربه ضربا عنيفا حتى كسر أنفه ونثر لحم خديه وجبينه على لحيته حتى تحطم القضيب وسالت الدماء على ثيابه، وعمد هانئ إلى قائم سيف شرطي محاولا اختطافه ليدافع به عن نفسه فمنعه منه، فصاح بن ابن زياد:

---

(١) الفتوح ٥ / ٨٣.

(٢) البارقة: السيوف التي يلمع بريقها.

" أحروري أحللت بنفسك وحل لنا قتلك ".
وأمر ابن زياد باعتقاله في أحد بيوت القصر (١) واندفع حسان بن أسماء بن خارجة وكان ممن أمن هانئا وجاء به إلى ابن زياد، وقد خاف من سطوة عشيرته ونقمتم عليه، فأنكر عليه ما فعله بهانئ قائلا:
" أرسله يا غادر امرتنا ان نجيئك بالرجل فلما اتيناك به هشمت وجهه، وسيلت دماءه وزعمت أنك تقتله ".
وغضب منه ابن زياد فأوعز إلى شرطته بتأديبه فلهز وتعتع ثم ترك
وأما ابن الأشعث المتملق الحقير فجعل يحرك رأسه ويقول ليسمع الطاغية.
" قد رضينا بما رأى الأمير لنا كان أم علينا، انما الأمير مؤدب " (٢)
ولا يهم ابن الأشعث ما اقترفه الطاغية من جريمة في سبيل تامين مصالحه ورغباته.
انتفاضة مذحج:
وانتهى خبر هانئ إلى أسرته فاندفعت بتثاقل كالحشرات فقاد جموعها الانتهازي الجبان عمرو بن الحجاج الذي لا عهد له بالشرف والمروءة، فاقبل ومعه مذحج وهو يرفع عقيرته لتسمع السلطة مقالتهم قائلا:
" أنا عمرو بن الحجاج وهذه فرسان مذحج ووجوهها لم نخلع طاعة ولم نفارق جماعة ".
وحفل كلامه بالخنوع والمسالمة للسلطة وليس فيه اندفاع لانقاذ هانئ ولذا لم يحفل به ابن زياد فالتفت إلى شريح القاضي فقال له: ادخل على

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧١.
(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧١.

صاحبهم فانظر إليه، ثم اخرج إليهم فاعلمهم أنه حي، وخرج شريح فدخل على هانئ فلما بصر به صاح مستجيرا.
" يا للمسلمين أهلكت عشيرتي؟!! أين أهل الدين أين أهل المصر! أيحذرونني عدوهم (١) وكان قد سمع الأصوات وضجيج الناس فالتفت إلى شريح (٢) قائلا:
" يا شريح: اني لأظنها أصوات مذحج وشيعتي من المسلمين، انه ان دخل علي عشرة أنفر أنقذوني.. " (٣).
وخرج شريح وكان عليه عين لابن زياد مخافة أن يدلي بشئ على خلاف رغبات السلطة فيفسد عليها أمرها فقال لهم:
" قد نظرت إلى صاحبكم وانه حي لم يقتل "
وبادر عمرو بن الحجاج فقال:
" إذا لم يقتل فالحمد لله " (٤).
وولوا منهزمين كأنما أتيح لهم الخلاص من السجن وهم يصحبون العار والخزي، وظلوا مثالا للخيانة والجبن على امتداد التاريخ - وفيما أحسب - أن هزيمة مذحج بهذه السرعة وعدم تأكدها من سلامة زعيمها جاءت نتيجة اتفاق سري بين زعماء مذحج وبين ابن زياد للقضاء على

---

(١) في رواية الطبري: " أيخلوني وعدوهم "
(٢) شريح القاضي ينتمي لإحدى بطون كندة جاء ذلك في الكامل للمبرد (ص ٢١).
(٣) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧١، وجاء في تهذيب التهذيب ٢ / ٣٥١ ان هانئا قال لشريح: يا شريح اتق الله فإنه قاتلي:
(٤) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧١.

هانئ، ولولا ذلك لنفرت مذحج حينما اخرج هانئ من السجن في وضع النهار، ونفذ فيه حكم الاعدام في سوق الحذائين.
وعلى أي حال فقد خلدت مذحج للذل، ورضيت بالهوان، وانبرى شاعر مجهول اخفى اسمه حذران من نقمة الأمويين وبطشهم فرثى هانئا وندد بأسرته محاولا بذلك أن يثير في نفوسهم روح العصبية القبلية ليثأروا لقتيلهم يقول:

فان كنت لا تدرين ما الموت فانظري * إلى هانئ في السوق وأبن عقيل
إلى بطل قد هشم السيف وجهه * وآخر يهوي من طمار قتيل (١)
أصابهما أمر الأمير فأصبحا * أحاديث من يسري بلك سبيل (٢)
ترى جسدا قد غير الموت لونه * ونضح دم قد سال كل مسيل
فتى كل أحيى من فتاة حيبة * واقطع من ذي شفرتين صقيل
أيركب أسماء الهماليج آمنا * وقد طلبته مذحج بذحول (٣)

---

(١) الطمار: اسم لغرفة شيدت فوق قصر الامارة، وفي أعلاها قتل مسلم بن عقيل، ورميت جثته إلى الأرض، وما ذكره ابن أبي الحديد أن الطمار هو الجدار فليس بصحيح.
(٢) وفي رواية " أصابهما بغي الأمير.
(٣) الهماليج: جمع هملاج وهو نوع من البرذون، والذحول: جمع ذحل الثار.

تطوف حواليه (مراد) وكلهم * على رقية من سائل ومسول
فان أنتم لم تثاروا بأخيكم * فكونوا بغايا أرضيت بقليل (١)

وعلق الدكتور يوسف خليف على هذه الأبيات بقول: " واللحن هنا تأثر عنيف، والتعبير فيه قوى صريح بل تصل فيه الصراحة إلى درجة الجرأة، وشجع الشاعر على هذه الجرأة أنه كان في مامن من بطش الأمويين لأنه استطاع أن يخفي اسمه، حتى أصبح شخصا مختلفا فيه عند بعض الرواة، ومجهولا تماما عند بعضهم، وهو في هذا اللحن لا يتحدث عن الحسين، ولا عن السياسة، وانما كل حرصه أن يثير روح العصبية القبلية في نفوس اليمنية ليثأروا لقتيلهم وهو - من أجل هذا - أغفل متعمدا من غير شك ذكر محمد من الأشعث اليمني، ولم يذكر إلا أسماء بن خارجة الفزاري على أنه هو المسؤول عن دم هانئ مع أن كليهما كان رسول ابن زياد إليه، ولكن الشاعر حرص على أن يغفل ذكر ابن الأشعث حتى لا يثير فتنة أو انقساما بين اليمنية، وهو في أشد الحاجة إلى أن يوحد صفوفهم حتى يدركوا ثأرهم، واعتمد الشاعر في قصيدته على هذه الصورة المفزعة التي رسمها للقتيلين اللذين هشم السيف وجه أحدهما والقى بالآخر من أعلى القصر، واللذين أصبحا أحاديث للناس في كل مكان. وهو حريص في هذه الصورة على أن يعرض للناس منظرين رهيبين يثيران في نفوسهم كل عواطف الحزن والسخط والانتقام، منظر هذين الجسدين وقد

---

(١) في مروج الذهب ٢ / ٧٠ انها لشاعر مجهول وكذلك في الأغاني ١٣ / ٣٥، وفي جمهرة الأنساب (ص ٢٢٨) انها للأخطل، وفي مقاتل الطالبيين (ص ١٠٨) انها لعبد الله بن الزبير الأسدي، وفي الطبري انها للفرزدق، وفي الاخبار الطوال (ص ٢١٩) انها لعبد الرحمن ابن الزبير الأسدي وفي لسان العرب ٦ / ١٧٤ انها لسليم بن سلام الحنفي.

غير الموت من لونهما، وهذا الدم الذي ينضخ منهما ويسيل كل مسيل، ثم منظر أسماء بن خارجة وهو يحتال في طرقات الكوفة على دوابه التي تتبختر به آمنا مطمئنا، ويسأل إلى متى سيظل هذا الرجل في امنه وخيلائه ومن حوله قبيلة القتيل تطالبه بالثار، فلا يجد أشد من طعنها في كرامتها، فيقول لهم ان لم تثاروا بقتيلكم فكونوا بغايا ببغي شرفهن بثمن بخس دراهم معدودات (١).

لقد تنكرت مذحج لزعيمها الكبير فلم تف له حقوقه فتركته أسيرا بيد ابن مرجانة يمعن في ارهاقه من دون أن تحرك ساكنا في حين أنها كانت لها السيادة والسيطرة على الكوفة كما يرى ذلك فلهوزن.

وعلى أي حال فقد كان لاعتقال هانئ الأثر الكبير في ذيوع الفزع والخوف في نفوس الكوفيين مما أدى إلى تفرق الناس عن مسلم واخفاق الثورة.

ثورة مسلم:

ولما على مسلم بما جرى على هانئ بادر لاعلان الثورة على ابن زياد لعمله بأنه سيلقى نفس المصير الذي لاقاه هانئا، فأوعز إلى عبد الله بن حازم أن ينادي في أصحابه وقد ملأ بهم الدور، فاجتمع إليه أربعة آلاف (٢)

---

(١) حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة (ص ٤٦٣ - ٤٦٤).

(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧١، المناقب لابن شهرآشوب ٥ / ١٢٦ من مصورات مكتبة الامام أمير المؤمنين.

أو أربعون ألفا (١) وهم ينادون بشعار المسلمين يوم البدر.
" يا منصور أمت " (٢).
وقام مسلم بتنظيم جيشه، واسند القيادات العامة في الجيش إلى من عرفوا بالولاء والاخلاص لأهل البيت (ع) وهم:
١ - عبد الله بن عزيز الكندي: جعله على ربع كندة
٢ - مسلم بن عوسجة: جعله على ربع مذحج
٣ - أبو ثمامة الصائدي: جعله على ربع قبائل بني تميم وهمدان
٤ - العباس بن جعدة الجدلي: جعله على ربع المدينة.
واتجه مسلم بجيشه نحو قصر الامارة فأحاطوا به (٣) وكان ابن زياد قد خرج من القصر ليخطب الناس على أثر اعتقاله لهانئ، فجاء إلى المسجد الأعظم فاعتلى أعواد المنبر، ثم التفت إلى أصحابه فرآهم عن يمينه وشماله وفي أيديهم الأعمدة وقد شهروا سيوفهم للحفاظ عليه، فهدا روعه وخاطب أهل الكوفة قائلا:
" أما بعد: يا أهل الكوفة فاعتصموا بطاعة الله ورسوله، وطاعة أئمتكم ولا تختلفوا، ولا تفرقوا فتهلكوا، وتذلوا، وتندموا، وتقهروا، فلا يجعلن أحد على نفسه سبيلا وقد اعذر من انذر ".
وما أتم الطاغية خطابه حتى سمع الضجة وأصوات الناس قد علت فسال عن ذلك فقيل له:

---

(١) تهذيب التهذيب ٢ / ٣٥١، تذهيب التهذيب ١ / ١٥٠ للذهبي من مصورات مكتبة الامام أمير المؤمنين.
(٢) هذا الشعار فيه تحريض للجيش على الموت في الحرب للتغلب على الأعداء، وفيه تفاؤل بالنصر.
(٣) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧١.

" الحذر، الحذر، هذا مسلم بن عقيل قد اقبل في جميع من بايعه.. ".
واختطف الرعب لونه، وسرت الرعدة بجميع أوصاله فأسرع الجبان نحو القصر وهو يلهث من شدة الخوف، فدخل القصر، وأغلق عليه أبوابه (١) وامتلأ المسجد والسوق من أصحاب مسلم، وضاقت الدنيا على ابن زياد، وأيقن بالهلاك إذ لم تكن عنده قوة تحميه سوى ثلاثين رجلا من الشرط، وعشرين رجلا من الاشراف الذين هم من عملائه (٢)، وقد تزايد جيش مسلم حتى بلغ فيما يقول بعض المؤرخون ثمانية عشر ألفا وقد نشروا الاعلام وشهروا السيوف، وقد ارتفعت أصواتهم بقذف ابن زياد وشتمه، وجرى بين اتباع ابن زياد وبين جيش مسلم قتال شديد كما نص على ذلك بعض المؤرخين.
وأمعن الطاغية في أقرب الوسائل التي تمكنه من انقاذ حكومته من الثورة فرأى أن لا طريق له سوى حرب الأعصاب ودعايات الارهاب فسلك ذلك.
حرب الأعصاب:
وأوعز الطاغية إلى جماعة من وجوه أهل الكوفة ان يبادروا ببث الذعر ونشر الخوف بين الناس، وقد انتدب للقيام بهذه المهمة الذوات التالية:
١ - كثير بين شهاب الحارثي

---

(١) البداية والنهاية ٨ / ١٥٤، الفتوح ٥ / ٨٥.
(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧١.

٢ – القعقاع بن شور الذهلي
٣ – شبث بن ربعي التميمي
٤ – حجار بن أبجر
٥ – شمر بن ذي الجوشن الضبابي (١)
وانطلق هؤلاء إلى صفوف جيش مسلم فأخذوا يشيعون الخوف، ويبثون الأراجيف فيهم ويظهرون لهم الاخلاص والولاء خوفا عليهم عن جيوش أهل الشام فكان ما قاله كثير بن شهاب:
" أيها الناس: الحقوا بأهاليكم، ولا تعجلوا الشر، ولا تعرضوا أنفسكم للقتل، فان هذه جنود أمير المؤمنين – يعني يزيد – قد أقبلت، وقد اعطى الله الأمير – يعني ابن زياد – العهد لئن أقمتم على حربه، ولم تنصرفوا من عشيتكم أن رم ذريتكم العطاء، ويفرق مقاتلكم في مغازي أهل الشام من غير طمع، وأن يأخذ البرئ بالسقيم، والشاهد بالغائب، حتى لا تبقى فيكم بقية من أهل المعصية إلا ذاقها وبال ما جرت أيديها " (٢)
وكان هذا التهديد كالصاعقة على رؤوس أهل الكوفة فقد كان يحمل ألوانا قاسية من الارهاب وهي:
أ – التهديد بجيوش أهل الشام، فقد زحفت إليهم، وهي ستشيع فيهم القتل والتنكيل إن بقوا مصرين على المعصية والعناد.
ب – حرمانهم من العطاء: وقد كانت الكوفة حامية عسكرية تتلقى جميع مواردهم الاقتصادية من الدولة.
ج – تجميرهم في مغازي أهل الشام، وزجهم في ساحات الحروب

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٢.
(٢) تاريخ الطبري ٦ / ٢٠٨.

د – انهم إذا أصروا على التمرد فان ابن زياد سيعلن الاحكام العرفية ويسوسهم بسياسة أبيه التي تحمل شارات الموت والدمار حنى يقضي على جميع ألوان الشغب والعصيان.

وقام بقية عملاء السلطة بنشر الارهاب وإذاعة الذعر، وكان من جملة ما أذاعوه بين الناس.

" يا أهل الكوفة: اتقوا الله، ولا تستعجلوا الفتنة، ولا تشقوا عصا هذه الأمة، ولا توردوا على أنفسكم خيول الشام، فقد ذقتموها، وجربتم شوكتها.. ".

أوبئة الفزع والخوف:

وسرت أوبئة الخوف والفزع في نفوس الكوفيين، وانهارت أعصابهم وكان الموت قد خيم عليهم، فجعل بعضهم يقول لبعض:

" ما نصنع بتعجيل الفتنة، وغدا تأتينا جموع أهل الشام، ينبغي لنا أن نقيم في منازلنا، وندع هؤلاء القوم حتى يصلح الله ذات بينهم " (١).

وكانت المرأة تأتي ابنها أو أخاها أو زوجها، وهي مصفرة الوجه من الخوف فتتوسل إليه قائلة:

" الناس يكفونك " (٢)

وكان الرجل يأتي إلى ولده وأخيه فيملأ قلبه رعبا وخوفا، وقد نجح ابن زياد في ذلك إلى حد بعيد فقد تغلب على الاحداث، وسيطر على الموقف سيطرة تامة وقد خلع الكوفيون ما كانوا يرتدونه من ثياب

---

(١) الفتوح ٥ / ٨٧.

(٢) تاريخ أبي الفداء ١ / ٣٠٠، تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٢.

التمرد على بني أمية ولبسوا ثياب الذل والعبودية من جراء ذلك الارهاب الهائل والقسوة في الحكم فكانت الدماء تترقرق بين العمائم واللحى.

هزيمة الجيش:

ومني جيش مسلم بهزيمة مخزية لم يحدث لها نظير في جميع فترات التاريخ، فقد هزمته الدعايات المضللة من دون أن تكون في قباله أية قوة عسكرية، ويقول المؤرخون: ان مسلما كلما انتهى إلى زقاق انسل جماعة من أصحابه، وفروا منهزمين وهم يقولون:

" ما لنا والدخول بين السلاطين! " (١).

ولم يمض قليل من الوقت حتى انهزم معظمهم، وقد صلى بجماعة منهم صلاة العشاء في الجامع الأعظم فكانوا يفرون في أثناء الصلاة، وما انهى ابن عقيل صلاته حتى انهزموا بأجمعهم بما فيهم قادة جيشة، ولم يجد أحدا يدله على الطريق، وبقى حيرانا لا يدري إلى أين مسراه، ومولجه (٢) وكان قد أثخن بالجراح فيما يقوله بعض المؤرخين (٣) وقد أمسى طريدا مشردا لا مأوى يأوي إليه، ولا قلب يعطف عليه.

---

(١) الدر المسلوك في أحوال الأنبياء والأوصياء ١ / ١٠٨

(٢) مقامات الحريري ١ / ١٩٢.

(٣) الفتوح ٥ / ٨٧.

في ضيافة طوعة:
وسار القائد العظيم سليل هاشم وفخر عدنان متلددا في أزقة الكوفة وشوارعها، ومضى هائما على وجهه في جهة كندة (١) يلتمس دارا لينفق فيها بقية الليل، وقد خلت المدينة من المارة، وعادت كأنها واحة موحشة، فقد أسرع كل واحد من جيشه وأعوانه، إلى داره، وأغلق عليه الأبواب مخافة ان تعرفه مباحث الامن وعيون ابن زياد بأنه كان مع ابن عقيل فتلقي عليه القبض.
وأحاطت بمسلم تيارات مذهلة من الهموم، وكاد قلبه ان ينفجر من شدة الألم وعظيم الحزن، وقد هاله اجماع القوم على نكث بيعته وغدرهم به، واستبان له انه ليس في المصر رجل شريف يقوم بضيافته وحمايته أو يدله على الطريق، فقد كان لا يعرف مسالك البلد وطرقها.. وسار وهو حائر الفكر خائر القوى حتى انتهى إلى سيدة يقال لها (طوعة) هي سيدة من في المصر رجالا ونساء بما تملكه من انسانية ونبل وكانت أو ولد للأشعث بن قيس أعتقها، فتزوجها أسيد الحضرمي فولدت له بلالا (٢) وكانت السيدة واقفة على الباب تنتظر ابنها، وترتقب طلوعه للاحداث الرهيبة التي حلت في المصر، ولما رآها مسلم بادر إليها، فسلم عليها فردت عليه السلام بتثاقل، وقالت له:
- ما حاجتك؟

---

(١) الاخبار الطوال (ص ٢٤٠).
(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٢، وفي الفتوح ٥ / ٨٨ انها كانت فيما مضى امرأة قيس الكندي، فتزوجها رجل من بعده من حضر موت يقال له أسد بن البطين، فأولدها ولدا يقال له ولدا يقال له أسد.

- إسقني ماء
فبادرت إلى دارها، وجاءته بالماء، فشرب منه، ثم جلس فارتابت منه فقالت له:
- ألم تشرب الماء؟
- بلى
اذهب إلى أهلك ان مجلسك مجلس ريبة (١).
وسكت مسلم، فأعادت عليه القوم بالانصراف وهو ساكت، وكررت عليه القوم ثالثا فلم يجبها فذعرت منه، وصاحت به:
" سبحان الله!! إني لا أحل لك الجلوس على بابي! "
ولما حرمت عليه الجلوس لم يجد بدا من الانصراف فقال لها بصوت خافت حزين النبرات:
" ليس لي في هذا المصر منزل ولا عشيرة، فهل لك إلى اجر ومعروف؟ ولعلي أكافئك بعد اليوم ".
وشعرت المرأة بان الرجل غريب، وانه على شان كبير، وله مكانة عظمى يستطيع أن يجازيها على معروف واحسانها فبادرتها قائلة:
" ما ذاك؟ "
فقال لها وعيناه تفيضان دموعا:
" أنا مسلم بن عقيل كذبني القوم وغروني "
فقالت المرأة في دهشة واكبار:
" أنت مسلم بن عقيل "
" نعم " (٢).

---

(١) تذهيب التهذيب ١ / ١٥١ للذهبي.
(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٢.

وانبرت السيدة بكل خضوع وتقدير فسمحت لضيفها الكبير بالدخول إلى منزلها، وقد حازت الشرف والمجد فقد آوت سليل هاشم، وسفير ريحانة رسول الله (ص) وأدخلته في بيت في دارها غير البيت الذي كانت تأوي إليه، وجاءته بالضياء والطعام، فأبى أن يأكل، فقد مزق الأسى قلبه الشريف، وأيقن بالرزء القاصم، وتمثلت أمامه الاحداث الرهيبة التي سيواجهها، وكان أكثر ما يفكر به كتابه للحسين بالقدوم إلى الكوفة.

ولم يمض قليل من الوقت حتى جاء بلال ابن السيدة طوعة، فرأى أمه تكثر الدخول والخروج إلى ذلك البيت لتقوم برعاية ضيفها، فأنكر عليها ذلك، واستراب منه، فسألها عنه، فأنكرته فألح عليها فأخبرته بالامر بعد أن أخذت عليه العهود والمواثيق بكتمان الامر.. وطارت نفس الخبيث فرحا وسرورا، وقد أنفق ليله ساهرا يترقب بفارغ الصبر انبثاق نور الصبح ليخبر السلطة بمقام مسلم عندهم.. وقد تنكر هذا الخبيث للأخلاق العربية التي تلزم بقرى الضيف وحمايته، فقد كان هذا الخلق سائدا حتى في العصر الجاهلي.. وانا لنتخذ من هذه البادرة مقياسا عاما وشاملا لانهيار القيم الأخلاقية والانسانية في ذلك المجتمع الذي تنكر لجميع العادات والقيم العربية.

وعلى أي حال فقد طوى مسلم ليلته حزينا، قد ساورته الهموم، وتوسد الأرق، وكان فيما يقول المؤرخون قد قضى شطرا من الليل في عبادة الله ما بين الصلاة وقراءة القرآن، وقد خفق في بعض الليل فرأى عمه أمير المؤمنين (ع) فأخبره بسرعة اللحاق به فأيقن عند ذلك بدنو الاجل المحتوم منه.

تأكد الطاغية من فشل الثورة:
ولما انهزمت جيوش أهل الكوفة، وولت الادبار تصحب معها العار والخيانة، وقد خلا الجامع الأعظم منهم، فلم يطمئن الطاغية الجبان من ذلك، خوفا من أن يكون ذلك مكيدة وخديعة، فعهد إلى أذنابه بالتأكد من انهزام جيش مسلم وأمرهم بان يشرفوا على ظلال المسجد لينتظروا هل كمن أحد من الثوار فيه؟ واخذوا يدلون القناديل، ويشعلون النار في القصب، ويدلونها بالحبال فتصل إلى صحن الجامع، وفعلوا ذلك بالظلة التي فيها المنبر، فلم يروا انسانا، فأخبروه بذلك، فاطمئن بفشل الثورة وأيقن بالقضاء عليها (١).
اعلان حالة الطوارئ:
وأعلن الطاغية في الصباح الباكر حالة الطوارئ في جميع أنحاء المصر وقد شدد على المدير العام لشرطته الحصين بن تميم بتفيذ ما يلي:
أ - تفتيش جميع الدور والمنازل في الكوفة تفتيشا دقيقا للبحث عن مسلم.
ب - الإحاطة بالطرق والسكك لئلا يهرب منها مسلم.
ج - الاعتقالات الواسعة لجميع المؤيدين للثورة، وقد ألقت الشرطة القبض على هؤلاء:
١ - عبد الاعلى بن يزيد الكلبي.
٢ - عمارة بن صلخب الأزدي.

---

(١) تاريخ الطبري ٦ / ٢٠٩ - ٢١٠.

٣ – عبد الله بن نوفل بن الحارث
٤ – مختار الثقفي
٥ – الأصبغ بن نباتة
٦ – الحارث الأعور الهمداني (١)

راية الأمان:

وأوعز الطاغية إلى محمد بن الأشعث أن يرفع راية الأمان، ويعلن إلى الملاء ان من انضم إليها كان آمنا، ولعل أسباب ذلك ما يلي:

١ – التعرف على العناصر الموالية لمسلم لالقاء القبض عليها
٢ – اعلان الانتصار والقضاء على الثورة
٣ – شل حركة المقاومة، واظهار سيطرة الدولة على جميع الأوضاع في البلاد.

ورفعت راية الأمان فسارع الكوفيون الذين كانوا مع مسلم إلى الانضمام إليها لنفي التهمة واظهار اخلاصهم للحكم القائم آنذاك.

اشتباه:

ومن الغريب ما ذكره ابن قتيبة (٢) والحر العاملي (٣) من أن مسلما كان في بيت المختار ثم خرج لحرب ابن زياد، وبعد فشل ثورته التجأ

---

(١) أنساب الأشراف ٥ / ٣١٤.
(٢) الإمامة والسياسة ٢ / ٤.
(٣) الدر المسلوك ١ / ١٠٨.

إلى بيت هانئ، فأجاره هانئ، وقال له: ابن زياد يدخل داري فاضرب عنقه، فامتنع مسلم من الفتك به، وقام ابن زياد باعتقال هانئ ثم أرسل شرطه لالقاء القبض على مسلم فقاتلهم حتى ضعف عن المقاومة فوقع أسيرا بأيديهم، وهذا الذي أفاداه لم يذهب إليه أحد من المؤرخين فان تفصيل الحادثة حسب ما ذكرناه، وما عداه فهو من الأقوال الشاذة التي نشأت من قلة التتبع.

خطبة ابن زياد:

ولما أيقن الطاغية بفشل ثورة مسلم، وتفلل قواته المسلحة أم بجمع الناس في الجامع، فتوافدت الجماهير وقد خيم عليها الذعر والخوف فجاء الطاغية، وهو يرعد ويبرق ويتهدد ويتوعد فصعد المنبر، فقال:

" أيها الناس: ان مسلما بن عقيل انى هذه البلاد، وأظهر العناد، وشق العصا، وقد برئت الذمة من رجل أصبناه في داره.. ومن جاء به فله ديته، اتقوا الله عباد الله، والزموا طاعتكم وبيعتكم، ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلا، ومن أتاني بمسلم بن عقيل فله عشر آلاف درهم، والمنزلة الرفيعة من يزيد بن معاوية، وله في كل يوم حاجة مقضية " (١).

وحفل هذا الخطاب بالقسوة والصرامة وفيه هذه التقاط التالية:

أ - الحكم بالاعدام على كل من آوى مسلما مهما كانت لذلك الشخص من مكانة اجتماعية في المصر.

ب - إن دية مسلم تكون لمن جاء به

ج - ان من ظفر بمسلم تمنحه السلطة عشرة آلاف درهم.

---

(١) الفتوح ٤ / ٩٠.

د – ان من يأتي به يكون من القربين عند يزيد، وينال ثقته
ه – تكافئ السلطة من جاء به بقضاء حاجة له في كل يوم
وتمنى أكثر أولئك الأوغاد الظفر بمسلم لينالوا المكافاة من ابن مرجانة والتقرب إلى يزيد بن معاوية.
الافشاء بمسلم:
وطالت تلك الليلة على بلال ابن السيدة الكريمة طوعة التي آوت مسلما، فقد ظل يترقب بفارغ الصبر طلوع الصبح ليخبر السلطة بمقام مسلم عندهم، ولم يرقد تلك الليلة من الفرح والسرور، فقد تمت – فيما يحسب – بوارق آماله وأحلامه، ولما طلع الصبح بادر إلى القصر بحالة تلفت النظر إليها من الدهشة، فقصد عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وهو من الأسرة الخبيثة التي لا عهد لها بالشرف والمروءة فساره، واعلمه بمكان مسلم عنده، فأمره عبد الرحمن بالسكوت لئلا يسمع غيره فيبادر باخبار ابن زياد فينال الجائزة منه، وأسرع عبد الرحمن إلى أبيه محمد بن الأشعث، فأخبره بالامر، وفطن ابن زياد إلى خطورة الامر فبادر يسأل ابن الأشعث قائلا:
– ما قال لك: عبد الرحمن؟
– أصلح الله الأمير البشارة العظمى!!
– ما ذاك؟ مثلك من بشر بخير.
– ان ابني هذا يخبرني أن مسلما بن عقيل في دار طوعة.
وسر ابن زياد: ولم يملك أهابه من الفرح، فانبرى يمني ابن الأشعث بالمال والجاه قائلا:

" قم فاتني به، ولك ما أردت من الجائزة والحظ الأوفى ".
لقد تمكن ابن مرجانة من الظفر بسليل هاشم ليجعله قربانا إلى أمويته اللصيقة التي نحر في سبيلها هو وأبوه جميع القيم الانسانية، واستباحا كل ما حرمه الله من اثم وفساد.

الهجوم على مسلم:

وندب الطاغية لحرب مسلم عمرو بن حريث المخزومي صاحب شرطته ومحمدا بن الأشعث (١) وضم إليهما ثلاثمائة رجل من صناديد الكوفة وفرسانها، وأقبلت تلك الوحوش الكاسرة لحرب القائد العظيم الذي أراد أن يحررها من الذل والعبودية، وينقذها من الظلم والجور.. ولما سمع وقع حوافر الخيل وزعقات الرجال علم أنه قد أتي إليه فبادر إلى فرسه فاسرجه وألجمه وصب عليه درعه، وتقلد سيفه، والتفت إلى السيدة الكريمة طوعة فشكرها على ضيافتها، وأخبرها أنه انما أتي إليه من قبل ابنها الباغي اللئيم قائلا:

" رحمك الله، وجزاك عني خيرا... اعلمي انما أتيت من قبل ابنك.. " (٢).

واقتحم الجيش عليه الدار فشد عليهم يضربهم بسيفه، ففروا منهزمين، ثم عادوا إليه فأخرجهم منها وانطلق نحوهم في السكة شاهرا سيفه لم يختلج في قلبه خوف ولا رعب، فجعل يحصد رؤوسهم بسيفه وقد أبدى من البطولات النادرة ما لم يشاهد لها التاريخ نظيرا في جميع

---

(١) تذهيب التهذيب ١ / ١٥١.
(٢) الفتوح ٥ / ٩٢ - ٩٣.

عمليات الحروب، وكان يقاتلهم وهو يرتجز:
هو الموت فاصنع ويك ما أنت صانع * فأنت بكأس الموت لا شك جارع
فصبر لأمر الله جل جلاله * فحكم قضاء الله في الخلق ذايع (١)
وأبدى سليل هاشم من الشجاعة وقوة الباس ما حير الألباب، وأبهر العقول، فقد قتل منهم فيما يقول بعض المؤرخين واحدا وأربعين رجلا (٢) ما عدا الجرحى، وكان من قوته النادرة أنه يأخذ الرجل بيده ويرمي به من فوق البيت (٣) وليس في تاريخ الانسانية مثل هذا البطولة، ولا مثل هذه القوة وليس هذا غريبا عليه فعمه علي بن أبي طالب أشجع الناس وأقواهم بأسا، وأشدهم عزيمة.
واستعمل معه الجبناء من أنذال أهل الكوفة ألوانا قاسية وشاذة من الحرب فقد اعتلوا سطوح بيوتهم، وجعلوا يرمونه بالحجارة وقذائف النار (٤) ولو كانت في ميدان فسيح لأتى عليهم ولكنها كانت في الأزقة والشوارع.
فشل الجيوش:
وفشلت جيوش أهل الكوفة، وعجزت عن مقاومة البطل العظيم فقد أشاع فيهم القتل، والحق بهم خسائر فادحة وأسرع الخائن الجبان

---

(١) مناقب ابن شهرآشوب ٢ / ٢١٢.
(٢) مناقب ابن شهرآشوب ٢ / ٢١٢.
(٣) المنذر النضيد (ص ١٦٤) نفس المهموم (ص ٥٧)
(٤) المحاسن والمساوئ للبيهقي ١ / ٤٣.

محمد بن الأشعث يطلب من سيده ابن مرجانة أن يمده بالخيل والرجال فقد عجز عن مقاومة مسلم، ولامه الطاغية قائلا:
" سبحان الله!! بعثناك إلى رجل واحد تأتينا به، فثلم في أصحابك هذه الثلمة العظيمة " (١).
وثقل هذا التقريع على ابن الأشعث، فراح يشيد بابن عقيل قائلا:
" أتظن أنك أرسلتني إلى بقال من بقالي الكوفة أو جرمقاني من جرامقة (٢) الحيرة (٣) وانما بعثتني إلى أسد ضرغام وسيف حسام في كف بطل همام من آل خير الأنام " (٤).
وأمده ابن زياد بقوى مكثفة من الجيش، فجعل البطل العظيم يقاتل وحده وهو يرتجز:
أقسمت لا اقتل إلا حرا * وإن رأيت الموت شيئا نكرا
أو يخلط البارد سخنا مرا * رد شعاع الشمس فاستقرا
كل امرئ يوما يلاقي شرا * أخاف أن اكذب أو اغرا (٥)
لقد كنت يا بن عقيل سيد الأحرار، فقد رفعت لواء العزة والكرامة ورفعت شعار الحرية والإباء، واما خصومك الحقراء فهم العبيد الذين رضوا بالذل والهوان... وحلل الدكتور يوسف خليف هذا الرجز بقوله: " هو رجز - من الناحية النفسية - صادق كل الصدق، معبرا

---

(١) الفتوح ٥ / ٦٣.
(٢) الجرامقة: قوم من العجم صاروا إلى الموصل.
(٣) مقتل الحسين للمقرم (ص ١٨٠).
(٤) الفتوح ٥ / ٩٣.
(٥) تاريخ الطبري.

تعبيرا دقيقا عن الموجات النفسية التي كانت تندفع في نفس الشاعر، وهو في موقفه الضيق الحرج، فهو قبل كل شئ مصمم على أن يحتفظ بحريته ولو أدى هذا إلى قتله، وهو يعلن في صراحة وصدق أن الموت شئ منكر ولا يقول هذا كما يقوله غيره ممن يغالطون أنفسهم أن الموت شئ محبب إلى نفسه، وانما يعبر عن نفسيته تعبيرا صادقا، فالموت شئ لا يحبه، ولكنه لا يفر منه ما دام قد صمم على الاحتفاظ بحريته. ثم يحاول أن يهدئ من روعه، ويجعل هذه الموجة العالية الرهيبة تنحسر عن نفسه دون أن يجذبها في تيارات من الهلع والفزع، فيحدث عن نفسه بان الدنيا متقلبة، وكل امرئ فيها لا بد أن يلاقي ما يسوؤه، وهو يعرض هذا الحديث النفسي في صورة فنية رائعة.

وأضاف يقول: انه حريص على الحياة، ولكنه حريص على الحرية بجعله مترددا لأنه يخشى - بل يخاف - أن يكذب عليه أعداؤه أو يخدعوه فيقتلوه دون محاولة منه لتنفيذ عهده بان يموت في سبيل حريته، أو يأسروه فيفقد حريته التي يحرص عليها حرصه على الحياة. أرأيت كيف استطاع أن يصور موقفه الضيق الحرج هذا التصوير الفتي الرائع الذي يشمل روعته من تعبيره عن نفسيته تعبيرا صادقا لا رياء فيه ولا تضليل؟ ان هذا هو السر الذي يجعل هذه الشطور القليلة تؤثر في نفوسنا تأثيرا يجعلنا نشعر بما كان يعانيه قائلها من صراع داخلي هائل لا يعد له الا صراعه الخارجي مع أعدائه " (١).

---

(١) حياة الشعر في الكوفة (ص ٣٧١ - ٣٧٢).

أمان ابن الأشعث:
ولما سمع محمد بن الأشعث رجز مسلم الذي أقسم فيه أن يموت ميتة الأحرار، وأن لا يخدع ولا يغر انبرى إليه قائلا: " انك لا تكذب ولا تخدع ان القوم بنو عمك وليسوا بقاتليك ولا ضاريك " (١).
فلم يعتن به مسلم، وانما مضى يقاتلهم أعنف القتال وأشده، ففروا منهزمين من بين يديه، واعتلوا فرق بيوتهم يرمونه بالحجارة، فأنكر عليهم مسلم ذلك قائلا:
" ويلكم!! ما لكم ترمونني بالحجارة، كما ترمى الكفار!! وأنا من أهل بيت الأبرار، ويلكم أما ترعون حق رسول الله (ص) وذريته.. ".
ولم يستطيعوا مقابلته وجبنوا عن مقابلته، وضاق بابن الأشعث أمره فصاح بالجيش: ذروه حتى أكلمه، ودنا منه، فخاطبه:
" يا بن عقيل، لا تقتل نفسك، أنت آمن، ودمك في عنقي "
ولم يحفل به مسلم فإنه على علم بان الأشعث لم يمر في تاريخه ولا في تاريخ أسرته أي معنى من معاني الشرف والنبل والوفاء، فاندفع يقول له:
" يا بن الأشعث، لا أعطي بيدي أبدا، وأنا أقدر على القتال، والله لا كان ذلك ابدا. ".
وحمل مسلم على ابن الأشعث ففر الجبان يلهث كأنه الكلب، وأخذ العطش القاسي من مسلم مأخذا عظيما فجعل يقول:
" اللهم ان العطش قد بلغ مني ".

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٣.

وتكاثرت الجنود عليه الا انها منيت بالذعر والجبن، وصاح بهم ابن الأشعث:
" إن هذا هو العار والفشل ان تجزعوا من رجل واحد هذا الجزع احملوا عليه بأجمعكم حملة واحدة " (١).
وحملوا عليه حملة واحدة فضربه بكير بن حمران الأحمري ضربة منكرة على شفته العليا، وأسرع السيف إلى السفلى، وضربه مسلم ضربة أردته إلى الأرض.
أسره:
وبعد ما أثخن مسلم بالجراح، وأعياه نزيف الدم، انهارت قواه، وضعف عن المقاومة فوقع أسيرا بأيدي أولئك الأوغاد، فتسابقوا إلى ابن زياد يحملون له البشرى بأسرهم للقائد العظيم الذي جاء ليحررهم من الذل والعبودية، وقد طار الطاغية فرحا، فقد ظفر بخصمه، وتم له القضاء على الثورة... أما كيفية أسرة فقد اختلفت فيها أقوال المؤرخين، وهذه بعضها:
١ - ما ذكره ابن أعثم الكوفي أن مسلما وقف ليستريح مما ألم. به من الجروح، فطعنه من خلفه رجل من أهل الكوفة طعنة غادرة فسقط إلى الأرض فأسرعوا إلى أسره (٢).
٢ - ما ذكره الشيخ المفيد ان مسلما لما أثخن بالحجارة وعجز من القتال أسند ظهره إلى جنب دار فقال له ابن الأشعث: لك الأمان:

---

(١) الفتوح ٥ / ٩٤ - ٩٥
(٢) الفتوح ٥ / ٥٩.

فقال مسلم: أأمن؟ قال: نعم، فقال للقوم الذين معه: إلي الأمان؟ قالوا نعم: إلا عبيد الله بن العباس السلمي فإنه قال: لا ناقة لي في هذا ولا جمل، وتنحى، فقال مسلم، أما لو لم تؤمنوني ما وضعت يدي في أيديكم، وأتي ببغلة فحمل عليها فاجتمعوا حوله، وانتزعوا سيفه فكأنه عند ذلك أيس، فقال: هذا أول الغدر (١).

٣ - ما ذكره أبو مخنف انهم عملوا له حقيرة وستروها بالتراب، ثم انكشفوا بين يديه، فحمل عليهم فانكشفوا بين يديه، فلما انتهى إليها سقط فيها فازدحموا عليه وأسروه (٢) وهذا القول لم يذهب إليه غير أبي مخنف.

مع عبيد الله السلمي:

ولم يفكر مسلم في تلك الساعة الحرجة بما سيعانيه من القتل والتنكيل على يد الطاغية ابن مرجانة، وانما شغل فكره ما كتبه للإمام الحسين بالقدوم إلى هذا المصر، فقد أيقن أنه سيلا في نفس المصير الذي لاقاه، فدمعت عيناه، وظن عبيد الله بن العباس السلمي أنه يبكي لما صار إليه، من الأسر، فأنكر عليه ذلك وقال له:

" ان من يطلب مثل الذي تطلب، إذا نزل به مثل الذي نزل بك لم يبك.. ".

فرد عليه مسلم ما توهمه فيه قائلا:

---

(١) الارشاد (ص ٢٣٨) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٣.

(٢) مقتل أبي مخنف مخطوط بمكتبة السيد محمود سعيد ثابت في كربلا، وذكر ذلك الطريحي في المنتخب (ص ٢٩٩).

" إني والله ما لنفسي بكيت، ولا لها من القتل أرثي، وإن كنت لم أحب لها طرفة عين تلقها، ولكن أبكي لأهلي المقبلين.. أبكي لحسين.. " (١).

وازدحمت الشوارع والأزقة بالجماهير الحاشدة لتنظر ما يؤل إليه أمر القائد العظيم وما سيلاقيه من الأمويين، ولم يستطع أحد منهم أن ينبس ببنة شفة حذرا من السلطة العاتية.

مع الباهلي:

وجيئ بمسلم أسيرا تحف به الشرطة وقد شهرت عليه السيوف، فلما انتهي به إلى قصر الامارة رأى جرة فيها ماء بارد، وقد أخذ العطش منه مأخذا أليما، فالتفت إلى من حوله قائلا:

" أسقوني من هذا الماء "

فانبرى إليه اللئيم الدنس مسلم بن عمرو الباهلي فقال له:

" أتراها ما أبردها؟ والله لا تذوق منها قطرة حتى تذوق الحميم في نار جهنم. "

ولا حد لظلم الانسان، ولا منتهى لو حشيته وجفائه، فما يضر أولئك الجفاة لو سقوه الماء، وهو أسير بين أيديهم لا يملك من أمره شيئا، وكان هذا السمت من التردي وسقوط الأخلاق قد عرف به جميع السفلة الساقطين من قتلة المصلحين.. فانبرى مسلم فأراد التعرف على هذا الانسان الممسوخ الذي تنكر لأبسط القيم الانسانية قائلا له:

" من أنت؟ "

---

(١) الارشاد (ص ٢٣٨).

فاجابه مفتخرا بأنه من عملاء السلطة الأموية وأذنابها قائلا:
" أنا من عرف الحق إذ تركته، ونصح الأمة، والامام إذ غششته وسمع وأطاع إذ عصيته.. أنا مسلم بن عمرو ".
أي حق عرفه الباهلي؟ وأي نصيحة أسداها للأمة هذا الجلف الجافي؟ الذي ارتطم في الباطل وماج في الضلال لقد كان منتهى ما يفخر به تماديه في خدمة ابن مرجانة الذي هو صفحة عار وخزي على الانسانية في جميع مراحل التاريخ ورد عليه مسلم بمنطقه الفياض قائلا:
" لأمك الثكل، ما أجفاك وأفظك وأقسى قلبك وأغلظك؟!!
أنت يا بن باهلة أولى بالحميم والخلود في نار جهنم مني ".
واستحيا عمارة بن عقبة (١) من جفوة الباهلي وقسوته، فدعا بماء بارد، فصبه في قدح فاخذ مسلم كلما أراد أن يشرب يمتلئ القدح دما وفعل ذلك ثلاثا فقال وقد ذاب قلبه من الظما.
" لو كان من الرزق المقسوم لشربته " (٢).
وهكذا شاءت المقادير أن يحرم من الماء ويموت ظامئا، كما حرم من الماء ابن عمه ريحانة الرسول (ص) وسيد شباب أهل الجنة.
مع ابن زياد:
وكان من أعظم ما رزئ به مسلم ان يدخل أسيرا علي الدعي ابن مرجانة، فقد ود أن الأرض وارته، ولا يمثل أمامه وقد شاءت المقادير

---

(١) في الارشاد (ص ٢٣٩) وبعث عمرو بن حريث غلاما له فجاء بقلة عليها منديل وقدح فصب فيه ماء، وقال له: اشرب
(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٣.

ان يدخل عليه وقد دخل تحف به الشرطة، فلم يحفل البطل بابن زياد ولم يعن به فسلم على الناس ولم يسلم عليه، فأنكر عليه الحرسي وهو من صعاليك الكوفة قائلا:

" هلا تسلم على الأمير؟ "

فصاح به مسلم محتقرا له ولأميره:

" اسكت لا أم لك، مالك والكلام، والله ليس لي بأمير فاسلم عليه "

وكيف يكون ابن مرجانة أميرا على مسلم سيد الأحرار، وأحد المستشهدين في سبيل الكرامة الانسانية، انما هو أمير على أولئك الممسوخين الذين لم يألفوا الا الخنوع والذل والعار.

والتاع الطاغية من احتقار مسلم له، وتبدد جبروته، فصاح به:

" لا عليك سلمت أم لم تسلم فإنك مقتول "

ولم يملك الطاغية سوى سفك الدم الحرام، وحسب أن ذلك يخيف مسلما أو يوجب انهياره وخضوعه له، فانبرى إليه بطل عدنان قائلا بكل ثقة واعتزاز بالنفس.

" إن قتلتني فقد قتل من هو شر منك من كان خيرا مني ".

ولذعه هذا الكلام الصارم، وأطاح بغلوائه، فقد الحقه مسلم بالجلادين والسفاكين من قتلة الأحرار والمصلحين، واندفع الطاغية يصبح بمسلم:

" يا شاق، يا عاق خرجت على امام زمانك، وشققت عصا المسلمين وألقحت الفتنة.. ".

أي امام خرج عليه مسلم وأي عصا للمسلمين شقها، وأي فتنة ألقحها؟ انما خرج على قرين الفهود والقرود لقد خرج لينفذ الأمة من محنتها أيام ذلك الحكم الأسود، وانبرى مسلم يرد عليه قائلا:

" والله ما كان معاوية خليفة باجماع الأمة، بل تغلب على وصي النبي (ص) بالحيلة، وأخذ منه الخلافة بالغصب، وكذلك ابنه يزيد..
وأما الفتنة فإنما ألقحتها أنت وأبوك زياد من بني علاج.
وأنا أرجو أن يرزقني الله الشهادة على يد شر بريته، فوالله ما خالفت ولا كفرت ولا بدلت، وانما أنا في طاعة أمير المؤمنين الحسين بن علي ونحن أولى بالخلافة من معاوية وابنه وآل زياد ".
وكانت هذه الكلمات أشد على ابن مرجانة من الموت، فقد كشفت واقعه أمام شرطته وعملائه، وجردته من كل نزعة انسانية، وأبرزته كأحقر مخلوق على وجه الأرض، ولم يجد الدعي وسيلة يلجأ إليها سوى الافتعالات الكاذبة التي هي بضاعته وبضاعة أبيه زياد من قبل، فاخذ يتهم مسلما بما هو برئ منه قائلا:
" يا فاسق ألم تكن تشرب الخمر في المدينة؟ "
فصاح به مسلم:
" أحق والله بشرب الخمر من يقتل النفس المحرمة، وهو يلهو ويلعب كأنه لم يسمع شيئا ".
واسترد الطاغية تفكيره فرأى أن هذه الأكاذيب لا تجديه شيئا فراح يقول له:
– منتك نفسك أمرا حال الله بينك وبينه وجعله لأهله
فقال مسلم باستهزاء وسخرية:
– من أهله؟
– يزيد بن معاوية
– الحمد لله كفى بالله حاكما بيننا وبينكم
– أتظن ان لك من الامر شيئا؟

- لا والله ما هو الظن ولكنه اليقين
- قتلني الله إن لم أقتلك.
- انك لا تدع سوء القتلة، وقبح المثلة، وخبث السريرة، والله لو كان معي عشرة ممن أثق بهم، وقدرت على شربة ماء لطال عليك أن تراني في هذا القصر، ولكن ان كنت عزمت على قتلي فأقم لي رجلا من قريش أوصي له بما أريد (١) وسمح له الطاغية بان يوصي بما أهمه.

وصية مسلم:

ونظر مسلم في مجلس ابن زياد فرأى عمر بن سعد فأحب أن يعهد إليه بوصيته فقال له:

" لا أرى في المجلس قرشيا غيرك (٢) ولي إليك حاجة وهي سر... " (٣).

واستشاط ابن زياد غضبا حيث نفاه مسلم من قريش، وأبطل استلحاقه ببني أمية فقد أبطل ذلك النسب اللصيق الذي ثبت بشهادة أبي مريم الخمار ولم يستطع أن يقول ابن زياد شيئا.

وامتنع ابن سعد من الاستجابة لمسلم ارضاء لعواطف سيده ابن مرجانة، وكسبا لمودته، وقد لمس ابن زياد خوره وخنوعه فأسرها في نفسه

---

(١) الفتوح ٥ / ٩٧ - ٩٩.
(٢) جواهر المطالب في مناقب الإمام علي بن أبي طالب (ص ١٣٤)
(٣) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٤، الارشاد (ص ٢٣٩).

ورأى أنه خليق بان يرشحه لقيادة قواته المسلحة التي يزج بها لحرب ريحانة رسول الله (ص).
وأمر ابن زياد عمر بن سعد بان يقوم مع مسلم ليعهد إليه بوصيته، وقام ابن سعد معه فأوصاه مسلم بما يلي:
١ - ان عليه دينا بالكوفة يبلغ سبعمائة درهم، فيبع سيفه ودرعه ليوفيها عنه (١) وقد دل ذلك على شدة احتياطه وتحرجه في دينه، كما أوصى أن يعطى لطوعة ما يفضل من وفاء دينه.
٢ - أن يستوهب جثته من ابن زياد فيواريها (٢) وذلك لعلمه بخبث الأمويين، وانهم لا يتركون المثلة.
٣ - ان يكتب للحسين بخبره (٣) فقد شغله أمره لأنه كتب إليه بالقدوم إلى الكوفة وأقبل ابن سعد يلهث على ابن زياد فقال له: " أتدري أيها الأمير ما قال لي؟ انه قال كذا وكذا " (٤).
وأنكر عليه ابن زياد ابداءه السر فقال:
" لا يخونك الأمين، ولكن قد يؤتمن الخائن، أما ما له فهو لك تصنع به ما شئت، وأما الحسين فان لم يردنا لم نرده، وإن أرادنا لم تكف عنه، وأما جثته فانا لن نشفعك فيها " (٥).

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٤، وفي الطبري ٦ / ٢١٢ ان علي ستمائة درهم، وفي الاخبار الطوال (ص ٢٤١) ان علي ألف درهم.
(٢) تاريخ الطبري ٦ / ٢١٢.
(٣) الارشاد (ص ٢٣٩).
(٤) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٤.
(٥) وفي الارشاد (ص ٢٣٩) امام جثته فانا لا نبالي إذا قتلناه ما صنع بها.

لقد ترك الطاغية شفاعة ابن سعد في جثة مسلم فقد عزم على التمثيل بها للتشفي منه، وليتخذ من ذلك وسيلة لارهاب الناس وخوفهم.

الطاغية مع مسلم:

وصاح ابن مرجانة بمسلم فقال له: " بماذا اتيت إلى هذا البلد؟ شتت أمرهم، وفرقت كلمتهم، ورميت بعضهم على بعض، وانطلق فخر هاشم قائلا بكل ثقة واعتزاز بالنفس:

" لست لذلك أتيت هذا البلد، ولكنكم أظهرتم المنكر، ودفنتم المعروف، وتأمرتم على الناس من غير رضى، وحملتموهم على غير ما أمركم الله به، وعملتم فيهم باعمال كسرى وقيصر، فأتيناهم لنأمر بالمعروف، وننهى عن المنكر، ندعوهم إلى حكم الكتاب والسنة، وكنا اهلا لذلك فإنه لم تزل الخلافة لنا منذ قتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ولا تزال الخلافة لنا فانا قهرنا عليها.. انكم أول من خرج على امام هدى، وشق عصا المسلمين، واخذ هذا الامر غصبا، ونازع أهله بالظلم والعدوان.. " (١).

وأدلى مسلم بهذا الحديث عن أسباب الثورة التي أعلنها الإمام الحسين على الحكم الأموي، وقد التاع الطاغية من كلام مسلم، وتبددت نشوة ظفره، فلم يجد مسلكا ينفذ منه لاطفاء غضبه سوى السب للعترة الطاهرة فاخذ يسب عليا والحسن والحسين، وثار مسلم في وجهه فقال له:

" أنت وأبوك أحق بالشتم منهم، فاقض ما أنت قاض، فنحن

---

(١) الفتوح ٥ / ١٠١.

أهل البيت موكل بنا البلاء " (١).
لقد ظل مسلم حتى الرمق الأخير من حياته عالي الهمة، وجابه الاخطار ببأس شديد، فكان في دفاعه ومنطقه مع ابن مرجانة مثالا للبطولات النادرة.
إلى الرفيق الاعلى:
وآن للقائد العظيم أن يقتل عن هذه الحياة بعد ما أدى رسالته بأمانة واخلاص، وقد رزق الشهادة على يد الممسوخ القذر ابن مرجانة فندب لقتله بكيرا بن حمران الذي ضربه مسلم، فقال له:
" خذ مسلما، واصعد به إلى أعلى القصر، واضرب عنقه بيدك ليكون ذلك أشفى لصدرك ".
والتفت مسلم إلى ابن الأشعث الذي أعطاه الأمان فقال له: " يا بن الأشعث أما والله لولا انك آمنتني ما استسلمت، قم بسيفك دوني فقد أخفرت ذمتك " فلم يحفل به ابن الأشعث (٢).
واستقبل مسلم الموت بثغر باسم، فصعد به إلى أعلى القصر وهو يسبح الله ويستغفره بكل طمأنينة ورضا وهو يقول:
" اللهم احكم بيننا وبين قوم غرونا، وخذلونا " (٣).
وأشرف به الجلاد على موضع الحذائيين فضرب عنقه، ورمى برأسه

---

(١) الفتوح ٥ / ١٠٢ وفي تاريخ ابن الأثير، والارشاد ان مسلما لم يكلم ابن زياد بعد شتمه له.
(٢) الطبري ٦ / ٢١٣.
(٣) الفتوح ٥ / ١٠٣.

وجسده إلى الأرض (١) وهكذا انتهت حياة هذا البطل العظيم الذي يحمل نزعات عمه أمير المؤمنين (ع) ومثل ابن عمه الحسين وقد استشهد دفاعا عن الحق ودفاعا عن حقوق المظلومين والمضطهدين.

ونزل القاتل الأثيم فاستقبله ابن زياد فقال له:

" ما كان يقول: وأنتم تصعدون به؟ "

" كان يسبح الله، ويستغفره، فلما أردت قتله قلت له: الحمد لله الذي أمكنني منك وأقادني منك فضربته ضربة لم تغن شيئا فقال لي: أما ترى في خدشا تخدشنيه، وفاء من دمك أيها العبد ".

فبهر ابن زياد وراح يبدي اعجابه واكباره له قائلا.

" أو فخرا عند الموت!! " (٢)

وقد انطوت بقتل مسلم صفحة مشرقة من أروع صفحات العقيدة والجهاد في الاسلام، فقد استشهد في سبيل العدالة الاجتماعية، ومن اجل انقاذ الأمة وتحريرها من الظلم والجور، وهو أول شهيد من الأسرة النبوية يقتل علنا امام المسلمين، ولم يقوموا بحمايته والذب عنه.

سلبه:

وانبرى سليل الخيانة محمد بن الأشعث (٣) إلى سلب مسلم، فسلب

---

(١) مروج الذهب ٣ / ٩.

(٢) تاريخ ابن الأثير ٣ / ٢٧٤.

(٣) الأشعث بن قيس: انما سمي بالأشعث لشعوثة رأسه، واسمه سعد بن كرب هلك بعد مقتل الامام أمير المؤمنين (ع) بأربعين ليلة وكان عمره ٦٣ سنة، جاء ذلك في تاريخ الصحابة (ص ٥) أما محمد بن الأشعث فأمه أم فروة أخت أبى بكر لأبيه جاء ذلك في الرياض المستطاب (ص ٨)

سيفه ودرعه، وهو غير حافل بالعار والخزي، وقد تعرض للنقد اللاذع من جميع الأوساط في الكوفة، ويقول بعض الشعراء في هجائه:

وتركت ابن عمك ان تقاتل دونه * فشلا ولولا أنت كان منيعا
وقتلت وافد آل بيت محمد * وسلبت أسيافا له ودروعا (١)

وعمد بعض أجلاف أهل الكوفة فسلبوا رداء مسلم وثيابه.

تنفيذ الاعدام في هانئ:

وأمر الطاغية باعدام الزعيم الكبير هانئ بن عروة، والحاقه بمسلم مبالغة في اذلال زعماء الكوفة وإذاعة للذعر والخوف بين الناس، وقام محمد بن الأشعث فتشفع فيه خوفا من بطش أسرته قائلا:

" أصلح الله الأمير إنك قد عرفت شرفه في عشيرته (٢) وقد عرف قومه أني وأسماء بن خارجة جئنا به إليك، فأنشدك الله أيها الأمير لما وهبته لي، فاني أخاف عداوة أهل بيته، وانهم سادات أهل الكوفة وأكثرهم عددا.. ".

فلم يحفل بن ابن زياد، وانما زبره وصاح به فسكت العبد، واخرج البطل إلى السوق في موضع تباع فيه الأغنام مبالغة في اذلاله، ولما علم أنه ملاق حتفه جعل يستنجد بأسرته، وقد رفع عقيرته.

" وا مذحجاه ولا مذحج لي اليوم.. وا عشيرتاه " (٣).

---

(١) مروج الذهب ٣ / ٨.
(٢) وفي رواية (عرفت شرفه في مصره).
(٣) أنساب الأشراف ق ١ ج ١ ص ١٥٥.

ولو كانت عند مذحج صبابة من الشرف والنبل لانبرت إلى انقاذ زعيمها، ولكنها كانت كغيرها من قبائل الكوفة، قد طلقت المعروف ثلاثا.. وعمد هانئ إلى اخراج يده من الكتاف، وهو يطلب السلاح ليدافع به عن نفسه، فلما بصروا به بادروا إليه فأوثقوه كتافا وقالوا له: " امدد عنقك. "

فأجاب برباطة جاش ورسوخ يقين: " لا والله ما كنت بالذي أعينكم على نفسي " وانبرى إليه وغد من شرطة ابن زياد يقال له: رشيد التركي (١) فضربه بالسيف فلم يصنع به شيئا، ورفع هانئ صوته قائلا:

" اللهم إلى رحمتك ورضوانك. اللهم اجعل هذا اليوم كفارة لذنوبي، فاني، انما تعصبت لابن بنت محمد.. ".

وضربه الباغي ضرب أخرى فهوى إلى الأرض يتخبط بدمه الزاكي ولم يلبث قليلا حتى فارق الحياة (٢) وكان عمره يوم استشهد تسعا وتسعين سنة (٣) وقد مضى شهيدا دون مبادئه وعقيدته وجزع لقتله الأحرار والمصلحون، وقد رثاه أبو الأسود الدئلي بقوله:

---

(١) وقد ثار لدم هانئ عبد الرحمن بن حصين فقتل رشيدا وفي ذلك يقول:

إني قتلت راشدا التركيا * وليته أبيض مشرفيا
أرضى بذلك النبيا

جاء ذلك في أنساب الأشراف ج ١ ق ١ ص ١٥٥.

(٢) الدر النظيم (ص ١٦٠) من مصورات مكتبة الامام أمير المؤمنين أنساب الأشراف ق ١ ج ١.

(٣) مرآة الزمان (ص ٨٥).

أقول: وذاك من جزع ووجد * أزال الله ملك بني زياد
هم جدعوا الأنوف وكن شما * بقتلهم الكريم أخا مراد (١)
ورثاء الأخطل بن زياد بقوله:
ولم يك عن يوم ابن عروة غائبا * كما لم يغب عن ليلة ابن عقيل
أخو الحرب صراها فليس بنا كل * جبار ولا وجب الفؤاد ثقيل
السحل في الشوارع:
وعهد الطاغية إلى زبانيته وعملائه بسحل جثة مسلم وهانئ في الشوارع والأسواق، فعمدوا إلى شد أرجلهما بالجبال، واخذوا يسحلونهما في الطرق (٢) وذلك لإخافة العامة وشيوع الارهاب، وليكونا عبرة لكل من تحدثه نفسه بالخروج على الحكم الأموي.
لقد سحب هانئ أمام أسرته وقومه، ولو كان عندهم ذرة من الشرف والحمية لانبروا إلى تخليص جثة زعيمهم من أيدي الغوغاء الذين بالغوا في اهانتها.
صلب الجثتين:
ولما قضى الطاغية إربه في سحل جثة مسلم وهانئ أمر بصلبهما،

---

(١) أنساب الأشراف ق ١ ج ١ / ١٥٥ ديوان أبي الأسود.
(٢) أنساب الأشراف ق ١ ج ١ / ١٥٥، الدر النظيم (ص ١٦٠) مقتل الخوارزمي ١ / ٢١٥.

فصلبا منكوسين (١) في الكناسة (٢) فكان مسلم - فيما يقول المؤرخون - أول قتيل صلبت جثته من بني هاشم (٣) وقد استعظم المسلمون كاشد ما يكون الاستعظام هذا الحادث الخطير، فان هذا التمثيل الفظيع انما هو جزاء الذين يحاربون الله ورسوله، ويسعون في الأرض فسادا، ومسلم وهانئ انما هما من رواد الحق ودعاة الاصلاح في الأرض.

وعلى أي حال فقد أخضع الطاغية بعد قتله لمسلم وهانئ - العراق الثائر، وارتمت جميع أوساطه تحت قدميه بدون أية مقاومة.

الرؤوس إلى دمشق:

وعمد ابن مرجانة إلى ارسال رأس مسلم وهانئ وعمارة بن صلخب الأزدي (٤) هدية إلى سيده يزيد لينال الجائزة، ويحرز اخلاص الأسرة المالكة له، وقد أرسل معها هذه الرسالة:

" أما بعد: فالحمد لله الذي أخذ لأمير المؤمنين بحقه، وكفاه مؤونة عدوه. أخبر أمير المؤمنين أكرمه الله ان مسلم بن عقيل لجا إلى دار هانئ بن عروة المرادي، واني جعلت عليهما العيون، ودسست إليهما الرجال، وكدتهما حتى استخرجتهما، وأمكن الله منهما فضربت أعناقهما، وبعثت إليك برأسيهما مع هانئ بن أبي حية الوداعي الهمداني، والزبير ابن الأرواح التميمي، وهما من أهل السمع والطاعة، فليسألهما أمير المؤمنين

---

(١) مناقب ابن شهرآشوب ٢ / ٩٤.
(٢) المناقب والمثالب (ص ١٧٢)
(٣) مروج الذهب ٣ / ٧.
(٤) أنساب الأشراف ق ١ ج ١ / ١٥٥.

عما أحب فان عندهما علما وصدقا وفهما وورعا والسلام " (١).
واحتوت هذه الرسالة على العلميات التي قام بها الطاغية للقضاء على الثورة، والتي كان من أهمها:
١ - استعانته بالعيون والجواسيس في معرفة شؤون الثورة، والوقوف على اسرارها، وقد قام بهذه العملية معقل مولاه.
٢ - انه دس لهانئ العضو البارز في الثورة الرجال حتى صار تحت قبضته، واعتقله، وكذلك كاد لمسلم حينما ثار عليه، فقد أرسل عيون أهل الكوفة ووجوهها مع العرفاء فأخذوا يذيعون الذعر وينشرون الارهاب حتى انهزم جيشه.
جواب يزيد:
ولما انتهب الرؤوس إلى دمشق سر يزيد بذلك سرورا بالغا، وكتب لابن مرجانة جوابا عن رسالته شكره فيها، وهذا نصه:
" أما بعد: فإنك لم تعد إذ كنت كما أحب، عملت عمل الحازم وصلت صولة الشجاع الرابض، فقد كفيت، وصدقت ظني. ورأيي فيك وقد دعوت رسوليك فسألتهما عن الذين ذكرت، فقد وجدتهما في رأيهما وعقلهما وفهمهما وفضلهما، ومذهبهما كما ذكرت، وقد أمرت لكل واحد منهما بعشرة آلاف درهم، وسرحتهما إليك فاستوص بهما خيرا.
وقد بلغني ان الحسين بن علي قد عزم على المسير إلى العراق، فضع المراصد والمناظر، واحترس، واحبس على الظن. واكتب إلي في كل

---

(١) الطبري ٦ / ٢١٤.

يوم بما تجدد لك من خير أو شر والسلام " (١).
وحفلت هذه الرسالة بالتقدير البالغ لابن زياد، وأضفت عليه صفة الحازم اليقظ، وانه قد حقق ظن يزيد فيه أنه أهل للقيام بمثل هذه الأعمال الخطيرة.. وقد عرفه يزيد بعزم الإمام الحسين على التوجه إلى العراق، وأوصاه باتخاذ التدابير التالية:
١ - وضع المراصد والحرس على جميع الطرق والمواصلات.
(٢) التحرس في أعماله، وأن يكون حذرا يقظا.
٣ - اخذ الناس بسياسة البطش والارهاب.

---

(١) الفتوح ٥ / ١٠٩، أنساب الأشراف ق ١ ج ١، ولم يعرض المؤرخون إلى شؤون هذه الرؤوس الكريمة فهل دفنت في دمشق أوفي مكان آخر فقد أهملوا ذلك إلا أنه جاء في مرآة الزمان (ص ٥٩) فيما يخص رأس هانئ ما نصه: انه في هذه السنة: أي سنة ٣٠٢ ه) ورد الخبر إلى بغداد انه وجد بخراسان بالقصر ازجا فيه الف رأس في برج في اذن كل واحد خيط من إبريسم فيه رقعة فيها اسم صاحبه، وكان من جملتها رأس هانئ بن عروة، وحاتم بن حنة، وطلق بن معاذ وغيرهم، وتاريخهم - أي تاريخ وضعهم في ذلك الأزج - سنة سبعين من الهجرة، ونقل الزركلي في هامش اعلامه ٩ / ٥١ عن صلة تاريخ الطبري ص ٦٢ من حوادث سنة ٣٠٤ ه انه ورد إلى بغداد كتاب من خراسان يذكر فيه انه وجد بالقندهار في أبراج سورها برج متصل بها فيه خمسة آلاف رأس في سلال من حشيش، ومن هذه الرؤوس تسعة وعشرون رأسا في اذن كل رأس منها رقعة مشدودة بخيط إبريسم باسم رج منهم، وعد منهم هانئ ابن عروة، وقال: انهم قد وجدوا على حالهم الا انه قد جفت جلودهم والشعر عليها بحالته لم يتغير.

٤ – أن يكون على اتصال دائم مع يزيد، ويكتب له بجميع ما يحدث في القطر وطبق ابن مرجانة جميع ما عهده إليه سيده ونفذ ما يلي:

اعلان الاحكام العرفية:

وبعدما أطاح الطاغية بثورة مسلم قبض على العراق بيد من حديد، وأعلن الاحكام العرفية في جميع أنحاء العراق، واعتمد في تنفيذ خططه على القسوة البالغة فأشاع من الظلم والجور ما لا يوصف.. فكان اسمه موجبا لإثارة الفزع والخوف في نفوس العراقيين كما كان اسم أبيه زياد من قبل. لقد فوضت إليه حكومة دمشق السلطات الواسعة، وأمرته بأخذ الناس بالظنة، واعدام كل من يحقد على الحكم الأموي، أوله ضلع بالاشتراك في أية مؤامرة تحاك ضده. وبهذه الأساليب الرهيبة ساق الناس لحرب الحسين، فقد كان يحكم بالموت على كل من يتخلف أو يرتدع عن الخوض في المعركة (١).

احتلال الحدود العراقية:

واحتل ابن زياد جميع الحدود العراقية احتلالا عسكريا، ومنع الناس من الدخول للعراق والخروج منه إلا باذن وتأشير خاص من شرطة الحدود وكانوا إذا أخذوا رجلا اجروا معه التحقيق الكامل فان علموا براءته أطلقوا سراحه، والا بعثوه مخفورا إلى السلطة المركزية في الكوفة لتجري معه المزيد من التحقيق، وقد احتاط في هذه الجهة أشد الاحتياط مخافة أن يلج أحد إلى العراق أو يخرج منه من شيعة الإمام الحسين، ويقول المؤرخون

---

(١) الدولة الأموية في الشام (ص ٥٦).

إنه جعل على جميع المفارق، ورؤوس المنازل عيونا من عسكره، كما عين في البر نقاطا ومسالح ترصد جميع الحركات وقد بعث الحصين بن نمير رئيس شرطته إلى القادسية، ومنها إلى خفان، ثم إلى القطقطانية وجبل لعلع ورتب في كل مكان جماعة من الفرسان والخيالة لتفتيش الداخل والخارج، وقد حفظت هذه الاجراءات تلك المناطق من الاشتراك باي عمل ضد الدولة، كما حفظت خطوط المواصلات بين الكوفة والشام، وقد ألقت الشرطة القبض على مسهر الصيداوي رسول الإمام الحسين إلى الكوفة، وبعثته مخفورا إلى ابن زياد، وسنذكر حديثه في البحوث الآنية:

الاعتقالات الواسعة:

وقام ابن زياد بحملة اعتقالات واسعة النطاق في صفوف الشيعة فاعتقل منهم فيما يقول بعض المؤرخين اثني عشر ألفا (١) وكان من بين المعتقلين سليمان بن صرد الخزاعي، والمختار بن يوسف الثقفي وأربعمائة من الأعيان والوجوه (٢).

وقد أثارت هذه الاجراءات عاصفة من الفزع والهلع لا في الكوفة فحسب، وانما في جميع أنحاء العراق وقد ابتعد الكوفيون عن التدخل في أية مشكلة سياسية، ولم تبد منهم أية حركة من حركات المعارضة وأيقنوا أن لا قدرة لهم على الإطاحة بالعرش الأموي، وظلوا قابعين تحت وطأة سياطه القاسية.

---

(١) المختار مرأة العصر الأموي (ص ٧٤ - ٧٥).

(٢) الدر المسلوك في أحوال الأنبياء والأوصياء ١ / ١٠٩.

إخفاق الثورة

ويتساءل الكثيرون عن الأسباب التي أدت إلى اخفاق مسلم في ثورته مع ما كان يتمتع به من القوى العسكرية في حين أن خصمه لم تكن عنده أية قوة يستطيع أن يدافع بها عن نفسه فضلا عن الهجوم والدخول في عمليات القتال، ويعزو بعضهم السبب في ذلك إلى قلة خبرة مسلم في الشؤون السياسية، وعجزه من السيطرة على الموقف، فترك المجال مفتوحا لعدوه حتى تغلب عليه... وهذا الرأي – فيما يبدو – سطحي ليست له أية صبغة من التحقيق، وذلك لعدم ابتنائه على دراسة الاحداث بعمق وشمول ومن أهمها – فيما نحسب دراسة المجتمع الكوفي، وما مني به من التناقض في سلوكه الفردي والاجتماعي، والوقوف على المخططات السياسية التي اعتمد عليها ابن زياد للتغلب على الاحداث، والنظر في الصلاحيات المعطاة لمسلم بن عقيل من قبل الامام فان الإحاطة بهذه الأمور توضح لنا الأسباب في اخفاق الثورة وفيما يلي ذلك.

المجتمع الكوفي:

ولا بد لنا أن نتحدث بمزيد من التحقيق عن طبيعة م المجتمع الكوفي فإنه المرآة الذي تنعكس عليه الاحداث الهائلة التي لعبت دورها الخطير في تاريخ الاسلام السياسي، وان نتبين العناصر التي سكنت الكوفة، وتنظر إلى طبيعة الصلات الاجتماعية فيما بينهما، والحياة الاقتصادية التي كانت تعيش فيها، فان البحث عن ذلك يلقي الأضواء على فشل الثورة، كما يلقي الأضواء على التذبذب والانحرافات الفكرية التي مني بها هذا المجتمع والتي كان من نتائجها ارتكابه لأبشع جريمة في تاريخ الانسانية، وهي اقدامه على قتل ريحانة رسول الله (ص) والى القراء ذلك:

الظواهر الاجتماعية:
أما الظواهر الاجتماعية التي تفرد بها المجتمع الكوفي دون بقية الشعوب فهي:
التناقض في السلوك:
والظاهرة الغريبة في المجتمع الكوفي أنه كان في تناقض صريح مع حياته الواقعية، فهو يقول شيئا ويفعل ضده، ويؤمن بشئ ويفعل ما ينافيه والحال انه يجب أن تتطابق أعمال الانسان مع ما يؤمن به، وقد أدلى الفرزدق بهذا التناقض حينما سأله الامام عن أهل الكوفة فقال له:
" خلفت قلوب الناس معك، وسيوفهم مشورة عليك ".
وكان الواجب يقضي أن تذب سيوفهم عما يؤمنون به، وان يناضلوا عما يعتقدون به، ولا توجد مثل هذه الظاهرة في تاريخ أي شعب من الشعوب.
ومن غرائب هذا التناقض ان المجتمع الكوفي قد تدخل تدخلا ايجابيا في المجالات السياسية وهام في تياراتها، فكان يهتف بسقوط الدولة الأموية، وقد كاتبوا الإمام الحسين لينقذهم من جور الأمويين وبطشهم، وبعثوا الوفود إليه مع آلاف الرسائل التي تحثه على القدوم لمصرهم، ولما بعث إليهم سفيره مسلم بن عقيل قابلوه بحماس بالغ، وأظهروا له الدعم الكامل، حتى كاتب الإمام الحسين بالقدوم إليهم، ولكن لما دهمهم ابن مرجانة ونشر الرعب والفزع في بلادهم تخلوا عن مسلم، وأقفلوا عليهم بيوتهم وراحوا يقولون:

" ما لنا والدخول بين السلاطين ".
ان حياتهم العملية لم تكن صدى لعقيدتهم التي آمنوا بها، فقد كانوا يمنون قادتهم بالوقوف معهم ثم يتخلون عنهم في اللحظات الحاسمة.
ومن مظاهر ذلك التناقض انهم بعدما أرغموا الإمام الحسن (ع) على الصلح مع معاوية، وغادر مصرهم جعلوا ينوحون ويبكون على ما فرطوه تجاهه، ولما قتلوا الإمام الحسين (ع) ودخلت سبايا أهل البيت (ع) مدينتهم أخذوا يعجون بالنياحة والبكاء فاستغرب الإمام زين العابدين (ع) ذلك منهم وراح يقول:
" إن هؤلاء يبكون وينوحون من أجلنا، فمن قتلنا؟!! ".
ان فقدان التوازن في حياة ذلك المجتمع جر لهم الويلات والخطوب وألقاهم في شر عظيم.
الغدر والتذبذب:
والظاهرة الأخرى في المجتمع الكوفي الغدر، فقد كان من خصائصهم التي اشتهروا بها، وقد ضرب بهم المثل فقيل: " أغدر من كوفي " (١) كما ضرب المثل بعدم وفائهم فقيل: " الكوفي لا يوفي " (٢).
وقد وصفهم أمير المؤمنين (ع) بقوله: " اسود رواغة وثعالب رواغة ". وقال فيهم: " إنهم أناس مجتمعة أبدانهم، مختلفة أهواؤهم وان من فاز بهم فاز بالسهم الأخيب وانه أصبح لا يطمع في نصرتهم

---

(١) الفرق بين الفرق (ص ٢٦) لعبد القاهر البغدادي.
(٢) أثار البلاد (ص ١٦٧) لزكريا القزويني.

ولا يصدق قولهم (١).
لقد كان الجانب العملي في حياتهم هو التقلب والتردد والتخاذل، وقد غروا زيد بن علي الثائر العظيم فقالوا له: ان معك مائة الف رجل من أهل الكوفة يضربون دونك بأسيافهم (٢) وقد أحصى ديوانه منهم خمسة عشر ألفا كانوا قد بايعوه على النصرة (٣) ثم لما أعلن الثورة هبط عددهم إلى مائتي وثمانية عشر رجلا (٤) وقد نصح داود بن علي زيدا بان لا ينخدع باهل الكوفة فقال له:
" يا بن عم إن هؤلاء يغرونك من نفسك، أليس قد خذلوا من كان أعز عليهم منك جدك علي بن أبي طالب حتى قتل، والحسن من بعده بايعوه ثم وثبوا عليه فانتزعوا رداءه من عنقه، وانتهبوا فسطاطه وجرحوه؟ أو ليس قد أخرجوا جدك الحسين وحلفوا له بأوكد الايمان ثم خذلوه وأسلموه ثم لم يرضوا بذلك حتى قتلوه " (٥).
وكانوا ينكثون البيعة بعد البيعة، وقد ألمع إلى هذه الظاهرة أعشى همدان الذي كان شاعر ثورة محمد بن الأشعث الذي ثار على الحجاج يقول داعيا على أهل الكوفة:
أبى الله إلا أن يتمم نوره * ويطفئ نور الفاسقين فيخمدا
وينزل ذلا بالعراق وأهله * لما نقضوا العهد الوثيق المؤكدا
وما أحدثوا من بدعة وعظيمة * من القول لم تصعد إلى الله مصعدا

---

(١) الإمامة والسياسة ١ / ٢٣٨.
(٢) تاريخ الطبري ٢ / ٣ / ١٦٧٧.
(٣) الطبري ٢ / ٣ / ١٦٨٥.
(٤) (٥) الطبري ٢ / ٣ / ١٦٧٩.

وما نكثوا من بيعة بعد بيعة * إذا ضمنوها اليوم خاسوا بها غدا (١)
وقد عرفوا بهذا السمت عند جميع الباحثين، ويرى " فلهوزن " انهم مترددون متقلبون وانهم لم يألفوا النظام والطاعة، وان الاخلاص السياسي والعسكري لم يكن معروفا لهم على الاطلاق، واكد ذلك الباحث " وزتر شنين " يقول: إن من صفاتهم المميزة البارزة الهوائية والتقلب ونقص الثقة بأنفسهم (٢).
ولم يكن هذا التذبذب في حياتهم مقتصرا على العامة، وانما كان شائعا حتى عند رجال الفكر والأدب فسراقة الشاعر المعروف وقف في وجه المختار، واشترك في قتاله يوم جبانة السبيع فلما انتصر المختار وقع سراقة أسيرا بين يدي أصحابه فزج به في السجن فاخذ سراقة يستعطفه وينظم القصيد في مدحه، ويذكر مبادئ ثورته ويبالغ في تمجيده فكان مما قاله فيه:

نصرت على عدوك كل يوم * بكل كتيبة تنعى حسينا
كنصر محمد في يوم بدر * ويوم الشعب إذ لاقى حنينا
فاسجح (٣) إذ ملكت فلو ملكنا * لجرنا في الحكومة واعتدينا
تقبل توبة مني فاني * سأشكر إن جعلت النقد دينا

ولما عفا عنه المختار خرج من الكوفة فلم يبعد عنها قليلا حتى أخذ يهجو المختار ويحرض عليه، وقد قال في هجائه:

الا بلغ أبا إسحاق أني * رأيت البلق دهما مصمتات

---

(١) تاريخ الطبري ٢ / ١١١٣.
(٢) السيادة العربية (ص ٧٤).
السجع: حسن العفو.

كفرت بوحيكم وجعلت نذرا * علي قتالكم حتى الممات
أرى عيني ما لم تبصراه * كلانا عالم بالترهات
إذا قالوا: أقول لهم كذبتم * وان خرجوا لبست لهم أداتي (١)
لقد مضى يصب ثورته وسخريته على المختار وأصحابه في نفس الوزن الذي نظم فيه قصيدته السابقة، ومن الطبيعي ان هذا التناقض في حياتهم كان ناجما من الاضطراب النفسي، وعدم التوازن في السلوك:
ومن غرائب ذلك التناقض أن بعضهم كان يحتاط في أبسط الأمور ولا يتحرج من اقتراف أعظم الموبقات، فقد جاء رجل من أهل الكوفة إلى عبد الله بن عمر يستفتيه في دم البعوض يكون على الثوب أطاهر أم نجس؟ فقال له ابن عمر:
- من أين أنت؟
- من أهل العراق.
فبهر ابن عمر وراح يقول: انظروا إلى هذا يسألني عن دم البعوض!!
وقد قتلوا ابن بنت رسول الله (ص) وقد سمعته يقول فيه وفي أخيه: هما ريحانتاي من الدنيا (٢).
ويعزو بعضهم السبب في هذا الاضطراب إلى الظروف السياسية القاسية التي مرت عليهم، فان الحكم الأموي كان قد عاملهم بمنتهى القسوة والشدة فرماهم بأقسى الولاة وأشدهم عنفا أمثال المغيرة بن شعبة وزياد بن سمية مما جعل الحياة السياسية ضيقة ومتحرجة مما نجم عنه هذا التناقض في السلوك.

---

(١) أنساب الأشراف ٥ / ٢٣٤، الاخبار الطوال (ص ٢٦٤).
(٢) الصراط السوي في مناقب آل النبي (ص ٩٤) من مصورات مكتبة الامام أمير المؤمنين.

التمرد على الولاة:
والطابع الخاص الذي عرف به المجتمع الكوفي التمرد على الولاة والتبرم منهم، فلا يكاد يتولى عليه وال وحاكم حتى أعلنوا الطعن عليه فقد طعنوا في سعد بن أبي وقاص مؤسس مدينتهم واتهموه بأنه لا يحسن الصلاة (١) فعزله عمرو ولى مكانه الصحابي الجليل عمار بن ياسر، ولم يلبثوا أن شكوه إلى عمر فعزله، وولى مكانه أبا موسى الأشعري، ولم تمض أيام من ولايته حتى طعنوا فيه، وقالوا: لا حاجة لنا في أبي موسى (٢) وضاق عمر بهم ذرعا وبدا عليه الضجر فسأله المغيرة عن شانه فقاله له: " ما فعلت هذا يا أمير المؤمنين إلا من عظيم، فهل نابك من نائب؟ ".
فانبرى عمر يشكو إليه الألم الذي داخله من أهل الكوفة قائلا: " وأي نائب أعظم من مائة الف لا يرضون عن أمير، ولا يرضى عنهم أمير. " (٣).
وتحدث عمر عنهم فقال: " من عذيري من أهل الكوفة إن استعملت عليهم القوي فجروه، وان وليت عليهم الضعيف حقروه. " (٤).
لقد جبلوا على التمرد فهم لا يطيقون الهدوء والاستقرار، ويرى ديمومبين أن هذه الظاهرة اعتادها الكوفيون من أيام الفرس الذين دأبوا

---

(١) فتوح البلدان (ص ٢٨٧)
(٢) الطبري، وجاء فيه انهم اتهموه بأنه يتاجر في أقواتهم.
(٣) فتوح البلدان (ص ٢٧٩).
(٤) مختصر كتاب البلدان (ص ١٨٤) لابن الفقيه.

على تغيير حكامهم دوما (١) ويذهب فان فلوتن إلى أن العرب المستقرين بالكوفة كانوا قد تعودوا على حياة الصحراء بما فيها من ضغن وشحناء وحب الانتقام، والتخريب والاخذ بالثار فلذا تعودوا على التمرد، وعدم الطاعة للنظام (٢).

الانهزامية:

والظاهرة الغريبة التي عرف بها المجتمع الكوفي هي الانهزامية، وعدم الصمود أمام الاحداث فإذا جد الجد ولوا منهزمين على أعقابهم فقد أجمعوا في حماس على مبايعة مسلم ونصرته، ولما أعلن الثورة على ابن مرجانة انفضوا من حوله حتى لم يبق معه انسان يدله على الطريق وقد وقفوا مثل هذا الموقف من زيد بن علي، فقد تركوه وحده يصارع جيوش الأمويين، وراح يقول: " فعلوها حسينية " وبايعوا عبد الله بن معاوية فقالوا له: " ادع إلى نفسك فبنو هاشم أولى بالامر من بني مروان " (٣) وأخرجوه حيث كان مقيما، وأدخلوه القصر فبايعوه، ولما زحف لقتاله والي الأمويين عبد الله بن عمر فروا منهزمين ونظر عبد الله بن معاوية فإذا الأرض بيضاء من أصحابه فقد غدر به قائد قواته لأنه كان على اتفاق مع والي الأمويين فانهزم وانهزم معه الجيش (٤) وكان عيسى بن زيد يقول فيهم " لا اعرف موضع ثقة يفي ببيعته، ويثبت عند اللقاء " (٥)

---

(١) النظم الاسلامية (ص ٢٦).
(٢) السيادة العربية (ص ١١).
(٣) (٤) الطبري ٢ / ٣ / ١١٨٨٠.
(٥) مقاتل الطالبيين (ص ٤١٨).

مساوئ الأخلاق:
واتصفت الأكثرية الساحقة من أهل الكوفة بمساوئ الأخلاق. يقول فيهم عبد الله بن الحسن انهم: (نفج العلانية، خور السريرة. هوج الردة، جزع في اللقاء، تقدمهم ألسنتهم، ولا تشايعهم، وإن حوربتم خرتم، وان اجتمع الناس على امام طعنتم، وإن جئتم إلى مشاقة نكصتم " (١) ووصفهم المختار لعبد الله بن الزبير حينما سأله عنهم فقال: " لسلطانهم في العلانية أولياء وفي السر أعداء " وعلق ابن الزبير على قول المختار فقال: " هذه صفة عبيد السوء إذا رؤوا أربابهم خدموهم وأطاعوهم، فإذا غابوا عنهم شتموهم " (٢).
وهجاهم أعشى همدان بقوله:
وجبنا حشاه ربهم في قلوبهم * فما يقربون الناس الا تهددا
فلا صدق في قول ولا صبر عندهم * ولكن فخرا فيهم وتزيدا (٣)
ويقول فيهم أبو السرايا:
وما رست أقطار البلاد فلم أجد * لكم شبها فيما وطأت من الأرض
خلافا وجهلا وانتشار عزيمة * ووهنا وعجزا في الشدائد والخفض
لقد سبقت فيكم إلى الحشر دعوة * فلا عنكم راض ولا فيكم مرضي (٤)

---

(١) الطبري ٢ / ٣ / ١٦٨١.
(٢) الطبري ٢ / ٣ / ١٦٨١.
(٣) الطبري ٢ / ٢ / ١١١٤.
(٤) يشير إلى دعوة الامام الشهيد الحسين (ع) على أهل الكوفة يوم عاشوراء بقوله " ولا يرضي الولاة عنكم أبدا ".

سأبعد داري من قلى عن دياركم * فذوقوا إذا وليت عاقبة البغض (١)
وحلل الدكتور يوسف خليف هذه الأبيات بقوله: " وأبو السرابا في هذه الأبيات يردد تلك الفكرة القديمة التي عرفت عن أهل الكوفة من أنهم أهل شقاق ونفاق ومساوئ أخلاق، فيصفهم بالشقاق والجهل وتفرق العزيمة والضعف والعجز، ويرى أن هذه صفاتهم التي تلازمهم دائما في الحرب والسلم، وهي صفات لم تجعل أحدا من زعمائهم أو أئمتهم يرضى عنهم، وهم منفردون بها من بين سائر البشر في جميع أقطار الأرض التي وطأتها قدماه، ثم يعلن في النهاية ببغضه لهم واعتزامه البعد عنهم ليذوقوا من بعده سوء العاقبة وسوء المصير " (٢).

ووصفهم أبو بكر الهذلي بقوله: " ان أهل الكوفة قطعوا الرحم ووصلوا المثانة، كتبوا إلى الحسين بن علي انا معك مائة الف، وغروه حتى إذا جاء خرجوا إليه وقتلوه وأهل بيته صغيرهم وكبيرهم، ثم ذهبوا يطبون دمه، فهل سمع السامعون بمثل هذا؟ " (٣).

الجشع والطمع:

وهناك نزعة عامة سادت في أوساط المجتمع الكوفي، وهي التهالك على المادة والسعي على حصولها بكل طريق، فلا يبالون في سبيلها بالعار والخزي، ولقد لعبت هذه الجهة دورها الخطير في اخفاق ثورة مسلم، فقد بذل ابن زياد الأموال بسخاء للوجوه والأشراف فخفوا إليه سراعا

---

(١) مقاتل للطالبيين (ص ص ٥٤٤ - ٥٤٦)
(٢) حياة الشعر في الكوفة (ص ٤٤٥).
(٣) مختصر البلدان (ص ١٧٣).

فغدروا بمسلم، ونكثوا عهودهم، وقد ملكهم ابن زياد بعطائه فأخرجهم لحرب ريحانة رسول الله (ص) بعد أن أقسموا الايمان المغلظة على نصرته والذب عنه.

التأثر بالدعايات:

وظاهرة أخرى من ظواهر المجتمع الكوفي وهي سرعة التأثر بالدعايات من دون فحص ووقوف على واقعها، وقد استغل هذه الظاهرة الأمويون أيام " مسكن " فأشاعوا في أوساط الجيش العراقي ان الحسن صالح معاوية وحينما سمعوا بذلك ماجوا في الفتنة وارتطموا في الاختلاف، فعمدوا إلى أمتعة الامام فنهبوها، كما اعتدوا عليه فطعنوه في فخذه ولما أذاعت عصابة ابن زياد بين جيوش مسلم أنه جيش أهل الشام قد أقبل إليكم فلا تجعلوا أنفسكم عرضة للنقمة والعذاب، فلما سمعوا ذلك انهارت أعصابهم، وولوا منهزمين، وأمسى ابن عقيل وحده ليس معه انسان يدله على الطريق.

هذه بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في الكوفة، وهي تكشف عن ضحالة ذلك المجتمع، وانهياره أمام الاحداث، فلم تكن له إرادة صلبة ولا وعي اجتماعي أصيل وقد جروا لهم بذلك الويل، فدمروا قضاياهم المصيرية وتنكروا لجميع حقوقهم، وفتحوا المجال للطاغية ابن مرجانة أن يتحكم فيهم ويصب عليهم وابلا من العذاب الأليم.

الحياة الاقتصادية:
أما الحياة الاقتصادية في الكوفة فكانت تتسم بعدم التوازن فقد كانت فيها الطبقة الأرستقراطية التي غرقت في الثراء العريض فقد منحتها الدولة الأموية أيام عثمان ومعاوية الهبات والامتيازات الخاصة فاثرت على حساب الضعفاء والمحرومين، ومن بين هؤلاء:
١ - الأشعث بن قيس، وقد اشترى في أيام عثمان أراضي واسعة في العراق، وكان في طليعة الاقطاعيين في ذلك العصر، وهو الذي أرغم الامام على قبول التحكيم لان حكومته كانت تهدد مصالحه وامتيازاته الخاصة.
٢ - عمرو بن حريث، وكان اثرى رجل في الكوفة (١)، وقد لعب دورا خطيرا في افساد ثورة مسلم وشل حركتها.
٣ - شبث بن ربعي، وهو من الطبقة الأرستقراطية البارزة في الكوفة (٢)، وهو أحد المخذلين عن مسلم، كما تولى قيادة بعض الفرق التي حاربت الحسين.
هؤلاء بعض المثرين في ذلك العصر، وكانوا يدا لابن مرجانة وساعده القوي الذي أطاح بثورة مسلم، فقد كانوا يملكون نفوذا واسعا في الكوفة وقد استطاعوا أن يعلنوا معارضتهم للمختار رغم ما كان يتمتع به من الكتل الشعبية الضخمة المؤلفة من الموالي والعبيد، وهم الذين أطاحوا بحكومته.
أما الأكثرية الساحقة في المجتمع الكوفي فكانت مرتبطة بالدولة تتلقى موادها المعاشية منها باعتبارها المعسكر الرئيسي للدولة فهي التي تقوم

---

(١) في الطبري ان عمرو بن حريث كان أكثر أهل الكوفة مالا.
(٢) حياة الشعر في الكوفة (ص ١٦٨).

بالاتفاق عليها، وقد عانى بعضهم الحرمان والبؤس، وقد صور الشاعر الأسدي سوء حياته الاقتصادية بقصيدة يمدح بها بعض نبلاء الكوفة لينال من معروفه وكرمه يقول فيها:

يا أبا طلحة الجواد أغثني * بسجال من سيبك المقسوم
أحي نفسي – فدتك نفسي – فاني * مفلس – قد علمت ذاك – عديم
أو تطوع لنا بسلت دقيق * أجره – ان فعلت ذاك – عظيم
قد علمتم – فلا تعامس عني – * ما قضى الله في طعام اليتيم
ليس لي غير جرة واصيص * وكتاب منمنم كالوشوم
وكساء أبيعه برغيف * قد رقعنا خروقة باديم
واكاف اعارنيه نشيط * هو لحاف لكل ضيف كريم (١)

أرأيت هذا الفقر المدقع الذي دعا الشاعر إلى هذا الاستعطاف والتذلل إنها مشكلة الفقر الذي أخذ بخناقه وعلق شوقي ضيف على هذه الأبيات بقوله: " ومن هنا ارتفع صوت المال في القصيدة الأموية واحتل جوانب غير قليلة منها فقد كان أساسيا في حياة الناس، فطبيعي أن يكون أساسيا في فنهم وشعرهم، أليس دعامة هامة من دعائم الحياة، فلم يكون دعامة هامة من دعائم البناء الفني، انه يستنر في قاع الحياة، وقاع الشعر لان الشعر انما هو تعبير عن الحياة (٢).

ان الحياة الاقتصادية تؤثر أثرا عميقا وفعالا في كيان المجتمع، وتلعب دورا خطيرا في توجيه المجتمع نحو الخير أو الشر، وقد ثبت أن كثيرا من الجرائم التي يقترفها بعض المصابين في سلوكهم انما جاءت نتيجة لفقرهم وبؤسهم أو لجشعهم على تحصيل المادة، وقد اندفع أكثر الجيش

---

(١) حياة الحيوان للجاحظ ٥ / ٢٩٧ – ٢٩٩.
(٢) التطور والتجدد في الشعر الأموي (ص ١٣٤).

الذي خرج لحرب الإمام الحسين (ع) حينما مناهم ابن مرجانة بزيادة مرتباتهم التي يتقاضونها من الدولة.

وعلى أي حال فان سوء الحالة الاقتصادية في الكوفة كانت من الأسباب الفعالة في اخفاق ثورة مسلم وتحول الجماهير عنه حينما أغدق ابن زياد الأموال على الوجوه والعرفاء وغيرهم فاندفعوا إلى القيام بمناهضة مسلم وصرف الناس عنه.

عناصر السكان:

كانت الكوفة أميمة قد امتزجت فيها عناصر مختلفة في لغاتها، ومتباينة في طباعها وعاداتهم وتقاليدها فكان فيها العربي والفارسي والنبطي إلى جانب العبيد وغيرهم، ولم تعد مدينة عربية خالصة كمكة والمدينة وانما كانت مدينة أهلها أخلاط من الناس - كما يقول اليعقوبي - وقد هاجرت إليها هذه العناصر باعتبارها المركز الرئيسي للمعسكر الاسلامي فمنها تتدفق الجيوش الاسلامية للجهاد كما تتدفق بها المغانم الكثيرة التي وعد الله بها المجاهدين، وقد بلغ نصيب الجندي المقاتل من فئ المدائن اثني عشر ألفا (١) مما دعا ذلك إلى الهجرة إليها باعتبارها السبيل إلى الثروة ونلمع إلى بعض تلك العناصر.

---

(١) طبقات ابن سعد ٦ / ٤ مختصر كتاب البلدان (ص ١٦٦).

العرب:
وحينما تم تأسيس الكوفة على يد فاتح العراق سعد بن أبي وقاص اتجهت إليها أنظار العرب، وتسابقوا إلى الهجرة إليها، فقد سكنها في وقت مبكر سبعون بدريا وثلاثمائة من أصحاب الشجرة (١) وقد ترجم ابن سعد في طبقاته مائة وخمسين صحابيا ممن نزلوا الكوفة (٢) ويقول فيها السفاح: " وهي - أي الكوفة - منزل خيار الصحابة وأهل الشرف (٣)
أما قبائل العربية التي سكنتها فهي:
القبائل اليمنية:
وتسابقت القبائل اليمنية إلى سكنى الكوفة فكان عددهم - فيما يقول المؤرخون - اثني عشر ألفا (٤) وهي:
١ - قضاعة
٢ - غسان
٣ - بجيلة
٤ - خثعم
٥ - كندة

---

(١) طبقات ابن سعد ٦ / ٤.
(٢) طبقات ابن سعد ٦ / ٤٣.
(٣) مختصر كتاب البلدان (ص ٧٣).
(٤) معجم قبائل العرب ١ / ١٥، فتوح البلدان (٢٧٦) معجم البلدان ٧ / ٢٦٧.

٦ – حضر موت
٧ – الأزد
٨ – مذحج
٩ – حمير
١٠ – همدان
١١ – النخع.
فهذه هي الأسر التي تنتمي إلى اليمن، وقد استوطنت الكوفة، ونزلت في الجانب الشرقي من المسجد، ويرى فلهوزن أن القبائل المشهورة من اليمن وهي مذحج وهمدان وكندة قد كانت كلها السيطرة والسيادة على الكوفة، ويقول عبد الملك بن مروان بعد دخوله إلى الكوفة حينما جاءته قبائل مذحج وهمدان:
" ما أرى لاحد مع هؤلاء، شيئا ".
القبائل العدنانية:
أما القبائل العدنانية التي سكنت الكوفة فكان عددها ثمانية آلاف شخص، وهي تتشكل من أسرتين.
١ – تميم
٢ – بنو العصر.
قبائل بني بكر:
وسكنت الكوفة قبائل بني بكر، وهي عدة أسر منها:
١ – بنو أسد

٢ - غطفان
٣ - محارب
٤ - نمير
وهناك مجموعة أخرى من القبائل العربية استوطنت الكوفة، وهي كنانة، وجديلة، وضبيعة وعبد القيس، وتغلب وأياد وطي وثقيف وعامر ومزينة (١) ويرى ما سنيون انه إلى جانب القرشيين الذين سكنوا الكوفة عناصر شديدة البداوة من سكان الخيام وبيوت الشعر، وأصحاب الإبل من بني دارم التميمي وجيرانهم اليمنيين القدماء من طئ، وعناصر نصف رحالة من ربيعة، وأسد من الغرب والشمال الغربي، وبكر من الشرق والجنوب الشرقي وعبد القيس الذين جاءوا من هجر من الجنوب الشرقي ثم عناصر متحضرة من القبائل الجنوبية الأصيلة من العربية الذين نزحوا من اليمن وحضر موت، وهؤلاء كانوا قسمين: عناصر نصف متحضرة من كندة وبجبلة وعناصر متحضرة تماما من سكان المدن والقرى اليمنية من مذحج وحمير وهمدان (٢).
ان العنصر العربي الذي استوطن الكوفة منذ تأسيسها كان مزيجا من اليمانية والنزارية وغيرها ولكن اليمانية كانت أكثر عددا كما كان تأثيرها في حياة المجتمع الكوفي أشد من غيرها.
الروح القبلية:
وسادت في قبائل المجتمع العربي في الكوفة الروح القبلية فكانت كل قبيلة

---

(١) الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة (ص ٤٢).
(٢) خطط الكوفة (ص ١٢ - ١٣).

تنزل في حي معين لها لا يشاركها فيها الا حلفاؤها، كما كان لكل قبيلة مسجدها الخاص، ومقبرتها الخاصة، ويرى ماسنيون ان جبانات الكوفة هي إحدى الصفات المميزة لطبوغرافيتها (١) كما سميت شوارعها وسككها بالقبائل التي كانت تقطن فيها (٢) وغدت المدينة صورة تامة للحياة القبلية وبلغ الاحساس بالروح القبلية والتعصب لها إلى درجة عالية، فكانت القبائل تتنافس فيما بينها على احراز النصر كما حدث في واقعة الجمل.

ومن هنا غلب على الحياة فيها طابع الحياة الجاهلية (٣ ٩، ويحدثنا ابن أبي الحديد عن الروح القبلية السائدة في الكوفة بقوله: " ان أهل الكوفة في آخر عهد علي كانوا قبائل فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته فيمر بمنازل قبيلة أخرى، فينادي باسم قبيلته يا للنخع أو يا لكندة، فيتألب عليه فتيان القبيلة التي مر بها فينادون يا لتميم أو يا لربيعة، ويقبلون إلى ذلك الصائح فيضربونه فيمضي إلى قبيلته فيستصرخها فتسل السيوف وتثور الفتنة " (٤).

لقد كانت الروح القبلية هي العنصر البارز في حياة المجتمع الكوفي وقد استغل ابن سمية هذه الظاهرة في القاء القبض على حجر واخماد ثورته فضرب بعض الأسر ببعض، وكذلك استغل هذه الظاهرة ابنه للقضاء على حركة مسلم وهانئ، وعبد الله بن عفيف الأزدي.

---

(١) خطط الكوفة (ص ١٨).
(٢) خطط الكوفة (ص ١٨).
(٣) التطور والتجديد في الشعر الأموي (ص ٨٠ - ٨١).
(٤) شرح النهج ٣ / ٢٣٩.

الفرس:
وإلى جانب العنصر العربي الذي استوطن الكوفة كان العنصر الفارسي، وكانوا يسمون الحمراء (١) وقد سلوا عن أمنع القبائل العربية فقيل لهم تميم فتحالفوا معهم (٢) وأكبر موجة فارسية استوطنت الكوفة عقيب تأسيسها هي المجموعة الضخمة من بقايا فلول الجيوش الساسانية التي انضمت إلى الجيش العربي، وأخذت تقاتل معه، وقد عرفت في التاريخ باسم " حمراء ديلم " فكان عددهم - فيما يقول المؤرخون - أربعة آلاف جندي يرأسهم رجل يسمى (ديلم) قاتلوا معه تحت قيادة رستم في القادسية فلما انهزمت الفرس، وقتل رستم عقدوا أمانا مع سعد بن أبي وقاص، وشرطوا عليه أن ينزلوا حيث شاؤوا، ويحالفوا من أحبوا وان يفرض لهم العطاء، وقد حالفوا زهرة بن حوية التميمي أحد قادة الفتح، وفرض لهم سعد في الف الف، وأسلموا وشهدوا فتح المدائن معه كما شهدوا فتح جلولاء، ثم تحولوا فنزلوا الكوفة (٣).
وقد كونت هذه الجالية مجموعة كبيرة في المجتمع الكوفي، ويذكر فلهوزن انهم كانوا أكثر من نصف سكان الكوفة، وقد أخذ عددهم بازدياد حتى تضاءلت نسبة العرب في الكوفة، وتغلبوا في عصر المأمون حتى كانت اللغة الفارسية تحتل الصدارة في ذلك العصر (٤) ويقول الجاحظ:

---

(١) الاخبار الطوال (ص ٢٩٦).
(٢) تاريخ الطبري.
(٣) فتوح البلدان (ص ٢٨٠) خطط الكوفة (ص ١١).
(٤) فك العربية (ص ٨٣ - ٨٤)

ان اللغة الفارسيات أثرت تأثيرا كبيرا في لغة الكوفة (١).
وعلى أي حال فان الفرس كانوا يشكلون عنصرا مهما في الكوفة وكونوا بها جالية متميزة فكان أهل الكوفة يقولون: " جئت من حمراء ديلم " (٢) ويقول البلاذري: ان زيادا سير بعضهم إلى الشام، وسير قوما منهم إلى البصرة (٣) وقد شاركت هذه الجالية في كثير من الفتوحات الاسلامية، كما شكلت المد العالي للإطاحة بالحكم الأموي.

الأنباط:

وكانت الأنباط من العناصر التي سكنت الكوفة، وقد أثروا في الحياة العامة تأثيرا عقليا واجتماعيا، ويقول المؤرخون: إن الأنباط ليسوا عنصرا خاصا من البشر وانما هم من العرب وكانوا يستخدمون اللغة الدارمية في كتابتهم، وكانوا يستوطنون بلاد العرب الصخرية وقد انتقلوا منها إلى العراق، واشتغلوا بالزراعة، وكانوا ينطقون بلغتهم الدارمية (٤).
وقد أثروا تأثيرا بالغا في حياة الكوفة يقول أبو عمرو بن العلاء لأهل الكوفة: " لكم حذلقة النبط، وصلفهم، ولنا زهاء الفرس وأحلامهم " (٥) ويروي الطبري أن رجلا من بني عبس أسر رجلا من أهل نهاوند اسمه دينار، وكان يواصل العبسي ويهدي إليه، وقد قدم

---

(١) البيان والتبيين ١ / ١٩ - ٢٠.
(٢) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري (ص ٥٥).
(٣) فتوح البلدان (ص ٢٧٩)
(٤) الحضارة الاسلامية (ص ٩٧).
(٥) البيان والتبيين ٢ / ١٠٦.

الكوفة في أيام معاوية فقام في الناس وقال لهم: " يا معشر أهل الكوفة أنتم أول من مررتم بنا كنتم خيار الناس، فعمرتم بذلك زمان عمر عثمان ثم تغيرتم، وفشت فيكم خصال أربع: بخل، وخب، وغدر، وضيق ولم يكن فيكم واحدة منهن فرافقتكم فإذا ذلك في مواليدكم، فعلمت من أين أتيتم " (١).

ويرى (دي بود) ان التغير الاجتماعي وتبدل الأخلاق في الكوفة قد نشاء في وقت مبكر أيام معاوية بن أبي سفيان (٢) ومن الطبيعي ان للأنباط ضلعا كبيرا في هذا التغيير.

السريانية:

والعنصر الرابع الذي شارك في تكوين الكوفة هي السريانية، فقد كانت منتشرة في العراق قبل الفتح الاسلامي، وكان الكثيرون منهم مقيمين على حوض دجلة، وبعضهم كان مقيما في الحيرة والكوفة وقد ارتبطوا باهل الكوفة وتأثروا بعاداتهم وأخلاقهم فان الحياة الاجتماعية - كما يقول علماء الاجتماع - حياة تأثير وتأثر فكل انسان يتأثر ويؤثر فيمن حوله. هذه هي العناصر التي شاركت في استيطان الكوفة وبناء مجتمعا فهي لم تكن عربية خالصة وانما امتزجت بها هذه العناصر، وقد نشأت بينها المصاهرة، فنشأ جيل مختلط من هذه العناصر ولكن التغلب الجنسي كان للعرب باعتبارهم الأكثرية الساحقة في القطر، فقد أصبحت التقاليد

---

(١) تاريخ الطبري.

(٢) تاريخ الفلسفة في الاسلام (ص ١٥ - ١٨).

الدينية والعادات الاجتماعية خاضعة للعرب، كما كانت لهم الكلمة العليا في البلاد.. وبهذا ينتهي بنا الحديث عن عناصر السكان في الكوفة.

الأديان:

ولم يكن المجتمع الكوفي يدين بدين واحد، وانما كانت فيه أديان متعددة، ولك دين الحرية في إقامة طقوسه الدينية، وهذه بعضها:

١ - الاسلام

وكان الاسلام دين الأكثرية الساحقة للعرب الذين استوطنوا الكوفة فإنها انما أنشأت لتكون حامية للجنود الاسلامية التي كانت تبعث بهم الدولة لحركات الفتوح، وعمليات الجهاد، ولكن الاسلام لم ينفذ إلى أعماق قلوب الكثيرين منهم، وانما جرى على ألسنتهم طمعا بثمرات الفتوح التي أفاء الله بها على المجاهدين، وقد أكد علم الاجتماع ان التحول الاجتماعي لا يكون إلا بعد أجيال وأجيال، وان المجتمع يظل محافظا على عاداته وتقاليده التي اكتسبها من آبائه، ويؤيد ذلك ما مني به من الحركات الفكرية التي تتنافى مع الاسلام، وإلى الانقسامات الخطيرة بين صفوفه، ونلمع إلى بعض تلك الانقسامات:

الخوارج:

واعتنق هذه الفكرة القراء وأصحاب الجباه السود حينما رفعت المصاحف في صفين، وقد أرغموا الامام على قبول التحكيم بعد ما مني

معاوية بالهزيمة الساحقة، فاستجاب لهم الامام على كره، وقد حذرهم من أنها مكيدة وخديعة فلم يكن يجدي ذلك معهم، وأصروا على فكرتهم ولما استبان لهم ضلال ما اقترفوه أقبلوا على الامام وهو يقولون له: إنا قد كفرنا وتبنا، فأعلن توبتك وقر على نفسك بالكفر، لنكون معك فأبى (ع) فاعتزلوه، واتخذوا لهم شعارا " لا حكم الا لله " وانغمسوا في الباطل وماجوا في الضلال، فحاربهم الامام وقضى على الكثيرين منهم إلا أن البقية الباقية منهم ظلت تواصل نشر أفكارها بنشاط، وقد لعبت دورا مهما في افساد جيش الإمام الحسن حتى اضطر إلى الصلح مع معاوية، كما كان أكثر الجيش الذي زجه ابن زياد لحرب الإمام الحسين من الخوارج وكانوا موتورين من الامام أمير المؤمنين (ع) فرووا أحقادهم من أبنائه الطيبين في كارثة كربلا.

الحزب الأموي:

وهؤلاء يمثلون وجوه الكوفة وزعماءها كقيس بن الأشعث، وعمرو ابن الحجاج الزبيدي، ويزيد بن الحرث، وشبث بن ربعي، وعمرو بن حريث وعمر بن سعد، وكانوا يدينون بالولاء لبني أمية، ويرون أنهم أحق بالخلافة وأولى بزعامة الأمة من آل البيت (ع) وقد لعبوا دورا خطيرا في فشل ثورة مسلم، كما زجوا الناس لحرب الإمام الحسين.

الشيعة:
وهي التي تدين بالولاء لأهل البيت، وترى أنه فرض ديني، وقد أخلصت شيعة الكوفة في الولاء لهم، اما مظاهر حبهم فهي:
١ – الخطب الحماسية التي يمجدون فيها أهل البيت، ويذكرون فضلهم ومآثرهم، وما شاهدوه من صنوف العدل والحق في ظل حكومة الامام أمير المؤمنين.
٢ – الدموع السخية التي يهريقونها حينما يذكرون آلام آل البيت عليه السلام وما عانوه في عهد معاوية من التوهين والتنكيل، ولكنهم لم يبذلوا أي تضحية تذكر لعقيدتهم فقد كان تشيعهم عاطفيا لا عقائديا وقد تخلوا عن مسلم وتركوه فريسة بيد الطاغية ابن مرجانة، ويروي البلاذري أنهم كانوا في كربلاء، وهم ينظرون إلى ريحانة رسول الله (ص) وقد تناهب جسمه الشريف السيوف والرماح فكانوا يبكون، ويدعون الله قائلين: " اللهم انزل نصرك على ابن بنت نبيك " فانبرى إليهم أحدهم فأنكر عليهم ذلك الدعاء وقال لهم: هلا تهبون إلى نصرته بدل هذا الدعاء وقد جردهم الإمام الحسين (ع) من إطار التشيع وصاح بهم يا شيعة آل أبي سفيان.
والحق أن الشيعة بالمعنى الصحيح لم تكن الا فئة نادرة في ذلك العصر وقد التحق بعضهم بالامام الحسين واستشهدوا معه، كما زج الكثيرون منهم في ظلمات السجون.
وعلى أي حال فلم يكن المسلمون في الكوفة على رأي واحد وانما كانت هناك انقسامات خطيرة بين صفوفهم.

النصارى:
من العناصر التي سكنت الكوفة النصارى، فقد أقبلوا إليها من الحيرة بعد زوال مجدها وقد أقاموا لهم في الكوفة عدة كنائس، فقد كانت لهم كنيسة في ظهر قبلة المسجد الأعظم (١) وكان لهم أسقفان أحدهما نسطوري، والاخر يعقوبي (٢) وكانوا طائفتين!!

١ - نصارى تغلب

وقد استوطنوا الكوفة عند تخطيطها مع سعد، وكانت لهذه الطائفة عزة ومنعة (٣) وقد رفض أبناؤها دفع الجزية مما اضطر عمر أن يعاملهم معاملة المسلمين فجعل جزيتهم مثل الصدقة المسلمين (٤).

٢ - نصارى نجران

نزلوا الكوفة في خلافة عمر، واستوطنوا في ناحية منها سميت محلة (النجرانية) (٥).

وقد شاركت النصارى مشاركة ايجابية في كثير من أعمال الدولة فقد اتخذ أبو موسى الأشعري أمير الكوفة كاتبا نصرانيا (٦) كما ولى الوليد ابن عقبة والي عثمان رجلا مسيحيا لإدارة شؤون مسجد قريب من الكوفة (٧).

---

(١) فتوح البلدان (ص ٢٨٤).
(٢) خطط الكوفة (ص ٣٥).
(٣) تاريخ الطبري.
(٤) تاريخ الطبري.
(٥) حياة الشعر في الكوفة (ص ١٤٤)
(٦) عيون الاخبار ١ / ٤٣.
(٧) الأغاني ٤ / ١٨٤.

وقد شغل المسيحيون في الكوفة أعمال الصيرفة، وكونوا أسواقا لها (١) وكانت الحركة المصرفية بأيديهم، كما كانوا يقومون بعقد القروض لتسهيل التجارة، وكانت تجارة التبادل والصيرفة بأيديهم (٢)، وقد مهروا في الصيرفة، ونظموها على شكل يشبه البنوك في هذا العصر.

وكانت هذه البنوك الأهلية تستقرض منها الحكومة المحلية الأموال إذا حدثت ثورة في القطر، فكانت الأموال توزع على أعضاء الثورة لاخمادها وقد استقرض منها ابن زياد الأموال فوزعها على وجوه الكوفة وأشرافها للقضاء على ثورة مسلم.

وعلى أي حال فان المجتمع الكوفي كان مزيجا بين المسلمين والمسيحيين وكانت العلاقة بينهما وثيقة للغاية.

اليهود:

واستوطن اليهود الكوفة سنة (٢٠ ه) (٣) وقد قدم قسم كبير منهم من الحجاز بعد أن أجلاهم منه عمر بن الخطاب (٤) وقد كانت لهم محلة تعرف باسمهم في الكوفة كما بنوا فيها معابد لهم، ويذكر الرحالة بنيامين

---

(١) تاريخ الكوفة (١٤٦) يبدأ سوق البنوك والصيرفة من مسجد سهيل إلى المسجد الأعظم، كما نصت على ذلك بعض المصادر.

(٢) خطط الكوفة (ص ١٤٦).

(٣) نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق (ص ١٠٣) ليوسف رزق الله غنيمة.

(٤) الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة (ص ١٠٥).

ان بالكوفة سبعة آلاف يهودي، وفيها قبر يسكنه اليهود وحوله كنيس لهم (١) وقد زاولوا بعض الحرف التي كان العرب يأنفون منها كالصياغة وغيرها.. وكانت اليهود تحقد على الرسول (ص) كأعظم ما يكون الحقد لأنه أباد الكثيرين منهم والحق بهم العار والهزيمة، وقد قاموا بدور فعال - فيما يقول بعض المحققين - في مجزرة كربلا تشفيا من النبي (ص) بأبنائه وذريته... وبهذا ينتهي بنا الحديث عن بعض الأديان السائدة في الكوفة، وقد اشتراك معظمها في حركات الجهاد وعمليات الحروب في ذلك العصر.

تنظيم الجيش:

وأنشأت الكوفة لتكون معسكرا للجيوش الاسلامية، وقد نظم الجيش فيها على أساس قبلي كما كانوا مرتبين وفق قبائلهم، وكانوا يقسمون في معسكراتهم باعتبار القبائل والبطون التي ينتمون إليها وقد رتبت كما يلي:

نظام الأسباع:

ووزع الجيش توزيعا سباعيا يقوم قبل كل شئ على أساس قبلي بالرغم من أنهم كانوا يقاتلون في سبيل الله الا ان الروح القبلية كانت سائدة ولم تضعف، وفيما يلي أنظمتها:

السبع الأول، كنانة وحلفاؤها من الأحابيش وغيرهم، وجديلة

وكانوا أعوانا طيعين للولاة القرشيين منذ امارة سعد، وتولوا باخلاص

---

(١) رحلة بنيامين ترجمة عزار حداد (ص ١٤٦).

عمال بني أمية وولاتهم.
السبع الثاني: قضاعة، وغسان، وبجيلة، وخثعم، وكندة وحضر موت، والأزد.
السبع الثالث: مذحج وحمير وهمدان وحلفاؤهم، وقد اتسموا بالعداء لبني أمية والمساندة الكاملة للإمام علي وأبنائه.
السبع الرابع: تميم وسائر الرباب وحلفاؤهم
السبع الخامس: أسد وغطفان ومحارب وضبيعة وتغلب والنمر
السبع السادس: أياد وعك وعبد القيس وأهل هجر والحمراء
السبع السابع: طي (١)
وتحتوي هذه الأسباع على قطعات قبلية من الجيش، وقد استعمل هذا النظام لأجل التعبئة العامة للحروب التي جرت في ذلك العصر، وتوزيع الغنائم عليها بعد العودة من الحرب وظلت الكوفة على هذا التقسيم حتى إذا كانت سنة (٥٠ ه) عمد زياد بن أبيه حاكم العراق فغير ذلك المنهج وجعله رباعيا، فكان على النحو التالي:
١ - أهل المدينة، وجعل عليهم عمرو بن حريث.
٢ - تميم وهمدان، وعليهم خالد بن عرفطة
٣ - ربيعة بكر وكندة، وعليهم قيس بن الوليد بن عبد شمس
٤ - مذحج وأسد (٢) وعليهم أبو بردة بن أبي موسى
وانما عمد إلى هذا التغيير لاخضاع الكوفة لنظام حكمه، كما أن الذين انتخبهم لرئاسة الأنظمة قد عرفوا بالولاء والاخلاص للدولة، وقد استعان بهم ابن زياد لقمع ثورة مسلم، كما تولى بعضهم قيادة الفرق التي

---

(١) حياة الشعر في الكوفة (ص ٢٩ - ٣٠)
(٢) خطط الكوفة (ص ١٥ - ١٦).

زجها الطاغية لحرب الإمام الحسين، فقد كان عمرو بن حريث وخالد بن عرفطة من قادة ذلك الجيش.

أما رؤساء الأنظمة فقد كانت الدولة لا تنتخب الا من ذوي المكانة الاجتماعية المعروفين بالنجدة والبسالة والتجربة في الحرب (١) ورؤساء الأرباع يكونون خاضعين للسلطة الحكومية، كما أن اتصال السلطة بالشعب يكون عن طريقهم، ونظرا لأهميتهم البالغة في المصر فقد كتب إليهم الإمام الحسين يدعوهم إلى نصرته والذب عنه (٢).

العرافة:

وكانت الدولة تعتمد على العرفاء (٣) فكانوا يقومون بأمور القبائل ويوزعون عليهم العطاء كما كانوا يقومون بتنظيم السجلات العامة التي فيها أسماء الرجال والنساء والأطفال، وتسجيل من يولد ليفرض له العطاء من الدولة، وحذف العطاء لمن يموت (٤) كما كانوا مسؤولين عن شؤون الامن والنظام، وكانوا في أيام الحرب يندبون الناس للقتال ويحثونهم على

---

(١) الطبري ٧ / ٢٠٧.

(٢) أنساب الأشراف ٥ / ٢٤٥

(٣) العرفاء: - جمع مفردة عريف - وهو من يعرف أصحابه، ومنه الحديث " فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم امركم، والعريف هو القائم بأمور القبيلة والجماعة من الناس يلي أمورهم، ويتعرف الأمير منه أحوالهم جاء ذلك في تاج العروس ١ / ١٩٤.

(٤) الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة (ص ٥٣).

الحرب، ويخبرون السلطة بأسماء الذين يتخلفون عن القتال (١) وإذا قصر العرفاء أو أهملوا واجباتهم فان الحكومة تعاقبهم أقسى العقوبات وأشدها (٢).

ومن أهم الأسباب في تفرق الناس عن مسلم هو قيام العرفاء في تخذيل الناس عن الثورة وإشاعة الارهاب والأراجيف بين الناس (٣) كما كانوا السبب الفعال في زج الناس واخراجهم لحرب الإمام الحسين.

إلى هنا ينتهي بنا الحديث عن مظاهر الحياة الاجتماعية في الكوفة، وكان الالمام بها من ضرورات البحث وذلك لما لها من الأثر في اخفاق الثورة.

الطاغية ابن مرجانة:

ولا بد لنا أن نتعرف على قائد الانقلاب الطاغية ابن مرجانة فنقف على نشأته وصفاته ومخططاته الرهيبة التي أدت إلى القضاء على الثورة، وإلى القراء ذلك.

ولادته:

ولد الطاغية سنة " ٣٩ ه " وقد ولد لخلق الكوارث وإشاعة الخطوب في الأرض، وعلى هذا فيكون عمره يوم قتله لريحانة رسول الله (ص) " ٢١ سنة " ولم تعين المصادر التي بأيدينا المكان الذي ولد فيه.

---

(١) الطبري ٧ / ٢٢٦

(٢) الأغاني ٢ / ١٧٩.

(٣) البداية والنهاية ٨ / ١٥٤.

(٤) البداية والنهاية ٨ / ٢٨٤.

أبواه:
أما أبوه فهو زياد بن سمية، وهو من عناصر الشر والفساد في الأرض فقد سمل عيون الناس وصلبهم على جذوع النخل، وقتل على الظنة والتهمة وأخذ البرئ بذنب السقيم، وأغرق العراق بالحزن والثكل والحداد.
وأما أمه مرجانة فكانت مجوسية (١) وقد عرفت بالبغي، وقد عرض بها عبيد الله التميمي أمام ابنها عبيد الله فقال: ان عمر بن الخطاب كان يقول: اللهم إني أعوذ بك من الزانيات وأبناء الزانيات، فالتاع ابن زياد ورد عليه: إن عمر كان يقول: لم يقم جنين في بطن حمقاء تسعة أشهر الا خرج مائقا (٢) وفارق زياد مرجانة فتزوج بها شيرويه (٣).
نشأته:
نشأ الطاغية في بيت الجريمة، وقد قطع دور طفولته في بيت زوج أمه شيرويه، ولم يكن مسلما ولما ترعرع أخذه أبوه زياد، وقد رباه على سفك الدماء والبطش بالناس، ورباه على الغدر والمكر، وقد ورث جميع صفات أبيه الشريرة من الظلم والتلذذ بالإسائة إلى الناس، وقد كان لا يقل قسوة عن أبيه، وقد قال الطاغية في بعض خطبه:
" أنا ابن زياد أشبهته من بين من وطأ الحصى، ولم ينتزعني شبه

---

(١) البداية والنهاية ٨ / ٢٨٤
(٢) البيان والتبيين ٢ / ٢٤٢.
(٣) البيان والتبيين ١ / ٧٢

خال ولا ابن عم " (١) لقد كان كأبيه في شدته وصرامته في الباطل وتنكره للحق.

صفاته:

أما صفاته النفسية فكان من أبرزها القسوة والتلذذ بسفك الدماء، وقد أخذ امرأة من الخوارج فقطع يديها ورجليها، وأمر بعرضها في السوق (٢) ووصفه الحسن البصري بأنه غلام سفيه سفك الدماء سفكا شديدا (٣) ويقول فيه مسلم بن عقيل: " ويقتل النفس التي حرم الله قتلها على الغضب والعداوة، وسوء الظن وهو يلهو ويلعب كأنه لم يصنع شيئا ".

وكان متكبرا لا يسمع من أحد نصيحة، وقد دخل عليه الصحابي عائذ بن عمرو فقال له:

" أي بني اني سمعت رسول الله (ص) يقول: ان شر الرعاء الحطمة (٤) فإياك أن تكون منهم ".

فلذعه قوله وصاح به

" اجلس انما أنت من نخالة أصحاب رسول الله (ص). "

فأنكر عليه عائذ وقال: " وهل كان فيهم نخالة؟ انما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم " (٥).

---

(١) تاريخ الطبري

(٢) قصص العرب ١ / ٢١٤.

(٣) سير أعلام النبلاء ٣ / ٣٥٧

(٤) الحطمة: القاسي الذي يظلم الناس

(٥) البداية والنهاية ٨ / ٢٨٥

وعرف في أثناء ولايته على البصرة بالغش للرعية والخديعة لها، وقد نصحه معقل بن يسار أن يترك ذلك وقال له: اني سمعت رسول الله (ص) يقول: ما من عبد يسترعيه الله ويموت وهو غاش لرعيته الا حرم الله عليه الجنة (١) هذه بعض نزعاته وصفاته النفسية اما صفاته الجسمية فقد كان منها ما يلي:

اللكنة:

ونشأ الطاغية في بيت أمه مرجانة، ولم تكن عربية فاخذ لكنتها، ولم يكن يفهم اللغة العربية، فقد قال لجماعة، " افتحوا سيوفكم " وهو يريد سلوا سيوفكم، وإلى هذا يشير يزيد بن المفرغ في هجائه له:

ويوم فتحت سيفك من بعيد * أضعت وكل أمرك للضياع

وجرت بينه وبين سويد مشادة فقال له عبيد الله:

" اجلس على است الأرض "

فسخر منه سويد وقال:

" ما كنت أحسب أن للأرض استا " (٢)

وكان لا ينطق بالحاء وقد قال لهانئ: اهروري سائر اليوم " يريد احروري، وكان يقلب العين همزة كما كان يقلب القاف كافا، فقد قال يوما: " من كاتلنا كاتلناه " يريد من قاتلنا قاتلناه (٣).

---

(١) صحيح مسلم ١ / ٦٧

(٢) البيان والتبيين ١ / ٧٣

(٣) البداية والنهاية ٨ / ٢٨٤

نهمه في الطعام:
ويقول المؤرخون: انه كان نهما في الطعام فكان كل يوم يأكل خمس أكلات آخرها جنبة بغل ويوضع بين يديه بعد ما يفرغ عناق (١) أو جدي فيأتي عليه وحده (٢) وكذلك كان مسرفا في النساء فقد بنى ليلة قدومه إلى الكوفة بأم نافع بنت عمارة بن عقبة بن أبي معيط (٣) هذه بعض صفاته الجسمية.

ولايته على البصرة:
واسند إليه معاوية امارة البصرة وولاه أمور المسلمين، وكان في ميعة الشباب وغروره وطيشه، وقد ساس البصرة كما ساسها أبوه فكان يقتل على الظنة والتهمة، ويأخذ البرئ بالسقيم والمقبل بالمدبر، وقد وثق به معاوية وارتضى سيرته، وكتب إليه بولاية الكوفة إلا أنه هلك قبل إن يبعث إليه بهذا العهد.

---

(١) العناق: الأنثى من أولاد المعز
(٢) نهاية الإرب ٣ / ٣٤٣
(٣) مرآة الزمان (ص ٢٨٥)

أحقاد يزيد على ابن مرجانة:
وكان يزيد نقاما على ابن مرجانة، كاشد ما يكون الانتقام لأمور كان من أهمها أن أباه زيادا كان من المنكرين على معاوية ولاته ليزيد، لاستهتاره، واقباله على اللهو والمجون، وقد أراد يزيد أن يعزل عبيد الله من البصرة، ويجرده من جميع الامتيازات الا انه لما أعلن الإمام الحسين عليه السلام الثورة وبعث سفيره مسلما لاخذ البيعة من أهل الكوفة أشار عليه سرجون بان يقره على ولاية البصرة ويضم إليه الكوفة، ويندبه للقضاء على الثورة فاستجاب له يزيد، وقد خلص العراق بأسره لحكم ابن زياد قبض عليه بيد من حديد، واندفع كالمسعور للقضاء على الثورة ليحرز بذلك ثقة يزيد به، وينال اخلاص البيت الأموي له.
مخططات الانقلاب:
وبالرغم من حداثة سن ابن زياد فإنه كان من أمهر السياسيين في الانقلابات، وأكثرهم تغلبا على الاحداث وقد استطاع بغدره ومكره أن يسيطر على حامية الكوفة، ويقضى على جذور الثورة ويخمد نارها، وقد كانت أهم مخططاته ما يلي:
١ - التجسس على مسلم والوقوف على جميع شؤون الثورة.
٢ - نشر أوبئة الخوف، وقد أثار جوا من الفزع والارهاب لم تشهد له الكوفة نظيرا، وانشغل الناس بنفوسهم عن التدخل في أي شان من الشؤون السياسية.
٣ - بذل المال للوجوه والأشراف، وقد صاروا عملاء عنده يوجههم

حيثما شاء، وقد أفسدوا عشائرهم وألحقوا الهزيمة بجيش مسلم.
٤ – الاحتيال على هانئ بالقاء القبض عليه، وهو أمنع شخصية في المصر، وقد قضى بذلك على أهم العناصر الفعالة في الثورة.
هذه بعض المخططات الرهيبة التي استطاع أن يسيطر بها الطاغية على الموقف، ويقضي على الثورة ويزج حامية الكوفة إلى حرب ريحانة رسول الله (ص).

مسلم بن عقيل:

أما مسلم بن عقيل فكان من أعلام التقوى في الاسلام، وكان متحرجا في دينه كاشد ما يكون التحرج فلم يسلك أي منعطف في طريقه، ولا يقر أي وسيلة من وسائل المكر والخداع، وان توقف عليها النصر السياسي شانه في ذلك شان عمه أمير المؤمنين (ع) بالإضافة إلى ذلك أنه لم يبعث إلى الكوفة كوال مطلق حتى يتصرف حسبما يراه، وانما كانت مهمته محدودة وهي أخذ البيعة للامام، والاستطاع على حقيقة الكوفيين فان رآهم مجتمعين بعث إلى الإمام الحسين بالقدوم إليهم، ولم يؤمر بغير ذلك، وقد أطلنا الحديث في هذه الجهة في البحوث السابقة.

وبهذا ينتهي بنا الحديث عن اخفاق ثورة مسلم التي كانت فاتحة لفاجعة كربلا، ومصدرا لآلامها العميقة كما ينتهي بنا الحديث عن الحلقة الثانية من هذا الكتاب.